تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

سلسلة ذاكرة الأمة ١

أيام الإسلام

أشهر المواقف الحاسمة فى تاريخ أمة الإسلام

منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردي ، عربي ، فارسي)

إعداد
شريف عبد العزيز الزهيري

دار الصفوة

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (مُنْتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

لتحميل انواع الكتب راجع: (مُنْتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

براي دانلود كتابهاى مختلف مراجعه: (منتدى اقرأ الثقافي)

www. Iqra.ahlamontada.com

منتدى إقراء الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

للكتب (كوردى ,عربي ,فارسي)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٨ هـ/٢٠٠٧ م

رقم الإيداع

٢٠٠٥/١٦٦٧

الترقيم الدولي

977-5959-65-9

دار الصفوة

للنشر والتوزيع

٤٢ ش جزيرة بدران/أول شبرا ت/فاكس ٥٧٧٤٩٢١

E-mail. darelsafwah@yahoo.com

أيام الإسلام

إعداد

شريف عبد العزيز الزهيري

دار الصفوة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا؛ إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

• أما بعد:

فإن دراسة التاريخ الإنساني عموماً ـ والتاريخ الإسلامي خصوصاً ـ من الأمور الهامة، والتي تعظم إليها الحاجة؛ خاصة عندما تكفهر الأجواء،

وتتكاثر السحب، وتنزل الحجب؛ فتضعف الرؤية - وأحيانًا تنعدم - ولا يجد الناس ما يستشرفون به المستقبل، ويقيمون به الحاضر؛ عندها يكون التاريخ هو المعيار الأصوب في قراءة الأحداث؛ خاصة وأن ربنا عز وجل قد ندبنا في غير ما آية للنظر في أحداث التاريخ للاعتبار والانزجار؛ فقال عز من قائل: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى ﴾ [طه: ١٢٨]، وقال جل ذكره: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [غافر: ٢١]، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]؛ فالتاريخ يا عباد الله هو ذاكرة الأمة، والذاكرة للأمة كالذاكرة للفرد تمامًا: بها تعي الأمة ماضيها، وتفسر حاضرها، وتستشرف مستقبلها؛ فالإنسان الذي يفقد ذاكرته يرتد - ولو كان ضخم الجسم - طفلا غراً: لايعي شيئًا من حوله، عاجزاً أن يستبصر أمسه، أو يستشعر يومه، أو يتطلع إلى غده، وهكذا الأمة حين يضيع منها تاريخها، أويزيف في عقول أبنائها بفعل أعدائها، وعندئذ يضيع منها الطريق، وتسلم زمامها لمن يقودها ويوجهها؛ فالتاريخ ليس علم الماضي فقط، بل هو - في واقع الأمر وحقيقته - علم الحاضر والمستقبل؛ فالأمة التي تستطيع البقاء هي التي لها ذاكرة حية في قلوب وعقول أبنائها، ولقد فقدت الأمة الإسلامية الكثير عندما فقدت ذاكرتها في عقول أبنائها.

فقدت العزة والكرامة عندما فقدت الذاكرة.

فقدت الهوية والانتماء عندما فقدت الذاكرة.

فقدت الريادة عندما فقدت الذاكرة.

فقدت الأرض والمقدسات عندما فقدت الذاكرة.

فذاكرة الأمة إذًا هي قوام حياتها، وعدتها في الأزمات والنوازل؛ لذلك عندما نتعرض لذاكرة الأمة الإسلامية وتاريخها يجب أن نعرف عدة حقائق هامة، وهي:

أولاً: التاريخ الإسلامي ليس هو التاريخ السياسي - أو تاريخ السلطة الحاكمة - فقط - وإن كان يتمحور في معظمه حولها - وإنما هو تاريخ الأمة بشكل عام: من الرأس إلى القاعدة، وعطاؤها الحضاري على مختلف الأصعدة، وفي شتى المجالات.

ثانيًا: التاريخ الإسلامي ليس هو تاريخ فترات الانتصار وحدها، ولا فترات الانكسار وحدها؛ فالتركيز على واحد دون الآخر يعطي صورة غير حقيقية، ويؤدي لخلل في الحكم على الأمور ومعايرتها بالماضي وقيمه، وبالتالي غبش في تصور المستقبل.

ثالثًا: التاريخ الإسلامي ليس تاريخ الخلفاء والسلاطين والحكام فقط، بل هو أيضًا تاريخ المجددين والمصلحين، والعلماء العاملين، وكل من أسهم في رقي هذه الأمة خاصة، والإنسانية عمومًا.

رابعًا: تاريخ هذه الأمة إنما هو وعاء لفعلها، وشريط حياتها، وسجل حركتها، وعنوان فهمها للقيم والسنن، ومدى تطبيقها على الواقع؛ لذلك فإن قراءة تاريخ الأمة دون القدرة على دراسته وتقويمه بمصداقية وأمانة وموضوعية في ظل نور الوحيين لا يمنحنا الرؤية الكافية لعوامل النهوض، وأسباب السقوط.

خامسًا: تاريخ هذه الأمة قد تعرض لغارات مكثفة، وحملات متتابعة من العبث والتحريف، وامتدت إليه الأيدي الآثمة بالدس والتغيير والتبديل،

حتى يفقد هذا التاريخ قيمته ومصداقيته، ويصبح متكأً للطعن في رموز الأمة، والنيل من الجيل الفريد، حتى أصبح من العادي جدًا أن تجد بعض الكتّاب الأفاضل، المشهود لهم بالإخلاص والمصداقية ينقلون أخبارًا في ثنايا كتبهم ومقالاتهم تشتمل على القدح والطعن في أعمدة الأمة، وإذا راجت هذه الأخبار المكذوبة على أمثال هؤلاء فكيف بمن هم دونهم؟ فنحن في حاجة ماسة لتصحيح الذاكرة تمامًا كحاجتنا لاستعادتها.

سادسًا: تاريخ هذه الأمة إنما هو تاريخ دينها وانتشاره، والدعوة إليه؛ فتاريخ الأمة ليس تاريخ العرب وحدهم، بل هو تاريخ المناطق والبلاد والأمم التي دخلها الإسلام، وسار فيها وحَكَم، وكانت له فيها دولة، وحتى يعلم من لا يعلم أن الجزء الأكبر من تاريخ هذه الأمة صنعه غير العرب من المسلمين.

وأخيرًا: تاريخ هذه الأمة يوسع أفق المسلم عندما يطلعه على أحوال الأمم، وتاريخ الرجال، وقيام الأمم وانهيارها؛ فيرى المسلم ببصيرته كيف تعمل سنة اللَّه عز وجل في الأمم بلا محاباة، ولا جور، وكيف ترقى الأمم وتهبط، وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم، وكيف تنام الشعوب، ومتى تصحو!!

فذاكرة الأمة - عباد اللَّه - هي ركيزة مشروع النهوض، ووعاء التطبيق للقيم؛ فأمة الإسلام ما ازلت تملك المشروع لنجدة البشرية من حافة الهاوية التي باتت على شفتها، وعليها أن تضطلع بدورها المنوط بها كما كانت من قبل، وذلك كله شريطة استعادة الذاكرة.

وعلى طريق استعادة الذاكرة كان هناك معالم لابد أن نتوقف عندها ونتأملها؛ فهي بمثابة منارات الطريق التي يهتدي بها الحائرون والتائهون، وستكون إن شاء اللَّه على شكل سلسلة بعنوان: «سلسلة ذاكرة الأمة»:

والتي نستهلها بهذا الكتاب الأول، وهو بعنوان: «أيام الإسلام».

وهي عبارة عن تجميع وترتيب لأهم المعارك التي خاضها المسلمون عبر العصور: قديمها، وحديثها في سبيل اللّه، ثم الدفاع عن قضيتهم التي كانت تشغل بالهم ليل نهار: ألا وهي قضية الدين: نشره، والدعوة إليه، والذب عنه، والذي دفعني للبدء بهذا الكتاب عدة أمور هامة منها:

حالة الهزيمة النفسية، والإحباط واليأس الذي أصاب قلوب الكثير من أبناء الأمة المسلمة؛ وذلك بسبب كثرة ما تعرضوا له من هزائم وانكسارات، وتكالب الأعداء عليهم، مما جعل الكثير من المسلمين ينبهرون بالقوة الأجنبية، ومن ثم القيم والتقاليد والعوايد الغربية؛ مما أسقط الكثير منهم في دوامة التقليد الأعمى، والمسايرة البلهاء لكل وافد وجديد؛ طالما جاء من ناحية الغرب.

التشويه المتعمد الذي حدث لمفهوم الجهاد في سبيل اللّه، حتى أصبح مجرد الحديث عنه من لوازم الوصم بالإرهاب والتطرف والمغالاة، حتى استحيى كثير من علمائنا من الحديث عن الجهاد في سبيل اللّه، وقصروه على معنى ضيق: وهو الدفاع عن النفس والوطن! مما أدى بالتالي لإهالة التراب على تاريخ هذه الأمة وفتوحات الأوائل العظام، وكذلك على حروب: أمثال القادسية، واليرموك، ونهاوند؛ لأنها لم تكن للدفاع، إنما للفتح والدعوة.

إن هذه الأيام الخالدة هي بحق ميراث الفخر، وتراث العزة الذي يجب أن نعلمه جيداً، ونعلمه لأبنائنا، ونربيهم عليه؛ ليعلموا أبطالهم، وأجدادهم الحقيقيين، وقدوتهم الصحيحة، ولتصحو أمتنا من غفلتها الطويلة، وتعيد مرة أخرى ذاكرة الانتصارات، وما أعظمها!!

ولقد اعتمدت في طريقة الكتاب على قراءة المصادر والمراجع التي ورد فيها

ذكر المعركة وأبطالها، وهضمها جيداً ـ قدر الاستطاعة ـ ثم وضع ترتيب وتسلسل لأحداثها بقلمي المتواضع بلغة بسيطة وسهلة، مع الحفاظ على الشكل الأصلي والأساس الحركي للمعركة، وذكر الدروس المستفادة من أحداثها؛ لذلك فلقد وضعت في نهاية كل معركة المصادر والمراجع التي استفدت منها في سرد أحداث المعركة، وحسبي في ذلك كُتَّاب كبار في التاريخ الإسلامي: أمثال الأستاذ «محمود شاكر»، والأستاذ «حسين مؤنس» رحمهما اللَّه، وغيرهما.

وفي النهاية فإن هذا الجهد المتواضع، والعمل البسيط ما هو إلا جهد المقل: من يريد أن يسهم في رقي أمته، والدفاع عن تاريخها، والذب عن حياضها، ولو بأقل ما يملك فما كان من خير وفضل فمحض منة من اللَّه عز وجل، وبركة اتباع النبي ﷺ، وما كان فيه من غير ذلك فبما كسبت يداي، وسول لي شيطاني، وأسأل اللَّه العفو والعافية، والإخلاص والقبول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

معركة ذي القصة. قتال مانعي الزكاة

الزمان/ جمادى الآخرة ـ ١١هـ

المكان/ ذي القصة ـ طريق نجد/ المدينة

الموضوع/ الصحابة بقيادة «أبي بكر» يكسرون مانعي الزكاة

الأحداث

• مقدمة:

شقت الدعوة الإسلامية طريقها، وانتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية ـ لاسيما بعد فتح مكة ـ وأخذت وفود القبائل تتتابع على المدينة: تعلن طاعتها ودخولها في الإسلام، حتى لقد عرف العام التاسع الهجري بعام الوفود، وبطبيعة الحال فإن بعض هؤلاء لم تتشرب نفوسهم حب الإسلام، ولم تخالط بشاشته قلوبهم؛ إذ لم تطل صحبتهم لرسول الله ﷺ، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم، بل كان إيمان بعضهم على شفا جرف هار: فمنهم من دخل الإسلام طمعًا في جاه أو مغنم، أو تجنبًا لخوض حربٍ مع المسلمين، أو سترًا لمؤامرته ضد الدين؛ لذلك لم يثبت هؤلاء على الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، وظهرت دخائل قلوبهم، ومكنونات صدورهم، وارتدوا عن الإسلام، ولقد أخذت هذه الردة صوراً وأشكالاً مختلفة كالآتي:

(١) البعض ادعى النبوة : مثل «مسيلمة الكذاب» و«طليحة الأسدي» و«الأسود العنسي».

(٢) البعض اكتفوا بترك الإسلام، ولم ينضموا إلى أحد من المتنبئين؛ وهم سكان البحرين.

(٣) البعض منع الزكاة، وأغلبهم من اليمن واليمامة.

ولكن قد يتسائل البعض فيقول: **ما الأسباب التي أدت لظهور حركة الردة؟**

نستطيع أن نجمل أسباب هذه الردة في أربعة أسباب رئيسة:

أولاً: روح العصبية والجاهلية التي جاء الإسلام للقضاء عليها، ولكن ظلت بعض القبائل العربية تحقد على قبيلة «قريش» سيادتها في الجاهلية ثم في الإسلام، وهذا ما نلمسه من قول «عيينة بن حصن»: إني لمجدد الحلف الذي كان بيننا وبين قبيلة أسد في القديم، ومتابع «طليحة»، والله لئن أتبع نبيًا من الحليفين - يعني «أسد» و«غطفان» - أحب إليّ من أن أتبع نبيًا من «قريش».

ثانيًا: الفهم الخاطئ للزكاة؛ حيث نظر إليها كثير من العرب على أنها جزية وإتاوة يفرضها القوي على الضعيف، في حين نظر البعض الآخر لظاهر الآية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وتأولوها قائلين: لا نعطي الزكاة إلا لمن كانت صلاته سكنًا لنا - يعنون الرسول ﷺ - ونلمسه في قول الشاعر «الحطيئة» عن لسان قومه «مانعي الزكاة»:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكرًا إذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ثالثًا: الصراع بين النفسية الإسلامية والنفسية الجاهلية، وهذا واضح بين

هؤلاء الذين أسلموا متأخراً ولم يدركوا قسطًا من التربية في مدرسة النبوة؛ فغلبتهم غرائزهم وعاداتهم الجاهلية القديمة، ولم يتذوقوا حلاوة الإيمان، وهذا ظاهر من طلب إباحة الزنا والربا من بعض القبائل حديثة الإسلام.

رابعًا: العامل الخارجي: وهو متمثل في القوة الخارجية الموجودة وقتها - «الروم» و«الفرس» - وأتباعهم من القبائل العربية - «الغساسنة» أتباع «الروم»، «المناذرة» أتباع «الفرس» - حيث كانوا يشجعون حركات الردة، ويحرضون الخارجين على الإسلام ليشتغل بهم المسلمون، ويتركوا جهاد تلك القوى الخارجية.

• حال الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ:

بعد وفاة النبي ﷺ تطاولت رءوس الشر، وظهر نجم النفاق، واشرأبت اليهودية والنصرانية، وارتدت معظم القبائل العربية عن الإسلام، ولم يثبت على الإسلام إلا مكة والمدينة والطائف، وأصبح المسلمون وسط بحر متلاطم من أمواج الردة، حتى عصمهم اللَّه عز وجل بـ«الصديق» رضي اللَّه عنه في هذه الفترة العصيبة؛ فقام فيهم مقام النبي ﷺ.

كان النبي ﷺ قد جهز جيشًا لتأديب «الروم» وأعوانهم من «الغساسنة» بقيادة «أسامة بن زيد»، ولما مات النبي ﷺ رأى بعض الصحابة ألا يخرج جيش «أسامة» في تلك الظروف الصعبة حفاظًا على أمن المدينة، ولكن «الصديق» أصر على إنفاذ جيش «أسامة»؛ فلما حاول «عمر بن الخطاب» إقناع «الصديق» بأن يولي رجلاً آخر على قيادة الجيش غضب «الصديق»، وأخذ بلحية «عمر» قائلاً: «ثكلتك أمك يا «ابن الخطاب» استعمله رسول اللَّه ﷺ وأنزعه أنا» وبالفعل خرج الجيش، وكان خروجه خيراً للأمة الإسلامية؛ ذلك أنه كلما مر الجيش على قبيلة قال أهلها: «ما خرج هذا الجيش إلا عن قوة

أكبر في المدينة» ؛ فتثبت القبيلة التي تريد الارتداد ، وأظهر الخليفة «أبو بكر» أن معياره يختلف عن غيره ؛ فمعياره الذي يقيس به الأمور هو الاتباع الكامل لأمر رسول اللَّه ﷺ .

(لعمر اللَّه إنه لهو المعيار الأصلح والأفضل الذي تنصلح به الدنيا والآخرة، والتاريخ خير شاهد على ذلك؛ فمتى كانت الأمة الإسلامية متبعة لأوامر اللَّه ورسوله تقدمت وارتقت، وظهرت على من خالفها، ومتى تركت تلك الأوامر تخلفت وصارت في ذيل الركب: يطؤها الجميع، ولا يُحسب لها وزن ولا قيمة).

• قتال مانعي الزكاة:

لما وقعت حركة الردة اتفق الصحابة على جهاد المرتدين ، واختلفوا في مانعي الزكاة ، وسبب الخلاف أنهم يقولون : «لا إله إلا اللَّه» فكيف يقاتلونهم ، ودار حوار بين «عمر بن الخطاب» وبين الخليفة «أبي بكر» حول تلك النقطة ؛ ظهر فيه مدى فقه «الصديق» ، وأيضًا مدى حرصه على صيانة الدين الإسلامي ، ومازال «عمر» يراجع «أبا بكر» حتى علم أن «أبا بكر» على حق ، ويومها قال «أبو بكر» كلمات تكتب بماء الذهب ؛ وهي : «واللَّه لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول اللَّه ﷺ لقاتلتهم عليه ، يابن الخطاب أينقص الدين وأنا حي» .

(هذا الشعور ينبغي أن يكون شعور كل مسلم تجاه دينه، بل يخاطب نفسه به ليل نهار: في بيته، وفي طريقه، وفي عمله، وفي سفره، بالجملة هو شعور وشعار يجعل المسلم لا يصبر على أية إساءة للدين، ولا طعن للرسول ﷺ؛ لذلك فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو قطب الدين الأعظم، الذي لا تنفع معه صلاة و لا صيام ولا صدقة طالما لم يتمعر وجه صاحبهم غضبًا لله، ولم ينتصر لدين اللَّه عز وجل).

استقر الرأي أخيراً على قتال مانعي الزكاة، وشرح الله عز وجل صدورهم لذلك، ولكن «أبا بكر الصديق» لم يرَ المبادأة بالقتال حتى يعود جيش «أسامة» من الشام؛ لأن فيه معظم القوة المسلمة، وشعر المرتدون بذلك؛ فعمل «طليحة الأسدي» - وكان ممن ادعى النبوة - على تأليب مانعي الزكاة على المبادأة بالهجوم على المدينة، وحدث اتحاد بين المرتدين وبين مانعي الزكاة.

تحركت قبائل «عبس» و«ذبيان» و«غطفان» و«فزارة» و«طيئ» للهجوم على المدينة وقسمت نفسها لقسمين:

١) قسم نزل بـ«ذي القصة» على بعد ٣٥ كيلو من المدينة جهة الشرق طريق نجد.

(٢) قسم نزل بـ«الأبرق» من الربذة على بعد ١٢٠ كيلو من المدينة.

وأرسلوا وفوداً من عندهم إلى مدينة رسول الله ﷺ من أجل الاطلاع على عورات المدينة ونقاط ضعفها، متظاهرين بأن لهم طلبات لخليفة رسول الله مثل: أن يضع عنهم فرض الزكاة، وهم يعلمون علم اليقين أن الخليفة سيرفض.

• رجل الساعة:

عادت الوفود وقد اطلعت على عورات المدينة، وعلمت أنها مكشوفة، ليس بها من يدافع عنها، وأدرك «أبو بكر» ذلك بفطنته الفذة؛ فجمع الناس في المسجد، وقال لهم: «إن الأرض كافرة - أي مظلمة - وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تُؤتون أم نهاراً؟ فاستعدوا وأعدوا»، وأصدر قراراً استثنائياً بأن يبيت الرجال في المسجد وهم مسلحون استعداداً للحرب في أية لحظة، ثم دعا «الزبير» و«طلحة» و«علياً» وغيرهم، وجعلهم على مداخل المدينة.

لم تمضِ سوىٰ ثلاث ليالٍ حتىٰ هجم اتحاد المرتدين ومانعي الزكاة علىٰ المدينة؛ فصدهم «علي بن أبي طالب» ومن معه، وهرع المسلمون للقتال يقودهم الخليفة «أبو بكر» بنفسه، وساروا خلف الأعداء حتىٰ منطقة «ذي حسىٰ»، وهناك خرج كمين للأعداء، ومعهم أنحاء الإبل - يعني أمعائها - وقد نفخوها ثم ربطوها؛ فصارت مثل الكرات الكبيرة، ودحرجوها بأرجلهم علىٰ الأرض، ففزعت إبل المسلمين منها وكانت مكيدة جيدة لم تعرفها العرب، إنما أمدهم بها «الفرس»؛ مما يوضح العلاقة بين قوىٰ الكفر الخارجية والداخلية، والمؤامرة الكبرىٰ علىٰ الإسلام.

(وهي مازالت قائمة لوقتنا الحالي؛ فدائمًا نجد علاقة وثيقة بين القوى الصهيونية وبين العلمانيين والملحدين والحاقدين على الدين الإسلامي؛ فما الذي يدفع إنجلترا لأن تأوي الكاتب المرتد «سلمان رشدي»، بل وتعين له حراسة مشددة، وتنفق ملايين الدولارات عليه، وما الذي يدفع جامعة «ليدن» الهولندية لأن تعين بها أمثال «نصر أبو زيد» و«تسليمة نصرين» و«الطاهر بن جلون» وغيرهم ممن لفظتهم مجتمعاتهم الإسلامية لإلحادهم، وطعنهم في الدين).

ظن المرتدون أنهم قد انتصروا علىٰ المسلمين؛ فتجمع القسمان اللذان كانا: بـ«الأبرق» و«ذي القصة» استعداداً للهجوم الشامل علىٰ المدينة، وفي تلك الليلة بات الخليفة «أبو بكر الصديق» يعبئ المسلمين وينظم الصفوف، وقد قرر الهجوم فوراً، ومباغتة الأعداء، وخرج مسرعًا بجيشه الصغير فما طلع الفجر إلا وقد أصبحوا علىٰ صعيد واحد، دون أن يسمع لهم العدو ركزاً، ثم دهم الأعداء، وما شعروا إلا والمسلمون فوق رءوسهم، وقد وضعوا السيف، وأمعنوا فيهم القتل، حتىٰ تفرقت الجيوش وهربت مولية الأدبار.

• الحقد الأعمى:

بعد هذه المكيدة الحربية التي قام بها المسلمون ضد قوات التحالف: المكون من المرتدين ومانعي الزكاة وَثَبَتْ قبائل «عبس» و«ذبيان» على من فيهم من المسلمين فقتلوهم شر قتلة، وحذا حذوهم سائر القبائل العربية المرتدة؛ فلما علم «أبو بكر» بذلك حلف بأغلظ الأيمان ليقتلن من المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، وازداد المسلمون قوة وثباتًا في كل قبيلة، وازداد لهم المشركون انعكاسًا من أمرهم في كل قبيلة.

أسرع «أبو بكر» ومن معه من المسلمين وهاجموا منطقة «الأبرق»، وذلك بعد أن استولوا على «ذي القصة»، وقاتلوا من بها من المرتدين، وكانت منطقة «الأبرق» حمى قبيلة «ذبيان» فأجلاهم «أبو بكر» منها، وجعلها حمى خيل المسلمين والجهاد في سبيل اللَّه، وفرت قبائل «عبس» و«ذبيان» والتحقت بمدعي النبوة «طليحة الأسدي»، وهو الذي غرهم وأغراهم بالمسلمين من قبل.

• يوم بذاخة:

كان لا بد من تأديب هؤلاء المرتدين، وخضد شوكتهم، وإرجاعهم لحظيرة الدين مرة أخرى؛ لذلك فلقد شرع الخليفة «أبو بكر» في عقد ألوية جهاد المرتدين؛ فعقد أحد عشر لواءً للجهاد في سبيل اللَّه تتجه إلى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، وكان أقوى هذه الألوية اللواء الذي كان يقوده البطل الجسور «خالد بن الوليد»، وكان موجهًا لقتال «طليحة الأسدي»، الذي ألب مانعي الزكاة، وانضمت إليه قبائل «عبس» و«ذبيان» و«غطفان» بعد هزيمتهم أمام المسلمين بـ«ذي القصة» و«الأبرق»، وكان «طليحة» ومن معه مجتمعين بمنطقة «بزاخة».

خرج «أبو بكر الصديق» يُشَيِّعُ جيش «خالد بن الوليد»، وقد أظهر أنه

متـجه إلى «خيبـر» ـ من باب الخدعة ـ ثم عكس «خالد» سيره واتجه مباشرة إلى «بزاخة»، وكان معه في جيشه «عدي بن حاتم الطائي»؛ فاستأذن منه أن يدخل على قبيلته «طيئ» ليقنعها بترك نصرة «طليحة» والعودة للدين؛ فأذن له «خالد» في ذلك ثلاثة أيام؛ فما زال «عدي بن حاتم» يدعو قومه حتى استجابوا له، وتركوا نصرة «طليحة»، وخرج من جيش المرتدين ألف فارس، وانضموا إلى جيش «خالد»؛ فكان «عدي بن حاتم» خير مولود على قبيلة «طيئ» وأعظمهم بركة.

(وهذا يوضح مدى أهمية الدعوة لدين الله، وكيف أن عرض الإسلام بصورة صحيحة وسليمة يجعلك تجد من يؤمن ويصدق بها).

أرسل «خالد» سرية استطلاع مكونة من «عكاشة بن محصن» و«ثابت بن أقرم» رضي الله عنهما فقتلا «حبالاً» أخا «طليحة» الذي أسرع وأخوه الآخر «سلمة» واشتبكا مع «عكاشة» و«ثابت» واستشهدا رضي الله عنهما، وشق ذلك على المسلمين لمكانة هذين الصحابيين، واشتعلت حماسة المسلمين، وهجموا على المرتدين، ودارت حرب طاحنة شديدة، وكان «عيينة بن حصن» يقود جيش «طليحة»، بينما «طليحة» متلفف في كسائه يتنبأ لهم، فلما اشتدت الحرب كر «عيينة بن حصن» على «طليحة» وقال له: «هل جاءك جبريل بعد؟» قال: «لا»، فرجع فقاتل والمسلمون قد ركبوا أكتاف المرتدين وأوشكوا على النصر؛ فعاد «عيينة» وقال لـ«طليحة»: «لا أبًا لك أجاءك جبريل بعد؟» قال: «لا» فقال عيينة: «حتى متى وقد والله بلغ منا؟!» ثم عاد فقاتل حتى رأى خيل المسلمين تكاد تحيط به وبأصحابه؛ فرجع إلى «طليحة» فزعًا يكرر: «هل جاءك جبريل بعد؟» قال: «نعم»، قال: «فماذا قال؟» قال: «قال لي: إن لك رحا كرحاه، وحديثًا لن تنساه»، فقال عيينة: «قد علم الله أنه سيكون حديثًا لا تنساه؛ انصرفوا يا بني فزارة فإنه كذاب»، ففر المرتدون في كل مكان، يتقدمهم «طليحة»

الذي أخذ امرأته وفر بها على ظهر جمل أعده من قبل لهذا الغرض.

واستطاع المسلمون أن يكسبوا أهم جولاتهم ضد المرتدين ومانعي الزكاة، وكان لهذا الانتصار أثر طيب للغاية؛ فقد وقف المسلمون وهم قلة يقودهم «أبو بكر» ضد الجموع الغفيرة من قبائل العرب، وبرهنت على قوة المسلمين القادرة على خضد شوكة أي عدو طامع: داخليًا وخارجيًا، وأثبتت أيضًا أن الخليفة «أبا بكر» هو رجل الساعة، وفارس الميدان الذي لا يسبق رضي اللَّه عنه.

تاريخ الرسل والملوك	محاضرات في الأمم الإسلامية	التاريخ الإسلامي
تاريخ الخلفاء	الكامل في التاريخ	الخلفاء الراشدين
فتوح البلدان	البداية والنهاية	
المنتظم	موسوعة التاريخ الإسلامي	

معركة عقرباء ـ حديقة الموت

الزمان/ ذي الحجة ـ ١١هـ

المكان/ عقرباء ـ شرق شبه الجزيرة العربية «اليمامة».

الموضوع/ المسلمون يخوضون أشرس معاركهم ضد المرتدين بقيادة «مسيلمة» الكذاب.

الأحداث

• من مسيلمة الكذاب ؟

اسمه: «هارون بن حبيب الحنفي»، من قبيلة بـ«اليمامة» ولقبه «مسيلمة»، واشتهر باسم «رحمان اليمامة»، وكان قد ادعى النبوة، وتكهن أثناء حياة الرسول ﷺ، وقد وفد «مسيلمة» مع وفد قبيلته «بني حنيفة» في سنة ٩هـ المعروفة بعام الوفود، واختلفت الروايات في «مسيلمة الكذاب»: هل أسلم ثم ارتد، أم لم يسلم أصلاً؟ والظاهر أنه لم يسلم أصلاً؛ حيث صدر منه الاستنكاف والأنفة والطموح إلى الرياسة، وكان عمره وقتها مائة وأربعين سنة، وقد قال للوفد بعد أن رجعوا من عند الرسول ﷺ: «إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته»، وأراد رسول اللَّه ﷺ أن يتألفه لِمَا تفرس فيه من طموح وكبر؛ فجاء خيمة «بني حنيفة» ومعه خطيبه «ثابت بن قيس» وكلم «مسيلمة»؛ فقال له «مسيلمة»: «إن شئت خلينا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك» فقال له رسول اللَّه ﷺ: «لو سألتني هذه القطعة ـ قطعة من جريد ـ ما

أعطيتكها، ولن تعدو أمر اللَّه فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك اللَّه».

فلما رجع «مسيلمة» إلى قومه أتاه شيطان رجيم، وأخذ يرتجز له ويؤزه لإظهار دعوته؛ فادعى النبوة في حياة الرسول ﷺ، وأحل لقومه الخمر والزنا فتبعوه، وهو مع ذلك يعترف للرسول ﷺ بالنبوة، وكتب كتابًا للرسول ﷺ قال فيه: «إني أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر ولـ«قريش» نصف الأمر» فرد عليه الرسول ﷺ بكتاب قال فيه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]

وقد أرسل له الرسول ﷺ رجلاً من عنده اسمه «نهار الرجّال بن عنفوه» ليثبت أهل «اليمامة» ويعلمهم، ويقف أمام «مسيلمة الكذاب»؛ فكان هذا «الرجّال» أعظم فتنة على «بني حنيفة» من «مسيلمة» نفسه؛ حيث قال هذا الضال الخائن: «إن محمداً قد قال إن «مسيلمة» قد أُشرك معه»؛ فصدقوه، واستجابوا له، وعظم خطره جداً، وكان يحب تقليد الرسول ﷺ في أفعاله عملاً بنصيحة الخائن الضال «الرجّال بن عنفوة».

وكانت أفعاله تأتي عكس مراده، وتظهر كذبه وضلاله؛ فقد بلغه أن الرسول ﷺ تفل في بئر ففارت وفاضت بالماء؛ فتفل هو في بئر عنده فغار ماؤها، وأصبح ملحًا أجاجًا، وبلغه أن الرسول ﷺ يمسح بيده على رءوس الأطفال ويحنكهم؛ ففعل نفس الأمر فقرع كل صبي مسح رأسه، ولثغ كل صبي حنكه، وإنما استبان ذلك كله بعد هلاكه.

ولعل الذي قوّى شأن «مسيلمة الكذاب» عدة أمور منها: قوة قبيلته «بني حنيفة» وكثرتها، وفتنة اللعين «الرجّال بن عنفوة»، والعصبية القبلية التي لعب عليها؛ حيث إنه من «ربيعة» التي تكِن عداوة لـ«مضر» التي منها الرسول ﷺ، ويظهر ذلك جليًا في قول «طلحة النمري» عندما سأل «مسيلمة» عن حاله والوحي الذي يأتيه فقال «مسيلمة»: «يأتي في ظلمة» فقال طلحة النمري له:

«أشهد أنك الكاذب وأن محمداً صادقًا، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر»؛ فروح العصبية الجاهلية القبلية مازالت مسيطرة على عقول كثير من القبائل العربية، ولو رجعنا للخلف قليلاً إلى عام ١١ من النبوة، وهو العام الذي بدأ فيه الرسول ﷺ عرض الإسلام على القبائل خارج مكة، ومن القبائل التي عرض عليها الرسول ﷺ الدعوة «بني حنيفة»، وذهب إلى منازلهم؛ فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه منهم، وكل هذه العوامل جعلت دعوة «مسيلمة» قوية وخطيرة جداً.

• الخليفة أبو بكر وحركة الردة:

عندما قامت حركة الردة، واشتعل أوارها في شبه الجزيرة العربية عقد الخليفة «أبو بكر» أحد عشر لواءً لمواجهة حركة الردة في كل مكان، وفي آن واحد، وقد وجه «الصديق» كلا من «عكرمة بن أبي جهل» و«شرحبيل بن حسنة» إلى «بني حنيفة»، وأمرهما ألا يشتبكا معهم حتى يفرغ المسلمون من «طليحة الأسدي»، فتسرع «عكرمة» واشتبك مع «مسيلمة» و«بني حنيفة» فهُزم؛ فعنفه الخليفة «أبو بكر» وقال له: «لا تراني ولا أراك، لا ترجعن فتوهن الناس، امض إلى «حذيفة» و«عرفجة» فقاتل أهل «عمان» و«مهرة»، ثم تسير أنت وجندك تستبرئون الناس حتى تلقى «المهاجر بن أبي أمية» بـ«اليمن» و«حضرموت».

(هذه عاقبة مخالفة الأوامر؛ فإن كل عمل مبني على نظام وترتيب لابد أن ينجح بإذن اللّه، وأي عمل غير منظم فهو إلى الفشل صائر ولابد، كما أن طاعة الأمير في غير معصية من طاعة الرسول ﷺ كما ثبت بذلك الحديث الصحيح، ويتضح لنا أيضًا مدى فقه الخليفة «أبي بكر» الذي منع المنهزمين من العودة حتى لا يوهنوا الناس، ويدخلوا الهزيمة النفسية إلى قلوبهم، ويؤثروا على معنويات المسلمين في هذه الفترة العصيبة، وهم يقاتلون عدوهم في كل موطن، وهو مع ذلك لم يكسر «عكرمة»، بل وجهه وجهة جديدة يفرغ فيها طاقته لنصرة الدين، وهو يعلم أنه سيبذل كل وسعه

لاستدراك خطئه السابق؛ فكم من درس أعطانا إياه «الصديق» رضي الله عنه).

بعد أن رأى الخليفة «أبو بكر» قوة شوكة «مسيلمة الكذاب» قرر أن يرميه بأقوى الألوية الإسلامية؛ وهو اللواء الذي يقوده الأسد الجسور «خالد بن الوليد» رضي الله عنه، وبالفعل تحرك لواء «خالد» إلى «اليمامة»، وصحبه الكثير من الأنصار، وكان يحمل لواء الأنصار «ثابت بن قيس»، ويحمل لواء المهاجرين «أبو حذيفة بن عتبة» و«زيد بن الخطاب».

وصلت الأخبار إلى «بني حنيفة» و«مسيلمة الكذاب»؛ فضرب معسكره عند منطقة «عقرباء»، ودعا الناس للقدوم إليه؛ فتقاطر الناس إليه دفاعًا عن العصبية القبلية، وليس إيمانًا بدعوة الكذاب، وكان ممن خرج من «بني حنيفة» رجل داهية اسمه «مجّاعة بن مرارة» في سرية يطلب ثأرًا لهم من قبيلة «بني عامر»؛ فأسره المسلمون وأصحابه فقتلوهم جميعًا، واستبقوا «مجّاعة» لمكانته في «بني حنيفة»، وخرج «مسيلمة» بالأموال والنساء، وقام في «بني حنيفة» خطيبًا: «يا «بني حنيفة» قاتلوا اليوم فإن اليوم يوم الغيرة؛ فإن انهزمتم تستردف النساء سبيات، وينكحن غير خطيبات؛ فقاتلوا عن أحسابكم، وامنعوا نساءكم»، وهكذا استطاع «مسيلمة» أن يلعب على وتر العصبية وصيانة الأعراض؛ وهي أمور تجعل القتال على أشده، ويجعل الناس يقاتلون حتى الموت، وقد كان.

• معركة عقرباء الرهيبة:

استقر الأمر على القتال وكان جيش «مسيلمة الكذاب» قد بلغ أربعين ألفًا، في حين أن المسلمين لا يتجاوز تعدادهم عشرة آلاف مقاتل، واندلع القتال، وكان أول وقود المعركة دم الخائن الكافر الضال «نهار الرجال بن عنفوة» عندما قتله الصحابي «زيد بن الخطاب»؛ فكان أول قتيل في صفوف الكافرين إلى جهنم وبئس المصير، واشتد القتال بصورة لم يرها المسلمون في بداية المعركة،

حتى وصل «بنو حنيفة» إلى خيمة «خالد بن الوليد» نفسه، وكان مجّاعة أسيراً بها ومعه «أم تميم» زوج «خالد بن الوليد»، وهمّوا أن يقتلوها فمنعهم مجّاعة وأجارها منهم، وشعر المسلمون بالضغط الرهيب فنادى «خالد بن الوليد» في الناس: «امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نؤتى»

(وهذا من ذكاء القائد المسلم الفطن الذي يستطيع تحفيز جنده وقت الأزمات، وإثارة حماستهم وهممهم بطريق مشروع).

وهنا انطلقت بطولات رائعة، وهاكم طائفة من مشاهد المعركة:

كان الصحابي الجليل «ثابت بن قيس» حامل لواء الأنصار قد رأى انهزام المسلمين أمام المرتدين؛ فحفر لنفسه حفرة حتى وسطه، ولبس كفنه وتحنط، ثم قال: «بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللَّهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المرتدين - وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين - ثم قاتل حتى استشهد.

قال زيد بن الخطاب - أخو عمر بن الخطاب -: «لا نحور بعد الرجال، واللَّه لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل، فأكلمه بحجتي، غضوا أبصاركم، وعضوا على أضراسكم أيها الناس، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدمًا» واستمر في القتال حتى استشهد رحمه اللَّه.

قال «أبو حذيفة بن عتبة»: «يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال»، وقاتل حتى استشهد، كما تمنى يوم أن قال للرسول ﷺ كلمة في ساعة غضب يوم غزوة بدر، وغضب منها الرسول فاعتذر منها «أبو حذيفة»، ثم قال: «ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ ولا أزال منها خائفًا، إلا أن تكفرها عني الشهادة» فنالها كما تمناها رحمه اللَّه.

حمل الراية بعده «سالم» مولاه فقال له المسلمون: «نخشى أن نؤتى من قبلك» فقال: «بئس حامل القرآن أنا إذًا»، وتقدم وقاتل رضي اللَّه عنه وأرضاه.

اشتد المسلمون في القتال، ودارت رحاهم على «مسيلمة» ومن حوله، وتذامرت بنو حنيفة، وقاتلت قتالاً رهيبًا دفاعًا عن العصبية، وعلم «خالد بن الوليد» أن الحرب لا تركد إلا بقتل «مسيلمة»، ولم تحفل «بنو حنيفة» بمن قتل منها، وقال «خالد»: «هل من مبارز؟» فقام له العديد من الأبطال فبارزهم وقتلهم جميعًا، ثم دعا «خالد» «مسيلمة» للحوار، وعرض «خالد» على «مسيلمة» عدة أشياء ليوافق على الصلح، والعودة إلى الحق والإسلام، وكان لـ«مسيلمة» شيطانه الذي يستشيره؛ فكلما عرض عليه «خالد» شيئًا لوى «مسيلمة» عنقه ليستشير شيطانه الذي رفض كل العروض، وأثناء الحوار أدرك «خالد» أن وراء «مسيلمة» شيطانًا فلن يقبل أبدًا بأي عرض أو توبة؛ فانقض «خالد» ومن معه على معسكر «مسيلمة»، وشد عليهم في القتال شدة عظيمة جعلت «مسيلمة» يفر هو و«بنو حنيفة»، وكان يقود «بني حنيفة» رجل اسمه «محكم اليمامة»؛ فنادى «محكم اليمامة» في «بني حنيفة» قائلاً: «عليكم بالحديقة، عليكم بالحديقة».

• حديقة الموت:

كانت أرض اليمامة أرضًا زراعية، بها الكثير من البساتين والحدائق والحقول، وكانت بمثابة ريف الحجاز عمومًا، وكان لـ«بني حنيفة» حديقة هائلة، لها أسوار عالية، وأبواب حصينة يلجأون إليها وقت الأزمات؛ فلما دارت عليهم رحى المسلمين في الحرب وطعنتهم، وعضهم القتل فروا جميعًا إلى الحديقة، وهناك دارت فصول معركة أشبه بالأساطير، وأطلق على تلك الحديقة بعدها حديقة الموت؛ لكثرة من قتل بها من «بني حنيفة».

عندما دخلت بنو حنيفة الحديقة أغلقوا على أنفسهم الأبواب، وحار المسلمون ماذا يفعلون؟

وكان في جيش المسلمين رجل من طراز فريد، أشبه ما يكون بالرجل

الخارق الغير عادي، وهو الصحابي الجليل مجاب الدعوة «البراء بن مالك»، وكان من الشجاعة والإقدام بمكان لا يوازيه أحد من الناس وقتها، ولا حتى «خالد» أو «الزبير» أو «عليّ»، ومن شدة شجاعته وإقدامه كان الخليفة يوصي ألا يجعلوه على قيادة الجيش حتى لا يهلكهم من شدة إقدامه، وكان «البراء بن مالك» إذا حضرت الحرب أخذته رعدة، حتى يقعد عليه الرجال، ثم يبول وربما على نفسه؛ فإذا بال ثار كالبركان العاصف والأسد الهادر؛ فلما وصل المسلمون إلى حديقة الموت أخذته تلك الرعدة فلما بال قال للمسلمين: «يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة»، فقالوا: «لا نفعل»، فقال: «واللَّه لتطرحني عليهم»، ولك أيها المسلم أن تتخيل هذا المشهد الفريد من نوعه: الصحابي «البراء بن مالك» محمول على ظهر ترس على أسنة الرماح، حتى يصل إلى سور الحديقة العالي، ثم ينقض كالصاعقة المحرقة من السماء على المرتدين، وهم في الحديقة، وعددهم أكثر من ثلاثين ألفًا، وفي يديه سيفان يضرب بهما يمنة ويسرة كالإعصار، حتى فتح الباب للمسلمين.

(تلك هي البطولة الحقيقية، والأمجاد التي يجب أن نعلمها ونفخر بها، لا بطولات الوهم والخداع السينمائي التي ألهت بها آلة الإعلام الصهيونية شبابنا وبناتنا عن أمجادهم الخالدة).

دخل المسلمون الحديقة، ودارت رحى حرب طاحنة داخلها، واستمات المرتدون في القتال، ولكن أنى لهم أن يقفوا أمام أسد الإسلام التي افترستهم، وأنزلت الهزيمة الساحقة عليهم.

ونأتي للحظة الخالدة التي كفَّر فيها «وحشي» - العبد الحبشي - عن جريمته الشنعاء يوم أن قتل بحربته الشهيرة سيد الشهداء «حمزة بن عبد المطلب»، وقد خرج إلى هذه المعركة وهو يضمر هذه النية، وقد تَحَيَّنَ الفرصة لقتل «مسيلمة

الكذاب» ودخل الحديقة، ورقب موضع «مسيلمة» حتى رآه، وهز حربته كالمعتاد، حتى رضي عنها، وقذفها كالبرق وقد كُتِب على نصلها دم هذا الكذاب اللعين؛ فوقعت في قلب «مسيلمة» وخرجت من ظهره، وفي نفس الوقت كان الصحابي «أبو دجانة» - البطل المشهور، صاحب العصابة الحمراء - قد ضرب رأس «مسيلمة» بالسيف؛ فاشترك الاثنان في قتله، وبقتل «مسيلمة» انهارت قوى «بني حنيفة» وانهزموا، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، وأنزل اللّه نصره على المؤمنين، وكبت المرتدين، وبعدها تابت بنو حنيفة وعادوا للإسلام مرة أخرى بعد هذه المعركة التي كانت أعنف معركة خاضها المسلمون في تاريخهم - حتى سنة ١١هـ وكانت سببًا مباشرًا لجمع القرآن؛ لكثرة من استشهد فيها من حملة القرآن، وقد قتل من المسلمين يومها ألف رجل معظمهم من المهاجرين والأنصار، في حين قتل من المرتدين خمسة عشر ألفًا: أي أن كل مسلم قتل أمامه خمسة عشر مرتدًا ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨].

تاريخ الرسل والملوك	محاضرات في الأمم الإسلامية	التاريخ الإسلامي
تاريخ الخلفاء	الكامل في التاريخ	الخلفاء الراشدين
فتوح البلدان	البداية والنهاية	
المنتظم	موسوعة التاريخ الإسلامي	

معركة ذات السلاسل - القتال حتى الموت

الزمان / ١٨ محرم - ١٢ هـ.

المكان/ مدينة «كاظمة» - العراق.

الموضوع/ الجيوش الإسلامية بقيادة «خالد بن الوليد» تفتح أول بلد في العراق.

الأحداث

• مقدمة:

أمة الإسلام أمة جهادية، جعل اللَّه عز وجل رزقها تحت ظل رمحها، وجعل الصَّغار على من خالفها، وهي أيضًا أمة خاتم الرسل، وهي مكلفة بنشر الإسلام في ربوع المعمورة، وإزالة كل قوى الكفر والشر التي تحول دون سماع دعوة الحق، تلك القوى التي تحارب الدعاة لدين اللَّه عز وجل، وتضع العوائق والحواجز ليبقى الناس في ظلمات الشرك والجهل، وقد أدرك الصحابة رضوان اللَّه عليهم ذلك الأمر تمامًا؛ فانطلقوا في ربوع ما علموه من المعمورة يدعون لدين اللَّه، ويحاربون كل قوى الكفر والشر؛ ليرفعوا راية «لا إله إلا اللَّه»، لا يعبد على الأرض سواه، وهذه واحدة من سلسلة طويلة من الفتوحات الإسلامية التي تجلت فيها عظمة المنهج الإسلامي، ومنزلة الصحابة رضوان اللَّه عليهم، ودورهم في نشر الدين.

• الخليفة أبو بكر وأرض العراق:

بعد أن انتهى الخليفة «أبو بكر» من القضاء على حركة الردة الشريرة التي نجمت بأرض العرب، قرر أن يتفرغ للمهمة الأكبر: وهي نشر دين اللَّه بعد أن مهَّد الجبهة الداخلية، وقضى على هذه الفتنة، وكان «أبو بكر» يفكر في الجبهة المقترحة لبداية الحملات الجهادية عملاً بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وكانت الدولة الإسلامية تقع بين فكي أقوى دولتين في العالم وقتها؛ دولة «الفرس» المجوسية من ناحية الشرق بأرض العراق وإيران، ودولة «الروم» الصليبية من ناحية الشمال بأرض الشام والجزيرة، وكان «أبو بكر» يفضل الجبهة الشامية على الجبهة العراقية، ولكنه فضل البدء بدولة «الفرس» لقوتها وشدة بأسها، وأيضًا لكفرها الأصلي؛ فهي أشد كفراً من دولة «الروم» الذين هم أهل كتاب، وأخيراً استقر رأي الخليفة على البدء بالجبهة العراقية.

بعد أن انتهى القائد الكبير «خالد بن الوليد» والمسلمين معه من حربه على المرتدين من «بني حنيفة» - أتباع «مسيلمة الكذاب» - جاءته الأوامر من الخليفة أبي بكر بالتوجه إلى الأراضي العراقية، مع عدم إكراه أحد من المسلمين على مواصلة السير معه إلى العراق، ومن أحب الرجوع بعد قتال المرتدين فليرجع؛ فانفض كثير من الجند، وعادوا إلى ديارهم، ليس خوفًا ولا فراراً من لقاء «الفرس»، ولكن تعبًا وإرهاقًا من حرب الردة؛ فلم يبق مع «خالد» سوى ألفين من المسلمين.

(وما قام به «أبو بكر» هو عين الصواب والبصيرة الثاقبة؛ فإنه لن ينصر دين اللَّه إلا من كان عنده الدافع الذاتي، والرغبة التامة في ذلك، مع الاستعداد البدني والنفسي

لذلك، فمن تعلق بشواغل الدنيا، أو كان خاطره وقلبه مع بيته وأهله لا يصمد أبداً في القتال، كما أن هذا الجهاد جهاد طلب، وهو فرض كفاية كما قال أهل العلم).

• العبقرية العسكرية:

وضع الخليفة «أبو بكر» خطة عسكرية هجومية؛ تجلت فيها عبقرية «الصديق» الفذة؛ حيث أمر قائده «خالد بن الوليد» أن يهجم على العراق من ناحية الجنوب، وفي نفس الوقت أمر قائداً آخر - لا يقل خبرة عن «خالد بن الوليد» -: وهو «عياض بن غنم الفهري» أن يهجم من ناحية الشمال، في شبه كماشة على العدو، ثم قال لهما: «من وصل منكما أولاً إلى «الحيرة» واحتلها؛ فهو الأمير على كل الجيوش بالعراق؛ فأوجد بذلك نوعًا من التنافس الشريف والمشروع بين القائدين؛ يكون الرابح فيه هو الإسلام.

كانت أول مدينة قصدها «خالد بن الوليد» هي مدينة «الأُبُلَّة»، وكانت ذات أهمية استراتيجية كبيرة؛ حيث إنها ميناء «الفرس» الوحيد على الخليج العربي، ومنها تأتي كل الإمدادات للحاميات الفارسية المنتشرة بالعراق، وكانت هذه المدينة تحت قيادة أمير فارسي كبير الرتبة اسمه «هرمز»، وقد اشتق من اسمه اسم المضيق القائم حاليًا عند الخليج العربي، وكان رجلاً شريراً متكبراً، شديد البغض للإسلام والمسلمين، وللجنس العربي بأسره، وكان العرب بالعراق يكرهونه بشدة، ويضربون به الأمثال فيقولون: «أكفر من «هرمز»، «أخبث من «هرمز»؛ فلما وصل «خالد» بالجيوش الإسلامية هناك، وكان تعداد هذه الجيوش قد بلغ ثمانية عشر ألفًا بعد أن طلب الإمدادات من الخليفة، أرسل برسالة للقائد «هرمز» تبين حقيقة الجهاد الإسلامي، وفيها أصدق وصف لجند الإسلام؛ حيث جاء في الرسالة:

«أما بعد فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة، وأقرر بالجزية،

وإلا فلا تلومن إلا نفسك ؛ فلقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

(وهذا أصدق وصف لجند الإسلام؛ وهو الوصف الذي جعل أعداء الإسلام يهابون المسلمين، وهو النفحة الغالية التي خرجت من قلوب المسلمين، وحل محلها «الوهن» الذي قال عنه رسول الله ﷺ : أنه سبب في تكالب الأمم علينا، وهو كما عرفه الرسول ﷺ : «حب الدنيا وكراهية الموت»).

• حرب الاستنزاف :

«هرمز» يرفض الرسالة الإسلامية التي تدعوه إلى الإسلام أو الجزية، ويختار بيده مصيره المحتوم، ويرسل إلى كسرى يطلب منه الإمدادات، وبالفعل يرسل كسرى إمدادات كبيرة جدًّا، ويجتمع عند «هرمز» جيش جرار عظيم التسليح، ويبني «هرمز» خطته على الهجوم على مدينة «كاظمة» ظنًّا منه أن المسلمين سوف يعسكرون هناك، ولكنه يصطدم أمام العقلية العسكرية الفذة للقائد «خالد بن الوليد».

قام «خالد بن الوليد» بما يعرف في العلوم العسكرية الحديثة بحرب استنزاف، ومناورات مرهقة للجيش الفارسي ؛ فقام «خالد» وجيشه بالتوجه إلى منطقة «الحفير» ، وأقبل «هرمز» إلى «كاظمة» فوجدها خالية وأخبره الجواسيس أن المسلمين قد توجهوا إلى «الحفير» ؛ فتوجه «هرمز» بسرعة كبيرة جداً إلى «الحفير» حتى يسبق المسلمين، وبالفعل وصل هناك قبل المسلمين، وقام بالاستعداد للقتال، وحفر خنادق، وعبأ جيشه، ولكن البطل «خالد» يقرر تغيير مسار جيشه ويكر راجعًا إلى مدينة «الكاظمة»، ويعسكر هناك ويستريح الجند قبل القتال.

تصل الأخبار إلى «هرمز» فيستشيط غضبًا، وتتوتر أعصابه جدًّا، ويتحرك بجيوشه المرهقة المتعبة إلى مدينة «الكاظمة» ليستعد للصدام مع المسلمين، وكان

«الفرس» أدرىٰ بطبيعة الأرض وجغرافية المكان من المسلمين؛ فاستطاع «هرمز» أن يسيطر علىٰ منابع الماء بأن جعل نهر الفرات وراء ظهره؛ حتىٰ يمنع المسلمين منه، وصدق الحق عندما قال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، فقد كان ذلك سببًا لاشتعال حمية المسلمين وحماستهم ضد الكفار، وقال «خالد بن الوليد» كلمته الشهيرة تحفيزًا بها الجند: «ألا انزلوا وحطوا رحالكم؛ فلعمر اللَّه ليصيرن الماء لأصبر الفريقين، وأكرم الجندين».

وقبل أن يصطدم «هرمز» - قائد الجيوش الفارسية - مع جيوش المسلمين أرسل بصورة الوضع إلىٰ كسرىٰ، الذي قام بدوره بإرسال إمدادات كبيرة يقودها «قارن بن قرباس» يكون دورها الحفاظ علىٰ مدينة «الأبلة» في حالة هزيمة «هرمز» أمام المسلمين؛ لأهمية هذه المدينة كما أسلفنا.

• سلاسل الموت:

كان «هرمز» رجلاً متكبرًا أهوجًا، لا يستمع إلا لصوت نفسه فقط؛ حيث رفض الاستماع لنصائح قواده، وأصر علىٰ أن يربط الجنود «الفرس» أنفسهم بالسلاسل؛ حتىٰ لا يفروا من أرض المعركة، كناية عن القتال حتىٰ الموت؛ لذلك فقد سميت المعركة بذات السلاسل.

(والمسلمون أولى بهذا الصبر والثبات لأنهم على الحق والدين، وعدوهم على الباطل والكفر، وشتان بين الفريقين).

كان أول وقود المعركة - وكما هو معتاد وقتها أيام الحروب أن يخرج القواد للمبارزة - كان أول الوقود عندما خرج القائد الفارسي «هرمز» لمبارزة القائد المسلم «خالد بن الوليد»، وكان «هرمز» كما أسلفنا شديد الكفر والخيانة؛ فاتفق مع مجموعة من فرسانه علىٰ أن يهجموا علىٰ «خالد» ويفتكوا به أثناء المبارزة، وبالفعل خرج المسلم للقاء الكافر، وبدأت المبارزة، ولم يُعهد أو

يُعلم عن «خالد بن الوليد» أنه قد هزم قط في مبارزة طوال حياته قبل الإسلام وبعده، وقبل أن تقوم مجموعة الغدر بجريمتهم الشريرة فطن أحد أبطال المسلمين الكبار لذلك، وهو البطل المغوار «القعقاع بن عمرو»، صنو «خالد» في البطولة والشجاعة؛ فخرج من بين الصفوف مسرعًا، وانقض كالأسد الضاري على مجموعة الغدر فقتلهم جميعًا، وفي نفس الوقت أجهز «خالد بن الوليد» على الخائن «هرمز» وذبحه كالنعاج، وكان لذلك الأمر وقعًا شديداً في نفوس «الفرس»؛ حيث انفرط عقدهم، وانحل نظامهم لمقتل قائدهم، وولوا الأدبار، وركب المسلمون أكتافهم، وأخذوا بأقفيتهم، وقتلوا منهم أكثر من ثلاثين ألفًا، وغرق الكثير في نهر الفرات، وقتل المربوطون بالسلاسل عن بكرة أبيهم، وكانت هزيمة مدوية على قوى الكفر وعباد النار، وفر باقي الجيش لا يلوي على شيء.

• الفزع الكبير:

لم تنته فصول المعركة عند هذا الحد؛ فمدينة «الأبلة» لم تفتح بعد، وهناك جيوش قوية ترابط بها للدفاع عنها حال هزيمة جيوش «هرمز» وقد كانت، ووصلت فلول المنهزمين من جيش «هرمز» وهي في حالة يرثى لها من هول الهزيمة، والقلوب فزعة ووجلة، وانضمت هذه الفلول إلى جيش «قارن بن قرباس» المكلف بحماية مدينة «الأبلة»، وأخبروه بصورة الأمر فامتلأ قلبه هو الآخر فزعًا ورعبًا من لقاء المسلمين، وأصر على الخروج من المدينة للقاء المسلمين خارجها، وذلك عند منطقة «المذار»، وإنما اختار تلك المنطقة تحديداً؛ لأنها كانت على ضفاف نهر الفرات، وكان قد أعد أسطولاً من السفن استعداداً للهرب لو كانت الدائرة عليه، وكانت فلول المنهزمين من جيش «هرمز» ترى أفضلية البقاء داخل المدينة والتحصن بها، وذلك من شدة فزعهم من لقاء المسلمين في الميدان المفتوح.

كان القائد المحنك «خالد بن الوليد» يعتمد في حروبه دائمًا على سلاح الاستطلاع الذي ينقل أخبار العدو أولاً بأول، وقد نقلت له استخباراته أن «الفرس» معسكرون بـ«المذار»، فأرسل «خالد» للخليفة «أبي بكر» يُعْلِمُهُ بأنه سوف يتحرك للمذار لضرب المعسكرات الفارسية هناك ليفتح الطريق إلى الأبلة، ثم انطلق «خالد» بأقصى سرعة للصدام مع «الفرس»، وأرسل بين يديه طليعة من خيرة الفرسان، يقودهم أسد العراق «المثنى بن حارثة»، وبالفعل وصل المسلمون بسرعة لا يتوقعها أحد من أعدائهم.

• الفطنة العسكرية:

عندما وصل المسلمون إلى منطقة المذار أخذ القائد «خالد بن الوليد» يتفحص المعسكر، وأدرك بخبرته العسكرية، وفطنته الفذة أن الفزع يملأ قلوب «الفرس»، وذلك عندما رأى السفن راسية على ضفاف النهر، وعندها أمر «خالد» المسلمين بالصبر والثبات في القتال، والإقدام بلا رجوع، وكان جيش «الفرس» يقدر بثمانين ألفًا، وجيش المسلمين بثمانية عشر ألفًا، وميزان القوى المادي لصالح «الفرس».

خرج قائد «الفرس» «قارن» وكان شجاعًا بطلاً، وطلب المبارزة من المسلمين فخرج له رجلان: «خالد بن الوليد»، وأعرابي من البادية، لا يعلمه أحد؛ اسمه «معقل بن الأعشى» الملقب بـ«أبيض الركبان» لمبارزته، وسبق الأعرابي «خالدًا»، وانقض كالصاعقة على «قارن» وقتله في الحال، وخرج بعده العديد من أبطال «الفرس» وقادته فبارز «عاصم بن عمرو» القائد «الأنوشجان» فقتله، وبارز الصحابي الجليل «عدي بن حاتم» القائد «قباذ» فقتله في الحال، وأصبح الجيش الفارسي بلا قيادة.

كان من الطبيعي أن ينفرط عقد الجيش الفارسي بعد مصرع قادته، ولكن قلوبهم كانت مشحونة بالحقد والغيظ من المسلمين؛ فاستماتوا في القتال على حنق وحفيظة، وحاولوا بكل قوتهم صد الهجوم الإسلامي، ولكنهم فشلوا في النهاية تحت وطأة الهجوم الكاسح، وانتصر المسلمون انتصاراً مبينًا، وفتحوا مدينة «الأبلة»، وبذلك استقر الجنوب العراقي بأيدي المسلمين، وسيطروا على أهم موانئ «الفرس» على الخليج، وكان هذا الانتصار فاتحة سلسلة طويلة من المعارك الطاحنة بين «الفرس» والمسلمين على أرض العراق كان النصر فيها حليفًا للمسلمين في جملتها، وانتهت بسقوط مملكة عبَّاد النار.

تاريخ الرسل والملوك	محاضرات في الأمم الإسلامية	التاريخ الإسلامي
تاريخ الخلفاء	الكامل في التاريخ	الخلفاء الراشدين
فتوح البلدان	البداية والنهاية	
المنتظم	موسوعة التاريخ الإسلامي	

معركة أليس ـ نهر الدم

التاريخ/ ٢٥ صفر ـ ١٢ هـ.

المكان/ قرية بالشاطئ الغربي للفرات ـ العراق.

الموضـوع/ المسلمون بقيادة «خالد بن الوليد» ينتصرون على التحالف المجوسي الصليبي.

الأحداث

• مقدمة:

هذه المعركة رسالة شديدة الوضوح، ظاهرة الدلالة لهؤلاء الحمقى والمغفلين الذين يتحدثون عن الوثن الكبير المسمى بـ«القومية العربية» إلى هؤلاء الأشقياء الذين يقولون: «إن الدين يفرقنا، والعروبة تجمعنا» والذين جعلوا القومية العربية بديلاً عن عقيدة الولاء والبراءة الناصعة، التي تجمع تحت لوائها كل مسلم في شتى بقاع الأرض، وإن نأت دياره، واستعجم لسانه، وتطرد عنها غير المسلم وإن كان من ذوي الأرحام، أو من أقرب الجيران، هذه المعركة تظهر المشاعر الحقيقية لغير المسلمين تجاه المسلمين، وإن كانوا من بني جلدتهم، ويتحدثون بلسانهم، ولا عزاء للقوميين العرب في كل مكان وزمان!!!

• التحالف المجوسي الصليبي:

بعد الانتصار الباهر الذي حققه المسلمون على «الفرس» في معركة «ذات

السلاسل» و«المذار»، وسقوط مدينة «الأبلة» ـ منفذ «الفرس» الوحيد على الخليج العربي ـ أمرت القيادة العليا لفارس بإعداد جيشين من أقوى الجيوش الفارسية يقودهما أمهر القادة «الفرس» وهما: (١) «الأندر زغر» (٢) «بهمن جاذويه»، وأمرهما كسرى بالتوجيه سريعًا إلى منطقة «الولجة» للوقوف في طريق «خالد بن الوليد»؛ حتى لا يستولي على «الحيرة» ـ عاصمة العراق العربية ـ وقد انضمت قبائل «بكر بن وائل» العربية ـ وأغلبها نصارى ـ إلى الجيش الفارسى، وانضم نصارى «الحيرة»، ونصارى «تغلب» للجيش الفارسي.

استطاعت الاستخبارات العسكرية أن تنقل الأخبار للقائد «خالد بن الوليد» عن حقيقة المخطط الفارسي الذي يقوم على فكرة الكماشة، وتلك المعلومات جعلت «خالد» يعيد ترتيب أوراقه، ويغير خطط السير؛ حيث سلك طرقًا مختلفة، ويعكس اتجاه السير عدة مرات؛ حتى لا يتضح اتجاه سيره، ثم اتجه إلى الجنوب، ووضع الحاميات القوية في المناطق المفتوحة، وأمرهم أن يقوموا بحماية ظهره من العدوان.

• الغلطة العسكرية:

كانت الخطة التي رسمها كسرى لجيوشه تقتضي أن يتبع «بهمن» الطريق الذي يسير فيه «الأندر زغر»، والاتحاد عند الاصطدام مع المسلمين، وبقدر اللَّه عز وجل يرتكب القائد «بهمن» غلطة عسكرية شنيعة؛ حيث يخالف الأوامر، ويسلك طريقًا مخالفًا للخطة، على أمل أن يوقع المسلمين في الكماشة، ولكن «خالدًا» بذكائه العسكري الفذ استطاع أن يفلت من هذه المصيدة، ويسلك طريقًا طويلاً، ولكنه خالٍ من الكمائن الفارسية، في حين أن «بهمن جاذويه» بمحاولته هذه قد سار في طريق بعيد عن «الولجة»، مما سهل لـ«خالد» مهمته في الانفراد بجيش «الأندر زغر».

كان جيش «الأندر زغر» عظيم التسليح، ضخم الحجم، يوجد به معظم

نصارى العراق، وقد دفعه غروره وضخامة جيشه إلى التفكير في محاولة استرجاع المناطق المفتوحة من قبل المسلمين، ووصلت هذه الأخبار للقائد الفطن «خالد بن الوليد» عبر سلاح الاستخبارات الإسلامية.

(وهذا يوضح أهمية الحذر، والأخذ بالاسباب، والفطنة الدائمة لقادة المسلمين في تعاملهم مع عدوهم ـ ليس حال الحرب فقط ولكن حال السلم أيضًا ـ عملاً بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]).

قام «خالد» بتعبئة جيوشه، ونصب كمينين خلفه من ناحية اليمين واليسار، وطلب منهما ألا يدخلا في القتال إلا قبل النهاية بقليل، وعندما تظهر بوادر الضعف على «الفرس»، واستطاع «خالد» بخطته العسكرية العبقرية أن ينفرد بجيش «الأندر زغر»، ويصطدم معه في ٢٢ صفر سنة ١٢هـ، وثبت «الفرس» ثباتًا هائلاً أمام الصدمة الإسلامية، حتى خشي المسلمون من الهزيمة، وفي اللحظة الحاسمة ينقض الكمين الإسلامي من ناحية اليمين ثم الشمال، ويقع «الفرس» بين فكي الأسد، ويفر الكثيرون من أرض المعركة هائمين على وجوههم في الصحراء، وعلى رأسهم القائد «الأندر زغر» الذي مات عطشًا في الصحراء، وقتل كثير من النصارى في هذا الصدام: منهم ابني أكبر زعماء النصارى العرب «جابر بن بجير» و«عبد الأسود».

• الحقد الصليبي:

كانت الصدمة والصفعة الشديدة التي نالها النصارى من المسلمين في القتال السابق قاسية، لدرجة أن صوابهم قد طاش، من كثرة ما فقدوه من القتلى، من خيرة شبابهم، فاشتعلت قلوبهم حقداً وغلاً على المسلمين ـ رغم رابطة العروبة والجوار ـ إلا أنهم فضلوا الانضواء تحت لواء «الفرس» الذين كانوا يحتقرون العرب جداً، ورغم ذلك فضلوا الانضمام إليهم لا لشيء إلا

لعداوتهم للإسلام، وقرر زعماء نصارىٰ العراق التجمع بأعداد كبيرة، واستغاثوا بكسرىٰ، وطلبوا منه الامدادات؛ فانتعشت آمال كسرىٰ وفرح بكتاب نصارىٰ «أليس» له، وكتب لقائده «بهمن جاذويه» ـ وقد بقي بالمنطقة مرابطًا بجيشه بعد غلطته الفظيعة، والتي أتت علىٰ جيش «الأندر زغر» ـ للانضمام إلىٰ نصارىٰ العراق في حربهم ضد المسلمين، ثم عاد كسرىٰ وطلب من «بهمن جاذويه» أن يعود سريعًا إلىٰ «المدائن»؛ لوجود اضطرابات داخلية بها، وعين مكانه في قيادة الجيش القائد «جابان»، وكان رجلاً محنكًا، ولكنه ضعيف الشخصية.

• عاقبة الغرور:

كانت الإمدادات الفارسية أقرب إلىٰ منطقة تجمع الجيش الصليبي بـ«أليس» من جيوش المسلمين؛ فوصلت قبلها، ورتب «جابان» جيوشه ترتيبًا جيدًا، واستعد للقتال، وكان الجيش «المجوصليبي» كبير العدد جدًا؛ حيث بلغ عدد مقاتليه مائة وخمسين ألفًا؛ مما جعل الغرور يملأ القلوب والنفوس، وكذا جعل الثقة بحتمية النصر أكيدة، ووصل المسلمون بجيشهم الذي لا يتجاوز الثمانية عشر ألفًا، وصادف قدوم المسلمين وجود الجيوش «المجوصليبية» علىٰ موائد الطعام في وقت الغداء، وفي الحال أمرهم القائد العام «جابان» بترك الطعام، والتهيؤ للقتال ضد المسلمين، ولكن الغرور والكبر منعهم من الاستماع لصوت العقل، وظنوا أنهم لا يغلبون؛ فخالفوا أمر قائدهم العام، واستمروا في تناول الطعام، ثم عاد «جابان» وأمرهم بوضع السم في الطعام؛ فإن دارت الدائرة عليهم، وغنم المسلمون الطعام وأكلوه ماتوا من السم ـ وهو رأي لا يصدر إلا من رجل داهية حقًا ـ ولكنهم أيضًا خالفوه وتكبروا، وسول لهم الشيطان سوء أعمالهم، وبخلوا حتىٰ بطعامهم!

• نهر الدم:

أدرك «خالد» وجنوده أن عدوهم مغرور متكبر؛ فأصدر «خالد» أوامره المباشرة بالهجوم فوراً وبكل القوة والثقل على هؤلاء المغترين، وبالفعل هجم المسلمون عليهم؛ وهم مازالوا على موائدهم الأخيرة، وبدأ القتال الذي صار ينتقل من طور لآخر، ومن حال إلى آخر أشد منه؛ لقوة وشراسة الحقد الصليبي على المسلمين، وأيضاً صبر «الفرس» في القتال، على أمل أن يصل القائد «بهمن جاذويه» بالإمدادات من المدائن، ولقي المسلمون مقاومة عنيفة جداً من التحالف «المجوصليبي»، وعندها دعا القائد «خالد بن الوليد» ربه، ونذر له فقال: «اللَّهم إن لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه، حتى أجري نهرهم بدمائهم».

حَمِيَ المسلمون بعد ذلك النذر في القتال، وازدادت قوتهم ـ خاصة مسلمي قبيلة «بكر بن وائل» ـ حيث كانوا أشد الناس على نصارى قبيلتهم.

(مما يبين حقيقة فهم المسلمين الأوائل لعقيدة الولاء والبراء؛ حيث تنقطع كل الروابط: من رحم، وقرابة، و مصاهرة، وجوار أمام رابطة الإسلام وحبل العقيدة؛ كما قال الحق في محكم التنزيل: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لم يطل الأمر كثيراً حتى انتصر المسلمون انتصاراً باهراً، وأمر «خالد» بإمساك الأسرى، وأخذهم جميعاً عند نهر «أليس»، وسد عنه الماء، ومكث يوماً وليلة يضرب أعناقهم؛ حتى يجري النهر بدمائهم وفاءً بنذره للَّه عز وجل، ومع ذلك لم يجر النهر بدمائهم؛ فقال له «القعقاع بن عمرو»: «لو أنك قتلت أهل الأرض جميعاً لم تجر دماؤهم ـ ذلك لأن الدم سريع التجلط

كما هو معروف طبيًا - فأرسل الماء على الدماء؛ يجري النهر بدمائهم» ففعل «خالد» ذلك فسمي النهر من يومها «نهر الدم»، وقتل يومها أكثر من سبعين ألفًا من جنود التحالف «المجوصليبي».

(وليس في ذلك قسوة ولا دموية كما قد يظن البعض؛ لأن هؤلاء كانوا من مجرمي الحرب، وليس لهم أن يدخلوا الحرب أصلاً ضد المسلمين؛ فهي ليست حربهم، ولا هم طرف فيها، وهم الذين بدأوا المسلمين بالعداوة، واتحدوا مع عبَّاد النار من أجل إفناء المسلمين، ومن يقع من المسلمين بأيديهم كانوا يمثلون بجثته، ويقتلونه شر قتله، فهؤلاء وأمثالهم ممن تمتلأ قلوبهم بكره وبغض المسلمين ينطبق عليهم قول اللَّه عز وجل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد : ٤]، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة : ١٢٣].

عندما وصلت الأخبار بالنصر للخليفة «أبي بكر الصديق» قال كلمته الشهيرة: «يا معشر «قريش» عدا أسدكم - يعني «خالدًا» - على الأسد - يعني كسرى - فغلبه على خراذيله - أي على فريسته - عجزت النساء أن ينشئن مثل «خالد».

تاريخ الرسل والملوك	محاضرات في الأمم الإسلامية	التاريخ الإسلامي
تاريخ الخلفاء	الكامل في التاريخ	الخلفاء الراشدين
فتوح البلدان	البداية والنهاية	
المنتظم	موسوعة التاريخ الإسلامي	

معركة عين التمر. أسرع هزيمة في التاريخ

الزمان / ١١ رجب ـ ١٢هـ.

المكان / «عين التمر» ـ شمال غرب «الحيرة» ـ «العراق».

الموضـوع / جيوش الإسلام بقيادة «خـالد بن الوليد» تقضي على الحاميات الفارسية بـ«العراق».

الأحداث

• مقدمة:

بعد أن فتح اللَّه عز وجل مـعظم بلاد «العراق» للمسلمين، وذلك في أربعين يومًا فقط، وبعـد أن فُتحت «الحيـرة» عاصمة الفـرس العربية، وأهم مدينة بـ«العـراق» بعد «المدائن»، جـاء الأمر من الخليـفـة «أبو بكر الصديق» لـ«خـالد بن الوليـد» أن يتوجـه سريعًا لإنقـاذ المسلمين المحاصرين في منطقة «دومة الجندل»، وكنا قـد عرضنا من قبل في أثناء سردنا لبـداية الحملة الجـهادية لفتح «العـراق» أن الخليفة «أبـا بكر» قد كلف: كلاً من «خـالد بن الوليد» من ناحـية الجنوب، و«عيـاض بن غنم» من ناحية الشـمال؛ ليوجـد بذلك حالـة من التنافس بينهـما؛ حيث جـعل من يصل أولاً هو القائـد العام، فـتقـدم «خالد»، وتعـثر «عـياض» ومن مـعـه، وحوصـروا في منطقة «دومـة الجندل» حاصرتـهم أعداد ضخمـة من القبائل العربيـة الموالية للفرس، وكان القـائد «خالد بن الوليد» تواقًـا لأن يهجم على «المدائن» عاصمـة الفرس؛ لينهي الوجود الفـارسي تمامًا في «العراق»، ولكنه امتثل لأوامر قائده العام الخليفة «أبي بكر».

(النظام والانضباط والجدية، وطاعة أولي الأمر في غير معصية الله عز وجل من أهم عوامل النجاح، والله عز وجل علَّم أمة الإسلام درسًا عظيمًا في عاقبة مخالفة الأوامر؛ وذلك يوم أحد، وبيَّن ذلك بقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]).

• خطر الحاميات الفارسية:

كان القائد الحربي «خالد بن الوليد» من الطراز النادر في إدارة العمليات الحربية، بل ربما هو نسيج وحده، فقد رأى قبل التوجه لإنقاذ المسلمين المحاصرين بـ«دومة الجندل» ضرورة تأمين وضع المسلمين في المدن المفتوحة، خاصة في ظل وجود حاميات فارسية قوية في المناطق المحيطة بمدينة «الحيرة» أهم مدن «العراق»، وعاصمة الفرس العربية، والتي كان لسقوطها في أيدي المسلمين دوي كبير في أركان البيت الفارسي، وكانت هذه الحاميات تتركز في منطقتين هما: منطقتا «الأنبار» و«عين التمر»، وبالفعل قرر «خالد» الهجوم على تلك الحاميات، وإزالة التهديد الفارسي للوجود الإسلامي بالحيرة.

لم يكن «خالد» من القواد الذين ينتظرون المفاجآت، بل كان يعمل دائمًا على بث عيونه واستخباراته قبل خوض أية معركة، وقد نقل له سلاح الاستطلاع أوضاع المدينة من حيث موقعها، وموقفها التحصيني، وكانت هذه المدينة شديدة التحصين مما يجعل مسألة السيطرة عليها أمرًا صعبًا؛ وذلك لعدة أسباب منها: موقع هذه المدينة على الشاطئ الشرقي لنهر «الفرات»؛ مما يجعل بين المسلمين والفرس حاجزًا مائيًا يهابه المسلمون، ومنها وجود أسوار منيعة حول المدينة، هذا غير وجود خندق عميق متسع يحيط بالمدينة من كل ناحية، ولكن كل ذلك لم يفت في عضد المسلمين وخطتهم الجهادية، وكان معظم أهل المدينة من النصارى، وعليهم قائد فارسي اسمه «شيرازاد»، وقد جعل

«خالد بن الوليد» قائدًا له على هذه المعركة؛ وهو الصحابي «الأقرع بن حابس»، رغم أنه ليس من السابقين في الإسلام، ولكنه صاحب كفاءة حربية ممتازة.

(الحكمة تقتضي أن يتولى قيادة العمل من عنده الخبرة والكفاءة اللازمة لذلك العمل؛ فالأصلح قد يكون ليس هو الأفضل دينيًا، ولقد علمهم ذلك الرسول ﷺ عندما ولى «عمرو بن العاص» قيادة جيش فيه «أبو بكر» و«عمر» و«أبو عبيدة»، ولم يكن قد مر على إسلام «عمرو» أربعة أشهر).

• ذات العيون:

بدأ المسلمون زحفهم على المدينة الحصينة؛ فبدأوا أولاً باجتياز نهر «الفرات» على الرغم من فيضان مائه في ذلك الوقت، وعلى الضفة الأخرى كان الرعب مستوليًا على أهل المدينة؛ فلم يجرؤ أحد على الخروج من المدينة لصد العبور الإسلامي، وذلك للسمعة الكبيرة للمسلمين وفتوحاتهم السريعة والهائلة في أيام معدودات، والتي جعلت الجميع مكتوفي الأيدي، وبعد أن عبر المسلمون ظهرت أولى محاولات المقاومة عندما قامت مجموعة من أهل المدينة بارتقاء أسوارها، ورشق المسلمين بالسهام، وكان هذا الرمي وبالاً عليهم؛ إذ اكتشف القائد الفذ «خالد بن الوليد» أن هؤلاء المقاتلين سذج لا يعرفون شيئًا من فنون القتال والرمي، ولا خبرة لهم بالحرب.

أمر «خالد بن الوليد» كتيبة خاصة في الجيش الإسلامي مكونة من أمهر رماة العرب برمي المحاربين رميًا واحدًا كثيفًا، ويركزون على عيون المحاربين، وبالفعل انطلقت تلك السهام كالطير الأبابيل، وأصابت هدفها بدقة بالغة، وفقأت قرابة الألف عين، فصاح أهل المدينة جميعًا: «ذهبت عيون أهل الأنبار»، وسمي هذا اليوم بذات العيون، وصاحوا وماجوا، وعمتهم الفوضى، وخرج «شيرازاد» يسأل عن الخبر؛ فلما علم أسرع لعقد صلح مع المسلمين، ولكنه اشترط شروطًا لا يقرها الإسلام في الحرب؛ فلم يوافق «خالد» عليها.

(ليس كل صلح يُوافَقُ عليه، وليست كل معاهدة يصدَّق عليها، دون النظر لأوامر الإسلام، وكم من معاهدة واتفاقية أخذت مطية لسلب الحقوق، واغتصاب الأرض المسلمة، وما اتفاقية «كامب ديفيد» و«أوسلو» منكم ببعيد).

• جسر الجمال:

كان الخندق المائي يمثل مشكلة حقيقية للمسلمين؛ لأنه عميق ومتسع، ويحيط بالمدينة من كل مكان، ولكن ذلك لم يكن ليمنع الأسد الضاري «خالد» صاحب العقلية العسكرية الفذة؛ حيث قام بالدوران حول سور المدينة لدراسة هذا الخندق جيداً، حتى وقف عند نقطة معينة من الخندق وتأملها طويلاً، ثم تفتق ذهنه عن فكرة عبقرية؛ حيث وقف على أضيق نقطة في الخندق، وأمر بذبح كل الجمال الهزيلة والمريضة، وإلقائها عند هذه النقطة؛ فردم تلك النقطة بصنع جسر من الجمال، واستطاع المسلمون أن يعبروا بسهولة، وأصبح الجيش المسلم محيطًا بأسوار المدينة من كل مكان استعداداً لاقتحامها، فأسرع «شيرازاد» وطلب الصلح من «خالد» بشروط الإسلام، على أن يخرج «شيرازاد» سالمًا بأهله وماله إلى مكان آمن؛ فوفى له «خالد» ذلك الشرط، وبلَّغه مأمنه، ودخل المسلمون المدينة وأمن الناس على معايشهم.

(الوفاء بالعهد أصل قرآني حافظ عليه المسلمون في كل موطن، وكان سبب إسلام كثير من الناس).

عندما عاد «شيرازاد» إلى قائد الفرس العام على «العراق» «بهمن جاذويه» مهزومًا من الأنبار لامه «بهمن» بشدة على مصالحة المسلمين، والتفريط في هذه المدينة الحصينة رغم ضخامة قواته، وكان «شيرازاد» رجلاً عاقلاً فقال: «إن هؤلاء القوم - يعني أهل الأنبار - قد قضوا على أنفسهم بالهزيمة عندما رأوا جيش المسلمين، وإذا قضى قوم لأنفسهم بالهزيمة كاد هذا القضاء أن يلزمهم». ففهم

«بهمن» كلامه واقتنع به.

(وصدق شيرازاد فيما قاله؛ فإن الهزيمة النفسية هي الهزيمة الحقيقية، هي الهزيمة التي تحطم القلوب، وتفل العزائم، وتخور معها الهمم، فلا يستطيع صاحبها معها أن يتقدم ولو خطوة واحدة للأمام، بل يظل عمره أسير ضعفه، ورهين وهمه؛ فهلا تدبر ذلك المسلمون؟!).

• الغرور الصليبي:

كانت الحامية الأخرى متمركزة بمدينة عين التمر، وكانت على طريق «دومة الجندل» تراقب الأوضاع عن كثب، وكانت الحامية الموجودة بـ«عين التمر» مكونة من قوتين كبيرتين: قوة فارسية بقيادة «مهران بن بهرام»، وقوة عربية نصرانية مكونة من خليط من قبائل «تغلب» و«إياد» بقيادة «عقة بن أبي عقة»، وكان أحمقًا مغرورًا، دفع ثمن هذا الحمق والغرور غاليًا؛ حيث طلب هذا الصليبي الحاقد المغرور «عقة» من القائد الفارسي «مهران» أن يخلي الساحة ليقاتل هو المسلمين وحده دون مساعدة من الفرس، وقال له: «إن العرب أعلم بقتال العرب؛ فدعنا وخالدًا»، ولنا أن نفهم النفسية المريضة التي دفعت «عقة» لهذا الطلب الغريب؛ فالغرور والحقد والرغبة في الفخر والزهو، وتحقيق الأمجاد بالانتصار على المسلمين، وقائدهم «خالد بن الوليد» صاحب الراية الميمونة، والانتصارات الباهرة كل ذلك دفع «عقة» لهذا الطلب، بل تمادى في غيه وغروره، وقرر الخروج لقتال المسلمين خارج المدينة في الصحراء المفتوحة؛ كأنه بذلك يسعى لحتفه بقدميه كما يقولون؛ لأن الصحراء المفتوحة هي أصلاً ميدان المسلمين المفضل في القتال، وعندما سمع «مهران» هذا الكلام من «عقة» قال له: «صدقت؛ لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم مثلنا في قتال العجم، دونكموهم، وإن احتجتم إلينا أعناكم»

، وكان «مهران» قد بيَّت في نفسه أمراً؛ وهو الانسحاب من أمام المسلمين لعلمه أنهم لا يُقهرون، وقد انتقد قادة الفرس ذلك الأمر من «مهران» وقالوا له: «ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب» - يعنون عقة - فقال لهم مهران: «دعوني؛ فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم، إنه قد جاءكم من قتل ملوككم، وفلَّ حدكم؛ فاتقيته بهم؛ فإن كانت لهم على «خالد» فهي لكم، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا؛ فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم ضعفاء».

(إن أعداء الدين مهما حاول أحد خدمتهم - ولو بروحه - فلن يعدوا قدره عندهم إلا قدر الكلب؛ كما قالت الفرس عن أعوانهم من العرب، وهكذا وصل أعداء الإسلام لمآربهم الخبيثة قديمًا وحديثًا على أكتاف طابور طويل من الكلاب، وما أكثرهم!!).

• أسرع هزيمة في التاريخ:

خرج «عقة» المغرور ومن معه من العرب المتنصرة من المدينة للصدام مع المسلمين، وأوغل في الصحراء غروراً منه لمبادرة المسلمين بالهجوم، ووصل إلى منطقة «الكرخ»، وعبأ قواته النصرانية، ووصل المسلمون لأرض المعركة، وعبأ «خالد» الجيش بسرعة، واستعد للقتال، ولم يكن «خالد» قد رأى «عقة» من قبل؛ فنظر إليه نظرة الفاحص الخبير بنفوس المحاربين، فعلم أن هذا الرجل شديد الغرور؛ فقرر القيام بحيلة بارعة شجاعة، جريئة في نفس الوقت؛ وهي خطف القائد «عقة» نفسه في عملية فدائية أشبه ما تكون بعمليات الصاعقة؛ فانتخب مجموعة خاصة من أبطال المسلمين، وأطلعهم على الفكرة الجريئة، فوافق عليها الجميع؛ فالكل أبطال، والجميع «خالد»، وبالفعل انقض «خالد» ومجموعته الفدائية على صفوف العدو - وهم يقدرون

بعشرات الآلاف ـ كما ينقض الأسد على فريسته، وكان «عقة» مشغولاً بتسوية الصفوف، واندهش العدو من هذه المجموعة الصغيرة التي تهجم على عشرات الآلاف، ولم يفيقوا من هول الصدمة وإلا و«خالد» قد أسر «عقة»، وحمله بين يديه كالطفل الصغير، وعاد به إلى صفوف المسلمين، وعندها تجمدت الدماء في عروق العرب المتنصرة، وركبهم الفزع الشديد؛ ففروا من أرض المعركة دون أن يسلوا سيفًا واحدًا في أسرع هزيمة في التاريخ.

واصل المسلمون سيرهم بعد هذه الضربة الخاطفة حتى وصلوا إلى أسوار المدينة، وكان «مهران» وحاميته الفارسية قد عرفوا بما حل للمغرور «عقة» ومن معه، ففروا هاربين تاركين أعوانهم النصارى لمصيرهم المحتوم، وعندها أسقط في يد نصارى المدينة ماذا يفعلون؟! فأرسلوا إلى «خالد» يطلبون منه الصلح، ولكن «خالداً» علم أن هؤلاء الذين يطلبون الصلح هم المحاربون الذين انهزموا في أرض المعركة، وهم بالتالي لا يستحقون الأمان والصلح، وإنما أجبرهم على ذلك قرب أجلهم، ودنو هزيمتهم؛ فرفض «خالد» الصلح معهم؛ إذ لا أمان مع هؤلاء الخونة الكفرة، الذين باعوا أنفسهم للمشركين الأصليين عبادِ النارِ، وقاتلي بني جلدتهم وأهل كتاب مثلهم، لا لشيء إلا بدافع الحقد والحسد، أصر «خالد» على عدم الصلح حتى ينزلوا على حكمه، وهذا معناه في عُرف الحروب أن يكون «خالد» مخيراً في فعل أي شيء معهم يقتلهم، يسبيهم، يعفو عنهم، المهم أنهم تحت حكمه وأمره، فلما يئس المتنصرة من نجدة الفرس لهم نزلوا على حكم «خالد بن الوليد»، فألقى القبض على جميع من يقدر على حمل السلاح، ثم حكم في الحال بإعدام المحاربين، وبدأ بزعيمهم الأحمق «عقة»، وسبي الذرية والأموال.

(ليس في ذلك قسوة ولا غدر كما يظن البعض ممن يتعاطفون مع المنهزم وينسون إجرامه، فما حدث لهم جزاء وفاقًا لهؤلاء المحاربين الذين خرجوا وفي نيتهم استئصال المسلمين، بدافع من الحقد الصليبي المحض، كما أن هذا الحكم هو حكم اللَّه

عز وجل كما حدث يوم أن حكم الصحابي «سعد بن معاذ» بنفس الحكم على إخوانهم في الحقد والشقاء يهود بني قريظة؛ فقال الرسول ﷺ : «لقد حكمت فيهم بحكم اللّه من فوق سبع سماوات») .

وقد وجد المسلمون بمدينة «عين التمر» كنيسة يتعلم فيها أربعون صبيًا الإنجيل؛ فلم يتعرض لهم «خالد» بالقتل، بل اعتبرهم من جملة السبي، وذلك من عدل الإسلام؛ فلم يأخذ هؤلاء بجريرة بني جلدتهم المقاتلين، وكان من بينهم شاب اسمه «نصير» هو أبو الفاتح الكبير «موسى بن نصير» فاتح الأندلس، وأيضًا «سيرين» أبو عالم زمانه، ومفتي الأمة في عصره «محمد بن سيرين» .

وبتلك المعركة استطاع المسلمون إخلاء المنطقة الواقعة بين الحيرة ودومة الجندل من أية قوات معادية للمسلمين؛ وهي مساحة تقدر بخمسمائة كيلو متر مربع .

تاريخ الرسل والملوك	محاضرات في الأمم الإسلامية	التاريخ الإسلامي
تاريخ الخلفاء	الكامل في التاريخ	الخلفاء الراشدين
فتوح البلدان	البداية والنهاية	
المنتظم	موسوعة التاريخ الإسلامي	

معركة أجنادين - أمير الدهاء

الزمان / ٢٨ جمادى الأولى - ١٣ هـ.

المكان / «أجنادين» - فلسطين - «الشام».

الموضوع / المسلمون بقيادة «عمرو بن العاص» يحققون انتصاراً هاماً على «الروم».

الأحداث

• مقدمة:

مما يجب الإشارة إليه قبل سرد أحداث هذه المعركة أنها مذكورة في كتب التاريخ مرتين: بأحداث مختلفة، وسياق مختلف، وفي أوقات مختلفة، ولكن تحت نفس المسمى، ونفس القيادة: «عمرو بن العاص» ومع نفس العدو: «الروم»، وهذا أدى بالكثيرين إلى أن يجعلوهما معركة واحدة، أو يحدث عندهم نوع خلط ودمج بين المعركتين، أو حتى يُعرضوا بالكلية عن ذكر إحداهما اكتفاءً بالأخرى؛ حتى صارت هذه المعركة من ألغاز التاريخ، ولذلك وجب الفصل بين أحداث المعركتين بسرد كلتيهما في نفس المكان، مع المقارنة بينهما حتى يتضح الفارق، خاصة أن كلتيهما بها الكثير من الفعاليات والعبر والعظات.

• أجنادين الأولى (٢٨ جمادى الأولى ١٣ هـ):

بعد أن انتهى المسلمون من القضاء على حركة الردة التي نجمت إثر وفاة الرسول ﷺ تفرغوا بعدها لمهمتهم الأولى؛ وهي نشر دعوة الإسلام في أرجاء

المعمورة، فانطلق الأسد الضاري «خالد بن الوليد» إلىٰ أرض «العراق» يزيح عن أهلها وطأة الفرس، ويطفئ نارهم، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، ومن بعد «العراق» كانت «الشام» وهي الأحب للمسلمين، وبالفعل شرع الخليفة الراشد «أبو بكر الصديق» في إعداد الجيوش واستدعاء القادة الكبار، وأبطال الإسلام لنيل شرف فتح بلاد «الشام»، ونشر دعوة الإسلام بها، فجاء «عمرو بن العاص» و«يزيد ومعاوية ابنا أبي سفيان» و«الوليد بن عقبة» و«خالد بن سعيد» و«شرحبيل بن حسنة» هذا بالإضافة لكبيرهم «أبي عبيدة بن الجراح».

• نصيحة الصليبي:

كانت المدينة يطرقها التجار والجوَّال من أهل البلاد الأخرىٰ للتجارة وغيرها؛ فوافق إعداد الجيوش المسلمة لغزو «الشام» وجود أحد النصارىٰ العرب من أهل «الشام» بالمدينة للتجارة؛ فرأىٰ وسمع عن الإعداد للغزو فعاد مسرعًا إلىٰ بلاد «الشام»، وكان «هرقل» ملك «الروم» فيها يحج، ويستجم في «دمشق» فطلب هذا العربي المتنصر الإذن في الدخول علىٰ «هرقل» ليخبره وينصحه عما يعده المسلمون؛ فدخل عليه وقص عليه الخبر، وكان «هرقل» أعلم أهل الكتاب وقتها؛ فلما سمع الخبر قال ـ واسمع ما قال ـ: إن هذا الأمر لا يتم إلا لرجل منهم طوَّال كالأسد الوثاب ـ وذكر صفة «عمر بن الخطاب» ـ وعندها شهق العربي المتنصر شهقة عظيمة كادت أن تخرج معها روحه وقال: هذا واللَّه الذي يسير معه ويصحبه في كل موطن واسمه «عمر بن الخطاب»، وعندها أصدر «هرقل» قرارًا عامًا بالتجنيد الإلزامي علىٰ عرب «الشام» النصارىٰ، وأعد جيوشًا جرارة من الروم وحلفائهم من العرب، وجعل القيادة العامة للجيوش المتحالفة لتلميذه «سقلاب».

(وانظر إلى هذا التناصح الذي يقوم به أعداء الإسلام فيما بينهم ضد المسلمين، وشعورهم بأنهم نسيج واحد رغم أن هذا العربي الناصح لا توجد روابط بينه وبين

«هرقل» إلا الدين فـ«هرقل» ليس عربيًا، وأيضًا هو محتل للشام، ولكن انظر إلى عقيدة الولاء والبراء التي يطبقها أعداء الإسلام فيما بينهم، وننساها نحن، فهذا العربي يرفض حكم العرب له، ويؤثر حكم الأعاجم له لاتفاق العقيدة؛ فهل وعى المسلمون هذا الكلام؟ وهل أفاقوا من تخدير الشعارات العفنة: مثل القومية ،والعروبة، وغير ذلك من الشعارات الباطلة، والتي هوت بالأمة للحضيض).

• أول الجيوش المسلمة:

كان أول جيش مسلم وصل للأراضي الشامية بعد جيش الاستطلاع الإسلامي، والذي كان يقوده «خالد بن سعيد» هو جيش «عمرو بن العاص» المتوجه إلى «فلسطين» وكان الجيش الرومي المكلف بمواجهة المسلمين في تلك المنطقة مرابطًا في منطقة «أجنادين» بـ«وادي العربات» من «غور فلسطين» ويقوده القائد الرومي «القبقلار» وكان «الروم» وقتها لا يولون قيادة الجيوش إلا أعلمهم بالكتاب، ومن يحظى برضا القساوسة والرهبان عليه، وكان أيضًا عاقلاً حكيمًا، فلما سمع بنزول المسلمين إلى «الشام» أراد أن يتعرف على هؤلاء الوافدين الجدد؛ حيث لم يكن قد اشتبك معهم من قبل، فأرسل عربيًا من أهل «الشام» ليندس في معسكر المسلمين حتى يأتيه بالأخبار؛ فدخل الجاسوس العربي ومكث فيهم يومًا وليلة، ثم عاد سريعًا وقال للقائد الرومي كلامًا أفزعه بشدة قال له: بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق فيهم ابن ملكهم قطعوه، ولو زنى رجموه لإقامة الحق فيهم؛ فقال «القبقلار»: إن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من ظهرها ومن لقاء هؤلاء عليها، لوددت أن حظي من اللَّه أن يخلي بيني وبينهم فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليَّ.

(ونحن نقول: وهل ينتصر إلا أمثال هؤلاء؟ وهل تعود للأمة كرامتها إلا على أيدي هؤلاء؟ رهبان الليل وفرسان النهار الذين تفتقدهم الأمة الآن؛ إن مجرد ذكر

هؤلاء يلقي الرعب في قلوب الأعداء؛ حتى إن الواحد منهم يتمنى ألا يلقى المسلمين في ميادين القتال، أما الآن فنحن كما يقال عنا: صديق لا فائدة منه، وعدو لا يخاف منه: أي صديق لا ينفع وعدو لا يضر).

• الصدمة المرعبة:

يروي أنس رضي اللَّه عنه فيقول: «كان صحابة رسول اللَّه ﷺ لا يثبت لهم أحد في القتال فواق ناقة» من شدة هجمتهم وقوتهم في القتال، وهذا ما طبقه القائد «عمرو بن العاص» حيث لم يمهل عدوه كثيراً، بل انقض بالمسلمين كالأسود الكواسر في ضراوة أفزعت «الروم»؛ حيث هذا القتال كان أول لقاء وصدام مسلح بين المسلمين و«الروم»، ومن قبل كان الصدام بين السرايا الخفيفة باستثناء مؤتة، وكشر المسلمون عن أنيابهم، وكانت الصدمة مرعبة لدرجة جعلت قائد «الروم» «القبقلار» يقول لمن معه: «لفوا رأسي بثوبي هذا»؛ فقالوا له: «ولمَ؟»؛ قال: «هذا يوم البئيس ما أحب أن أراه، ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا اليوم». واجتز المسلمون رأسه وإنه لملفف.

شد المسلمون على «الروم» بكل قوة، وأبدى أبطال المسلمين نوادر رائعة في الشجاعة والفداء؛ فلقد وقف «الروم» على مضيق بين جبلين ليمنعوا تقدم المسلمين؛ فبرز لهم بمفرده الصحابي الجليل «عمرو بن سعيد بن العاص»، وكان من الأولين، ومن مهاجري الحبشة، واشتبك وحده مع «الروم»، وظل يقاتلهم حتى أزالهم عن المضيق، ثم استشهد رحمه اللَّه عند المضيق تماماً، فلما أراد المسلمون العبور أحجموا خشية أن يطأوا جثته بحوافر الخيل؛ فقال لهم القائد «عمرو بن العاص»: «لقد صعدت روحه إلى الجنة، وإنما هو جثة لا يشعر بشيء». فعبر المسلمون على جثته وتبعوا «الروم» حتى هزموهم شر هزيمة، ثم عاد «عمرو بن العاص» ونزل من على فرسه، وجمع أشلاء الشهيد، ووضعها في جراب من جلد، وكفنها، ثم دفنه.

(وهذا من فقه القائد الذي يعرف قياس المصالح والمفاسد، وكيفية تطبيق وتنزيل الأحكام الشرعية على الوقائع، وما أحوجنا لقادة من هذا النوع الفذ).

واستشهد في هذه المعركة رجال من الأولين مثل «نعيم بن عبد اللّه النحام» وكان إسلامه قبل إسلام «عمر بن الخطاب» وأيضًا «عبد اللّه بن الطفيل الدوسي»، وأيضًا «عبد اللّه بن الزبير بن عبد المطلب» بعد أن قتل مائة من أبطال «الروم» مبارزة واشتباكًا، ثم استشهد رحمه اللّه وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة، وكان هذا النصر فاتحة للنصر الأكبر يوم «اليرموك».

• أجنادين الثانية (صفر ١٥ هـ):

بعد أن حقق المسلمون انتصاراتهم الهائلة في الجبهة الشامية وفتحوا معظم مدنها الكبار أمثال «دمشق» و«حمص» و«قيسارية» و«حلب» و«بعلبك» وغيرها، وبعد أن تشرذمت معظم القوة الرومية بعد معركة «اليرموك» الهائلة انحازت فلول من «الروم» الساخطين على هزائمهم المتتالية من المسلمين وتجمعوا في ثلاث نقاط مثلت بؤراً ملتهبة لمحاولة إحياء التحالف الروماني العربي النصراني، وهذه البؤر كانت في «أجنادين» و«غزة» و«بيسان»، واتخذ القادة المسلمون قراراً بحتمية تصفية الوجود الرومي في تلك البؤر قبل أن يستفحل خطرها، ولا يتدارك أمرها.

تمثلت خطة تصفية الوجود الرومي في عزل منطقة غزه الكبيرة نسبيًا، والقريبة من حدود مصر التي كانت وقتها مازالت تحت الاحتلال الرومي عن منطقة «أجنادين» و«بيسان»، ثم توجيه الجيوش المسلمة إلى كل نقطة على حدة، فتوجه «عمرو بن العاص» إلى «أجنادين»، وتوجه «شرحبيل بن حسنة» إلى «بيسان»، وما لبث «شرحبيل» حتى فتح «بيسان» بمنتهى السهولة.

• أرطبول الروم وأرطبول العرب:

كان يقود الحامية الرومية بـ«أجنادين» رجل اسمه «الأرطبول»، ويعد من أدهى قادة «الروم» وأبعدهم غوراً، وأنكاهم فعلاً، وأشدهم بغضًا للمسلمين الذين حطموا الكبرياء الروماني تحت أقدام خيولهم، ونصال سيوفهم، فلما وصل الخبر للخليفة «عمر بن الخطاب» قال كلمته الشهيرة: «قد رمينا أرطبول الروم بأرطبول العرب»، فانظروا عمَّ تنفرج، وضرب «عمرو» حصاراً شديداً على «أجنادين» ولكن «الأرطبول» صمد هو الآخر بشدة؛ فلم يستطع «عمرو» أن يعرف لـ«الأرطبول» ثغرة لشدة دهائه وذكائه، أما الجواسيس الذين يرسلهم «عمرو بن العاص» لا يستطيعون نقل ما يشفي صدره، ويمكنه من هزيمة «الأرطبول»، فقرر «عمرو» القيام بعمل جريء، لا يقدم عليه إلا مَن هو مثله.

قرر «عمرو» دخول الحصن بنفسه على هيئة سفير من قبل قائد المسلمين - يعني «عمرو بن العاص» - ليستطيع الدخول والنظر داخل الحصن، والتعرف على ثغراته وكيفية اقتحامه، وبالفعل دخل الحصن، وتكلم مع «الأرطبول» وتفاوض معه، وأثناء ذلك تأمل الحصن جيداً حتى عرف ما أراد ولكن «الأرطبول» الداهية توسم فيه أنه «عمرو بن العاص»، أو على أدنى تقدير هو ساعده الذي يشير عليه؛ فأمر جنديًا من الجيش أن يكمن لـ«عمرو» أثناء خروجه، ويقتله غيلة، فلما همَّ «عمرو» بالخروج قال له أحد عرب «الشام» - وقد عرف غدر «الأرطبول» -: «أحسن الخروج كما أحسنت الدخول»، وكانت مجرد إشارة فهمها مباشرة أمير الدهاء «عمرو بن العاص»، فعاد مرة أخرى لـ«الأرطبول» وقال له: «يا أيها الأمير قد سمعت مني، وسمعت منك، وقد وقع قولك مني موقعًا، وأنا واحد من عشرة بعثنا الخليفة إلى هذا الوالي - «عمرو بن العاص» - لنشير عليه ويشهدنا أموره، فإن شئت رجعت فآتيك

بهم الآن؛ فإن رأوا الذي عرضت عليَّ الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر، وإن لم يروه رددتهم إلىٰ مأمنهم، وكنت علىٰ رأس أمرك». فقال «الأرطبول» - وقد سال لعابه أن يوقع بالعشرة - كما يظن - دفعة واحدة -: «نعم». وأرسل للمتربص بـ«عمرو» أن يكف عنه حتىٰ يمر؛ فانطلق «عمرو» من عنده وفطن «الأرطبول» بعدها للأمر، وعلم أنها خدعة قد خدعه بها «عمرو بن العاص».

عرف «عمرو» ما يريده من كيفية اقتحام الحصن، ووضع الخطة اللازمة لذلك، ونهض ومن معه علىٰ الحصن، وهاجموا «الروم» الذين استماتوا في القتال، وكان القتال يومها شبيهًا بقتال «اليرموك» من كثرة القتلىٰ من الجانبين، وصبر المسلمون صبراً بليغًا، حتىٰ فتح اللَّه عز وجل عليهم، وانهزم «الأرطبول» ومَن معه إلىٰ بيت المقدس، ونزل «عمرو بن العاص» والمسلمون بـ«أجنادين»، وكان هذا الفتح تقدمة وتوطئة لفتح بيت المقدس في نفس السنة بعد ذلك بشهرين.

• خاتمة السوء:

الجدير بالذكر: أن «الأرطبول» هذا ظل علىٰ عداوته وبغضه للمسلمين؛ فلما فتح المسلمون «بيت المقدس» - وكان موجوداً بها وقت الفتح - رفض الصلح الذي فتحت البلد بموجبه، وخرج متوجهًا إلىٰ «مصر»، ولما فتحها المسلمون أصر علىٰ مواصلة القتال ضد المسلمين، وظل يقاتل المسلمين في كل موطن، ويتولىٰ بنفسه مباشرة القتال والطعان - رغم أنه كان من أكبر القواد - والذين لا يقاتلون عادة بأنفسهم، ولكن بغضه وكرهه للإسلام دفعه لمواصلة قتال المسلمين - حتىٰ كانت خاتمة السوء في إحدىٰ المعارك مع المسلمين: عندما التقىٰ هو وأحد فرسان المسلمين واسمه «ضريس القيسي» فضرب «الأرطبول»

«ضريسًا» فقطع يده، ولكن «ضريسًا» القيسي ضربه فقتله، ثم أنشد قائلاً:

فإن يكن أرطبول الروم أفسدها … فإن فيها بحمد اللَّه منتفعًا

وإن يكن أرطبول الروم قطعها … فقد تركت بها أوصاله قطعًا

تاريخ الرسل والملوك	محاضرات في الأمم الإسلامية	التاريخ الإسلامي
تاريخ الخلفاء	الكامل في التاريخ	الخلفاء الراشدين
فتوح البلدان	البداية والنهاية	
المنتظم	موسوعة التاريخ الإسلامي	

معركة اليرموك [أعظم معارك الإسلام]

الزمان/ ٥ رجب ١٣ هـ.

المكان/ «اليرموك» ـ الشام.

الموضوع/ جيوش المسلمين بقيادة «خالد بن الوليد» تسحق جيوش «الروم».

الأحداث

• مقدمة:

إنها معركة من أعظم المعارك التي خاضها المسلمون بعد الغزوات النبوية، إنها معركة المصير التي خاضها المسلمون في حلبة الصراع الأبدي بين الحق والباطل، والتي تجلت فيها كل معاني البطولة والفداء والقيم الإسلامية، والتي أعطتنا ـ رغم بعد عهدنا بها ـ الكثيرَ من الدورس والعبر والعظات التي لو تدبرها المسلمون وعقلوها لما تخبطوا أمام الكثير من التحديات التي تواجههم، والتي لا يجدون لها حلاً ولا تفسيرًا، ولا حتى سلاحًا يواجهون به هذه الأزمات.

• الجبهة الشامية:

تبدأ أحداث هذه المعركة الهائلة عندما قرر الخليفة الراشد «أبو بكر الصديق» توجيه الجيوش المسلمة إلى الجبهة الشامية، التي كانت أحب للمسلمين من الجبهة العراقية، وذلك لفتحها ونشر الإسلام فيها، وكانت بلاد «الشام» وقتها واقعة تحت الاحتلال الروماني منذ أمد بعيد، واتبع «أبوبكر»

سياسة حربية حكيمة تعتمد على توجيه عدة جيوش إسلامية دفعة واحدة إلى عدة جبهات على أرض «الشام»؛ ليشتت التركيز الروماني، ويفرق قوتهم، وقد أرسل «أبو بكر» أربعة جيوش إسلامية إلى أربعة جهات كالآتي:

(١) جيش يقوده «أبوعبيدة بن الجراح» إلى مدينة «حمص».

(٢) جيش يقوده «يزيد بن أبي سفيان» إلى مدينة «دمشق».

(٣) جيش يقوده «عمرو بن العاص» إلى مدينة «فلسطين».

(٤) جيش يقوده «شرحبيل بن حسنة» إلى مدينة «الأردن».

وكان «عمرو بن العاص» وقتها عاملاً على «قضاعة» على جمع الزكاة، وكان «عمرو» من الأبطال الكبار، والقادة الأذكياء؛ فأرسل إليه الخليفة «أبو بكر الصديق» يدعوه للقدوم؛ حتى يستعمله على أحد الجيوش الإسلامية المتجهة للشام، ولكنه لم يعزم عليه المسألة؛ فردّ عليه «عمرو بن العاص» قائلاً: «أما بعد؛ فأنا سهم من سهام اللَّه عز وجل، وأنت عبد اللَّه عز وجل الرامي بها؛ فانظر إلى أشد ما تريد أن ترمي إليه فارمني إليه»

(وهكذا تكون الجندية والشعور بالمسئولية، واختيار الأعمال العظيمة الكبرى، والامتثال التام لأوامر أولي الأمر؛ طالما كانت في غير معصية اللَّه، وفي صالح دين الإسلام).

وصلت الأخبار إلى «الروم» بـ«الشام»، ودخلهم خوف شديد؛ لسابق علمهم بصمود المسلمين وشدة بأسهم، والتي ذاقوها في معركة «مؤتة» من قبل؛ لذلك دعا «هرقل» كبير الروم مجلس مستشاريه لاجتماع طارئ، وكان «هرقل» رجلاً حكيمًا عاقلاً، عنده من علم أهل الكتاب، بل هو أعلمهم؛ لأنهم لا يولون عليهم إلا أعلمهم بالكتاب، بل إن «هرقل» كاد أن يسلم عندما وصلته رسالة النبي ﷺ، ولكنه حرص على ملكه ورياسته ودنياه ولم

يسلم، ولما بدأ الاجتماع قال لهم: «إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قبل لأحد بهم؛ فأطيعوني وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج «الشام»، ويبقى لكم جبال «الروم»، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم «الشام»، وضيقوا عليكم جبال «الروم»؛ فلم يسمعوا له ولم يطيعوه، وأصروا على مواجهة المسلمين في ميادين القتال.

(إذا غلبت القوة والعنجهية العقل والحكمة فإنّ المصير حتمًا إلى الهزيمة والانحدار، وهي رسالة لا يعقلها أعداء الإسلام على مر العصور، ونبرر لنا تصرفات دولة الكفر والطغيان أمريكا التي تخطو خطوات واسعة وحقيقة نحو هلاكها!).

• الموقف العصيب:

أعد «هرقل» فكرة ذكية لمواجهة الجيوش الإسلامية؛ حيث جهَّز عدة جيوش ضخمة؛ بحيث يكون كل جيش منهم منفردًا أضعاف الجيش المسلم الذي سيقابله، فأرسل «هرقل» أخاه «تذارق» في تسعين ألفًا إلى «عمرو بن العاص»، وأرسل «القيقار» في ستين ألفًا إلى «أبي عبيدة بن الجراح». . وهكذا، وقالت «الروم»: «واللَّه لنشغلن «أبا بكر» أن يورد الخيول إلى أرضنا» وعظم الخطب على المسلمين؛ لأن إجمالي جيوشهم سبعة وعشرين ألفًا في حين أن جيوش الرومان بلغت أربعين ومائتي ألف.

أشار «عمرو بن العاص» على قادة الجيوش الإسلامية بالاتحاد تحت راية واحدة، وأرسلوا إلى الخليفة «أبي بكر» بصورة الأمر، فجاء جوابه مطابقًا لرأي «عمرو بن العاص»؛ فاتحدت الجيوش الإسلامية في وادي «اليرموك»، وجاءت الجيوش الرومانية لقتال المسلمين، ـ ونزلت بقدر اللَّه عز وجل وحده ـ في مكان ضيق محصور من كل اتجاه إلا اتجاهًا واحدًا؛ وهو الذي فيه جيش المسلمين، فقال «عمرو بن العاص» كلمته المشهورة: «أبشروا معشر المسلمين

حُصرت «الروم»، وقلما جاء محصور بخير»، ومكثوا مدة ثلاثة شهور في مواجهة باردة لا قتال فيها؛ حيث اعتمد «الروم» مع المسلمين سلاح المصابرة والمطاولة، حتى يمل المسلمون وتنفذ مؤنهم.

(نحن معشر المسلمين أولى بالصبر من عدونا خاصة اليهود أحفاد القردة والخنازير؛ لأن نبينا ﷺ علمنا حقيقة هامة جداً عندما قال: «واعلم أن النصر مع الصبر» [رواه أحمد]).

• المنقذ:

كتب قادة الجيوش المسلمة للخليفة يطلبون منه إمدادات لمواجهة ضخامة الجيش الرومي، ووفرة مؤنه، فقال الخليفة «أبو بكر»: «واللَّه لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بـ«خالد بن الوليد»، وكان «خالد» وقتها على الجبهة العراقية يسل عرش كسرى، فأرسل إليه «أبو بكر» أن ينتقل بنصف جيشه من «العراق» إلى «الشام»، على أن يترك قيادة الجيوش العراقية للقائد «المثنى بن حارثة»، وأراد «خالد» أن يصحب معه في نصف الجيش كل صحابة رسول اللَّه ﷺ الموجودين بـ«العراق»؛ فأبى «المثنى» وقال: «وهل نرجو النصر من عند اللَّه عز وجل إلا بوجودهم»؛ فأخذ نصفهم وترك النصف بـ«العراق»، وكان تعداد هذا النصف المتوجه للشام تسعة آلاف مقاتل.

كان الوقت ضيقًا، ووضع المسلمين بـ«الشام» يزداد حرجًا كل يوم، فأراد «خالد بن الوليد» أن يختصر المسافة الطويلة، ولا يكون ذلك إلا بخوض صحراء قاحلة قاتلة مهلكة، وحذره الناس من خوض تلك الصحراء التي لم يتجرأ عليها أحد من قبل، فقال «خالد بن الوليد»: «لابد من ذلك، لابد أن

أخرج من وراء جموع «الروم»؛ فلا تحبسوني عن نصرة وغياث المسلمين».

(ياله من شعور طيب من مسلم نقي طاهر، ركب المخاطر على استعداد تام لخوض الصعاب، واجتياز المفاوز لا لشيء إلا لنصرة إخوانه المسلمين، فأين نحن من ذلك كله، وأين الألف مليون مسلم وزيادة مما يجري لإخوانهم: في «فلسطين» وفي «العراق» وفي «الشيشان» وفي «كشمير» وفي ...؟).

«خالد» يقرر أخيراً عبور تلك المفازة المهلكة ـ وكأن العرب لم تسم الصحراء «مفازة» رجاء فوز من يقطعها إلا لهذا الموقف ـ واختار لها دليلاً خبيراً اسمه «رافع بن عميرة»، واقتحمها المسلمون ببسالة وشجاعة نادرة، وتحت الشمس الحارقة، وفوق الرمال المشتعلة، خاض المسلمون تلك المسافة في خمسة أيام فقط، وقد شارفوا على الهلاك بعد نفاد مائهم، لولا أن أغاثهم اللَّه عز وجل بعين ماء قال عنها الدليل: «واللَّه ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام منذ خمسين سنة».

(هو تأييد اللَّه ونصره وحفظه عز وجل لعباده المجاهدين؛ فالتضحيات لا تذهب سدى، بل كلها عند الرحمن الذي هو خير حافظًا وهو أرحم الراحمين).

وفي الطريق استطاع المسلمون فتح عدة مدن وقرى كانت خاضعة للنفوذ الروماني: مثل «تدمر»، و«بهراء»، و«قراقر»، و«بصرى»، وكانت مقدمة للنصر وبشرى للمسلمين.

تكامل جمع المسلمون بوادي «اليرموك» وصار عدده ستة وثلاثين ألفًا، وقيل: أربعين ألفًا، أما جيش الرومان فكان أربعين ومائتي ألف: منهم ثمانون ألفًا مقيدين بالسلاسل والحبال للقتال حتى الموت، ويتقدمهم جمع كبير من الرهبان والقساوسة يرفعون الصليب، ويتلون الترانيم لحثّ الجند على القتال، عندما وصل «خالد» واجتمع مع باقي القادة لاحظ أمرًا في غاية الخطورة

يؤدي حتمًا للهزيمة؛ وهو أن الجيوش المسلمة منقسمة على نفسها، وسوف يقاتلون «الروم» «متساندين»: ومعنى كلمة «متساندين»: أن كل جيش من الجيوش المسلمة - وقد كانوا أربعة كما علمنا، وصاروا خمسة بقدوم «خالد» - سوف يقاتل «الروم» تحت طاعة وإمرة قائده فقط، والجند لا يأتمرون إلا بأمر قائدهم فقط، لا غيره؛ فقال لهم «خالد»: «إن هذا يوم من أيام اللَّه والإسلام، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي؛ أخلصوا جهادكم للَّه، وأرضوا اللَّه بعملكم؛ فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتبعية، وأنتم متساندون؛ فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن مَن ورائكم - يعني الخليفة - لو يعلم عملكم هذا حال بينكم وبينه، والرأي أن تأمير بعضكم بعضًا لا ينتقصكم عند اللَّه ولا عند الخليفة؛ فهلموا فلنتعاور الإمارة، وليكن بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غدٍ؛ حتى تتأمروا كلكم، ودعوني أتأمَّر اليوم».

(وكأنا بـ«خالد بن الوليد» طبيبًا يصف حقيقة بلاء الأمة وأصل دائها؛ فحال أمتنا الآن تمامًا كما قال «خالد»: متساندة؛ كل في واد، وكل مشغول بنفسه، مهتم بدنياه عما يجري لإخوانه؛ مما سهل على أعدائنا افتراسنا الواحد تلو الآخر، والعلاج والدواء في الاتحاد تحت راية واحدة: هي راية «لا إله إلا اللَّه»؛ لذلك فإن أهم الأولويات عند أعداء الإسلام في حربهم ضد هذه الأمة تفتيت وحدتها بهدم الخلافة الإسلامية التي كانت السياج والدرع الواقي لبيضة هذه الأمة).

• اندلاع الحرب الهائلة:

أصبح «خالد بن الوليد» القائد العام للجيوش الإسلامية؛ فعمل على تنظيمها على شكل الكراديس: والكردوس مثل الكتيبة؛ ويضم ألف مقاتل، وجعل على رأس كل كردوس قائدًا أو بطلاً من شجعان المسلمين، وقسَّم الجيش بعدها إلى ميمنة وميسرة وقلب، وجعل «أبا عبيدة» في القلب؛ ليستحي منه المنهزم من القتال، وجعل «يزيد» على الميمنة، و«عمرو بن

العاص» على الميسرة، وجعل النساء في مؤخرة الجيش، وأعطاهن سيوفًا يضربن بها الفارين من أرض القتال، وجعل «أبا سفيان» واعظ الناس، و«المقداد بن الأسود» يقرأ من القرآن سور وآيات الجهاد لتحميس المسلمين، وأصبح كل شيء على أفضل وجه استعدادًا للقاء الفاصل.

قبل أن يبدأ القتال طلب القائد الروماني «ماهان» الحديث مع «خالد بن الوليد»؛ فاجتمع معه، وقال «ماهان» مستهزئًا وخائفًا في نفس الوقت: «إنا قد علمنا أن ما قد أخرجكم من بلادكم هو الجهد والجوع؛ فهلموا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعامًا وترجعون إلى بلادكم على أن نرسل لكم مثلها في العام المقبل»؛ فقال له «خالد بن الوليد»: «إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت غير أننا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم «الروم» فجئنا لذلك»؛ ففزع «الروم» من ذلك الكلام فزعًا شديدًا؛ وقالوا: هذا ما كنا نتحدث به عن العرب، وهكذا استطاع «خالد» بحسن فطنته أن يرد كيد «ماهان» في نحره.

تصاف الفريقان، وتهيأ الجميع للقتال، وحميت النفوس وتنسمت عبير الجنة، وفجأة يسمع القائد «خالد بن الوليد» جنديًا من الصف يقول: «ما أكثر الروم وأقل المسلمين!!»؛ فيرد عليه بسرعة فيقول: «بل قل ما أكثر المسلمين وأقل «الروم»، إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان».

(وهنا نقول: ما أكثر الدروس التي أعطانا إياها سيف الله «خالد بن الوليد» في هذه المعركة؛ فهو يعلمنا أن الهزيمة الحقيقية هي هزيمة القلوب والنفوس، والخوف من الناس، ويوم أن رأى المسلمون عدوهم في غير صورته الحقيقية تضخم الباطل في عيونهم، وقلت وضعفت الهمم، وماتت العزائم، ودخل المسلمون سجن خوفهم، وظل عدوهم جاثمًا على هذه الأمة حتى يقيض الله عز وجل من هذه الأمة من يحطم

أغلال الوهم، وأسوار الخوف، وعندها تنتصر الأمة من جديد؛ وهو آت لا محالة).

بعدها أمر «خالد» أبطال المسلمين: مثل «عكرمة بن أبي جهل» و «القعقاع بن عمرو» بإنشاب القتال، وبالفعل بدأت رحىٰ أعظم معركة في تاريخ المسلمين بـ«الشام» في الدوران.

• مشاهد من أرض المعركة:

أول من قتل من المسلمين يومئذ شهيداً: رجل لا يعرف أحد اسمه، ولكن اسمه ـ إن شاء اللَّه ـ في عليين، جاء إلىٰ «أبي عبيدة بن الجراح» فقال له: «إني تهيأت لأمري فهل لك من حاجة إلىٰ رسول اللَّه ﷺ»، فقال أبو عبيدة: «نعم تقرؤه عني السلام، وتقول له يا رسول اللَّه إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا». فتقدم هذا الرجل، وكسر جفن سيفه، وقاتل حتىٰ قتل رحمه اللَّه.

(هذا هو الإيمان الصادق، واليقين الراسخ الذي يتأكد معه المسلم أنه على الحق مهما كانت الظروف، حتى كأنه يرى الجنة رأي العين، ويتأكد من لقاء رسول اللَّه ﷺ، وهو يقين وإيمان تنهار أمامه الجبال العظام).

حملت «الروم» بكل قوة علىٰ ميمنة المسلمين؛ فقاد «خالد» مجموعة من الفرسان، ورد هذه الحملة وأزالها عن ميمنة المسلمين، وذلك بمائة فارس فقط، بمائة فارس رد «خالد» أكثر من خمسين ألفًا من «الروم».

(سبحان اللَّه مائة يردون خمسين ألفًا!! أية قوة وشجاعة تلك، بل أي إيمان ويقين هذا؟!).

بعدها التحم المسلمون مع «الروم» في معركة هائلة، اندفع فيها «الروم» بكل قوتهم، وفي منتهىٰ الشراسة؛ حتىٰ أزالوا المسلمين عن مواقعهم، وكادوا أن يصلوا إلىٰ خيمة قائد المسلمين «خالد بن الوليد»، وعندها حدث موقف «خالد» الذي غير التاريخ؛ يرويه عكرمة بن أبي جهل فيقول: فنادىٰ في

المسلمين: «قاتلت النبي ﷺ في كل موطن - يعني أيام الجاهلية - ثم أفر اليوم!» ثم قال: «من يبايع على الموت؟» فبايعه عمه «الحارث بن هشام» و«عكرمة» وولده «عمرو بن عكرمة» و«ضرار بن الأزور» في أربعمائة من أبطال المسلمين وفرسانهم؛ فقاتلوا قتال من لا يرى الحياة أمام خيمة «خالد بن الوليد»، حتى أثبتوا جميعًا جراحًا، وحُمل «عكرمة» وولده «عمرو» إلى القائد «خالد» وهما في الرمق الأخير؛ فوسدهما «خالد» فخذيه، وقطر في حلقيهما الماء؛ فقال «عكرمة» وهو يعالج الموت في النزع الأخير: «زعم عمر بن الخطاب أنا لا نستشهد يا «خالد» هل هذه ميتة يرضى عنها الله ورسوله» ثم مات هو وولده رحمهما الله.

(سبحان الله! ما أعظم هذا الدين: عكرمة الذي خدم الكفر والشيطان معظم سني حياته، وحارب من أجلهما خاتم المرسلين، ها هو اليوم بطل الإسلام الشهيد الذي يبحث منذ أسلم عن خاتمة يرضي عنها الله ورسوله، وفي ذلك عظة وعبرة لمعشر الدعاة الذين ييأسون سريعًا من دعوة الناس إذا رأوا منهم إعراضًا أو صدودًا، أو حتى محاربة لهذا الدين، لا تملوا أبدًا من الدعوة؛ فإنكم لا تدرون كيف تكون خاتمة هؤلاء المعرضين، أو حتى المحاربين).

قاتل نساء المسلمين يوم «اليرموك» قتالاً رهيبًا، وكن يستقبلن الفارين بالعصي والحجارة والسيوف، وجعلت «خولة بنت ثعلبة» تقول:

يا هاربًا عن نسوة تقيات

فعن قليل ما ترى سبيات

ولا حصينات ولا رضيًّات

فحمي الفارون عندها، وعادوا للقتال على أشد ما يكون، وكانت بطلة الإسلام يومها الصحابية الجليلة، وافدة النساء «أسماء بنت يزيد الأنصارية»؛

حيث قتلت يومها تسعة من «الروم» بعمود خيمتها .

وبينما القتال يدور على أشده جاء البريد من المدينة مع رجل فطن ذكي هو «محمية بن زنيم» ؛ فسأله الناس عن الأخبار فقال لهم كل خير ، وبشرهم بالسلامة والمدد ، والحقيقة أنه قد جاء بخبر وفاة الخليفة «أبو بكر» ، وتولية «عمر بن الخطاب» مكانه ، وعزل «خالد بن الوليد» عن قيادة الجيوش ، وتعيين «أبي عبيدة بن الجراح» مكانه ؛ فلما علم «خالد» الخبر سأل «محمية» : «هل أخبرت أحداً؟» فقال له : «لا» فقال له : «أحسنت ، ولا تخبر أحداً حتى لا تفت في عضد المسلمين» وأخذ «خالد» الرسالة ووضعها في كنانته حتى انتهت المعركة .

(والمرء لا يدري من أيهما يعجب: من السفير الذكي الفطن، الذي لم يخبرهم بحقيقة الأخبار؛ فيصاب المسلمون بالوهن والحزن وهم قبالة عدوهم، أم من القائد الفذ الذي يعلم دخائل الجنود ونفسيتهم أثناء القتال؛ فلم يخبرهم بعزله؛ فينفرط عقد الجيش، ويختلفون من جديد حول اختيار قائد ميداني جديد! ! ولكن لا عجب؛ فالجميع خريجو مدرسة النبوة، وتلاميذ عند المربي الأعظم ﷺ).

• الحوار العجيب :

والقتال دائر على أشده يحدث موقف في غاية العجب ؛ حيث يخرج أحد القادة الرومان واسمه «جورج بن تيودور» ، وسمته المراجع العربية «جرجة» ، وكان يعرف اللغة العربية ، وقد اشترك من قبل في معركة «مؤتة» ، وأعجبه صمود المسلمين ، وكان أيضاً من علماء أهل الكتاب ، خرج «جرجة» من بين الصفوف وطلب الحوار مع «خالد بن الوليد» ، واقترب القائدان حتى أصبحت أعناق فرسيهما مختلفة ، ثم دار هذا الحوار العجيب .

«جرجة»: يا «خالد» اصدقني القول ولاتكذبني؛ فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني؛ فإن الكريم لا يخادع المسترسل، هل أنزل اللّه علىٰ نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه؛ فلا تسله علىٰ قوم إلا هزمتهم؟!

قال «خالد»: لا.

قال «جرجة»: ففيم سميت سيف اللّه المسلول؟!

قال «خالد»: إن اللّه قد بعث فينا نبيًا؛ فكنت ممن كذبه وقاتله، ثم إن اللّه هداني فتابعته؛ فقال لي: «أنت سيف اللّه سله اللّه علىٰ المشركين»، ودعا لي بالنصر.

فقال «جرجة»: فأخبرني إلام تدعون؟

قال «خالد»: إلىٰ الإسلام، أو الجزية، أو الحرب.

قال «جرجة»: فما منزلة الذي يجيبكم ويدخل فيكم؟

قال «خالد»: منزلتنا واحدة.

قال «جرجة»: فهل له مثلكم في الأجر والذخر؟

قال «خالد»: نعم وأفضل؛ لأننا اتبعنا الرسول وهو حي يخبرنا بالغيب، ونرىٰ منه العجائب والآيات، وحق لمن رأىٰ ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يُسلِم، وأنتم لم تروا مثلنا، ولم تسمعوا مثلنا؛ فمن دخل بنية وصدق كان أفضل منا.

وعندها قلب «جرجة» فرسه، ومال مع «خالد»، وأعلن إسلامه، واغتسل وصلىٰ ركعتين مع «خالد» في خيمته، ثم خرج مع «خالد» وقاتل «الروم» حتىٰ قتل رحمه اللّه.

(إن القلوب التي مازال بها ومضة من فطرة سليمة، وبصيص من نور إذا سمعت دعوة الحق ممن يحسن عرض هذه الدعوة فإنها بإذن اللَّه سوف تهتدي، فانظر كيف عرض «خالد بن الوليد» الإسلام بصورة مبسطة سلسة حببت «جرجة» في الدين حتى تحول من كافر محارب للَّه ولرسوله إلى جندي مسلم مؤمن يقاتل في سبيل اللَّه إخوانه وبني جلدته والذين كان في صفهم منذ قليل، وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب).

• ختام المعركة «يا نصر الله اقترب»

كان القتال يوم «اليرموك» على أشده، وثبت كل من المسلمين و«الروم» يومها ثباتًا عظيمًا، حتى صار القتال مثل الرحا؛ فلم يُرَ يومها إلا مخًا ساقطًا، وكفًا نادرًا، و رأسًا طائرًا، وتصافح المسلمون و«الروم» بسيوفهم، وضرب «خالد» بسيفه من طلوع الشمس لغروبها، وصلّى الناس إيماءً، وهدأت الأصوات يوم «اليرموك»، حتى ارتفع صوت فغطى المعسكر كله يقول: «يا نصر اللَّه اقترب؛ الثبات الثبات يا معشر المسلمين». فإذا هو «أبو سفيان بن حرب»؛ فأصابه سهم في عينه ففقأها، وانكشفت صفوف «الروم»، ورأى بعض أشراف «الروم» ما جرى لهم فقالوا: «لا نحب أن نرى يوم سوء؛ إذ لم نسطع أن نرى يوم سرور؛ إذ لم نستطع أن نمنع النصرانية»؛ فالتفوا في ثيابهم حتى قتلهم المسلمون وهم ملتفون، ولم تكد شمس اليوم تغرب حتى كان المسلمون قد هزموا «الروم» الذين فروا من أرض المعركة، وخلفوا وراءهم عشرات الآلاف من القتلى والجرحى، وأكمل «خالد» القائد العام للمسلمين ليلته في خيمة «تذارق» القائد العام للروم، وأرسل «خالد» وراء فلول «الروم» من يتتبعها حتى لا تعيد تنظيم نفسها مرة أخرى.

• شهادة الأعداء:

وصلت فلول «الروم» المنهزمة إلى مدينة «أنطاكية» ـ حيث كان بها «هرقل» ينتظر نتيجة اللقاء الدامي ـ فلما رأى جنوده منهزمين قال لهم: «ويلكم! أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم؛ أليسوا بشراً مثلكم؟!» قالوا: «بلى»، قال: «فأنتم أكثر أم هم؟!» قالوا: «بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن»، قال: «فما بالكم تنهزمون؟!» فقال أحد كبار قادة «الروم»: «من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصحون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونرتكب الحرام، وننقض العهد، ونغضب ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي اللَّه، ونفسد في الأرض»، فقال له «هرقل»: «أنت صدقتني».

(إن أعداء الإسلام قد أدركوا سبب انتصارنا، ومصدر قوتنا، عرفوا كيف يستطيع المسلم أن يصمد أمام أعظم قوة على وجه الأرض مهما كانت وكيف كانت، فهل عرفت أمة الإسلام ذلك؟! هل عرفت مصدر قوتها وأصل عزتها؟ أعداؤنا عرفوا ونحن لم نعرف؛ فقال قائلهم: «كأس وغانية تعمل في أمة محمد أشد من ألف مدفع»، أعداؤنا عرفوا الحقيقة؛ فاجتهدوا في صرف المسلمين عنها، والتفنن في تزيين الشهوات، وابتداع الرذائل ليقع المسلمون صرعى غرائزهم؛ فيسهل بعد ذلك سياستهم وقيادتهم).

تاريخ الرسل والملوك	المنتظم	سير أعلام النبلاء
تاريخ خليفة بن خياط	الطريق إلى بيت المقدس	تاريخ دمشق
البداية والنهاية	محاضرات الخضري	تاريخ الخلفاء الراشدين
الكامل في التاريخ	فتوح البلدان	التاريخ الإسلامي
العبر في من غبر ١/ ٢	موسوعة التريخ الإسلامي	

معركة النمارق . ثورة الأسد

الزمان / ٨ شعبان ١٣ هـ.

المكان / منطقة «النمارق» - «الحيرة» - «العراق».

الموضـــوع / المسلمون بقيادة «أبي عبيد الثقفي» يستعيدون السيطرة على «العراق».

الأحداث

• الناصح الأمين:

عندما أصدر الخليفة «أبو بكر الصديق» أوامره للقائد «خالد بن الوليد» بالتوجه من الجبهة العراقية إلى الجبهة الشامية؛ لإنجاد المسلمين هناك من جيش «الروم» الجرار، والذي يفوق المائتي ألف مقاتل، وكان «أبو بكر» قد عيَّن «المثنى بن حارثة» خليفة لـ«خالد بن الوليد»؛ وذلك لمقدرة «المثنى» القيادية، بجانب خبرته العسكرية الكبيرة، وأيضًا لكون دياره على حدود «العراق»، وكلها صفات أهلت «المثنى» لهذا المنصب.

(وهذا يظهر لنا أهمية اختيار القادة المناسبين لمناصبهم، وأن الصفات هي التي تقود للمناصب، وليس شيئًا آخر؛ لذلك جعل الرسول ﷺ من علامات الساعة أن يوسَّد الأمر لغير أهله)

كان خروج «خالد بن الوليد» من «العراق» فرصة ذهبية للفرس الذين

تنفسوا الصعداء بعد خروجه، وفرحوا فرحًا شديدًا، وقويت عزائمهم ضد المسلمين، ولكن وقعت في تلك الفترة فتنة كبيرة داخل البلاط الفارسي: حيث قتل كسرى «شهر براز»، وتولت مكانه أخته «دخت»، ولكنها كانت ضعيفة سرعان ما خلعت، وتولى مكانها «سابور بن شهربراز»؛ فتآمرت عليه ابنة عمه «آزر ميدخت» وقتلته هو وقائده «فرخزاذ بن نبدوان»: وهو والد القائد الأشهر «رستم»، وكان «رستم» وقتها حاكمًا على إقليم «خراسان»؛ فسارع بالانتقام من قتلة أبيه، وتحالف مع «بوران» بنت كسرى، ودخلا «المدائن»، وقتلوا «آزرميدخت»، وعين «رستم» «بوران» بنت كسرى على حكم فارس.

لم يغتر «المثنى بن حارثة» القائد الجديد للعراق بنزاعات البلاط الدامية في «المدائن»، وشعر أن حجم جيش المسلمين - وكان تسعة آلاف جندي - في وضع حرج، خاصة أنهم متناثرون في نقاط متفرقة مما يسهل على عدوهم المتربص الوثوب عليهم، والفتك بهم؛ فقرر «المثنى» التحرك سريعًا؛ فتوجه إلى المدينة للاجتماع مع الخليفة «أبي بكر»، وشرح الأوضاع على الجبهة العراقية، ولكنه لما وصل المدينة وجد أبا بكر في النزع الأخير، ورغم ذلك استطاع أن يجتمع معه، وشرح له الظروف بـ«العراق»، وضرورة إرسال إمدادات للمسلمين، وما لبث أن توفي «أبو بكر» في اليوم التالي بعدما أوصى خليفته «عمر بن الخطاب» بندب الناس للجهاد ضد الفرس.

• الشائعة الخطيرة:

من اليوم الأول لخلافته قام الخليفة «عمر بن الخطاب» بجمع الناس، وخطبهم، وحثهم على الجهاد في سبيل الله بـ«العراق»، وقام معه «المثنى بن حارثة»، ولكن الناس تلكأوا، وجاءت الاستجابة ضعيفة، وكان السبب في ذلك الشائعة الرائجة: أن الفرس مقاتلون أشداء، بأسهم شديد عند القتال، فحاول «المثنى» أن يبين للناس خطأ هذه الشائعة الكاذبة، وزور الصورة المرسومة

في مخيلة الناس عن قوة الفرس، ومنَّاهم بخيرات «العراق»، وظل عدة أيام يدعو الناس للجهاد، ولكن الاستجابة كانت معدومة، حتى بادر رجل من عامة الصحابة بالتطوع: وهو «أبو عبيد الثقفي»، ثم قام آخر وهو «سعيد بن عبيد الأنصاري»، ثم أخر حتى بلغ عددهم في النهاية ألف رجل لا غير.

أثر هذا الموقف في نفس الفاروق، وحزن لضعف استجابة المسلمين للجهاد في سبيل الله عز وجل؛ لذلك عندما اجتمع عنده المجاهدون اختار لقيادتهم «أبا عبيد الثقفي» أول من لبى النداء، ولما قيل له: «هلا اخترت واحدًا من كبار الصحابة، أو السابقين» رفض الفاروق بشدة، وقال وهو في غاية التأثر: «لا والله لا أفعل يا أصحاب النبي ﷺ: لا أندبكم فتنكلون، وينتدب غيركم فأؤمركم عليهم، والله لا أؤمر عليكم إلا أولهم انتدابًا».

(وهذا التأديب في غاية الحكمة والتربية؛ فهو تأديب في ثوب تأنيب، إذ كيف يتأخر كبار الصحابة عن مثل هذه المواقف؟! كما أنه يفتح الطريق بعدها للمسارعة والمسابقة في تلبية داعي الجهاد، أو غيره من الأعمال الجليلة لنيل شرف القيادة؛ فكم من درس أعطيتنا ياعمر؟!).

• الأسد والثعلب:

انطلق «المثنى» إلى «العراق» ليلحق بجنوده؛ حتى لا تتأثر معنوياتهم بغياب قائدهم وهم قبالة عدوهم، ولم ينتظر حتى يتم المتطوعون استعدادهم للسير، ووصل «المثنى» لـ«الحيرة» في ١٥ رجب سنة ١٣ هـ، وفي هذه الأثناء كان أهل فارس قد اصطلحوا على القائد «رستم»؛ بحيث يكون الحاكم الفعلي لفارس مدة عشر سنوات، ووصيًا على الفتى «يزدجرد» حتى يبلغ سن الرشد.

وكي يبرهن «رستم» على جدارته بهذا المنصب الكبير وضع خطة شريرة تستهدف تصفية الوجود الإسلامي تمامًا في «العراق»: تقوم على إشعال

الشورات، وتأليب رعايا الدولة الفارسية الذين دخلوا في ذمة المسلمين وعهدهم لنقض هذا العهد، وخفر الذمة في كل مكان وفي آن واحد، حتى لا يستطيع المسلمون مواجهة كل هذه الثورات، وليثير حماس الثائرين قال رستم لهم: «إن الأمير عليكم في «العراق» هو أول من يعلن الثورة على المسلمين في السواد - بين النهرين - ولكن هذه الخطة الشريرة لم تكن لتغيب عن ذهن القائد العسكري الجديد «المثنى بن حارثة»، الخبير بالعقلية الفارسية، والطبائع المجوسية، والذي أدرك خطورة الموقف؛ فقرر - وبسرعة - الانسحاب من كل المناطق الخاضعة للمسلمين، والانحياز إلى حدود الجزيرة العربية من «العراق»، وكان «المثنى» لا تهمه الأرض بقدر ما تهمه أرواح جنوده؛ فنفذ الانسحاب بسرعة فائقة جعلته لا يخسر رجلاً واحداً، واغتاظ «رستم» جداً لفشل خطته التي رسمها لإبادة المسلمين، ولله الفضل وحده في فشلها، ثم ذكاء «المثنى» رحمه الله.

(في ذلك درس وعبرة لنا - معشر المسلمين عامة، والدعاة خاصة - في عدم التهور، والحكم على الأمور بعاطفية واستعجالية تفسد أكثر مما تصلح، وتضر أضعاف ما تنفع؛ فـ«المثنى» لم يتسرع ويدخل حربًا يعلم فيها تمام العلم أنها خاسرة؛ فكيف يواجه تسعة آلاف مقاتل أكثر من نصف مليون مقاتل، كلهم يثور في آن واحد، وعلى كل الجبهات؟!

فالمسلم أسد عندما تكون المواجهة في صالحه، وثعلب لا يترك عدوه يناله عندما يضطر إلى الثعلبة، والحرب كما قال الحبيب ﷺ: «الحرب خدعة» [صحيح الجامع ٣١٧٦] وإنما نقول هذا للذين استعجلوا الصدام قبل الأخذ بالأسباب، وخاضوا حروبًا خاسرة لا لشيء إلا خوفًا من أن يقال إنهم جبنوا، أولم يضحوا).

• بين أنياب الأسد :

قدم المسلمون المتطوعون من المدينة يقودهم «أبو عبيد الثقفي» الذي اطلع على خطة الانسحاب التي قام بها «المثنى بن حارثة»؛ فأعجبته وأقرها، أما على الجبهة الفارسية فقد طاش سهمها، وأيضًا صوابها؛ إذ تمكن المسلمون من الانسحاب دون خسارة، وكان القائد «جابان» هو كبير القادة المكلفين بتصفية المعسكر الإسلامي، وكان يمني نفسه أن يكون حاكم «العراق» لأنه أول من ثار على المسلمين عملاً بوعد «رستم»، ولما لم يقدر على تنفيذ خطته الشريرة في الفتك بالمسلمين دفعه طمعه في الرياسة لأن يقوم بمطاردة المسلمين، حتى الصحراء لتدمير جيشهم الصغير الذي لا يزيد على العشرة آلاف بعد انضمام المدد إليهم.

نقل سلاح الاستخبارات الإسلامية الخبر للقائد «أبي عبيد الثقفي»، وذكروا له ضخامة الجيش الفارسي، وذلك قبل أن يشرع هذا الجيش بالتحرك، وعندها قرر «أبو عبيد» ومعه «المثنى» ضرورة مبادأة الفرس قبل أن يقبلوا عليهم، وكان «جابان» واثقًا من النصر؛ فجيشه يجاوز المائة ألف، وهو جيد التسليح؛ مما جعله يسير بسرعة وقوة، ولكن دون حذر، وتحرك المسلمون كعادتهم مع الفرس بنظام الصاعقة المحرقة، والرحى الطاحنة؛ حيث انقض الأسد المسلم على الفريسة الفارسية بمنتهى الضراوة والقوة؛ جعلت الدهشة والذهول يسيطران على «جابان» ومن معه من هول الصدمة السريعة، وحاول الفرس بادئ الأمر مقاومة الصدمة، ولكن ولات حين مناص؛ فقد كان المسلمون في هجومهم يتهافتون على الموت تهافت الفرس على الحياة، وهذا ما لم يطقه الفرس، ولا يطيقه أي عدو للإسلام مهما كانت قوته، وحاول «جابان» الانسحاب بصورة منظمة، ولكن الفوضى عمت الجيش بصورة كبيرة؛ فالجميع يريد الفكاك بنفسه من بين أنياب الأسد.

• عدل الإسلام:

من هول الصدمة فر الفرس لا يلوون على شيء، لدرجة أن الحرس الخاص بالقائد «جابان» فر، وتركه يقع في الأسر؛ حيث أسره رجلان من قبيلة «ربيعة»، وكان «جابان» شيخًا متقدمًا في السن؛ فزهدا الرجلان في قتله، واتفقا معه على أخذ الفدية، وهما لا يعرفان شخصيته، وكان «جابان» يخاف القتل جدا؛ فاشترط عليهما أن يعطيهما الجزية في خيمة القائد؛ لأنه يعرف أن العرب والمسلمين مشهورون بالوفاء بالعهد، فوافقاه على شرطه، فلما ذهب به إلى خيمة «أبي عبيد الثقفي»؛ قال لهما: «أوفيا للرجل بعهده بعد دفع ما عليه». وكان أبو عبيد لايعرفه، وفجأة دخل الخيمة قوم من ربيعة؛ فعرفوا «جابان»، وقالوا لأبي عبيد: «هذا الملك جابان الذي لقينا بهذا الجمع». وأشاروا بقتله؛ فقام أحد المسلمين اللذين أسرا «جابان» وقال: «أسرته أنا وصاحبي من غير أمان»، وهم بقتله؛ فمنعه القائد «أبو عبيد الثقفي»، وقال لهم: «لا تفعل، ما تروني فاعلاً معاشر ربيعة، أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا! معاذ الله من ذلك، إني أخاف أن أقتله وقد أمنه رجل من المسلمين، المسلمون في التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلهم». فقالوا له: «إنه الملك». فقال أبو عبيد: «لا أغدر».

(هكذا تكون أخلاق الإسلام، وفرسان الإسلام التي جعلت الأعداء يشهدون بذلك ـ والفضل ما شهد به العدا ـ وقالوا بأعلى صوتهم: «إن دولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة».

تاريخ الرسل والملوك	القادسية وفتوح العراق	موسوعة التاريخ
الكامل في التاريخ	فتوح البلدان	تاريخ الخلفاء
البداية والنهاية	التاريخ الإسلامي	
المنتظم	محاضرات الأمم الإسلامية	

معركة البويب الطاحنة . انتقام الأسد الجريح

الزمان / ١٢ رمضان ـ ١٣ هـ.

المكان / البويب ـ نهر «الفرات» ـ «العراق».

الموضـــوع / المسلمون بقيادة «المثنى بن حارثة» يثأرون من الفرس بعد معركة الجسر.

الأحداث

• الهزيمة الطارئة:

منذ أن رُفعت راية الجهاد على الجبهة العراقية في بداية السنة الثانية عشرة من الهجرة على يد القائد المظفر «خالد بن الوليد»، وخاض المسلمون معارك طاحنة هائلة، وكلها متقاربة في التوقيت، واستطاع المسلمون ـ بفضل اللَّه عز وجل وحده ـ أن يحققوا النصر فيها كلها، حتى جاء يوم الجسر بعد أن تغيرت القيادة لحاجة الجبهة الشامية للعبقرية الخالدية، وأصبح القائد الجديد هو «أبو عبيد الثقفي»، ولم يكن على نفس المستوى الفني لقيادة الجيوش المسلمة بـ«العراق»؛ فحقق عدة انتصارات، حتى وقع في غلطة عسكرية كبيرة أثناء معركة الجسر أدت لهزيمة المسلمين لأول مرة من الفرس، ومما ساعد على مضاعفة حجم الخسائر تهور أحد الجنود المسلمين حين قطع الجسر الذي كان يمثل خط الرجوع الوحيد للمسلمين؛ مما أدى لغرق كثير من المسلمين بنهر «الفرات»، وإصابة الكثير من المسلمين بجراحات خطيرة أثناء محاولاتهم إعادة ربط الجسر المقطوع، ومن هؤلاء المصابين القائد «المثنى بن حارثة»،

والذي تولى قيادة المسلمين بعد استشهاد «أبي عبيد الثقفي».

كان لوقع هذه الهزيمة الطارئة على المسلمين أثر بالغ في سياسة الخليفة «عمر ابن الخطاب» من حيث إرسال الإمدادات، وتجهيز الجيوش المسلمة، خاصة بعد أن فر كثير من الجنود من أرض معركة الجسر، وهاموا على وجوههم خجلاً وحزنًا من مصابهم، ولم يبق مع الأسد الجريح «المثنى بن حارثة» سوى ثلاثة آلاف فقط؛ فسمح الخليفة - ولأول مرة - لمن سبقت ردته بالاشتراك مجاهداً في سبيل اللَّه، وذلك بعد أن حظر عليهم الاشتراك في الفتوحات، وكان كثير منهم يتحرق شوقًا لذلك تكفيراً عن خطيئته السابقة، وقام الفاروق أيضًا بتجميع قبيلة «بجيلة» - وكانت متفرقة بين القبائل - وذلك بناءً على طلب سيدهم: الصحابي الجليل «جرير بن عبد اللَّه البجلي»، وصارت تلك القبيلة عماد الجيوش الإسلامية بـ«العراق»، وبذلك استطاع الخليفة «عمر بن الخطاب» أن يسد الفراغ الناشئ بعد الهزيمة الطارئة بمعركة «الجسر».

• أليس الصغرى:

دائمًا يظن أعداء الإسلام أن المسلمين أضعف وأقل من أن يفيقوا من الضربات التي توجه إليهم، ولكن جند الإسلام المخلصين لا توهنهم أمثال هذه العثرات الطارئة؛ فهم على استعداد تام لتلقين الأعداء الدرس تلو الآخر، ففي اليوم التالي لمعركة «الجسر» مباشرة خرج قائدان من أكبر قواد الفرس: وهما «جابان» و«مردانشاه» للتنزه على ظهور الخيل فرحًا بانتصارهم على المسلمين، وهم يحسبون أن المسلمين قد فروا بلا رجعة من «العراق»، ولكن أسد اللَّه الجريح «المثنى» قد بث عيونه وجواسيسه بالمنطقة خوفًا من أن تصل إمدادات فارسية جديدة للمنطقة، بينما المسلمون عددهم ثلاثة آلاف فقط، وبالتالي يكون على استعداد تام لمواجهة كافة الاحتمالات.

نقلت هذه الاستخبارات خبر خروج «جابان» و«مردانشاه» للنزهة في قلة

من حراسهم؛ نقلوا ذلك للقائد «المثنى» الذي قرر توجيه ضربة موجعة للفرس؛ حتى لا يتمادوا في طغيانهم، فقاد «المثنى» مجموعة مختارة من فرسانه للقيام بعملية فدائية ضد «جابان» و«مرادنشاه»، وبالفعل استطاع «المثنى» أن يأسرهما، وفي الحال قرر «المثنى» إعدامهما فوراً، وقال لهما في غيظ: «أنتما غررتماه وكذبتماه واستفززتماه»، ثم ضرب عنقيهما بيده في الحال؛ ليعلم أعداء الإسلام أنه لا رحمة في قلوب المسلمين تجاه أعدائهم، وكانت هذه الضربة المؤلمة عند منطقة «أليس»، وقد جعلت الفرس يفيقون من سكرتهم ونشوتهم بالنصر الطارئ الذي حققوه على المسلمين.

• الكافر بن المؤمن:

كان القائد الكبير «رستم» بحكم خبرته العسكرية الكبيرة والطويلة يعلم أن الهزيمة الطارئة يوم الجسر لا تمثل تغييراً كبيراً في ميدان القتال، فقرر التجهيز والتحضير لجيش جرار للقضاء على جيش المسلمين الصغير بـ«العراق»، لذلك طلب الاجتماع مع ملكة الفرس «بوران بنت كسرى»، وكانت ذات حكمة مشهورة، ومن أذكى النساء وأدهاهن، وأعلمهن بشئون الحرب، اجتمع بها كي يطلب منها اعتمادات مالية ضخمة لتجهيز جيش جديد، ويكون ذلك على وجه السرعة، وقبل وصول الإمدادات للمسلمين- والتي وصل خبر قدومها لرستم- وبالفعل وافقت «بوران» على ذلك.

قرر «رستم» أن يعد جيشاً جديداً يحشد فيه أقوى الأسلحة الفارسية ألا وهو سلاح الفرسان، وجعل على قيادته القائد «مهران بن باذان»، والعجيب أن «مهران» هذا- والذي يعتبر من أمهر قادة الفرس- هو ابن «باذان»؛ وهو من جملة الصحابة، وكان عاملاً لكسرى على اليمن، ودخل في الإسلام بعدما تيقن من نبوة الرسول ﷺ، وأبلى «باذان» في حروب الردة بلاءً حسناً حتى مات مسلماً في جملة الصحابة، فكان هذا القائد الجديد «مهران» يستحق

وصف الكافر بن المؤمن؛ فالأب مؤمنٌ يحارب في سبيل اللَّه ونصرة الإسلام، والابن كافر، قائد لجيوش الكفر، يحارب في سبيل المجوسية وعبادة النار

بالفعل تم إعداد جيش فارسي من أقوى الجيوش التي أعدت لحرب المسلمين، ويتكون من مائة ألف فارس، وخمسين ألفًا من المشاة، يقودهم أمهر القادة الفرس: «مهران بن باذان»، مدعومًا من القيادة الملكية الفارسية، وموعودًا بأعظم المكافآت والإقطاعات في حالة النصر على المسلمين.

• استراتيجية القيادة الإسلامية:

كان القائد «المثنى بن حارثة» من أمهر وأقدر وأخبر القادة المسلمين بالعقلية الفارسية والبيئة العراقية؛ لأنه من قبيلة «شيبان» المجاورة للفرس؛ فهو يعلم تمامًا كيف يفكر الفرس، ويعلم تحركاتهم وردود أفعالهم؛ لذلك اتبع استراتيجية عسكرية حكيمة؛ فقرر نقل مركز القيادة المسلمة من الحيرة إلى منطقة «البويب» غرب نهر «الفرات»؛ حتى لا يصبح صيدًا سهلاً للجيش الفارسي الجرار، وكان اختيار «البويب» دليلاً على العبقرية العسكرية الفذة لـ«المثنى» رحمه اللَّه؛ فـ«البويب» تقع على أطراف الصحراء العربية؛ وهو مكان واسع المطرد يصلح لحرب الصاعقة التي يجيدها أبناء الإسلام العرب، وفي نفس الوقت أرسل «المثنى» إلى قادة الإمدادات الإسلامية القادمة ليتوجهوا إلى منطقة «البويب» بدلاً من «الحيرة» على وجه السرعة؛ مما جعل قادة الإمدادات يقررون ترك النساء والذرية خلفهم في منطقة «القادسية»، مع ترك حامية خاصة للدفاع عنهم، وهذا الفعل جعل حركة الإمدادات في منتهى السرعة.

لم يكن «المثنى» مخطئًا في تصرفه هذا؛ فما كادت الإمدادات تصل لأرض«البويب» حتى طلع الجيش الفارسي العرمرم على ضفة نهر «الفرات» الشرقية، ولنا أن نتخيل هذا اللقاء الدامي بين جيش الفرس الذي يقدر بمائة

وخمسين ألفًا من الفرسان والمشاة؛ جاءوا في أفضل تسليح، وكانوا في غاية الحنق والغيظ ضد المسلمين، وكذلك في غاية الكبر والتيه لانتصارهم الطارئ في معركة «الجسر»، وجيش المسلمين المكون من اثني عشر ألفًا من المقاتلين الأشداء الذين يتحرقون شوقًا للشهادة في سبيل اللَّه، وللانتقام لقتلاهم يوم الجسر، والتكفير عن ذنب الفرار من المعركة يومها، وهي معادلة من وجهة النظر المادية المجردة من أسباب السماء محسومة لصالح الفرس المتفوقين في كل شيء إلا الإيمان، والذي لا ترجح معه أعظم قوة في العالم.

حاول القائد الفارسي «مهران» استدراج القائد المسلم «المثنى بن حارثة» لأن يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه قائد معركة الجسر: «أبو عبيد الثقفي»، وعرض عليه أن يعبر المسلمون نهر «الفرات»؛ لتكون أرض المعركة في الضفة الشرقية، وبالتالي يكون المسلمون محاصرين بين الضغط الفارسي أمامهم ومياه النهر في ظهورهم، وكان الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» بعد يوم الجسر قد أوصى قادة الفتح بوصية نافعة؛ فقال: «لا يعبر المسلمون بحراً ولا جسراً إلا بعد ظفر»؛ فامتنع «المثنى» من تكرار غلطة «أبي عبيد»، وعمل بنصيحة أمير المؤمنين، ورفض أن يعبر النهر، وطلب من الفرس أن يعبروا هم النهر إلى «البويب».

(يجب على المسلمين أن يتعلموا من أخطائهم السابقة؛ ليستفيدوا في مواجهات المستقبل التي مازالت تتكرر وتقع على المسلمين؛ عملاً بحديث رسول اللَّه ﷺ: «لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين» والعجيب أن المسلمين ما زالوا يكررون أخطاء الماضي، في غفلة غريبة، وذهول مريب؛ كأنه ما من دماء أُريقت، ولا أرض ضاعت، ولا مقدسات سلبت، مازال المسلمون يصدقون أعدائهم، ويثقون فيمن لا عهد له ولا ذمة، والضحية الحقيقية لهذه الغفلة هي أمة الإسلام).

طلب القائد «المثنى بن حارثة» من جيش المسلمين أن يُفطروا؛ لأن المعركة

كانت في شهر رمضان، والصوم يضعف قوة المقاتل في المعركة؛ فنادىٰ في الجند: «إنكم صوَّام، والصوم مرهقة مضعفة، وإني أرىٰ من الرأي أن تفطروا، ثم تقووا بالطعام علىٰ قتال عدوكم». فأطاع الجند وأفطروا جميعًا.

(وهكذا تكون الجندية طاعة كاملة لأوامر القائد الحكيم الفقيه؛ إذ ربما يعترض البعض ويؤثر الصيام على الفطر؛ فيضعف عن القتال، وربما يكون سببًا للهزيمة، وحالهم يشبه من قال فيهم رسول اللَّه ﷺ عندما رفضوا الفطر، وأصروا على الصيام فأضعفهم: «أولئك العُصاة»، وقال ﷺ: «ليس من البر الصيام في السفر»).

لما تهيأ الفرس للهجوم كان لهم زجل وهمهمات، وأصوات عالية مشوبة بالكبر والخيلاء والغطرسة، يؤدونها علىٰ صورة الأناشيد والأهازيج العالية؛ فلما سمعهم «المثنىٰ بن حارثة» قال لجنوده: «إن الذي تسمعون فشل؛ فالزموا الصمت، وائتمروا همسًا»، وكان «مهران» يقصد من وراء ذلك إضعاف الروح المعنوية للمسلمين، وما درىٰ أن تلكم الروح الثابتة مصدرها العقيدة السليمة، والإيمان باللَّه عز وجل؛ وهو سلاح لا يقهر، وكان للقائد «المثنىٰ» فرس شموس لا يركبها غيره، وكان لا يركبها إلا عند القتال؛ فاستوىٰ علىٰ ظهرها؛ رغم جراحه الشديدة التي ما زال يعاني منها من معركة الجسر، ووقف يسوي الصفوف، وأثناء ذلك رأىٰ جنديًا من المسلمين يحاول أن يستقتل؛ فخرج عن الصف قبل الالتحام فقال «المثنىٰ»: «ما بال هذا؟!» فقالوا له: «هو ممن فر من الزحف يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل»: يعني تكفيرًا عن فعلته، فقرعه «المثنىٰ» بالرمح تأديبًا له علىٰ إخلاله بالانضباط، ثم قال له: «لا أبًا لك: الزم موقفك؛ فإن أتاك قرنك فأعنه عن صاحبك، ولا تستقتل».

(في ذلك درس عظيم لهؤلاء الذين يستعجلون من أجل مصلحة ومنفعة على حساب المصلحة العامة؛ فهذا الجندي يريد أن ينال الشهادة ليكفِّر بها عن خطيئته من

الممكن جداً أن يكون سببًا للهزيمة، وسريان روح التسيب وعدم الالتزام بالأوامر والنظام، ولربما يقتدي به غيره؛ فالمصلحة العامة، وطاعة القائد المسلم مقدمة على المصلحة الخاصة وهوى ورغبات النفس، وإن كانت في الشهادة نفسها).

• المعركة الطاحنة:

استعد الفريقان للصدام المرعب بـ«البويب» ، الفرس في أكثر من مائة ألف ، والمسلمون في اثني عشر ألفًا لا غير ، وكانت تعليمات «المثنىٰ بن حارثة» ألا يهجم المسلمون إلا بعد ثلاث تكبيرات ، ولكنه ما إن كبر التكبيرة الأولىٰ حتىٰ هجم الفرس بكل قوتهم ، وعاجلوا المسلمين في ثلاث صفوف ضخمة ، ومعهم سلاح الفيل ، وهم يرفعون أصواتهم بالزجل والأناشيد المجوسية ، وكان الالتحام شديداً للغاية ، وتوازنت الكفتان أول الأمر لصبر الفريقين ، وهذا الصبر جعل أمر القتال يطول نسبيًا ، دون حسم من أي من الطرفين ، و«المثنىٰ» يجول علىٰ فرسه الشموس يراقب سير المعركة ، ويشد أزر المسلمين في القتال ، وأثناء ذلك رأىٰ خللاً في صفوف قبيلة «بني عجل» ، وكان القتال عند المسلمين علىٰ أساس قبلي لإثارة الحمية والحماس ؛ فأرسل إليهم رسولاً يقول لهم : «إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم» ؛ فاعتدلوا في القتال حتىٰ صاروا من أشد الناس في القتال .

خالط المسلمون الفرس ، والتحم القلبان ، واشتد القتال بصورة لم يرَ المسلمون والفرس مثلها ، وكان «مسعود بن حارثة» أخو «المثنىٰ» هو قائد الفرسان ، وكان من أشجع الناس في القتال ؛ فنادىٰ في الناس ـ وكأنه قد شعر بدنو أجله ، واشتم رائحة الجنة ، ورآها رأي العين ـ فقال : «إن رأيتموني قتلت فلا تدعوا ما أنتم فيه ؛ فالزموا مصافكم ، وأغنوا غناء من يليكم» . وفعلاً نال ما طلبه ، وفاز بما سعىٰ إليه ، وسقط شهيداً ، ولما رأىٰ أخوه «المثنىٰ» مصرعه ،

وتَضَعْضُعَ المسلمين نادىٰ فيهم بأعلىٰ صوته: «يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخي؛ فإن مصارع خياركم هكذا».

• تطور القتال:

رأىٰ القائد الحكيم «المثنىٰ» أن أمر القتال سيطول جداً، وأن الفرس يقاتلون بمنتهىٰ الضراوة والشدة؛ فقرر تغيير خطة القتال، ومحاولة اختصار سير المعركة وذلك عن طريق ما يلي:

(١) قتل قائد عام جيش الفرس «مهران»، وذلك أخصر طريق لإنهاء القتال؛ ذلك لأن مقتل القائد عادة يكون أهم سبب في الهزيمة، وقد جرب المسلمون ذلك في عدة معارك.

(٢) شن هجوم مركز بقيادة «المثنىٰ» نفسه علىٰ قلب الجيش الفارسي لزحزحته وإبعاده إلىٰ الخلف؛ لخلخلة الثبات الفارسي في القتال، وإحداث فوضىٰ وارتباك في قطاعات الجيش الفارسي.

بالفعل قاد الأسد الجريح هجوماً شرساً ومركزاً بأسلوب الصاعقة المفزع؛ لتحطيم النفسية الفارسية المتكبرة، وكذلك النفسية المرعبة من المسلمين، وقاد مجموعة من أفضل وأمهر فرسان المسلمين: مثل «جرير البجلي» و«ابن الهوبر» و«قرط بن جماح» و«المنذر بن حسان» وغيرهم، وضغطوا علىٰ القلب بمنتهىٰ القوة حتىٰ أزالوه من القلب إلىٰ ناحية اليمين، ثم واصل المسلمون ضغطهم حتىٰ أجبروا القلب علىٰ التراجع للخلف، ثم دب الوهن في نفوس وحدات القطاع الأوسط؛ فتراجعت هي الأخرىٰ عن مواقعها، وبالتالي أصبحت أجنحة الفرس مكشوفة.

كان قائد الفرس «مهران» يقاتل مع قواته الخاصة قتالاً شرساً في القلب رغم تراجعه، وكان «المثنىٰ» حريصاً علىٰ قتل «مهران» بأية صورة، وبأي

ثمن، وكان «مهران» على فرس وردي اللون، مدرَّعًا بنحاس أصفر، واختلف فيمن تولى قتل «مهران»، هل قتله «المثنى» أم «جرير بن عبد اللَّه» أم «المنذر بن حسان» والخلاصة أنه قُتل في النهاية، وانهارت معنويات الفرس رغم المقاومة الشديدة من جانبهم، إلا أن ضغط المسلمين على جوانب الجيش الفارسي دفعهم في النهاية للفرار من أرض المعركة، بعد أن انفصلت ميمنة الفرس عن ميسرتها، وهجمات المسلمين الصاعقة تطحن فيهم من كل جانب، حتى عمت الهزيمة الجيش الفارسي، وصار أقصى همهم أن ينجوا بحياتهم من هذه المعركة.

• يوم الانتقام:

سبق أن قلنا أن القائد المحنك والأسد الجريح «المثنى بن حارثة» لم يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه القائد «أبو عبيد الثقفي» في معركة الجسر، ولم يعبر النهر، وتركهم يعبرون النهر حتى صاروا محاصرين بين جيش المسلمين ونهر «الفرات»، فلما وقعت الهزيمة على الفرس وأرادوا الفرار من أرض المعركة بـ«البويب»، وكانوا قد عقدوا جسرًا على النهر للعبور، فلما رأى القائد «المثنى بن حارثة» هزيمة الفرس انطلق كالسهم مخترقًا صفوف الفرس المنهزمة حتى وصل إلى الجسر، وقام بقطعه؛ ذلك ليقطع خط الرجعة على الفرس، وبالفعل وقع الفرس بين كماشة المسلمين الطاحنة الفتاكة، ودب الفزع والذعر في قلوب الفرس، وأصابهم ما يشبه الهستيريا، وفقدوا صوابهم بعدما رأوا أنفسهم لا ملجأ لهم ولا مفر من سيوف المسلمين التي حصدتهم حصدًا تامًا، واعتورتهم سيوف ورماح المسلمين حتى أبادتهم تمامًا، وقتل منهم أكثر من مائة ألف، واستمر المسلمون في أعمال مطاردة فلول المنهزمين من الفرس يومًا وليلة؛ حتى أبادوا البقية الباقية، وانتقم المسلمون

لمصابهم في يوم الجسر وبنفس الطريقة، ولكن بعد أن قتلوا من الفرس أكثر من مائة وخمسين ألفًا فداءً للأربعة آلاف شهيد يوم الجسر.

كان هذا الانتصار الرائع في «البويب» من أعظم الفتوحات والانتصارات التي حققها المسلمون في «العراق»، وقد فاقوا فيها كل الانتصارات السابقة، ولولا شهرة معركة القادسية لكانت معركة «البويب» هي أشهر وأعظم معارك المسلمين بـ«العراق».

تاريخ الرسل والملوك	البداية والنهاية	القادسية وفتوح العراق
المنتظم	سير أعلام النبلاء	محاضرات الخضري
الكامل في التاريخ	تاريخ الخلفاء الراشدين	
تاريخ الإسلام للذهبي	فتوح البلدان	

فتح مدينة دمشق - إسلام الشام

الزمان/ ١٥ رجب - ١٤هـ.

المكان/ «دمشق» - «الشام».

الموضوع/ جيوش الصحابة تفتح مدينة «دمشق» حاضرة «الشام».

الأحداث/

• الأشلاء الممزقة:

بعد أن حقق المسلمون انتصارهم الهائل المدوي على جحافل «الروم» في موقعة «اليرموك» الخالدة تفرقت قوات «الروم» وهي مذهولة لا تلوي على شيء من هول ما أصابها بـ«اليرموك»، فمجموعة توجهت لـ«حمص»، وأخرى لـ«دمشق»، وأخرى لـ«فلسطين»، وتذامر «الروم» فيما بينهم، وقرروا ألا يجتمعوا في جيش كبير مرة أخرى، بل ينقسمون إلى عدة جيوش متفرقة، ولكنها أيضًا كبيرة العدد مقارنة بجيوش المسلمين، وذلك من أجل تنظيم المقاومة ضد الزحف الإسلامي على أرجاء «الشام» كلها، حتى إذا كُسِرَ لهم جيش يبقى آخر لمواصلة المقاومة وهكذا، وقد مر بنا من قبل في معركة «اليرموك» أن القيادة العامة لقوات المسلمين انتقلت من «خالد بن الوليد» إلى «أبي عبيدة بن الجراح» على أن يكون «خالد» بمثابة المستشار الحربي لخطط القتال؛ فكتب أبو عبيدة للخليفة «عمر بن الخطاب» يسأله بأي البلاد يبدأ بعد انتصار «اليرموك»؟ فأرسل إليه الخليفة عمر يقول: «ابدأ بـ«دمشق»؛ لأنها حصن «الشام»، وحاضرته، وبيت المملكة» فقرر المسلمون فتح مدينة «دمشق».

(فقه ترتيب الأولويات من الأمـور الهامة واللازمة لقيام أي عـمل، والمحافظة عليه، خـاصة في الأعـمال الكبـيرة الـتي تترتب عليـها آثـار على الدين والأمة، مـثل الأعمـال الجهادية والدعوية التي تحتاج لترتيب مستمر، وموازنة دائمة بين المصالح والمفاسد).

• ذكاء أبي عبيدة القائد:

اتبع القائد الجديد لقوات التحالف الإسلامية خطة ذكية وحكيمة في نفس الوقت، أظهـرت كفاءة حربيـة عـالية، فلقـد نظر إلى مـوقع مـدينة «دمشق» الجغـرافي، ودرسه جيداً، وعليه بنى سياسته الحربية، فلقـد رأى أن مـدينة «دمشق» تمثل قلب «الشـام»، ولها طريق اتصـالات وإمدادات مع باقي مـدن «الشـام»، وهي في نفس الوقت مـدينة حصينة قوية بهـا الكثير من القـوات الرومية، وأيضاً مشحونة بالمؤن التي تكفيها للصمود أمام الحصار ولو طال، وعلى هذا وضع خطته على اتجاهين:

الاتجـاه الأول: قائم على عزل مدينة «دمشق» عن باقي مدن «الشام»؛ بقطع طريق الإمدادات والمواصلات، ومن أجل تحقيق ذلك أرسل جيشًا بين «دمشق» و«فلسطين»، وآخر بين «دمشق»، وثالثًا إلى منطقة «فحل»، ورابعًا يكون بمنطقة «برزة»؛ ليكون ردءاً لجيش المسلمين المحاصر لـ«دمشق».

الاتجاه الثاني: إحكام الحصار على مدينة «دمشق» من كل اتجاه؛ ذلك لأن مدينة «دمشق» كان لها عدة أبواب؛ فوكَّل بكل باب قائداً من قواد المسلمين ومعه جزء من الجيش يحكم الحصار من ناحيته؛ حتى إذا استطاع أحد القادة فتح ما يليه من الأبواب تدفق معه باقي الجيش إلى داخل المدينة.

وبالفعل أحكم المسلمون الحصار على المدينة، وضربوا عليها طوقًا أمنيًا يصعب اختراقه، ونصبوا عليها المجانيق والدبابات، ومنعوا عنها أية إمدادات خارجية، وأهل «دمشق» ممتنعون منهم أشد الامتناع، ويرسلون إلى «هرقل»

وهو مقيم بـ«حمص» يطلبون منه المدد؛ وقد كان لا يملك لهم يدًا؛ فالقوات المسلمة مرابطة على طريق الإمدادات، فلما رأى أهل «دمشق» أن أسيادهم لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا أبلسوا وفشلوا، وشدد المسلمون الحصار عليهم، وزاد الأمر عليهم سوءًا بدخول فصل الشتاء، وقرب نفاذ المؤن من عندهم، ولكنهم مع ذلك صمدوا وواصلوا المقاومة والتصدي للحصار، ونظموا الدفاعات والحراسات على أسوار المدينة.

(نحن نعيد ونكرر: أن المسلمين أولى بالصبر والثبات من عدوهم، وأولى بمواصلة التصدي لقوى الكفر والشر، ومقاومة جند الشيطان، ولا يعقل أن يكون أعداء الإسلام أجرأ من المسلمين على الموت وهم يموتون في سبيل الطاغوت، والمسلمون لا جرأة لهم بينما هم يموتون في سبيل اللّٰه عز وجل).

• مغامرة الأبطال:

(كثيرًا ما يرى المسلمون على شاشات التلفاز مغامرات أبطال الخدع والوهم السينمائي التي تنتجها آلة الدعاية الصهيوصليبية «هوليود»؛ فيفتح البلهاء أفواههم إعجابًا بما رأوه، ويتنامى عندهم الإحساس بأن هؤلاء أبطال لا يقهرون، ويتمنى الواحد منهم لو كان مكان بطل المغامرة، وربما يعلق صورته على جدران حجرته، ويقضي الليالي الطويلة يتقمص شخصية البطل ويقلده في حركاته وسكناته، وهذا هو عين ما يخطط له أعداء الإسلام لشباب أمتنا، ولهؤلاء نقول: اقرأوا تاريخكم، واعرفوا أبطالكم الحقيقيين، وكيف كانت بطولاتهم حقيقية، ليست مزورة ولا مفبركة؛ فهي المجد والفخر).

كان أمير الحرب «خالد بن الوليد» يرى بحكم خبرته العسكرية الطويلة والفذة أن هذه المدينة الحصينة لن تسقط إلا من خلال ثغرة أو خطأ يقع فيه أهلها، فكان «خالد» لا ينام ولا ينيم، بل هو يرصدهم ليلاً ونهارًا، وله عيون

واستخبارات تنقل له ما يستجد داخل المدينة، وأحوال الحراسات صباحًا ومساءً، وبقدر اللَّه عز وجل وحده حدث في ليلة من الليالي أن أحد القادة الرومان بالمدينة قد وُلد له مولود؛ فصنع وليمة لأهل المدينة، وشرب الحراس ليلتهم حتىٰ سكروا وناموا عن مواقعهم، وغفلوا عن حراساتهم، وفطن «خالد» لذلك الأمر؛ فاستعد لاقتحام المدينة في عملية فدائية لا يقوم بها إلا أبطال الإسلام؛ حيث خرج هو و«القعقاع بن عمرو» و«مذعور بن عدي» وغيرهم من كتيبة خاصة في الجيش معروفة بالشجاعة والفدائية الباهرة، فعبروا الخندق المائي سباحة، ثم نصبوا سلالم من الحبال - أحضروها معهم خصيصًا لتلك المهمة البطولية - علىٰ شرفات أسوار المدينة بواسطة خطاطيف من حديد، ثم صعدوا علىٰ الشرفات، فلما استووا علىٰ الأسوار أطلقوا صيحات مدوية بالتكبير، وكانت هذه هي إشارة هجوم الفيلق الإسلامي من هذه الناحية، وصعد الجيش كله من علىٰ الحبال، وفي ذلك الوقت انحدر «خالد» وكتيبته البطولية علىٰ حراس الأبواب كالصاعقة؛ فقتلوهم جميعًا، ثم فتحوا الباب الشرقي للمدينة، ودخل الجيش المسلم منه، واشتبكوا مع من تصدىٰ لهم من المقاتلين.

لما سمع أهل المدينة أصوات التكبير أصابهم الفزع الشديد، ولم يدروا ما الخبر؛ ذلك أن كل من يذهب لاستطلاع الأخبار لا يعود لأنه يقتل، فهرع أهل كل باب ليسألوا الأمير المسلم المحاصر لهم الصلح، وقد كان المسلمون قد دعوهم إلىٰ الصلح من قبل علىٰ المشاطرة وهم يرفضون، فلما خرج أهل المدينة وطلبوا الصلح من القائد أبي عبيدة أجابهم لذلك، وهو لا يعلم أن «خالدًا» قد فتحها عنوة من ناحية الشرق، والتقىٰ الصحابة وسط المدينة، واتفقوا فيما بينهم أن تكون المدينة نصفها المفتوح عنوة خالصًا للمسلمين، والنصف الآخر المفتوح صلحًا مناصفة بينهم وبين أهل البلد.

• ما أعظم أخلاقكم يا صحابة رسول الله ﷺ ! !

تذكر بعض الروايات التاريخية أن عزل «خالد بن الوليد» عن قيادة الجيوش كان بعد فتح مدينة «دمشق»، واستدلوا على صحتها : أن «خالداً» هو الذي كتب الصلح مع أهل «دمشق»، ولا يكون ذلك إلا للأمير، واستدلوا أيضًا على ذلك أن الخليفة «عمر بن الخطاب» قد كتب كتابًا لـ«أبي عبيدة بن الجراح» يستنبيه على «الشام» على أن يكون «خالد» مشيراً للحرب، فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة بن الجراح كتمه عن «خالد بن الوليد» حتى فتحت «دمشق»، وبعدها بعشرين ليلة أظهر الكتاب لـ«خالد»، فقال له «خالد»: «يرحمك الله يا أخي ما منعك أن تعلمني حين جاءك؟» فقال أبو عبيدة- كلمات ينبغي أن تكتب بماء الذهب-: «إني كرهت أن أكسر عليك حربك يا أخي، وما سلطان الدنيا أريد، ولا للدنيا أعمل، وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن أخوان، وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه».

ولا نملك مع هذا الكلام إلا أن نقول: ما أعظم أخلاقكم يا صحابة رسول الله ﷺ.

الكامل في التاريخ	البداية والنهاية	فتوح البلدان
التاريخ الاسلامي	فتوح الشام	تاريخ دمشق لابن عساكر
المنتظم	تاريخ خليفة بن خياط	محاضرات في الأمم الإسلامية
تاريخ الرسل والملوك	موسوعة التاريخ الاسلامي	تاريخ الخلفاء

معركة القادسية العظمى

الزمان/ الخميس ١٣ شعبان ١٥هـ.

المكان/ «القادسية» ـ العراق.

الموضوع/ المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص يحققون أعظم الانتصارات على الفرس بالعراق.

الأحداث

• مقدمة:

إنها واحدة من أعظم المعارك ـ إن لم تكن أعظم تلك المعارك التي خاضها المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ مع أحد القطبين الأعظمين وهم الفرس ـ والتي أظهرت المعدن الحقيقي لهذا الدين، ولهذه الأمة، ولجند الإسلام، وأوجز عبارة، وأبلغ وصف لهؤلاء الجند ما قاله الصحابي الجليل «جابر بن عبد الله» عندما سئل عن «القادسية»: «والله الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل «القادسية» أنه يريد الدنيا مع الآخرة».

• سبب المعركة:

بعدما استطاع المسلمون إعادة ترتيب أنفسهم عقب حادثة الجسر الطارئة ـ والتي قتل فيها كثير من المسلمين ـ استطاع القائد الخبير «المثنى بن حارثة» أن يقوم بتقنيات جديدة وسريعة حقق بها عدة انتصارات باهرة على

الفرس في «البويب» و«الأنبار» و«سوق بغداد»، واستعاد المسلمون السيطرة على منطقة السواد مرة أخرى، وذلك كله بجيش لا يتجاوز عدده الثمانية آلاف.

على الطرف الآخر من الصراع كانت الجبهة الفارسية تموج باضطرابات داخلية شديدة، وكان الصراع على أشده بين القائدين الكبيرين «رستم» و«الفيرزان»؛ وكان لكل واحد منهما أتباعه وأعوانه، فاجتمع أهل العقل والحكمة من الفرس برئاسة «بوران بنت كسرى» - وكانت هي الملكة عليهم؛ لمقتل كل أبناء كسرى الذكور في الفتنة التي وقعت بالبلاط الفارسي أيام «شهرزاد بن كسرى»، والتي وقعت استجابة لدعوة النبي ﷺ على كسرى وملكه عندما قال: «مزق الله ملكه» - وقال مجلس الحكماء لرستم والفيزران: «لم يبرح بكما الاختلاف حتى وَهَّنْتُما أهل فارس، وأطمعتما عدوهم، والله لتجتمعانٌ، أو لنبدأنَّ بكما قبل أن يشمت بنا شامت، ثم نهلك وقد اشتفينا منكما»، وأمام هذا التهديد الخطير اتفق «رستم» و«الفيرزان» - وذلك على ما بينهما من شحناء وبغضاء وأحقاد قديمة - اتفقا على الوقوف صفًا واحدًا أمام المسلمين.

(لو قلبنا أنظارنا في أحداث التاريخ نجد أن أعداء الإسلام على مر العصور يعرفون جيدًا طريق الانتصار وأسبابه، وعوامل نجاحه، التي من أولها وأهمها الاتحاد والاتفاق، وفي نفس الوقت الذي تقلب فيه بصرك في أحداث التاريخ تجد أن المسلمين لم ينهزموا قط في معركة إلا عندما تختلف الكلمة، ويتفرق الصف، وتتعدد الآراء، بل إن الحقيقة الثابتة أن المسلمين ينهزمون عادة قبل وقوع القتال؛ لأن التشرذم والتحزب والاختلاف قرين الفشل والهزيمة).

بعد أن اتفق «رستم» و«الفيزران» كان أول ما فعلا أن بحثا عن رجل من

ذرية كسرىٰ لينصبوه عليهم ؛ لأنه لا يصلح لقيادتهم امرأة، هذا رغم أن «بوران» كانت حادة الذكاء، شديدة العقل والدهاء، حكيمة في معظم أعمالها إلا أنهم أصروا علىٰ تعيين رجل للمنصب الكبير، وبعد بحث طويل وجدوا شابًا في الحادية والعشرين من العمر من ولد كسرىٰ اسمه «يزدجرد» ؛ قد نجا من مذبحة عمه «شهرازاد» لذكور كسرىٰ، وظل مختبأً عند أخواله ؛ فأحضروه وجعلوه ملكًا عليهم، وتبارىٰ الجميع في خدمته، وإظهار الولاء له، ولأول مرة منذ فترة طويلة تجتمع كلمة الفرس ؛ فاستبشروا بذلك خيراً، وحميت نفوسهم لقتال المسلمين.

(عجيب جداً أمر أعداء الإسلام، والأعجب منه أمر المسلمين في هذه الأيام؛ فأعداء الإسلام يرفضون بكل قوة أن تقودهم امرأة مهما كانت قادرة ومؤهلة لذلك، ويصرون على أن يتولى الإمامة رجل مهما كان صغيراً في السن، والمسلمون الآن تجد منهم الكثير تقودهم النساء، وتحكمهم وتسوسهم امراة؛ كما يحدث الآن في «بنجلاديش» و«باكستان» سابقًا، و«أندونيسيا» حاليًا؛ كأن أعداء الإسلام سمعوا وفهموا وطبقوا حديث رسول اللَّه ﷺ: «لن يفلح قوم ولُّوا أمرهم امرأة» [صحيح الجامع ٥٢٢٥]، وكأن مسلمي هذا الزمان ما سمعوا ولا فهموا ولا علموا).

فوض كسرىٰ «يزدجرد» القائد الكبير «رستم» في التحضير لمعركة فاصلة مع المسلمين تستهدف طردهم نهائيًا من العراق، ومواصلة المطاردة حتىٰ عقر دارهم بشبه الجزيرة العربية ؛ فبدأ «رستم» في تنفيذ الخطة بإثارة القلاقل والاضطرابات بالمناطق المفتوحة من قبل المسلمين، والترويج لفكرة الثورة ضدهم ؛ بدعوىٰ أن الفرس قد اتحدوا واجتمعوا، وسيأتون بحدهم وحديدهم من أجل إفناء المسلمين أجمعين، وبالفعل آتت الخطة أكلها، واستجاب أهل السواد، وسائر المناطق المفتوحة لدعوة «رستم»، وخلعوا طاعة المسلمين،

ونقضوا عهدهم، واستقووا على المسلمين الذين كان يقودهم وقتها «المثنى بن حارثة»، وكان عددهم ثمانية آلاف فقط، في حين نقلت الاستخبارات الإسلامية للقائد «المثنى» أخبار اجتماع الفرس، وتولية يزدجرد، وأن رستم قد أعد جيشًا جرارًا يتجاوز المائتي ألف مقاتل؛ فكيف يواجه ثمانية آلاف هذه الحملة الجبارة؟ فأسرع المثنى الخبير العسكري المحنك ونفَّذ انسحابًا عسكريًا ماهرًا، قبل أن يهلك جيشه، ونزل عند منطقة «ذي قار» على حدود العراق، وأرسل للخليفة «عمر بن الخطاب» يخبره بصورة الأمر وخطورته؛ وذلك لسرعة التحرك.

• الأسد العادي:

وصلت رسالة المثنى للخليفة «عمر بن الخطاب»؛ فقال مقولته الشهيرة: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب»، ولم يدع رئيسًا، ولا ذا رأي، ولا ذا شرف وبسطة، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا إلا رماهم به، فاجتمع عنده الأبطال والشجعان والفرسان فيما يشبه النفير العام، ولأول مرة يعلن الخليفة التجنيد الإلزامي للمسلمين في قبائل معينة؛ وهي قبائل «ربيعة» و«بجيلة» و«النخع»، وحصل استنفار للهمم، وكان الخليفة عمر قد رفع الحظر المفروض على المرتدين، والذي سبق وكان الخليفة أبو بكر قد فرضه عليهم، وهذا الرفع أدى لزيادة الروح المعنوية عند المسلمين؛ حيث تقاطر الناس على المدينة، وعزم الخليفة «عمر بن الخطاب» على أن يقود الجيوش بنفسه، ولكن كبار الصحابة أثنوه عن ذلك؛ لحاجة الأمة له في هذا المكان، وأشاروا عليه أن يبعث رجلاً من السابقين الأولين مكانه لقيادة الجيش؛ فوقع الاختيار على الأسد العادي «سعد بن أبي وقاص»، وكان وقتها عاملاً على «هوازن»؛ فاستدعاه الخليفة، وعينه قائدًا عامًا للجيوش الإسلامية المتجهة ناحية العراق، وأوصاه بوصايا

نافعة، ورسم له خطة الهجوم على أفضل ما يكون؛ كأن الخليفة «عمر» يرى أرض العراق ويعرفها جيداً، رغم أن قدماه لم تطأ العراق قط.

اجتمع عند «سعد بن أبي وقاص» قرابة الثمانية والعشرين ألفًا، وقام الخليفة نفسه باستعراض الجيش؛ كي يطمئن بنفسه على سلامة الاستعدادات، وسار الجيش المسلم تحدوه آمال عريضة في نشر دين الإسلام بكل أرجاء العالم، حتى لا يُعبد على الأرض سوى اللَّه عز وجل، ووصل الجيش إلى منطقة «ذي قار»؛ حيث معسكر جيش المسلمين بالعراق، وكان قائده «المثنى ابن حارثة» رضي اللَّه عنه قد قضى نحبه من جراحة ألمت به في إحدى المعارك السابقة، واندملت، ثم نغرت عليه مرة أخرى؛ فمات منها هذا البطل الجسور، واستمعوا إلى ما قاله «المثنى بن حارثة» في آخر حياته العامرة بالجهاد في سبيل اللَّه، وهو يوصي المسلمين القادمين بالجهاد فيقول: «أوصي المسلمين وقائدهم «سعداً» بأن يقاتلوا عدوهم - الفرس - على أدنى حجر من أرض العرب، وعلى أول مدر من أرض العراق، فإذا كان النصر أخذهم المسلمون ومَن ورائهم، وإن كانت الأخرى كانوا أدرى بأرضهم، وعادوا سالمين». فلما سمع القائد العام «سعد بن أبي وقاص» نصيحة «المثنى» ترحم عليه، ودعا له، وعمل بهذه النصيحة الغالية.

(أصحاب رسول اللَّه ﷺ يعلمونا في مواطن كثيرة كيف يكون التطبيق العملي لما أمرهم به الرسول ﷺ؛ فالمثنى رحمه اللَّه يعلمنا معنى الدين النصيحة كشعار يحيى المسلم عليه ويموت، فهو ظل ينصح للأمة حتى آخر رمق في حياته؛ ذلك لأن قضية الإسلام كانت تشغل حياته كلها، ولا يفكر بسواها؛ فهي مستولية على عقله وفكره حتى آخر لحظة في حياته؛ فلا عجب إذاً أن يفتح اللَّه عز وجل لهم البلاد، وقلوب العباد).

• الكرامة الهائلة:

بعد انضمام جيش «سعد» وجيش «المثنى» أصبح تعداد المسلمين قرابة الستة والثلاثين ألفًا، وعسكر هذا الجيش الكبير قريبًا من «القادسية»، وذلك في شهر صفر سنة ١٥هـ، وظل الجيش مرابطًا في تلك المنطقة بناءً على أوامر الخليفة «عمر» بعدم تعجل الصدام مع الفرس، ولكن واجهت هذا الجيش مشكلة ألا وهي مسألة المؤن اللازمة لإطعام هذا الجيش الكبير، والذي يحتاج يوميًا لحوالي ستة وعشرين جملاً، هذا غير الحبوب والتمور، وازدادت المشكلة تعقيدًا بسبب غدر أهل السواد والمناطق المفتوحة، والذين خلعوا طاعة المسلمين، ونقضوا عهدهم؛ لَمَّا علموا بقدوم جحافل الفرس الجرارة، وتآمروا معهم على المسلمين؛ بأن فرضوا حصارًا اقتصاديًا على المسلمين، وقطعوا عنهم المؤن والطعام، وأخفوا قطعان الماشية كلها في غابة من الغابات الكثيفة؛ فأرسل القائد «سعد» «عاصم ابن عمرو» ليحصل لهم على الطعام بسيوف المسلمين، طالما أن الغادرين قد منعوا عن المسلمين الطعام، واستطاع «عاصم» أن يأسر أحد الرعاة الغادرين، وسأله عن قطعان الماشية التي كانت تملأ الوديان؛ فقال الراعي الغادر: «لا أدري»، وهنا تحدث كرامة هائلة؛ إذ صاح ثور من قطعان الماشية داخل الغابة بصوت عربي فصيح مبين: «كذب عدو الله ها نحن أولاء»؛ فدخل «عاصم» الغابة، واستاق قطعان الماشية، وصارت غنيمة للمسلمين.

(يا لها من كرامة عظيمة لجند الإسلام الذين يجاهدون في سبيل الله، ومن أجل إعلاء كلمة «لا إله إلا الله»، ولا يستبعد أحد حدوث هذه الكرامات والخوارق للمسلمين في وقتنا الحاضر، ولا يستكثر المسلمون على ربهم جل وعلا أن يخرق لهم نواميس الطبيعة طالما كانوا على الحق، وينصرون الله ورسوله، بل إنا نقول: إن جند الإسلام المخلصين في أيامنا تلك سيرون من الله عز وجل كرامات وخوارق أكبر وأكثر من سابقيهم؛ لأنهم في حاجة للتأييد والعون الإلهي أكثر من سابقيهم؛ لأننا

الآن في عصر غـربة الإسلام، الذي قل فيه من ينصـر دين اللّه، وهذه الكرامات تكون آية تبشير على صحة الطريق، وسلامة القصد، وحسن الخاتمة».

• رؤيا رستم:

كـان القائد الـفارسي رستم رجـلاً حكيمًـا مـحنكًا عـاقلاً، يرى من خـلال الصدامـات السابقـة بين الفرس والمسلمين أن اللقاء سينتهي لصـالح المسلمين، ولا شك عنده في ذلك، فقد حـدث قبل ذلك عـشرون صـدامًا انـتصر المسلـمون في جـمـيـعـهـا إلا واحـدة، وكـانت نتـيـجة خطأ عـسكري خـططي، رغـم أن جيـوشـهـم كـانت تتراوح بين العشـرة آلاف والثـمـانيـة عشر ألفًا، وجـيـوش الفـرس لا تقل عن المائة والعـشرين ألفًـا، لذلك كـره رستم لقـاءهم، وحـاول إعـفـاء نفسـه من قيـادة الجيـوش، وأن يجـعـل نائبـه «الجـالـينوس» مكانه، ولكن كسرى «يزدجـرد» أصر على تكليـف «رستم» بالقـيادة، وخيَّره إمـا أن يذهب هو، أو يخرج «يزدجرد» بنفسه لقيادة الجيوش.

كـان «رسـتم» أثناء ذلك يرى في كل يـوم رؤيا مـعينة تـتكرر عليـه كـأنهـا مطرقة تدق قلـبه وعقله، وتقلق منامـه كل ليلة، وتوجه له إنذارًا بعـاقبـة اللقاء؛ حيـث كـان يرى في منامـه أن ملكًا ينزل من السمـاء، فـيأخـذ سلاح الفـرس، ثم يختمه، ثم يدفـعه للرسول ﷺ، فيدفعه الرسـول ﷺ لـ«عمر بن الخطاب»، فكان «رستم» كلما رأى هذا المنام بكى، وتيقن بهـزيمة الفرس، وصار يتباطأ وينكل عن اللقاء، حتى ألزمه «يزدجرد» بالحرب.

• وفد المسلمين:

ولأن المسلمين لا يـحاربون من أجل الدنيـا، ولا من أجل مـكاسب زائلة، ولأن حـربهم في سـبيل اللّه وحـده، ومن أجل مرضـاته بنشـر الإسـلام، ولأن حربهـم عـادلة؛ فلقد أرسل الخليـفة «عمر بـن الخطاب» لقائده الميداني «سـعد بن

أبي وقاص» يأمره أن يرسل من عنده وفدًا لعرض رسالة الإسلام، وشرح أهداف الحرب على «يزدجرد»؛ فأرسل «سعد» وفدًا مكونًا من عشرة من كبار الصحابة وقادة المسلمين، تم اختيارهم بعناية فائقة؛ حيث تجمعهم صفات القيادة والهيبة والإجلال، وروعة المنظر وبسطة الجسم، والذكاء والفطنة والحكمة؛ بحيث كانوا خير تمثيل لدعوة أمة الإسلام، وجعل عليهم «النعمان ابن مقرن المزني» أميرًا، فذهب الوفد إلى «المدائن»، ودخلوا على كسرى «يزدجرد» وحاشيته، وأخذ أميرهم «النعمان» في عرض رسالة الإسلام بمنتهى الوضوح واليسر، ثم تكلم بعده «يزدجرد»، وكان شابًا طائشًا سفيهًا في كلامه، طفوليًا في أسئلته؛ حيث سألهم عن ملابسهم وسلاحهم، وأسواطهم ونعالهم، ومعنى كل كلمة بالفارسية؛ حيث كان يتشائم ويتفائل من الألفاظ، فأعاد عليهم صحابي آخر وهو «المغيرة بن زرارة» رسالة الإسلام، وبصورة قوية، وهنا أساء «يزدجرد» الأحمق الكلام والأدب مع الوفد، وسخر منهم؛ فرد عليه «المغيرة بن زرارة» بكل قوة وعزم، وخيَّره بين الإسلام، أو الجزية، أو الحرب؛ فاستشاط «يزدجرد» غضبًا، وهمَّ بقتلهم، ثم أمر بوقر من تراب أن يحمل على رأس أشرف رجل منهم؛ فانتدب لذلك «عاصم بن عمرو»، ولم يكن أشرفهم، ولكنه بادر بنفسه صيانة لإخوانه؛ فحمل الوقر على رأسه، ثم انطلق الوفد مسرعًا، ودخلوا على القائد «سعد»، بعد أن وضعوا وقر التراب بين يديه: «أبشر أيها الأمير؛ فقد أعطانا اللَّه أقاليد - مفاتيح - ملكهم، وهذا هو تراب أرضهم».

(انظر إلى حسن تصرف المسلم الفطن الذكي في المواقف الصعبة، وكيف يستطيع أن يحول الموقف الذي ظاهره إهانة للمسلمين إلى نصرٍ للمسلمين، وبشارة لهم بالفتح، وهذا لا يكون إلا إذا كان سلاح المؤمن هو عزته ويقينه واستعلاؤه بدينه وإسلامه).

• أروع مناظرة في العراق:

لم يجد «رستم» بدًّا من الخروج للقتال ـ رغم كرهه الشديد لذلك ـ فأخذ في الاستعداد للحرب، وحشد أكثر من مائتين وأربعين ألفًا من المقاتلين الأشداء، ومنهم المسلسلون لكي يقاتلوا حتى الموت، هذا غير سلاح المدرعات المكون من ثلاثة وثلاثين فيلاً عملاقًا، والجيش مجهز بأفضل وأحدث الأسلحة المعروفة وقتها، وأثناء السير للقاء المرتقب مع المسلمين خطف الفرس جنديًّا مسلمًا؛ فلما علم «رستم» بذلك طلب منهم إحضاره فأتي به، وأوقف بين يدي القائد «رستم»، ثم دارت هذه المناظرة ـ القصيرة في ألفاظها العظيمة في معانيها ـ بين «رستم» الذي يقود أكثر من مائتي ألف مقاتل، وبين جندي مسلم لا يعرف أحد اسمه:

قال «رستم»: ما جاء بكم وماذا تطلبون؟

قال المسلم: جئنا نطلب موعود اللَّه بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا.

قال «رستم»: فإن قتلتم قبل ذلك؟

قال المسلم: في موعود اللَّه أن من قتل منا قبل ذلك أدخله اللَّه الجنة، وأنجز لمن بقي منا ما قلت لك؛ فنحن على يقين من موعود اللَّه.

قال «رستم» مستهزئًا: قد وُضعنا إذًا في أيديكم. وضحك هو وحاشيته.

قال المسلم: ويحك يا رستم إن أعمالكم وضعتكم؛ فأسلمكم اللَّه بها، فلا يغرنك ما ترى حولك؛ فإنك لست تجاول الإنس، إنما تجاول القضاء والقدر.

عندها استشاط «رستم» غضبًا، وأمر بقتل المسلم؛ فقتل رحمه اللَّه.

(يالها من عقيدة نقية، وإيمان راسخ، ويقين يثقل بكل جبال الدنيا، إن هذا المسلم الذي لا نعرف اسمه ـ ولكن اسمه إن شاء اللَّه في عليين ـ وما عليه من استعلاء بدينه قد أرسل رسالتين عبر التاريخ، الرسالة الأولى: لأمة الإسلام يعلمها فيها أن اليقين والإيمان بوعد اللَّه عز وجل لهذه الأمة بالتمكين والنصر على الأعداء، وأن هذا الدين سينتصر ويدخل كل بيت بعز عزيز أو بذل ذليل، إن هذا اليقين هو أساس النجاح والنصر على الأعداء، والصمود أمام الباطل، والرسالة الأخرى لأعداء الإسلام أينما كانوا، وكيفما كانوا، وعلى مر العصور: أن معركتكم مع المسلمين خاسرة لا محالة؛ لأن هذا قضاء اللَّه عز وجل وقدره، أن النصر لهذا الدين، والغلبة لجند الإسلام وإن بدا لهم أنهم يقاتلون المسلمين الضعاف عديمي الحيلة والعتاد، إلا أن النهاية والتمكين لأمة الإسلام، وإن عجز هذا الجيل عن القيام بوعد اللَّه الذي قدره وقضاه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة؛ فإن اللَّه عز وجل سيذهب بهذا الجيل، ويأتي بجيل النصر إن شاء اللَّه).

• الرسل الثلاثة:

كان «رستم» كما أسلفنا شديد الكره للقاء المسلمين؛ لذلك فقد كان يعمل على تطويل المدة قبل الصدام المرتقب والوشيك بشتى الوسائل؛ لذلك طلب من القائد «سعد بن أبي وقاص» أن يرسل له من طرفه رسولاً للتشاور والتفاوض معه عسى أن يرجع عنه المسلمون، فأرسل لهم «سعد» ثلاثة من الصحابة: الواحد تلو الآخر، أولاً: «ربعي بن عامر»، ثم «حذيفة بن محصن»، ثم «المغيرة بن شعبة»، وكان «رستم» خبيثًا ماكرًا؛ فقد رمى من هذه السفارة هدفًا شريرًا: ألا وهو إصابة المسلمين بالهزيمة النفسية؛ حيث أمر «رستم» عظماء الفرس وقادة الجيش بإظهار الزينة في أبهى حللها، وفرش مجلسه الذي سيلاقي فيه الرسل بالحرير والبسط والنمارق، والذهب

والجواهر؛ لإظهار القوة والسيطرة والأبهة، حتى إذا ما رأى رسل المسلمين كل هذه القوة والزينة أصيبوا بالهزيمة النفسية المروعة؛ فيعودون إلى باقي المسلمين بقلوب منهزمة منكسرة؛ فينقلون هذه الهزيمة النفسية لباقي الجيش، ولكن الأمر العجيب: أن ردَّ فعل الرسل الثلاثة وجوابهم جاء واحداً متطابقًا؛ كأنهم رجل واحد، له قلب واحد، ولسان واحد؛ فلم ينبهر منهم أحد، ولم يهتز منهم أحد، وكانوا فوق كل هذه البهارج والزينات، واستعلوا بدينهم على كل المحاولات الرخيصة لفتنتهم وهزيمتهم، وانقلب كيد الفرس في نحورهم، ووقعت على رءوسهم الهزيمة النفسية عندما وجدوا الفارق الشاسع بين أقزامهم وعمالقة المسلمين.

(ولم لا؛ فالمدرسة التي تخرج منها الثلاثة واحدة: وهي مدرسة النبوة العليا، والمعلم الأستاذ واحد: وهو معلم البشرية كلها النبي محمد ﷺ، ومنهج التربية واحد: وهو المنهج النبوي الفريد، الذي كم نفتقده في أيامنا تلك، مع حاجتنا الماسة والشديدة له؛ لاتساع هوة وزاوية الانحراف في أخلاقيات وسلوكيات وإيمانيات الشعوب المسلمة الآن، وإلى الله المشتكى).

• سر الشخصية الجهادي:

قبل اشتعال القتال بصورة شاملة اعتمد القائد «سعد بن أبي وقاص» على سلاح الاستطلاع؛ ليأتيه بالأخبار عن تحركات الجيش الفارسي، وكان أفراد سلاح الاستطلاع من خلاصة أبطال الجيش الإسلامي، وكانوا يتصفون بالشجاعة والقوة والإقدام وحسن التصرف، وكان من أهم فرسان هذه الكتيبة الخاصة هو «طليحة الأسدي»؛ والذي سبق وأن ادعى النبوة أيام الردة، ثم تاب وعاد للإسلام، وحسن إسلامه، وكان من أبطال المسلمين الكبار، ولم يترك غزوة بأرض العراق إلا واشترك فيها تكفيراً عن ذنبه، وطلبًا للشهادة - التي

نالها في أحداث معركة «نهاوند» كما سيأتي - وكان «طليحة» فارسًا يعد بألف في القوة والشجاعة، قاد مجموعة من الفرسان لاستطلاع الخبر عن موقع الجيش الفارسي، والمسلمون يظنون أنه على مسافة بعيدة؛ فإذا بالكتيبة تكتشف أن موقع الجيش أقرب مما يظن المسلمون، فأرادوا الرجوع لإخبار القائد «سعد» ولكن «طليحة» يصر على القيام بهجمة جهادية على المعسكر الفارسي؛ لبث الرعب في نفوس العدو، ويحجم باقي فرسان الكتيبة عن ذلك؛ إذ كيف بعشرة أن يهجموا على مائتين وأربعين ألفًا، ولنا أن نتخيل هذا الموقف الفريد الرائع: فارس واحد يقتحم معسكر الفرس الضخم، ويغير عليه بمفرده؛ وهو يصيح ويكبر بأعلى صوته الذي أرعب الفرس بصورة كبيرة، واستطاع أيضًا «طليحة» أن يغنم من المعسكر الفارسي فرسًا بيضاء لا تقدر بثمن، ولما حاول بعض أبطال الفرس حفظ ماء وجه الفرس، ولمّ كرامتهم المهانة والمبعثرة تحت أقدام المسلمين قتل «طليحة» اثنين منهم وأخذ الثالث أسيرًا، ووصل «طليحة» هو وأسيره إلى معسكر المسلمين، وعندما سأل القائد «سعد» الأسير الفارسي عن وضع الجيش الفارسي وخبره، كان هذا الأسير أول ما تكلم سأل عن «طليحة»: من هو؟! وكيف هو؟! وظل يتحدث عن بطولة «طليحة» وشجاعته وقوته وفروسيته مثل المسحور تمامًا بهذه الشخصية الجهادية، ثم مالبث أن أعلن إسلامه فورًا، وسمّى نفسه مسلمًا، وطلب أن يلتحق مع كتيبة البطل «طليحة» إعجابًا بهذه الشخصية الجهادية.

(وهكذا كانت تتحدث الأفعال لا الأقوال؛ فتجذب القلوب، وتسحر النفوس، ويدخل الناس في دين اللَّه أفواجًا لما يرونه من أخلاق وأفعال المسلمين؛ تمامًا مثلما يحدث الآن ولكن بصورة عكسية وللأسف الشديد).

• المعركة العظمى:

كانت الأيام تمضي و«رستم» يحجم ويتثاقل عن لقاء المسلمين، ويرىٰ كل يوم آية وعبرة علىٰ حتمية الهزيمة، وحاول إثناء رأي «يزدجرد» عن القتال ففشل، وحاول أيضًا إقناع قادة الفرس بالدخول في الإسلام، أو دفع الجزية؛ لتجنب لقاء المسلمين في الحرب، ولكنهم أبوا واستكبروا، وكانوا من الكافرين، وحاول الاعتذار عن قيادة الجيش، ولكن «يزدجرد» أصر علىٰ أن يتولىٰ هو قيادة الجيش، وضاقت الأرض علىٰ «رستم» بما رحبت، ولم يجد مناصًا من بدء القتال؛ فجهز الجيش، واستعرض قواته، ثم ركب علىٰ حصانه، وقال كلمة يريد أن يشجع بها نفسه وجيشه؛ لانهيار معنويات الكثيرين منهم؛ قال: «غدًا ندقهم دقًا»؛ فقال له أحد خواصه: «إن شاء اللَّه»؛ فرد «رستم» بكفر فارسي، وإلحاد مجوسي معروف: «وإن لم يشأ فإنما خفا الثعلب عندما مات الأسد». وقطعًا لا يُنصر جيشٌ هذا قائده، وهذه عقيدته!!

وربما لا يعلم كثير من المسلمين أن معركة «القادسية» كانت عدة أيام، وليست يومًا واحدًا، وتغيرت فيها كفة القتال من طرف لآخر، حتىٰ أنزل اللَّه عز وجل نصره علىٰ المسلمين في نهاية الأمر، وهذه الأيام كالآتي:

اليوم الأول: يوم أرماث (الخميس ١٣ شعبان):

كان جيش المسلمين مكونًا من ستة وثلاثين ألفًا يقودهم الصحابي الجليل «سعد بن أبي وقاص»، وجيش الفرس يتكون من مائتين وأربعين ألفًا ومعهم ثلاثة وثلاثين فيلاً، واستعد الجميع للصدام، وكان القائد «سعد» وقتها مريضًا بعرق النَّسا، ودمامل وقروح بفخذيه وإليته بصورة سوف تمنعه من ركوب الخيل، أو حتىٰ التحرك بصورة سليمة، فعيَّن مكانه نائبًا عنه في قيادة الجيوش

الإسلامية هو الصحابي الجليل «خالد بن عرفطة»، وهنا واجه القائد «سعد» أول موقف خطير في المعركة؛ حيث تذمر العديد من الفرسان والقادة من هذا الاختيار، ولم يعجبهم؛ لأن «خالدًا بن عرفطة» لم يكن له كبير ذكر في معارك العراق من قبل، وحاول بعض المسلمين الاعتراض على ذلك؛ فتصرف القائد «سعد» بسرعة، وأمر بالقبض على هؤلاء المعترضين والمشاغبين، وحبسهم في قصره؛ فقضى على الفتنة في مهدها.

(هذا من حسن تصرف القائد في هذه المواقف الحساسة والهامة، التي لا تحتمل أي خطأ أوتقصير قد يؤثر على معنويات الجيش وهم قبالة عدوهم، وحبس القائد «سعد» لهؤلاء المشاغبين خير جزاء لهم على عدم تقديرهم لخطورة الموقف، وضرر صنيعهم هذا على المسلمين).

وضع «سعد» وسادة على سطح قصره، واتكأ عليها بصدره، مما يدل على شدة مرضه، وخطب في الجيش خطبة بليغة: حثهم فيها على الصبر والثبات، ونصرة دين اللَّه عز وجل، وأمرهم أن يحملوا بعد سماع التكبيرة الرابعة، وكان الخليفة «عمر بن الخطاب» قد أرسل برفقة الجيش غلامًا حسن الصوت ليقرأ على الجيش سور وآيات الجهاد؛ فبدأ في الترتيل؛ فقويت النفوس، ونزلت عليهم السكينة، واستوثقت النفوس على الجهاد حتى النصر أو الشهادة.

كانت صفوف المسلمين على أهبة الاستعداد في انتظار التكبيرة الرابعة من القائد العام، ولكن حدثت مفاجأة لم تكن في الحسبان؛ حيث هجم الفرس بكل قوتهم قبل التكبيرة الرابعة، وركزوا هجومهم الكاسح على قبيلة «بجيلة»؛ حيث كانت تمثل خمس الجيش تقريبًا، وعددهم حوالي ثمانية آلاف مقاتل، فهاجم الفرس باثنين وخمسين ألفًا وتسعة أفيال، وكان السرُّ

وراء ذلك أن رجلاً من قبيلة ثقيف خان المسلمين في أحرج ساعاتهم، وارتد عن دين الإسلام، والتحق بالفرس، ودلّهم على مكمن القوة في جيش المسلمين؛ وهي قبيلة «بجيلة» الكبيرة.

(إن المتتبع لكثير من الانكسارات والابتلاءات التي تعرضت لها أمة الإسلام يجد أن الخيانة تقف وراءها؛ فالخائن على استعداد تام أن يبيع كل شيء: من دين، أوعِرض، أوأرض، أو حتى من هم من بني جلدته؛ فكل شيء عنده مباح وقابل للبيع، وهذا يقودنا لأولوية في غاية الأهمية ـ خاصة في أوقاتنا هذه ـ:وهي التأكد من خلو الصف المسلم من هذه العناصر الفاسدة الضارة، وبالأخص عندما تكون الأمة في حالة استنفار ومواجهة مع أعدائها، وما أكثرهم!).

كانت الهجمة الفارسية قوية وسريعة ومفاجئة، ومركزة أيضًا كادت أن تبيد قبيلة «بجيلة» بأسرها؛ فأصدر القائد العام «سعد بن أبي وقاص» أمراً سريعًا لقبيلة «أسد» وقائدها «طليحة الأسدي» أن يدفع الهجمة الفارسية عن «بجيلة»، ثم أمر قبيلة «بني تميم» وقائدهم «عاصم بن عمرو» بمساندة قبيلة «أسد» و«بجيلة»، وكان لهذه المساندات العاجلة أكبر الأثر في رد الهجمة الفارسية العنيفة.

(القائد الحكيم لابد أن يدير دفة المعركة بكفاءة، ويغير خططه أولاً بأول حتى لا يفاجأ بهزيمة جنده وهو غافل في مقر قيادته).

كان لسلاح الفيلة الفارسي أثر بالغ في جيوش المسلمين؛ ذلك لأن خيل المسلمين لم تكن قد رأت من قبل هذا المخلوق الضخم؛ فكانت تفزع منها، وتفر هاربة عند رؤيتها؛ فأثر ذلك على سير القتال، وعندها أصدر القائد «سعد» ـ والذي كان يراقب المعركة من على سطح قصره ـ أمراً بقطع حبال الفيلة؛ كي تتكسر التوابيت المقامة فوق ظهور الفيلة، وانتدب لتلك المهمة

«عاصم بن عمرو التميمي» مع كتيبة خاصة، ونجحوا في مهمتهم، وصارت الفيلة بلا سائسين؛ فخرج سلاح الفيلة من ميدان القتال، ولقد كان القتال في يوم «أرماث» تقريبًا لصالح الفرس؛ بسبب الخيانة، وكذلك الفيلة، وتحملت قبيلة «أسد» عبء هذا اليوم، واستشهد منهم حوالي خمسمائة شهيد تقريبًا.

• اليوم الثاني: يوم أغواث (الجمعة ١٤ شعبان):

أصدق وصف لهذا اليوم أنه يوم الخدع الحربية - وسيتضح ذلك أثناء العرض - وكان الفاروق «عمر» قد أصدر أوامره لجند المسلمين في الشام أن يتحرك منهم فيلق لمساندة المسلمين في «القادسية»؛ فتحرك ستة آلاف مقاتل يقودهم «هاشم بن عتبة بن أبي وقاص» - ابن أخي القائد «سعد» - بمنتهى السرعة، وكان في مقدمة هذا الجيش البطل الشهير «القعقاع بن عمرو» الذي لا يجارى ولا يبارى في فروسيته؛ فأسرع في السير قبل باقي الفيلق، فوصل مع كتيبته الخاصة لأرض المعركة صباح يوم «أغواث»، وكانت الكتيبة مكونة من ألف مقاتل؛ فلجأ «القعقاع» لحيلة حربية بارعة، حيث قام بتقسيم الكتيبة لعشرة فصائل، كل فصيلة تتكون من مائة مقاتل، وأمرهم أن يخرجوا لأرض المعركة فصيلة تلو الأخرى، على أن يقوموا بإثارة أكبر قدر من الغبار مع التكبير العالي عند الخروج؛ حتى يظن كل من المسلمين والفرس معًا أن إمدادات هائلة قد جاءت للمسلمين فترتفع الروح المعنوية للمسلمين، وتنخفض الروح عند الفرس، وبالفعل كلما دخلت فصيلة كبرت وكبر معها المسلمون، وارتفع التكبير لعنان السماء؛ فتزلزلت قلوب الفرس.

لم يمنع طول السفر ووعثاؤه القائد «القعقاع بن عمرو» أن ينزل لأرض المعركة فور وصوله، ويطلب المبارزة؛ فأحجم أبطال الفرس عن مبارزته لفرط شجاعته، ولمعرفتهم السابقة به أثناء معارك القائد الكبير «خالد بن

الوليد»، وعندها اضطر قائد الفرس الكبير «بهمن جاذويه» ـ المعروف بذي الحاجب؛ لأنه كان يعصب حاجبيه إعجابًا وتكبرًا ـ اضطر لمنازلته، وكان «بهمن» هذا هو قائد معركة الجسر: المعركة الوحيدة التي انهزم فيها المسلمون بسبب غلطة تعبوية من القائد «أبي عبيدة» رحمه الله؛ فما أن رآه «القعقاع بن عمرو» حتى صاح قائلاً: «يالثارات «أبي عبيدة» و«سليط» وشهداء الجسر»، ثم انقض عليه كالأسد الضاري، وذبحه كالنعجة، وكانت هذه بداية رائعة للمسلمين في هذا اليوم، ودارت رحى المسلمين على الفرس، خاصة في ظل اختفاء سلاح الفيلة المرعب، الذي غاب لإصلاح التوابيت المكسرة في اليوم السابق، وأنزل اللّه عز وجل نصره على عباده المؤمنين في هذا اليوم، وقُتل معظم قادة الفرس، وكان بطل هذا اليوم بلا منازعة هو «القعقاع ابن عمرو» الذي استطاع أن يقتل بمفرده ثلاثين رجلاً كرًا وفرًا غير من قتلهم مبارزة.

ومن الخدع الحربية التي استخدمها «القعقاع بن عمرو» في هذا اليوم أن استطاع أن يبعد سلاح الخيل الفارسي من ميدان القتال؛ ذلك أنه عمد إلى الجمال العربية فألبسها خرقًا، وبرقعها بالبراقع، فصار لها منظرًا مخيفًا عندما رأتها خيل الفرس نفرت وفرت هاربة، وركب المسلمون أكتاف الفرس.

وكان هذا اليوم أيضًا هو يوم البطولات النادرة؛ ففيه قتل أبناء الخنساء الأربعة؛ فلما بلغها الخبر قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجعلهم في مستقر رحمته».

وكانت فيه أيضًا بطولة أبي «محجن الثقفي»؛ والذي كان في محبس «سعد بن أبي وقاص» لتذمره على تعيين «خالد بن عرفطة»، ولما رأى القتال على أشده توسل لزوجة «سعد» أن تفك قيوده ليلتحق بالقتال، ولكنها

رفضت؛ فأنشد أبياتًا من الشعر رائعة: يتحسر فيها على منعه من الجهاد؛ فرقت له زوجة «سعد»، وأطلقت سراحه شريطة أن يعود لمحبسه مرة أخرى بعد الانتهاء من القتال، وبالفعل التحق «أبو محجن» بأرض المعركة، ولعب بالسيف والرمح حتى ظن الناس أنه من ملائكة السماء من شدة قتاله، وفعل الأفاعيل الهائلة بالفرس، ولما عرف القائد «سعد» حقيقة أمره أطلق سراحه ليواصل جهاده في سبيل الله، وكانت هذه الليلة واليوم لصالح المسلمين، وبات المسلمون بخير ليلة، والفرس بشرها.

• **اليوم الثالث: يوم عماس** (السبت ١٥ شعبان):

في يوم «أغواث» شعر «القعقاع» بتأخر المدد القادم من الشام؛ فقرر «القعقاع» ـ والذي تحول فعليًا للقائد الميداني للمعركة ـ القيام بخدعة حربية جديدة؛ فعمد إلى كتيبته الخاصة ـ والتي جاءت معه من الشام ـ فسرَّبها في ظلام الليل إلى خارج أرض المعركة، وأمرهم مع الصباح أن يعيدوا الكرة مرة أخرى كما فعلوا أول مرة؛ ليظن المسلمون أن إمدادات جديدة قد وصلت إليهم؛ فيزدادون حماسة وحمية وقوة، وبالفعل تم لـ«القعقاع» ما أراد، ومع آخر فصيلة داخلة من كتيبته لأرض المعركة تصادف وصول القائد «هاشم بن عتبة» بالإمدادات الشامية؛ فكبر «هاشم» وكبر المسلمون معه، ودب الرعب والفزع في قلوب الفرس.

في هذا اليوم نزل سلاح المدرعات الفارسي ـ الفيلة ـ لأرض المعركة بعد إصلاح التوابيت مع حراسة قوية من جانب الفرس لهذه الفيلة، وبدأ الوضع يتغير لصالح الفرس، وعندما رأى «سعد» معاناة المسلمين من الفيلة سأل بعض الفرس الذين أسلموا وصاروا مع المسلمين عن نقاط ضعف الفيلة؛ فقالوا له: «المشافر والعيون»، فكلَّف القائد «سعد» كلا من «القعقاع» وأخاه

«عمرو» بقتل الفيل القائد؛ وهو فيل «سابور» الأبيض، وكلَّف «حمَّال بن مالك» ومعه «الربيل بن عمرو» بقتل الفيل القائد الثاني؛ وهو الفيل «الأجرب»، وخرجت الكتيبة الفدائية في مهمة بطولية، لا يقدم عليها إلا أبطال المسلمين العظام، إذ كيف سيقتل رجلان فيلاً عظيمًا، ضخم الحجم كالبيت العملاق؟!! ولكن أبطال المسلمين لا يعرفون المستحيل؛ لأنهم يعتمدون على ربهم -عز وجل- ويخافونه وحده، ولا يخافون أحدًا إلا اللَّه عز وجل، وبالفعل استطاع أبطال الإسلام خرق عيون الفيلين؛ ففرا هاربين من أرض المعركة وتبعهما باقي الفيلة، وعندها احتدم القتال بين الفريقين، وحدث التحام كامل بين الجيشين، حتى قام البطل الهمام «طليحة الأسدي» باختراق صفوف الفرس في بطولة نادرة، حتى صار خلفهم، وكبر ثلاث تكبيرات هائلة أرعبت الفرس، وأدهشت المسلمين، وكانت هذه التكبيرات سببًا لتوقف القتال حتى الليل.

• ليلة الهرير:

في هذه الليلة اشتعل القتال بين المسلمين والفرس حتى قبل أن يأذن القائد «سعد» بالبدء، وتصافح الناس بالسيوف، وحمي الوطيس جدًّا، ولم يسمع ليلتها صوتًا سوى هرير الناس، وصليل السيوف، وتقاتل الناس قتالاً لم يسمع بمثله في التاريخ؛ حتى صارت هذه الليلة -ليلة الهرير- مضرب الأمثال بعد ذلك في شدة القتال، وأصبحت مقياسًا للحروب فيما بعد، وهدأت الأصوات، وانقطعت الأخبار عن القائد «سعد» -الذي ظل طوال الليل يدعو ويصلي طلبًا لنصر اللَّه عز وجل- وبرز أبطال الإسلام: أمثال «القعقاع»، وأخيه «عاصم»، و«طليحة الأسدي»، و«سلمان»، و«عبد الرحمن بن ربيعة»، و«زهرة بن الحوية»، و«قيس بن هبيرة»، و«حمَّال» و«الربيل»

وغيرهم من الذين يعد الواحد فيهم بألف، وشدوا على قلب الجيش الفارسي حتى انصدع تحت ضغط الهجمات الإسلامية المتتالية، ونادى البطل المقدام «القعقاع بن عمرو» في المسلمين: «إن الدائرة على الفرس بعد ساعة لمن بدأ القوم؛ فاصبروا ساعة، فإن النصر مع الصبر»، فشد المسلمون في القتال حتى صاروا كالأسود الضارية التي لا يقوم لها أحد، ومع ذلك لم ييأس الفرس، بل ظلوا يقاتلون هم أيضًا في منتهى الضراوة، حتى إن الذي قتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفين وخمسمائة، وقتل ليلة الهرير ستة آلاف؛ مما يوضح قسوة وعنف القتال يومها من الجانبين.

• مقتل رستم:

ظل الفرس يقاتلون في منتهى الضراوة، حتى حانت اللحظة التي انهارت فيها معنويات الجيش الفارسي، وذلك عندما استطاع أحد الفرسان المسلمين - وهو «هلال بن علفة» - أن يصل لمكان القائد الفارسي «رستم»، وينقض عليه كالصاعقة، ويقتله بعدما حاول رستم أن يهرب بإلقاء نفسه في النهر، وحاول الفرار سباحة، ولكن «هلالاً» اقتحم وراءه النهر، وجره مثل الذبيحة خارج النهر وقتله، ورفع رأسه عاليًا وهو يصيح: «قتلت «رستم» ورب الكعبة»؛ فطاش صواب الجيش الفارسي، وحاولوا الفرار في كل مكان، وأخذهم المسلمون وأمعنوا فيهم القتل، لدرجة أن الثلاثين ألفًا الذين قيدوا أنفسهم بالسلاسل للقتال حتى الموت ماتوا قتلاً بسيوف المسلمين، ولم يفلت منهم مخبر.

أمر القائد «سعد بن أبي وقاص» قائد فرسان المقدمة «زهرة بن الحوية» أن يطارد المنهزمين من فلول الفرس؛ حتى لا يعيدوا تجمعهم مرة أخرى، وكان الفرس قد صنعوا حاجزًا مائيًا لعرقلة تقدم ومطاردة المسلمين لهم؛ فعبره

«زهرة» وثلاثمائة من خواص فرسانه، وانقضوا على المنهزمين الذين ظنوا أنهم بمأمن من مطاردة المسلمين لهم، وقتلهم جميعًا، وعلى رأسهم القائد الثاني للجيوش الفارسية بعد مقتل «رستم»، واسمه «الجالينوس» ولم تكد شمس يوم ١٦ شعبان ترتفع حتى أنزل اللّه عز وجل نصره على المسلمين، ووقع الخزي والهوان على الفرس، حتى إن الشاب اليافع من المسلمين كان يسوق ثمانين رجلاً أسرى من الفرس، ويشير المسلم إلى الفارسي فيأتيه فيقتله، وربما يأخذ سلاحه الذي عليه فيقتله به، وربما أمر رجلين من الفرس فيقتل أحدهما صاحبه.

(إننا لنقرأ هذه الأخبار فنرى عزة وقوة المسلمين من الجيل الفريد والنادر: جيل الصحابة والتابعين، وكيف أن هيبتهم قد ملأت قلوب أعدائهم حتى صاروا كما قرأنا، ثم نقرأ أخبار المسلمين الآن وقد وقعت عليهم الذلة، وصاروا كغثاء السيل بعدما نزع اللّه عز وجل مهابتهم من قلوب عدوهم، وألقى في قلوبهم حب الدنيا وكراهية الموت، وصدق الصِّديق «أبو بكر» عندما قال: «احرص على الموت توهب لك الحياة»).

• بشارة النصر:

لقد كان الناس من العرب والعجم ينتظرون ما تنجلي عنه هذه الوقعة بين المسلمين والفرس بـ«القادسية»، ويرون فيها المعركة الفاصلة بين الفريقين، حتى إن الرجل ليهم بالأمر فيقول: «لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية»، فلما كان يوم النصر العظيم أرسل القائد «سعد بن أبي وقاص» للخليفة «عمر بن الخطاب» ببشارة النصر، وقد سارت الجن بخبر الفتح قبل وصول البشارة للمدينة، وسمع الناس أشعاراً بالنصر - بين جنبات المدينة - لا يعلمون من قائلها، وكان الخليفة يسأل الركبان من حين يصبح إلى انتصاف

النهار عن أهل «القادسية»، ثم يرجع إلى أهله ومنزله؛ فوافق مجيء الرسول بالبشارة إلى المدينة عند ارتفاع الشمس، و«عمر» قائم ينتظر الخبر؛ فلما جاء الرسول سأله «عمر» عن أخبار المسلمين، والرسول راكب ناقته مسرع بها، و«عمر» يجري خلفه يسأله وهو يجيبه بالبشارة والفتح، ولا يعرف أنه أمير المؤمنين؛ فلما دخل المدينة رأى الناس يسلمُون عليه بالإمارة؛ فقال الرسول: «هلا أخبرتني - رحمك اللَّه - أنك أمير المؤمنين؟!» فقال «عمر»: «لا بأس عليك يا أخي».

(للَّه درك يا أمير المؤمنين، يا من هدم اللَّه بك إمبراطورية الفرس والروم، تقول لحظة بلوغك خبر النصر العظيم بمنتهى التواضع: «لا عليك يا أخي»، وهكذا تكون أخلاق السادة والقادة، لا أخلاق العبيد الأذلاء، ومن أجل هذه الأخلاق ارتفعت هامتهم حتى ناطحوا الجبال، وتوجت رءوسهم السماء، ودانت لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها).

كان يوم «القادسية» من أعظم أيام الإسلام التي كتب اللَّه عز وجل النصر فيها لجند المسلمين، وكانت نقطة فاصلة في تاريخ الصراع بين المسلمين والفرس على الجبهة الشرقية وما بعدها.

فتوح البلدان	**التاريخ الإسلامي**	**محاضرات الأمم الإسلامية**
البداية والنهاية	**تاريخ الخلفاء**	**موسوعة التاريخ الإسلامي**
المنتظم	**تاريخ الرسل والملوك**	
الكامل في التاريخ	**القادسية وفتوح العراق**	

فتح المدائن - الوعد الحق

الزمان / الثلاثاء ١٨ صفر-١٦هـ.

المكان / «المدائن» عاصمة الدولة الفارسية ضفاف نهر «دجلة».

الموضوع / سقوط الإمبراطورية الفارسية.

الأحداث

• مقدمة:

الوعد الحق، وما أدراك ما الوعد الحق؟! إنه وعد اللَّه عز وجل، ووعد رسول اللَّه ﷺ لأمة الإسلام؛ فكل ما أخبر عنه الرسول ﷺ فإنه واقع لا محالة، وإن تكالبت شياطين الإنس والجن على الأمة، وقام أعداء الإسلام في صعيد واحد، وأجلبوا على الأمة بخيلهم ورجلهم من أجل صد الأمة عن دينها؛ فالوعد واقع وقادم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فسنة اللَّه عز وجل الماضية أن الدين ظاهر، وسيدخل كل بيت بعز عزيز أو بذل ذليل، والواجب على المسلمين ألا تهتز ثقتهم بموعود اللَّه ورسوله لهم بالنصر والتمكين، والعزة والقيادة، والواجب الأهم هو سعيهم لتحقيق هذا الوعد؛ لأنه واقع لا محالة، وإن لم يقع بأيديهم فحتمًا يتحقق على يد غيرهم، وعندها يتحسر كل من تخلف عن ركب الفائزين.

• الطريق إلى المدائن:

افتتح القائد العربي الكبير «خالد بن الوليد» الحملات الجهادية لنشر الإسلام، وإزالة قوى الكفر على الجبهة العراقية في أوائل سنة١٢هـ، وخلال

تلك السنوات الأربعة خاض المسلمون معارك شرسة وطاحنة ضد الدولة الفارسية، وكانت أهمها وأشرسها، وأبعدها أثرًا معركة «القادسية» الكبرىٰ؛ حيث انكسر فيها معظم القوات المجوسية، وقتل خيرة القادة الفرس: أمثال «رستم» و«بهمن جاذويه»، وتحطمت الآلة العسكرية الفارسية، وأصبح الطريق مفتوحًا إلىٰ «المدائن» عاصمة الفرس، ومن المعلوم أن سقوط العاصمة معناه سقوط النظام، وانهيار السلطة المركزية.

جاءت الأوامر من الخليفة «عمر بن الخطاب» بالتوجه مباشرة إلىٰ «المدائن»؛ فتحركت الجيوش الإسلامية بقيادة «سعد بن أبي وقاص» في أواخر شوال سنة ١٥هـ، وقد تحولت الجيوش الإسلامية في جملتها إلىٰ سلاح الفرسان؛ لكثرة ما غنمه المسلمون من الخيول في معركة «القادسية»، وكانت خطة العمل الحربي تقتضي التركيز علىٰ الهدف مباشرة، وإزالة كل العوائق القائمة في الطريق، وبالفعل قام المسلمون بإزالة كل الحاميات الفارسية الموجودة في الطريق، حتىٰ وصلوا إلىٰ مدينة «بهرسير» الحصن الأول لـ«المدائن».

• مدينة تفتح بكلمة:

وصل المسلمون إلىٰ مدينة «بهرسير» في غرة صفر سنة ١٦هـ، وتعتبر هذه المدينة خط الدفاع الأول لـ«المدائن»، وضرب المسلمون عليها حصارًا شديدًا، وضربوها بالأسلحة الثقيلة، وتلك الفترة حاول كسرىٰ «يزدجرد» أن يطلب المصالحة مع المسلمين، ولكن القائد «سعدًا» رفض ذلك؛ لأن الطريق أصبح مفتوحًا وسهلاً إلىٰ «المدائن»؛ فاستماتت حامية «بهرسير» في الدفاع عن المدينة، وأبدت شجاعة كبيرة في التصدي لمحاولات المسلمين فتح المدينة؛ حتىٰ حدث ما لم يكن في الحسبان.

أثناء الحصار الشديد للمدينة تقدم أحد المسلمين ـ واسمه «أبو مفرز الأسود بن قطبة» ـ حتى اقترب من حصن المدينة، ودار بين هذا المسلم وأحد الجنود الفرس حوار عجيب أدى في النهاية لسقوط المدينة؛ واسمع ما قال الفارسي، وما قال المسلم:

قال الفارسي: ما جاء بكم إلى مدينتنا وأرضنا؟! لا أشبع اللَّه بطونكم.

قال المسلم: لا نرجع عنكم حتى نأكل أترج كوثى بعسل أفريدين.

وكان لهذه الكلمة وقع الصاعقة على الفارسي ومن معه من جنود الحامية؛ حيث قالوا جميعًا: «يا ويلنا: إن هؤلاء تحارب معهم الملائكة، وتنطق على ألسنتهم ما لا يعلمون». وقامت الحامية بالفرار بسرعة كبيرة من المدينة، وقد سأل المسلمون «أبا مفرز» عما قاله؛ فقال لهم: «لا أدري ما قلته، ولعله أن يكون خيرًا قد أنطقني اللَّه عز وجل به». وكان السر وراء فرار الفرس أن الصحابي المسلم قد تكلم بسر من أسرار الأسرة المالكة بفارس، ونطق باسم طعام خاص بهم، لا يأكله سواهم، ولا يعلمه أحد من العرب من قبل: وهو أترج كوثى: وهو نوع فاخر جدًا من التمر، وعسل أفريدين: وهو عسل مخصوص يصنع للأكاسرة؛ وهكذا فتحت المدينة بكلمة.

(الصف المسلم المجاهد يُجري اللَّه عز وجل على يديه الكثير من الكرامات الكبيرة التي تفتح المدن، وتحطم العوائق، وهذه الكرامات تكون نورًا وإشارة على صحة الطريق والقصد).

• أبيض كسرى الوعد الحق:

بعد أن فتحت مدينة «بهرسير»: ـ خط الدفاع الرئيس «للمدائن» ـ بكلمة ألقاها اللَّه عز وجل على لسان أحد المسلمين فألقت الرعب في قلوب الحامية،

وفرت مسرعة من المدينة، وواصل المسلمون سيرهم تجاه «المدائن»، وكان التحرك ليلاً، وأثناء السير لاح للمسلمين وسط الظلام ـ في ضوء القمر الذي كان تامًا ليلتها ـ القصر الأبيض؛ حيث إيوان كسرىٰ؛ فصاح المسلمون كلهم بصوت واحد: «اللَّه أكبر»، وقالوا: «إيوان كسرىٰ، هذا ما وعد اللَّه ورسوله.

(إنه الوعد الحق الذي بشر به الرسول ﷺ أثناء حصار الأحزاب للمسلمين بالمدينة في العام الخامس من الهجرة، هذا الوعد بالنصر والفتح للدين جاء في وقت عصيب: المسلمون فيه محاصرون من قوى الكفر والشرك المتحالفة عليهم، والواحد منهم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ومع ذلك أيقنوا؛ فتحقق لهم ما وُعدوا به).

• كتيبة الأهوال:

وصل المسلمون إلىٰ نهر «دجلة»؛ حيث تقع «المدائن» علىٰ الضفة الأخرىٰ، وكان نهر «دجلة» في هذا الوقت شديد الجريان؛ لأنه وقت المد، وكان الماء مرتفعًا للغاية، ووقف المسلمون علىٰ حافة النهر متحفزين للعبور، واستحثوا القائد «سعدًا» علىٰ العبور، ولكنه أحجم خوفًا علىٰ أرواح الجند ـ وخاصة أن غالبية المسلمون وقتها لا يحسنون السباحة ـ وجاءه رجل من أهل فارس، وقال له: «لماذا هذا الانتظار؛ ولا يأتي عليك ثلاثة أيام إلا ويكون كسرىٰ «يزدجرد» قد نقل كل كنوز الفرس وفر بها إلىٰ مدينة «حلوان».

ووافق هذا الكلام عند «سعد بن أبي وقاص» أنه قد رأىٰ في نفس الليلة رؤيا حق: أن المسلمين يعبرون بخيولهم نهر «دجلة»؛ فعزم علىٰ العبور، وقام في الناس خطيبًا، وحثهم علىٰ الجهاد في سبيل اللَّه، وعلىٰ الصبر، وقد انتوىٰ

العبور إلى «المدائن».

كان للفرس على الطرف الآخر من النهر حامية قوية تدافع عن الشاطئ في حالة هجوم المسلمين في السفن؛ حيث لم يَدُرْ أبدًا في خلدهم أن العبور سيكون سباحة على ظهر الخيل، فندب القائد «سعد» الناس في مهمة خاصة أشبه بالمهام الفدائية؛ حيث قال: «من يبدأ بالعبور ويحمي لنا الفرائض - أي الشاطئ - حتى تتلاحق به الناس؛ لكيلا يمنعوهم من الخروج». فقام أول فدائي متطوع لتلك المهمة الكبيرة، وكان بطلَ بني تميم وفارسها «عاصم بن عمرو» أخو القائد الكبير «القعقاع بن عمرو»، وتبعه في التطوع ستمائة من ذوي البأس والشجاعة النادرة، ثم انتخب من هؤلاء الستمائة ستين من أشجعهم وأقواهم حتى يكونوا رأس حربة، وعرفت هذه الكتيبة في التاريخ باسم «كتيبة الأهوال».

اندفعت كتيبة الأهوال يقودها البطل «عاصم بن عمرو» داخل مياه نهر «دجلة» الهادرة، وأمواجه المتلاطمة، وهي مكلفة بأصعب المهام وأشقها: وهي التعامل مع الحرس الجمهوري الفارسي على الضفة الأخرى، وما أن اقتربت هذه الكتيبة من ضفة النهر الأخرى حتى صُعق الفرس من هول المفاجأة والصدمة، واندفعوا هم الآخرون داخل النهر لوقف زحف المسلمين؛ فنادى القائد «عاصم بن عمرو» على أفراد الكتيبة أن يستخدموا سلاح الرماح مع التركيز على العيون، وضغط المسلمون بقوة شديدة على الحامية الفارسية حتى دفعوهم للخروج من النهر، وصار القتال على ضفة النهر، ونشب قتال ضارٍ على أرض النهر لم يلبث أن انتصر فيه المسلمون على الحامية الفارسية التي فرت مسرعة من أرض القتال، خاصة بعد أن جاءتهم الأخبار أن كسرى

«يزدجرد» قد فر إلى «المدائن»، وأصبحت ضفة النهر خالية، وعندها أرسل «عاصم بن عمرو» إشارة للقائد العام «سعد بن أبي وقاص» أن المهمة قد كُلِّلَتْ بالنجاح، وأن الطريق أصبح مفتوحًا لعبور باقي الجيش.

• أعجب عبور في التاريخ:

هذا هو أدق وصف، وأصدق تعبير عما قام به المسلمون عندما عبرت الجيوش الإسلامية في نهر «دجلة» على ظهور الخيل؛ حيث قام القائد العام «سعد بن أبي وقاص» ودعا للجيش دعوة خاصة بسلامة العبور - وكان رضي الله عنه مستجاب الدعوة - ثم أمر بالعبور العام، وكان منظرًا عجيبًا حقًا: الجيش المؤمن يقدر تعداده بستة وعشرين ألفًا على خيولهم يعبرون النهر الهادر حتى غطوا وجه الماء؛ فلم يُر الماء من الشاطئ؛ كأن «دجلة» قد تحولت إلى أرض يابسة، وصار كل اثنين من الجيش يتحادثان فيما بينهم كأنهم يسيرون في البر في أمن وسلام ويسر، ولم يُفقد شيء من متاعهم ولا أسلحتهم، ولم يغرق منهم فارس واحد، وكلما صادفتهم منطقة عميقة في النهر ظهر للمسلمين صخور يقفون عليها كي لا يغرق منهم أحد.

(إنها كرامة المجاهد التي لا تكون إلا للمجاهد في سبيل الله، والذي لا يبغي إلا نصرة دين الله، ونشره بين الناس).

تكامل عبور الجيش الإسلامي، وقاموا بالهجوم على «المدائن»، وقد أصيب أهلها بالرعب والدهشة الشديدة، وظنوا أن الملائكة هي التي حملت المسلمين أثناء العبور، وفروا من «المدائن» بمنتهى السرعة يتقدمهم كسرى «يزدجرد»، وقد حمل معه ما استطاع حمله من الكنوز، وكان أول المسلمين دخولاً هم كتيبة الأهوال؛ فلم تجد أية مقاومة أثناء الدخول، ثم تبعهم باقي

الجيش، واستقر في المدينة، ودخل «سعد بن أبي وقاص» رضي اللَّه عنه إيوان كسرىٰ: «القصر الأبيض» أحد عجائب الدنيا وهو يقرأ قول اللَّه عز وجل: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨]، ثم صلَّىٰ «سعد» صلاة الفتح: وهي ثماني ركعات، ثم جعل هذا الإيوان مسجدًا شكرًا لنعمة اللَّه عز وجل علىٰ هذه الأمة، ولم يتعرض المسلمون لسكان هذه المدينة؛ فلم يقتلوا إلا من حاربهم، وهذا من عدل الإسلام وإنصافه.

(فليأت دعاة الحرية والحضارة لينظروا كيف أن الإسلام هو أول من طبق حقوق الإنسان واحترام المدنيين، ولينظروا إلى أعداء الإسلام عندما دخلوا إلى بلاد الإسلام، وسيرون المذابح المروعة التي وقعت، واسألوا عن مذابح البوسنة والشيشان وكشمير والفلبين و ...).

• سوارا كسرى:

بعد أن دخل المسلمون «المدائن» - عاصمة الفرس - وجدوا من الكنوز والمتاع والغنائم ما يجعل العقول تطيش، وبلغت الغنائم حدًا غير مسبوق في الإسلام؛ فجمعت هذه الغنائم، وأرسلها «سعد» بعد أن وزع الأنفال علىٰ الجيش، وأرسل الخمس للخليفة «عمر بن الخطاب» الذي جمع الناس في المسجد وعرض عليهم الغنائم الهائلة، وقال لهم كلمته الشهيرة: «إن قومًا أدوا هذا لذوو أمانة»؛ فرد عليه «عليّ بن أبي طالب» بكلمته الشهيرة أيضًا: «إنك عففت فعفت الرعية».

(وهذا يوضح أن المجتمع المسلم إذا كان على هذا المستوى الأخلاقي الإيماني الرائع - من الكبير إلى الصغير، من الراعي إلى الرعية - فلا بد لهذا المجتمع أن ينتصر، ويقود العالم بأسره، وهذه الصورة هي الصورة المثلى للمجتمع المسلم المنشود، الذي

يتحقق على يديه النصر والتمكين).

وكان من بين الغنائم المرسلة للمدينة «سواري كسرى»؛ فما أن رآهما الخليفة «عمر» حتى بكى بكاءً شديداً، وقام في الناس خطيباً، وقال لهم: «أين سراقة بن مالك؟»؛ فقال سراقة: «ها أنا ذا يا أمير المؤمنين»، فقال: «خذ سواري كسرى كما وعدك الرسول ﷺ، وصدق وعد رسول اللّه لك يا سراقة»؛ ذلك لأن سراقة حاول يوم الهجرة - وكان وقتها على الشرك - أن يقبض على الرسول والصديق أبي بكر، ولكن اللّه عز وجل أنقذ رسوله الكريم، وبشر الرسول ﷺ يومها سراقة بسواري كسرى، وقد كان الوعد الحق.

(ونحن نستفيد من ذلك عدة أمور: منها حتمية وقوع وعد اللّه ورسوله، ومنها سعي الصحابة رضوان اللّه عليهم لتحقيق هذا الوعد بجهد ملموس؛ فالفاروق «عمر» قد كان يستطيع أن يدفع سواري كسرى لغيره من الصحابة الكبار المبشرين: أمثال المبشرين بالجنة، أو المهاجرين، أو الأنصار، ولكنه يعلم وعد الرسول ﷺ لسراقة؛ فيحقق هذا الوعد، فوعد اللّه ورسوله واقع لا محالة، والشرف كل الشرف أن يقع بأيدينا لا بأيدي غيرنا).

تاريخ الرسل والملوك	موسوعة التاريخ الإسلامي	القادسية ومعارك العراق
المنتظم	البداية والنهاية	الكامل في التاريخ
فتوح البلدان	التاريخ الإسلامي	

معركة جلولاء.. أرض الموت

الزمان / الأحد ١٥ ذي القعدة - ١٦هـ.

المكان / مدينة «جلولاء» - شمال «المدائن» - «العراق».

الموضوع / المسلمون بقيادة «هاشم المرقال» يقضون على معاقل المقاومة الفارسية.

الأحداث

• مقدمة:

لو يعلم أهل الإسلام - وكل من انتسب للأمة الإسلامية - كم الغيظ والحقد والكراهية المتأججة في قلوب أعداء الإسلام تجاههم، لو يعلم كل المسلمون ما يشعر به الأعداء، وما تعتمل به قلوبهم، وتضطرم به نفوسهم ضد المسلمين لم يغفلوا لحظة واحدة عن مخططات وكيد أعدائهم؛ فإن هؤلاء الأعداء على استعداد تام للقتال حتى الموت، وترك كل عزيز، وكل متاع الدنيا من أجل القضاء على الأمة الإسلامية، وأحداث التاريخ مليئة بالمواقف التي تذامر فيها أعداء الإسلام، واستوثقوا فيها على الثبات حتى الممات من أجل حرب الإسلام، وإطفاء نور الله عز وجل.

• تجمع الفلول:

بعد أن حقق المسلمون انتصارهم المدوي على جيوش الفرس المدافعة عن «المدائن» - عاصمة الإمبراطورية الفارسية، التي سقطت بيد المسلمين - أصيب

الفرس بهزيمة نفسية مروعة، وأوشكت شمس الإمبراطورية على المغيب، وانهارت معنويات القادة الفرس، الذين طالما انتصروا على الروم والعرب وغيرهم، وهم الآن يترنحون تحت الضربات الصاعقة للأمة الجديدة: أمة الإسلام، وتشرذمت الجيوش الفارسية، وانطلقت تهيم على وجهها، لا تهتدي إلى سبيل، ولا يلم شتاتها زعيم

وبينما فلول الفرس المنهزمة ـ من «المدائن» و«الأهواز» وغيرها ـ متفرقة في ربوع العراق ـ على حدود إيران والعراق ـ ظهر قائدان من قادة الفرس الكبار، الذين ذاقوا مرارة الهزيمة في «القادسية» و«المدائن» وهما القائد «مهران الرازي»، والقائد «الهرمزان» ملك الأهواز. وكانت قلوبهما تشتعل ناراً ضد المسلمين؛ فقررا أن يعملا على تجميع الفلول الفارسية المنهزمة، واختارا مدينة «جلولاء» ـ والتي تقع على بعد ا بعين ميلاً شمال مدينة «المدائن» ـ مكاناً للتجميع، وكانت تلك المدينة ذات موقع استراتيجي جيد، وكانت جيدة التحصين، وقد قام «مهران الرازي» فيهم خطيباً فقال «لو افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرِّق بيننا؛ فهلموا فلنجتمع للعرب به ونقاتلهم؛ فإن كانت لنا فهو الذي نحب، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا، وأبدينا عذراً».

(هذا الكلام يشبه لحد كبير ما يقوله أعداء الإسلام في كل وقت؛ فهذا هو الرئيس الأمريكي «بوش» يخطب في شعبه قائلاً «إن الرب قد اختارنا لنقوم بواجبنا المقدس نحو تحرير الشعوب، ونشر مبادئ العدل والتسامح» ومهران من قبل ذلك يقول. «كنا قضينا الذي علينا»؛ فأعداء الإسلام قديمًا وحديثًا يرون أنهم مكلفون من قبل اللَّه عز وجل ـ بزعمهم ـ لحرب الإسلام والمسلمين، والقضاء على الأمة الإسلامية، ويرون أن هذا هو واجبهم المقدس، الذي يجب أن يؤدوه مهما كلفهم ذلك، وحتى آخر قطرة من دمائهم)

أرسل «مهران الرازي» إلى كسرى «يزدجرد» يطلب منه التفويض في قيادة فلول الجيوش الفارسية، وطلب منه الإمدادات: من الرجال، والأقوات، وقام «مهران» بتحصين المدينة بأساليب جديدة: حفر خندقًا كبيرًا وعميقًا جدًا، وزرعوا حول المدينة حقولاً من حسك الحديد؛ لإعاقة خيل المسلمين إذا ما أرادوا اقتحام المدينة، وزودوا المدينة بكل متطلبات الصمود الطويل في وجه أي حصار إسلامي مهما كانت قوته.

• وصية الخليفة:

رفعت المخابرات العسكرية الإسلامية أخبار تجمع الفرس في «جلولاء» للقائد العام في العراق «سعد بن أبي وقاص»، والذي كتب بدوره إلى الخليفة «عمر بن الخطاب» يعرِّفه الأمر، خاصة وأن «سعدًا» لم يكن عنده أومر بمواصلة الزحف بعد فتح «المدائن» من القيادة العليا، وهذا هو قمة الانضباط العسكري والتنظيمي، ولا تنجح الجيوش والأعمال إلا هكذا، فجاء الجواب من الخليفة «عمر بن الخطاب» بالموافقة على تسيير جيش مسلم يقوده البطل المغوار «هاشم بن عتبة» الملقب بـ«المرقال»، على أن يكون مقدمة الجيش فارس الإسلام الأول «القعقاع بن عمرو»، وأن يكون تعداد الجيش اثني عشر ألف فارس، وهم بمثابة رأس الحربة للجيوش الإسلامية بالعراق، والتي يبلغ تعدادها الستين ألفًا.

• صبر المجوس:

تحرك «هاشم المرقال» بجيشه الصغير - اثني عشر ألفًا - بمنتهى السرعة من «المدائن» إلى «جلولاء»؛ فوصلها في أربعة أيام فقط؛ فوجد أن الفرس قد بالغوا في تحصينات المدينة حتى أصبحت أحصن مدينة واجهها المسلمون، كما

لمس «هاشم» الاستماتة الدفاعية الكبيرة، وأن القائد «مهران» الفارسي - على ما يبدو - قد صار هو الأمل الأخير عند الفرس؛ حيث قتل خيرة قادة الفرس في المعارك السابقة، كما أن قائد فرسان المدينة هو «خرازاذ» أخو القائد «رستم»، وهو الموتور بمقتل أخيه في «القادسية» بسيوف المسلمين، كما أن طريق الإمدادات مفتوح على مصراعيه للجيوش الفارسية بالمدينة من ناحية الشمال.

ضرب المسلمون حصارًا شديدًا على المدينة؛ فقاوم المجوس مقاومة باسلة نادرة وعنيدة، حتى طالت فترة الحصار إلى ما يزيد على سبعة شهور - وهي أطول مدة قضاها المسلمون في حصار مدينة بالعراق - وكان المجوس كلما سنحت لهم الفرصة خرجوا من المدينة بأعداد كبيرة، وهجموا على المسلمين أملاً في كسر حصار المدينة، وربما دفعهم غرورهم إلى التفكير في هزيمة المسلمين، وإخراجهم من العراق كله، حتى أنهم زاحفوا المسلمين أثناء هذا الحصار ثمانين زحفًا، ولكن صلابة وقوة المسلمين أنستهم ذلك كله، ولما طال الأمر طلب قائد الجيش «هاشم المرقال» من القائد العام «سعد» إرسال إمدادات جديدة للمسلمين؛ فأرسل إليه ثلاث كتائب تضم أشهر وأقوى فرسان الإسلام: أمثال «طليحة الأسدي»، و«عمرو بن معدي كرب»، و«قيس بن مكشوح»، وغيرهم من الأبطال الذين يعد الواحد منهم بألف.

• القتال الأخير:

لما رأى القائد الفارسي «مهران» ثبات المسلمين، وأنهم لن ينصرفوا عن المدينة مهما حاول الفرس منعهم اجتمع مع قادة جيشه، وتشاور معهم فيما يفعلون مع جيش المسلمين؛ فأجمعوا الرأي على أن يخرجوا بكامل قواتهم - والتي هي أكثر من خمسة عشر ضعف قوة المسلمين - ويخوضوا القتال

الأخير معهم ؛ في صورة الهجوم الكاسح على جزئين : جزء يحارب ، والآخر يستريح ، ويتم التبادل بينهما حتى يرهقوا المسلمين في قتال مستمر .

وفي صباح يوم الأحد ١٥ ذي القعدة ١٦ هـ خرج الفرس بأعداد ضخمة ، وأنشبوا القتال مع المسلمين بصورة في منتهى الضراوة ، وقد فوجئ المسلمون بهذا الهجوم الكاسح ؛ فقام القائد «هاشم المرقال» وخطب في المسلمين قائلاً : «إن هذا المنزل منزل له ما بعده ؛ فأبلوا الله بلاءً حسنًا ؛ يتم لكم الأجر والمغنم ، واعملوا لله» . وكانت هذه الكلمات القصيرة كفيلة بإلهاب حماس المسلمين ، والتحم الجيشان في قتال طاحن بكل أنواع الأسلحة : السهام ، السيوف ، والخناجر ، ومن هول القتال صلى المسلمون صلاة الظهر إيماءً .

• القعقاع بطل الحروب :

إن كانت كتب التاريخ والتراجم قد أنصفت القائد الفذ «خالد بن الوليد» ، وأعطته حقه من الثناء والتقدير ؛ فإنها حقًا لم تعط نفس القدر للبطل العظيم ، وخبير الحروب ، والفارس المغوار «القعقاع بن عمرو» : الذي كان له الدور الأروع في حروب العراق كلها : من صحبة «خالد» إلى صحبة «سعد» ، وكان رجل الأزمات ، وفارس الساعة الحرجة والمواقف العصيبة ، وعندما نشب القتال الرهيب بين المسلمين والفرس يوم «جلولاء» ، وحدث البدل في الجيش الفارسي بين الفصائل المقاتلة والفصائل المستريحة أثر ذلك قليلاً على معنويات الجيش المسلم ؛ لشدة تعبهم ومعاناتهم من القتال طوال النهار ، ولمح البطل الفذ «القعقاع» ذلك في المسلمين ؛ فقال لهم : «أهالكم ما رأيتم أيها المسلمين؟ !» قالوا : «نعم ؛ إنا كالّون وهم مريحون» . فقال لهم : «بل إنا حاملون عليهم وجادون في طلبهم حتى يحكم اللّه بيننا ؛ فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى نخالطهم» ، ولم يترك «القعقاع» للمسلمين خيارًا آخر غير

القتال؛ إذ حمل هو ومن معه من أبطال المسلمين الكبار على صفوف الفرس في الحال؛ فلم يجد بقية المسلمين بدًا من مواصلة القتال.

دفع «القعقاع» وفرسانه بصفوف الفرس إلى الخلف، وهو يضغط عليهم بمنتهى القوة حتى وصل إلى باب الخندق الخارجي للمدينة، وكان الليل يرخي سدوله بالظلام على أرض المعركة، ورأى «القعقاع» أن الجيشين يتحاجزون لحلول الظلام، وكان هو يريد مواصلة القتال حتى يحتل المسلمون الخندق؛ فيمنعوا الفرس من العودة إلى تحصيناتهم بالمدينة، ويقطع عليهم خط الرجعة، وهنا تصرف «القعقاع» بمنتهى الذكاء، والخبرة بنفسية العرب والمسلمين في القتال؛ حيث نادى في الناس -وكان ذا صوت جهوري، قال عنه «الصديق أبو بكر» رضي اللَّه عنه «إنه يوازي صوت ألف رجل في المعركة، ولن يغلب جيش فيه «القعقاع»- نادى في الناس قائلاً: «أين أيها المسلمون؟ هذا أميركم -يعني «هشامًا المرقال»- على باب خندقهم؛ فأقبلوا عليه، ولا يمنعكم مَن بينكم وبينه من دخوله»؛ وهو بذلك قد استغل الحمية العربية، والنخوة الإسلامية التي تمنع العربي والمسلم أن يترك قائده، ويتخاذل عن نصرته واللحوق به، وهنا حمل المسلمون حملة صادقة، وفتكوا بكل الفرس المعترضين لطريقهم إلى باب الخندق، وصدموا جيش الفرس صدمة هائلة، لم يصمد لها الفرس؛ فزالوا عن مواقعهم.

• أرض الموت:

بعد هذه الحملة الصادقة التي قام بها المسلمون على كتائب الفرس سيطر المسلمون على خندق المدينة، وهنا وقع الفرس في مأزق خطير؛ إذ أصبحوا لا يستطيعون العودة للمدينة إلا إذا تغلبوا عليهم؛ فاشتد القتال بين الفريقين ضراوة وعنفًا لم يسبق لهما مثيل تحت جنح الظلام، وذكرهم هذا القتال ليلة

الهرير في «القـادسية»؛ حيث لم يسمع إلا صليل السيوف، وقعقعة الرماح، وآهات القتلى والجرحى، وزاد المسلمون قوة وهمة في القتال وصول الإمدادات من قبل القائد «سعد»، يقودها أسود ضارية من مثل: «طليحة الأسدي»، و «قيس بن المكشوف»، و«حجر بن عدي»؛ فاشتد عضد المسلمين، وزاد الطين بلة - بالنسبة للفرس - أن خيولهم قد وقعت في شراك حسك الحديد الذي نصبوه أصلاً لخيل المسلمين، وتعطلت خيولهم عن الحركة، واضطروا لأن ينزلوا من على ظهورها ليقاتلوا مشاة، وكان هذا أوان هلاكهم؛ حيث طحنهم المسلمون طحنًا شديدًا، وأفنوهم بالكلية، حتى بلغ قتلى الفرس مائة ألف قتيل، وجللت جثثهم الساحات أمام المدينة؛ حيث صارت أكوامًا، ولذلك سميت المدينة «جلولاء» لما جللها من قتلاهم، وقد صارت أرضًا للموت لسنين طويلة.

تاريخ الرسل والملوك	تاريخ الخلفاء	سيرة الخلفاء الراشدين
فتوح البلدان	موسوعة التاريخ الإسلامي	المنتظم
البداية والنهاية	الكامل في التاريخ	
القادسية ومعارك العراق	التاريخ الإسلامي	
صفة الصفوة	محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية	

معركة نهاوند ـ فتح الفتوح

الزمان/ محرم ـ ٢١ هـ.

المكان/ نهاوند همذان ـ الهضبة الإيرانية.

الموضوع/ المسلمون بقيادة «النعمان بن مقرن» ينتصرون على الفرس، ويقضون عليهم للأبد.

الأحداث

• السنة الماضية:

السُّنة الماضية التي لا تتخلف ولا تتبدل أبدًا: أن أعداء الإسلام يتربصون بالمسلمين دائمًا، وتعتمل قلوبهم حقدًا وحسدًا وكراهية على الإسلام وأهله، ولا تواتيهم أية فرصة ـ صغيرة كانت أو كبيرة ـ إلا استغلوها وبمنتهى السرعة لإيذاء المسلمين؛ لذا يجب على أهل الإسلام أن يكونوا دائمًا على حذر؛ عملاً بقول ربهم جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١]، ومن أكبر الفرص التي ينتظرها أعداء الإسلام وقد أحسنوا استخدامها قديمًا وحديثًا، وإلى أن يشاء الله عز وجل: هي فرصة اختلاف المسلمين، وتفرقهم وتشرذمهم؛ فما أُتيت هذه الأمة إلا من قبلها، ومن عند نفسها، وما أصيبت إلا بسيفها، وعلى يد أبنائها، هذا رغم التحذير الشديد من الله عز وجل لهذه الأمة عندما قال لهم: ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ورغم

وضوح تلك السنة الماضية، وقيام مئات الأدلة من القرآن والسنة، وكذا أحداث التاريخ عليها إلا أن المسلمين مازالوا في خلافهم غارقين، وعن عدوهم غافلين، وهذه المعركة واحدة من الأدلة الصريحة على تلك السنة الماضية.

• المسلمون والفرس والعراق:

منذ أطلق الصديق «أبو بكر» شرارة الحملات الجهادية لنشر دين اللَّه عزوجل في المشرق والمغرب، وراية المسلمين ميمونة النقية لم تكسر، وخاض المسلمون جولات وصولات رهيبة مع الدولة الفارسية، وتوَّج المسلمون انتصاراتهم على الفرس بفتح «المدائن» سنة ١٧هـ، ثم معركة «جلولاء»، ثم فتح «الأهواز» و«تكريت» و«حلوان»؛ كل ذلك وكسرى «يزدجرد» يفر من بلد لآخر، وهو يحاول تجميع فلول الفرس لاستعادة الأمجاد السابقة، ولكن هيهات؛ فالمسلمون قد أكملوا فتح العراق، وبدأوا في التوغل في عمق الدولة الفارسية؛ فيما يطلق عليه الهضبة الإيرانية.

غيَّر المسلمون تكتيك الحملات الجهادية على الجبهة العراقية؛ حيث عمدوا لتثبيت أقدامهم بالعراق؛ فأمر الخليفة «عمر بن الخطاب» بإنشاء مدينتي «البصرة» و«الكوفة» لتكون قاعدة دائمة للمسلمين هناك: منها ينطلقون في جهادهم على الجبهة الشرقية، وتقاطر على هاتين المدينتين المسلمون من قبائل «بكر بن وائل» و«تغلب» و«النمر»، إضافة لكثير من صحابة رسول اللَّه ﷺ، واستقروا بهما.

كان من الطبيعي جداً أن يكون أمير العراق هو القائد الكبير، فاتح «المدائن»، وبطل «القادسية»: «سعد بن أبي وقاص»، وهو من كبار الصحابة، وسادس مَن دخل في الإسلام، وأحد المبشرين بالجنة، وقد استقر «سعد» بمدينة «الكوفة» التي أصبحت عاصمة العراق، وكان كثيرٌ من سكان

«الكوفة» يرجعون إلى قبيلة «أسد» الكبيرة، وصاحبة الفضل الكبير في حروب المسلمين ضد الدولة الفارسية، وكانت هذه القبيلة العريقة تنافس وتضارع قبائل قريش قديمًا أيام الجاهلية، وحتى لما جاء الإسلام كانت قلوب كثير من قبيلة «أسد» تضيق بمكانة «قريش» وسيادتها بين القبائل العربية؛ لذلك لم يكن من المستغرب أن تكون قبيلة «أسد» من أوائل القبائل ارتدادًا عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، وظهر منهم من ادعى النبوة: «طليحة الأسدي»؛ ولكنهم سرعان ما عادوا للإسلام، وكفَّروا عن خطاياهم بأعظم المكفرات؛ وهو الجهاد في سبيل اللَّه، ولكن بقي بعض آثار الجاهلية في قلوب أفراد من قبيلة «أسد»؛ ومن هؤلاء «الجراح بن سنان الأسدي» الذي سعى في التأليب على أمير العراق «سعد بن أبي وقاص»، وبث الدعايات الكاذبة عليه حقدًا وحسدًا على مكانته، وخرج هو ومجموعة من قبيلته إلى «عمر بن الخطاب» أمير المؤمنين؛ ليشتكوا «سعدًا»، ويطلبون عزله؛ فبعث «عمر» بـ«محمد بن مسلمة»، وكان بمنزلة المفتش العام على العمال والولاة، وتحقق من شكوى «الجراح بن سنان»، واكتشف كذبها وبطلانها، ولكن أمير المؤمنين عزل «سعدًا» من مكانه بلا تهمة؛ تأليفًا لقلوب الناس هناك، وعيَّن مكانه «عبد اللَّه ابن عتبان»، وكان نائب الأمير «سعد».

أخبار هذه الخلافات والاضطرابات وصلت إلى كسرى «يزدجرد»؛ فعمل على استعادة فلول الفرس، وكاتب أمراء الفرس بـ«السند» و«خراسان» و«حلوان»، وأخبرهم أن الفرصة مواتية للهجوم على المسلمين؛ فتحركوا واجتمعوا بمدينة «نهاوند»: وهي مدينة جبلية شديدة التحصين، تعتمد على جدران الجبال الشاهقة كأسوار وقلاع للدفاع عن المدينة، وبلغ تعداد من اجتمع بـ«نهاوند» مائة وخمسون ألفًا، يقودهم آخر القادة الكبار في الدولة المجوسية: وهو «الفيرزان»، وكان قرين «رستم» ونده، ومنافسه في قيادة

الجيوش الفارسية، وكان قد هرب من معركة «القادسية» عندما رأى الدائرة تدرو على الفرس؛ فانحطت مكانته بين الفرس، ولاموه وشتموه؛ فأصر على أن يكفر عن خطيئته وفراره من قبل، وتعاهد هو وجنوده على القتال حتى الموت.

• القائد الجديد:

وصلت أخبار هذا التجمع الفارسي بـ«نهاوند» لأمير المؤمنين «عمر بن الخطاب»؛ فجمع مجلس شورته: المكون من كبار الصحابة، واستشارهم في كيفية مواجهة هذا العدوان الفارسي الجديد، وكان «عمر» يفكر في قيادة الجيوش المسلمة بنفسه، ولكن أشار عليه الكثير من الصحابة بالبقاء مكانه، وأن يرسل قائداً يثق به، وفي هذه الأثناء وصل خطاب من «النعمان بن مقرن المزني» - وكان عاملاً على مدينة «كسكر» - يطلب فيه الإذن من أمير المؤمنين أن يخرج للجهاد في سبيل الله، وترك الولاية على «كسكر»؛ حيث إن ميوله وهواه في الجهاد، ليس في الولاية والإمارة، وعندها قرر «عمر» أن يعين «النعمان» أميراً على الجيش الإسلامي المتوجه لحرب الفرس بـ«نهاوند»، وكانت مقومات تعيين «النعمان» أميراً على الناس كما قال الفاروق «عمر»: «والله لأولين أمرهم رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً» فقيل له: «من هو؟» قال: «النعمان بن مقرن». فقد كان «النعمان» من أشجع الناس وأجرئهم في القتال، مع قديم صحبة النبي ﷺ، وورع وزهد وتقى، وحسن قيادة في الحروب.

كتب الخليفة «عمر» لأهل الكوفة يأمرهم بالنفير للجهاد في سبيل الله، والإسراع بالانضمام إلى «النعمان بن مقرن» - القائد الجديد للمجاهدين بالعراق - فأسرع أبطال الإسلام: من أمثال «جرير البجلي»، و«حذيفة بن

اليمان»، و«طليحة الأسدي»، و«القعقاع بن عمرو»، وغيرهم حتى اجتمع عند «النعمان» ثلاثون ألفًا من أهل العراق، من بينهم خلاصة أبطال المسلمين والعرب من ذوي الشجاعة والقوة، والخبرة الطويلة بقتال الفرس.

• خطة الاستدراج الذكية:

كان الموقع الحصين لمدينة «نهاوند» وسط الجبال الشاهقة يمثل عقبة كأداء أمام المسلمين؛ لعدم معرفتهم بتعداد الجيوش الفارسية وقوتها وتسليحها، وقلة هذه المعلومات أخرت إعداد خطة الهجوم على المدينة، وجعلت القائد «النعمان» يفكر في الاعتماد على سلاح المخابرات والاستطلاع الإسلامي للإتيان بالأخبار؛ فأرسل «النعمان» ثلاثة من أفضل الفرسان المسلمين: وهم «طليحة الأسدي»، و«عمرو بن معديكرب»، و«عمرو بن الثني»؛ فدخلوا إلى عمق الأراضي الفارسية، وسلكوا مفاوز وجبالا شاهقة، ولم يستطع العُمَرَان: «ابن معديكرب»، و«ابن الثني» أن يكملا السير، واستمر طليحة في مهمته الفدائية، حتى استطاع أن يجمع معلومات كافية عن مدينة «نهاوند»، والتجهيزات الفارسية، ولما تأخر في الرجوع خاف الناس أن يكون قد ارتد عن الإسلام مرة أخرى؛ لأنه قد سبق وادعى النبوة؛ فلما رجع بالأخبار كبَّر الناس فرحًا برجوعه؛ فلما علم بمخاوفهم استرجع حزنًا على ظنهم فيه.

(وفي ذلك درس وعظة بالغة لأرباب المعاصي والكبائر: أنهم لابد أن يفكروا كثيراً قبل أن يقدموا على هذه المعاصي والكبائر؛ ذلك لأن شؤمها ولوثتها ستطارد أصحابها ولو بعد حين، حتى بعد التوبة والإنابة، فرغم ذلك ستظل الذاكرة تحفظ هذه السقطة لصاحبها، وإن غفر الله له وعفا عنه؛ فليحذر ذلك العصاة والمذنبون، بلا يأس وقنوط من رحمة الله، وبلا رغبة عن التوبة إليه).

علم «النعمان» أن الطريق مفتوح إلى «نهاوند»، وأنه لا توجد حاميات ولا حراسات في الطريق؛ فعبأ جيشه وهم ثلاثون ألفًا، وتحرك بهم بسرعة حتى وصل إلى أجوار مدينة «نهاوند»، ولما وصل إليها كبر «النعمان» وكبر معه الناس تكبيرة هائلة زلزلت قلوب المجوس الذين تجهزوا للقتال، وبالفعل أنشب «النعمان» القتال بعدما حط الأثقال يوم الأربعاء والخميس، والحرب بينهما سجال، ثم عاد كل فريق إلى معسكره، وعقد «النعمان» مجلسًا استشاريًا لقادة جيشه؛ للتشاور في كيفية الهجوم على هذه المدينة الحصينة، وتكلم العديد من القادة وأبدوا آراءهم، ولكنها لم تلق قبولاً عند معظم الحاضرين، حتى تكلم الخبير العسكري الكبير «طليحة الأسدي» قائد سلاح الاستطلاع فقال: «أرى أن نرسل خيلاً لينشبوا القتال؛ فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطرادًا - فإنا لم نستطرد لهم في طول ما قتلناهم - فإذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا؛ فقاتلناهم حتى يقضي اللَّه فيهم وفينا ما أحب». فرحب بهذا كل الحاضرين، وأجمعوا على هذه الخطة الذكية.

كانت هذه الخطة تعتمد على استدراج الفرس للخروج من معقلهم الحصين بـ«نهاوند» عن طريق إظهار إنشاب القتال معهم، ثم التظاهر بالانسحاب من أرض القتال اعتمادًا على الخبرة الإسلامية القتالية بالنفسية الفارسية الحاقدة؛ ذلك لأن المسلمين لم ينسحبوا أبدًا في القتال ضد الفرس؛ فإذا رأى الفرس المسلمون ينسحبون خرجوا من معاقلهم وحصونهم، وطاردوا المسلمين؛ وذلك هو عين ما يريده المسلمون، وبالفعل أمر «النعمان» قائد فرسانه «القعقاع بن عمرو» بإنشاب القتال مع طلائع الفرس، ثم التظاهر بالفرار من القتال؛ فخرجت جموع الفرس بأسرها؛ كأنهم جبال من حديد، قد تواثقوا على ألا يفروا، وقد قرن بعضهم بعضًا كل سبعة في قران واحد، وزيادة في حربهم وعدم فرارهم من القتال ألقوا خلف ظهورهم على مداخل المدينة

حسك الحديد؛ وهي بمثابة الألغام الأرضية الحديثة، ولكنها تمنع الخيل من الحركة، وخرج الفُرس وهم يصيحون فرحًا، ويقولون: «هي هي»: أي الفرصة مواتية ومناسبة للهجوم على المسلمين.

• فتح الفتوح:

خرج الفرس بكل قواتهم وجموعهم الجرارة التي تفوق المائة وخمسين ألفًا، وانسحب «القعقاع» ومن معه حتى وصلوا إلى معسكر المسلمين، وذلك في صدر نهار يوم الجمعة، وأمر «النعمان» الناس أن يلزموا أماكنهم، ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم؛ ففعلوا ذلك، واستتروا بالتروس من سهام ورماح المجوس، واستمروا ملتزمين بأوامر قائدهم «النعمان» حتى اقترب الفرس منهم جدًا؛ فألح الناس على «النعمان» ببدء القتال، وهو ثابت يقول لهم: «رويدًا رويدًا» حتى قرب الزوال؛ وهي أحب ساعات القتال عند رسول اللَّه ﷺ.

(انظر إلى شدة الحب، وتمام المتابعة لأحوال وأفعال رسول اللَّه ﷺ؛ فبهذا الحب، وبهاتيك المتابعة وصلوا لأعلى الدرجات، وهزموا كل الأعداء، وفازوا بخيري الدنيا والآخرة).

ولما شارف الزوال على الناس ركب «النعمان» فرسه، ونادى في الناس، وذكرهم وحرَّضهم على الجهاد في سبيل اللَّه، وقال لهم: «إني مكبر ثلاث تكبيرات؛ فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء اللَّه»، ثم توجه إلى القبلة داعيًا فقال: «اللَّهم أعز دينك، وانصر عبادك، واجعل «النعمان» أول شهيد اليوم على إعزاز دينك، ونصر عبادك»؛ فبكى الناس، وحميت نفوسهم، واستعدوا للقتال حتى النصر أو الشهادة.

وكما قال الفاروق «عمر بن الخطاب» عن قائد جيش «نهاوند»: «لأولين أمرهم رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غدًا»، وصدقت فراسته في

«النعمان»؛ فكان أول من انقض على صفوف الكافرين كالعقاب الجارح؛ وهو معلَّم بثياب بيض ليعلم مكانه، واقتتل الفريقان قتالاً رهيبًا كعادة المسلمين مع الفرس، ولم يسمع يومها إلا وقع السيوف على التروس والدروع، وصبر لهم المسلمون صبراً عظيمًا، وهُزم الفرس هزيمة فظيعة، وامتلأت الأرض بجثثهم، وسالت الأرض بدمائهم؛ حتى انزلق الناس والخيول فيها، وحانت لحظة استجابة دعوة القائد المخلص التقي «النعمان بن مقرن» عندما طلب الشهادة بصدق فبلغه اللّه إياها، فانزلق فرسه في دم الكافرين فوقع من عليه؛ فلما اعتدل قائمًا جاءه سهم قاتل في خاصرته؛ فخر شهيداً رحمه اللّه كما طلب من ربه جل وعلا.

لم يفُتّ مقتل القائد في عضد المسلمين، وواصلوا القتال حتى ألزموا الفرس الفرار من أرض المعركة؛ فتبعهم المسلمون يقتلون ولا يأسرون، حتى قتلوا كل المسلسلين للقتال حتى الموت من قبل، وكان الفرس قد أشعلوا خنادقهم ناراً، ووضعوا حسك الحديد في مداخل المدينة حتى لا يفروا من القتال مع المسلمين؛ فلما عضهم سيف المسلمين فروا من القتال فوقعوا في خنادقهم المشتعلة، وحسك الحديد المزعجة؛ فقتل في خنادق من النار ثمانون ألفًا، وفي أرض المعركة ثلاثون ألفًا، ونجا قائدهم «الفيرزان» من القتل، وفر حتى وصل مدينة «همذان»، ولكن البطل العظيم «القعقاع بن عمرو» أصر على قتل القائد الكافر الذي جمع الفرس للقضاء على الإسلام، وبالفعل أدركه عند نقطة معينة بـ«همذان»، وهناك افترسه «القعقاع» كما يفترس الأسد فريسته.

ولما تم الظفر والنصر سأل المسلمون عن أميرهم؛ فقال لهم أخوه «معقل»: «هذا أميركم قد أقر اللّه عينه بالفتح، وختم له بالشهادة» فرآه الناس وهو

مسجى شهيدًا؛ فبكوا بكاءً شديدًا على استشهاد هذا البطل الكبير، وغنم المسلمون من «نهاوند» غنائم ضخمة أنست كل الغنائم السابقة، وحملت الجن بشارة الفتح إلى المدينة في نفس الليلة، ولما علم «عمر بن الخطاب» باستشهاد «النعمان» بكى بشدة حتى نشج حزنًا على مقتل القائد العظيم «النعمان بن مقرّن»، وسمى المسلمون هذا الفتح بـ«فتح الفتوح»؛ لأن الفرس لم تقم لهم بعدها قائمة أبدًا.

تاريخ الرسل والملوك	موسوعة التاريخ الإسلام	الطبقات ١/٢
البداية والنهاية	تاريخ الخلفاء	الكامل في التاريخ
فتوح البلدان	النجوم الزاهرة	
المنتظم	محاضرات في الأمم الإسلامية	

معركة وادي لكة ـ فتح الأندلس

الزمان / ٢٨ رمضان ـ ٩٢ هـ.

المكان / وادي «لكة» ـ «بَرَباط» ـ «الأندلس».

الموضوع / المسلمون بقيادة «طارق بن زياد» يفتحون بلاد «الأندلس».

الأحداث

• أسبانيا قبل الإسلام:

تمثل شبه جزيرة «أيبريا» الطرف الغربي لأوروبا من ناحية الجنوب قليلاً، وهي تشمل: كلا من «أسبانيا» و«البرتغال»، وكان سكان هذه البلاد خليط من القبائل الجرمانية والرومانية: مثل قبائل «السيوف» و«الآلان» و«الوندان»، وظلوا هكذا لفترات طويلة حتى تغلبت قبائل «القوط» الغربية، وأصلها من جنوب فرنسا على هذه القبائل الجرمانية والرومانية، وانفردت بحكم البلاد، وذلك ابتداءً من سنة ٤١٠م، وكانت قبائل «القوط» على المذهب «الأريوسي» في النصرانية؛ وهو المتعارض تماماً مع المذهب الكاثوليكي؛ لذلك فلقد دخلت هذه القبائل في صراع طويل مع بابوية «روما» رأس الكاثوليكية في أوروبا، استمر قرابة القرنين، وانتهى بدخول هذه القبائل في المذهب الكاثوليكي، وذلك سنة ٥٨٧م؛ وهو التاريخ الحقيقي للديانة النصرانية بـ«أسبانيا»: أي أن النصرانية لم تكن عميقة الجذور بالبلاد عند دخول المسلمين كما يدعي مؤرخو أوروبا.

أما عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية بالبلاد؛ فكانت تشير وتبرهن على قرب سقوط وانهيار ، وذلك لأن الحكم كان مقصوراً على الأسرة المالكة، وكان المجتمع فاسداً يقوم على نظام الطبقات على الطراز الهندي البغيض؛ فانقسم أهل «أسبانيا» إلى :

أ) طبقة النبلاء : وهم سلالة «القوط» الفاتحين، والتي استولت على أكثر الأرض الخصبة الزراعية ، مع إعفائها من الضرائب، وكانت لهم مناصب الجيش والرياسة .

ب) طبقة رجال الدين : وهي المسئولة عن السيادة الدينية ، والزعامة الروحية، ولكن الفساد كان متغلغلاً بها حتى النخاع؛ فقد كانت تمتلك قسطًا كبيراً من الأراضي الزراعية المعفاة من الضرائب، وكانت تشارك النبلاء في حكم البلاد، وتبرر الظلم والطغيان من قبل الحكام على الرعية .

جـ) طبقة التجار وصغار الملاك : ويقع على عاتقهم عبء دفع الضرائب، وإشباع نهمة الحكام .

د) طبقة الأقنان «عبيد الأرض» : وهؤلاء كانوا يَفْلَحُون الأرض لكبار الملاك، ويدخلون بأنفسهم وعائلاتهم في عداد ثروة المالك، ولم تكن لهم أية حقوق، وكانوا ينتقلون مع ملكية الأرض من سيد لآخر .

هـ) طبقة اليهود : وكان لهم دور كبير في الحياة الاقتصادية للبلاد كعادتهم؛ حيث سيطروا على أهم المرافق والصناعات، حتى أحس الحكام بوطأتهم؛ فراحوا يناصبونهم العداء حتى أرغموهم على التنصر .

وهكذا نرى أن الطبقات العاملة في المجتمع الأسباني كانت محرومة من الحقوق، وهذا ما جعل الحياة فاسدة، وأدى لقيام الثورات إثر الثورات؛ لأن

هؤلاء المحرومين ليس عندهم أية اعتبارات وطنية أو قومية، ولا انتماء عندهم؛ مما سهل طريق الفتح أمام المسلمين.

• مقدمات فتح الأندلس:

كان تولي القائد العظيم «موسى بن نصير» قيادة الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب بمثابة النقطة الفارقة والحاسمة في مسار الفتوحات الإسلامية؛ حيث بدأ «موسى بن نصير» في التوجه للضفة الأخرى من المحيط حيث بلاد «أسبانيا» وبلاد «القوط»؛ ذلك لأن القائد المحنك قد استطاع بسط راية الفتح الإسلامي حتى آخر بلاد المغرب، ووصل لضفاف المحيط الأطلنطي، ولم يبق هناك بلد لم يفتحه المسلمون إلا منطقة «سبتة» الحصينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وكانت «سبتة» محكومة من قبل «القوط» في «أسبانيا»، وعليها والٍ من عندهم اسمه «جوليان».

كما قلنا من قبل كانت «أسبانيا» أرض قلاقل واضطرابات وثورات إثر ثورات؛ فوافق الفتح الإسلامي لبلاد المغرب أيام «موسى بن نصير» ثورة كبيرة بـ«أسبانيا» قام بها أحد رجال الملك «وامبا» القوطي، واسمه «رودريجو»، فاستولى على المُلك، وطرد «وامبا» عن الحكم؛ فثار أنصار «وامبا» ضد «رودريجو»، وبدأت حرب أهلية طاحنة بـ«أسبانيا».

كان «جوليان» والي «سبتة» من مؤيدي الملك المخلوع «وامبا»؛ لذلك التجأ «وامبا» إليه، وأقام عنده بـ«سبتة» فترة من الزمن، كان «رودريجو» خلالها قد أحكم قبضته على مقاليد الأمور بـ«أسبانيا»، وهذا الأمر دفع «وامبا» لأن يفكر في الاستعانة بالقوة الجديدة الناشئة بالمغرب: وهي قوة المسلمين، وبالفعل فوَّض «وامبا» واليه «جوليان» في التفاوض والاتصال بالمسلمين لهذا الغرض،

وبالفعل اتصل «جوليان» بـ«طارق بن زياد» والي مدينة «طنجة»، وعرض عليه تسليم «سبتة» مع إشارة بفكرة فتح «الأندلس».

ولخطورة هذا القرار رفع «طارق بن زياد» الأمر لقائده «موسى بن نصير» الذي رفعه بدوره لأمير المؤمنين «الوليد بن عبد الملك» لاتخاذ قرار حاسم؛ فأرسل إليه «الوليد بن عبد الملك» يقول: «اختبرها بالسرايا، ولا تغرر بالمسلمين»: أي لا يهجم بالجيوش الكبيرة، بل يختبر قوتها وصمودها بالسرايا الصغيرة أولاً.

• دورية استطلاعية:

بعد وصول الأمر الصادر من الخليفة بدأ «موسى بن نصير» يحضر لغزو «الأندلس»؛ فأرسل أول دورية استطلاعية يقودها بطل من أبطال البربر المسلمين واسمه «طريف بن مالك»، ويُكنَّى بـ«أبي زرعة» ومعه مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز البحر في أربعة مراكب مبحراً من مدينة «طنجة» حتى نزل على أرض «الأندلس» في منطقة عرفت بعد ذلك بـ«جزيرة طريف»، وما زال هذا الاسم موجوداً حتى وقتنا الحاضر، وكانت هذه السرية أول أقدام مسلمة تطأ أرض «الأندلس»، وقد استطاعت هذه السرية أن تحقق انتصاراً سريعًا، ثم عادت سالمة دون أن تخسر رجلاً واحداً؛ مما أظهر سهولة الفتح.

في شهر رجب سنة ٩٢ هـ قرر «موسى بن نصير» التحضير لحرب شاملة، وغزو كبير لـ«الأندلس بعدما استبان ضعفها وتشتت أهلها؛ فجهز جيشًا كبيراً من العرب والبربر يقدر بسبعة آلاف مقاتل يقودهم «طارق بن زياد»؛ فعبر البحر من مدينة «سبتة» هذه المرة، وفي سفن «جوليان» الذي اتفق معه

على الحرب نظير أملاك وإقطاعات كبيرة بـ«الأندلس»، وبالفعل وصل المسلمون للشاطئ المقابل لـ«سبتة» على أرض «الأندلس» في المنطقة الصخرية التي عرفت من يومها لوقتنا بـ«جبل طارق».

• المعارك الطاحنة:

من جبل طارق انطلقت جيوش الفتح الإسلامي لفتح بلاد «الأندلس»، وتوالت الانتصارات: ففتح المسلمون مدينة «قرطاجنة»؛ وهي في ناحية الشرق، ومنها انطلق إلى ناحية الغرب يستولي «طارق بن زياد» على الحصون والقرى المجاورة لـ«قرطاجنة»، وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل الجزيرة الخضراء.

أفاق «رودريجو» من غفلته، ومن حربه ضد خصومه، وقرر توحيد الصفوف من أجل التصدي لغزو المسلمين لبلاده، واستطاع أن يحشد جيشًا كبيرًا توجه به سريعًا نحو الجزيرة الخضراء؛ فكتب «طارق بن زياد» إلى القائد «موسى بن نصير» يطلب منه الإمدادات؛ فأرسل له «موسى» مددًا يقدر بخمسة آلاف مقاتل يقودهم «طريف بن مالك»؛ فأصبح الجيش الإسلامي اثني عشر ألفًا ويقود الجميع «طارق بن زياد».

وفي يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ التقى الجيشان على وادي «لكَّة»، أو «برباط» قرب مدينة «شذونة» في ناحية الجنوب الغربي للأندلس، واستمرت المعركة الطاحنة بين الفريقين قرابة ثمانية أيام، وانتهت بهزيمة ساحقة لـ«القوط الغربيين، وفروا من أرض المعركة.

استمر زحف «طارق بن زياد» والمسلمين، وفتحت المدن الواحدة تلو

الأخرى، حتى وصل إلى مدينة «طليطلة»: وهي عاصمة «القوط» الأسبان، وهناك التقى «طارق بن زياد» مع الملك المخلوع «وامبا»، وأعطاه ما سبق أن اتفقا عليه، وكانت أوامر القائد «موسى بن نصير» لـ«طارق بن زياد» الا يتجاوز الحد في التوغل في بلاد «الأندلس» خوفًا على جند الإسلام، ولكن يبدو أن سهولة الفتح اغرت «طارق بن زياد» وأطمعته في مواصلة الفتح، حتى وقع في حصار كبير من قبل «القوط»، وقد قل عدد جنده بسبب ما كان يتركه من حاميات في كل بلد يفتحها؛ فبعث برسالة استغاث فيها بالقائد «موسى بن نصير» يقول فيها: «إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية؛ فالغوث الغوث».

بعد هذه الرسالة قرر القائد «موسى بن نصير» أن يعبر بنفسه لنصرة المسلمين بـ«الأندلس»؛ فاندفع بجيش كبير يقدر بثمانية عشر ألفًا من عرب الشام واليمن إلى أرض «الأندلس» من ناحية الجنوب والغرب، وكان يفتح كل المدن الكبيرة التي تقع في طريقه لنجدة المسلمين المحاصرين، وهو بذلك يهدف لعدة أمور منها: فتح كل باقي أجزاء «الأندلس»، وتخفيف الضغط على المسلمين المحاصرين، وتحطيم معنويات «القوط» المدافعين عن البلاد، وانشغالهم بقتاله عن حصار المسلمين، فلما تم ما أراده «موسى» توجه إلى مكان المسلمين، وفك الحصار عنهم، واجتمعت القوتان الإسلاميتان وأكملا فتح بلاد «الأندلس»، وبعث «موسى» بكتاب الفتح لأمير المؤمنين «الوليد بن عبد الملك»؛ فلما قرأه خر ساجداً لله عز وجل.

تعتبر بلاد «الأندلس» أسهل بلاد فتحها المسلمون، والسبب الحقيقي وراء ذلك ـ كما شهد أعداء الإسلام ـ العدل والفضل والرحمة؛ يقول

«توماس أرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»: «الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون تجاه المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد»، ويقول «وول دويرانت» في قصة الحضارة: «لم تشهد بلاد «الأندلس» في تاريخها كله أكثر حزمًا وعدالة وحرية مما شهدته أيام فاتحيها العرب».

تاريخ الرسل والملوك	التاريخ الإسلامي	محاضرات في تاريخ الأمم
البداية والنهاية	نفخ الطيب	أطلس تاريخ الإسلام
المعجب	موسوعة التاريخ الإسلامي	تاريخ الخلفاء
المنتظم	الكامل في التاريخ	
دولة الإسلام في الأندلس	البيان المغرب	

معركة باب الشزري - أنشودة رولان

التاريخ / ذي القعدة ـ ١٦١ هـ.

المكان / «باب الشزري» ـ هضاب «رونسكال» ـ شمال إسبانيا .

الموضوع / المسلمون ينتصرون على جيوش «شارلمان» إمبراطور الدولة البيزنطية .

الأحداث

• تمهيد :

إن الحقيقة الثابتة عبر أحداث تاريخ الصراع الأبدي بين الإسلام وأعدائه، أن هذا العدو في حالة استنفار دائم وتربص مستمر بالأمة الإسلامية؛ فالعالم الإسلامي منذ القدم تحت المجهر والمراقبة الكاملة من قبل أعداء الإسلام، حتى تأتي اللحظة المناسبة والفرصة السانحة للانقضاض على هذه الأمة، وهذه الفرصة تأتي عادة عندما يتفرق الصف المسلم، وتتغلب الأهواء والمطامع الدنيوية على قلوب المسلمين، ويصبح الصف المسلم بين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة، وعندها يأتي الخذلان، وتسلط الأعداء الذين يحترقون غيظًا وحقدًا على المسلمين.

• وثبة الإسلام إلى قلب أوروبا:

لم يكن أحد يتخيل حال هؤلاء العرب الحفاة رعاة الشاة الذين كانوا يعبدون أوثانًا صُنعوا بأيديهم ، والذين كانوا لا يعرفون حلالاً ولا حرامًا ، كيف سيكون ، وكيف يتغير من قاع الإنسانية والمدنية إلي قمم ساحقة من الجلال والروعة

والبطولة، ووثب العرب بعد إسلامهم وثبة هائلة؛ ففي خلال نفس القرن الذي بعث فيه النبي ﷺ اصطدم المسلمون مع أكبر قوتين في العالم القديم: الدولة الفارسية، والدولة الرومانية، وتوسع العرب المسلمون لأقصى الشرق والغرب حتى وقفوا على شواطئ الأطلسي غربًا، ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل وثبوا وثبتهم الكبرى إلى داخل أوروبا، وافتتحوا إسبانيا وغنموا ملك القوط سنة ٩٢هـ، وأضحت إسبانيا الأوروبية ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية.

لم يقف الفاتحون الجدد عند حدود جبال «البرنيه» ـ البرانس الآن ـ والتي تفصل إسبانيا عن فرنسا وقلب أوروبا، بل اندفعوا يحملون رايات التوحيد، ولم يمض سوى عشرين عامًا على فتح الأندلس حتى استطاع المسلمون أن يجتاحوا ولايات فرنسا الجنوبية، وأن يبسطوا سلطان الإسلام على سهول «الرون»، ويتوغلون إلى قلب أوروبا، حتى وقعت الموقعة الكبرى والتي كانت النقطة الفارقة في حياة أوروبا والنصرانية بأسرها: وهي معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ على ضفاف نهر «اللوار»، والتي انهزم فيها المسلمون لأسباب معروفة ترجع في جملتها لحب الدنيا وتفرق الكلمة، ولكن المهم أن هذه المعركة أحدثت فورة وانتعاشة صليبية في قلوب الأوروبيين، بعدما كادت أوروبا كلها تقع بيد المسلمين العرب، وهذه الفورة والحمية جعلت الأوروبيين يفكرون في وضع حد نهائي للخطر الإسلامي الذي يهدد «فرنسا» وأوروبا من ناحية جبال «البرنيه» أو «البرانس».

• توحد الأعداء وتفرق المسلمين:

كان الأوربيون يعلمون جيدًا أن هزيمة المسلمين في معركة «بلاط الشهداء» لم تمنعهم من مواصلة القتال، وشن الغزوات إلى داخل أوروبا؛ فأخذوا في الإعداد لمواجهة هذا العدوان المتوقع من جانب المسلمين، وكان قائد الصليبيين في معركة «بلاط الشهداء» رجل داهية اسمه «كارل مارتل»؛ فأخذ في التخطيط

لتأمين «فرنسا» من ناحية «إسبانيا»، وذلك بمحاولة الاستيلاء على المدن الحدودية بين «إسبانيا» و«وفرنسا»، والواقعة في إقليم «جاليس»، وهو ما نجح فيه الأمير «بيين» ابن القائد «كارل مارتل»، وهذا النجاح رشحه لأن يكون عاهل الدولة الرومانية القديمة، ويرتقي لعرشها الكبير، واستمر الحال على ما هو عليه حتى جاء الإمبراطور «كارل الأكبر» المشهور في كتب التاريخ باسم «شارلمان»، وهو أشهر القادة الذين نذروا حياتهم لخدمة الصليب، ونشر الدين النصراني في ربوع أوروبا، وقد أصبح «شارلمان» إمبراطوراً على مملكة الفرنج بأسرها من أقصاها لأدناها بعد وفاة أخيه «كارلومان»، وكان «شارلمان» بجانب مقدرته الحربية الفذة يتمتع بعاطفة دينية قوية، وحمية كبيرة لخدمة الصليب، وشن حروباً ذات طابع صليبي على القبائل السكسونية الوثنية، وأجبرها على اعتناق النصرانية، وكان «شارلمان» في نفس الوقت ينظر لدولة الإسلام في «الأندلس» بعين التوجس والحذر، ويرى فيها تهديداً وخطراً دينيًا وسياسيًا معًا، بجانب العمل والترقب له ليل نهار انتظاراً للفرصة السانحة للانقضاض على دولة الإسلام بـ«الأندلس»، وإنهاء الوجود الإسلامي بأوروبا كلها

في هذه الفترة التي شهدت الفورة والحمية الصليبية، وتجمع الأعداء كلهم تحت راية واحدة وقائد واحد هو محط أنظارهم وملؤ عيونهم وحاميهم المنتظر من سطوة الفاتحين المسلمين، كان المسلمون بـ«الأندلس» يعانون من الصراعات الداخلية والفتن العصبية التي دبت بين عنصري الفتح: «العرب» و«البربر» من ناحية، وبين قبائل العرب بعضها بعضًا من ناحية أخرى، ووقعت «الأندلس» فريسة حرب أهلية عدة سنين، حتى استطاع «عبد الرحمن بن معاوية» الملقب بـ«الداخل»، وبـ«صقر قريش» أن يوحد الصفوف، ويعيد الخلافة الأموية للأندلس بعدما سقطت في الجزيرة العربية والمشرق، ولكنه مالبث أن واجه ظروفًا بالغة الصعوبة؛ حيث كانت العصبية القبلية مازالت

مستحوذة على عقول الكثير من زعماء القبائل العربية خاصة من ولاة الأقاليم البعيدة، الذين كانوا يحكمون تلك الأقاليم فيما يشبه الاقطاعيات الخاصة والحكم الذاتي، وشعروا بتقلص نفوذهم بعدما عادت الخلافة الأموية للظهور بـ«الأندلس»، وكان على رأس هؤلاء الولاة اثنان هما «سليمان بن يقظان الكلبي»، وكان واليًا على «برشلونة»، و«الحسين بن يحيى الأنصاري» وكان واليًا على «سرقسطة» حيث تحالف الاثنان على محاربة «عبد الرحمن الأموي»، وإفشال فكرة توحيد «الأندلس»، وفي نفس الوقت كانت ثورة البربر مشتعلة في جنوبي «الأندلس»، وشعر «عبد الرحمن الداخل» أن الظرف شديد الخطورة فقرر مد ذراعيه إلى الشمال وإلى الجنوب.

• الفرصة السانحة:

لم تكن حوادث الحرب الأهلية في «الأندلس» لتخفى عن «شارلمان» المتربص أصلاً بالإسلام والمسلمين في الأندلس، ووجد فيها «شارلمان» الفرصة السانحة للتدخل وإنهاء الوجود الإسلامي بـ«الأندلس»؛ فأخذ في التحضير لحملة صليبية كبيرة على «الأندلس»، وفي أثناء تجهيزه لهذه الحملة إذا بزعماء الفتنة تأخذهم المطامع والأهواء والعصبية لأبعد مدى يصل إليه مسلم؛ وانحطاط ـ ليس دينيًّا وأخلاقيًّا فقط ـ بل أيضًا إنسانيًّا، حيث سار «سليمان بن يقظان الكلبي» في نفر من صحبه إلى لقاء «شارلمان» سنة ١٦٠هـ وعرض «سليمان» على «شارلمان» المحالفة على قتال «عبد الرحمن»، واقترح عليه أن يقوم «شارلمان» بغزو الولايات الأندلسية الشمالية على أن تكون هذه الولايات من نصيب «شارلمان» بعد تنفيذ بنود الاتفاق، وأن يكون «سليمان» وباقي زعماء الثورة الأندلسية خاضعين لملك الفرنج «شارلمان» منضوين تحت حمايته.

(وهكذا نرى كيف يفكر ويعمل الخائن لبلده ودينه: لا يبالي بحرام ولا حرمات، وكيف أن الأطماع والأحقاد قد تدفع صاحبها لأن يخون دينه وبلده، ويرضى بالعدو والمحتل

الأجنبي الكافر حاكمًا ووليًا على بلاد الإسلام، وهذه القضية القديمة مازالت تتكرر وتحدث عبر التاريخ، وآخرها ما حدث بـ«أفغانستان» و«العراق»: من استدعاء أعداء الله ورسوله لحرب الإسلام والمسلمين، كل ذلك من أجل دنيا فانية، ومناصب زائلة، وحكومة باطلة).

لبىٰ ملك الفرنج دعوة الخونة الثائرين، ووافق فوراً علىٰ مشروعهم، وهو يضمر في نفسه أنه سوف يأكل «الأندلس» كلها، ويعيدها تحت حكم الصليب مرة أخرىٰ، ولا يكتفي فقط بالولايات الشمالية كما يظن الخونة المغفلون، ومن أجل ذلك أعد حملة عسكرية كبيرة الحجم قوية التسلح، ولإسباغ الصبغة الصليبية علىٰ حملته الضخمة أرسل «شارلمان» برسالة إلىٰ البابا «هادريان» يبلغه فيها بعزمه علىٰ محاربة المسلمين وطردهم من الأندلس؛ فشكره البابا علىٰ ذلك، ووعده بإقامة الصلوات بكنائس روما ليل نهار حتىٰ يعود ظافراً إلىٰ مملكته.

• اختلاف الخونة:

انتظر «شارلمان» حتىٰ انقضاء الشتاء، وقرر الهجوم في الربيع، وأعد حملته من عدة دول؛ حيث جاءته جنود من «انجلترا» و«ألمانيا» و«إيطاليا» و«اليونان»؛ إضافة لجنوده الأصليين من «فرنسا»، قسَّم جيشه الضخم إلىٰ قسمين: قسم يهجم من ناحية الشرق، والآخر من ناحية الغرب علىٰ أن يكون اللقاء بين القسمين عند «سرقسطة»؛ حيث يلتقي «شارلمان» مع زعماء الثورة الخونة، وأثناء سير «شارلمان» بجيشه الضخم اخترق بلاد «البشكنس» إقليم الباسك الأسباني الآن، واستولىٰ عليها بعد أن هزم أهلها المعتزين باستقلالهم؛ حيث لم يخضعوا لأحد منذ القدم ولا حتىٰ المسلمين، وظلت بلادهم مستعصية علىٰ الغزاة؛ لذلك دخل أهلها في قتال شرس مع «شارلمان»؛ ولكن لم يصمدوا له لضخامة جيشه.

في هذه الفترة كان «الحسين بن يحيىٰ الأنصاري» والي «سرقسطة» وشريك «سليمان بن يقظان» في الثورة علىٰ «عبد الرحمن الداخل» يشعر

بالحقد والحسد على زميله في الخيانة والثورة بسبب موقف الصدارة والزعامة الذي اتشح به عند مفاوضة الفرنج، وبدأ الخلاف يبدأ بينهما ونشبت الخصومة بين الثائرين، وقرر «الحسين» أن يخرج من هذا الحلف وقام بتحصين مدينته «سرقسطة»، وبالغ في ذلك، وكانت هذه المدينة كما هو مخطط سلفًا نقطة التجمع والالتقاء بين الفرنج والثائرين الخونة.

وصلت جيوش «شارلمان» ومعه الثوار بقيادة «سليمان بن يقظان» إلى مدينة «سرقسطة» فوجدوها شديدة التحصين، وأهلها بقيادة «الحسين بن يحيى» في غاية التحوط والاستعداد للدفاع عنها، وحاول «شارلمان» و«سليمان» فتح المدينة وضربا عليها الحصار بشدة ولكن شدة التحصين والاستماتة في الدفاع ووقفا سداً منيعًا أمام جيوش الفرنج وباقي الثائرين، وفي نفس الوقت جاءت الأخبار لـ«شارلمان» من بلاده أن القبائل «السكسونية» ـ ألد أعداء «شارلمان» ـ قد انتهزوا فرصة غيابه وقاموا باجتياح أراضيه فيما وراء «الراين»، وهنا شعر «شارلمان» أنه لا فائدة من بقائه في الأندلس بعدما فشل في اقتحام «سرقسطة»، واختلف حلفاؤه الخونة، وأعداؤه من خلفه استولوا على أراضيه بـ«فرنسا»؛ فقرر الرجوع بسرعة إلى بلاده، ولكنه غضب بشدة من حليفه «سليمان بن يقظان» لتخاذله وخداعه له؛ فقبض عليه وأخذه معه إلى بلاده أسيراً.

(ما أعظم ما في هذه الأحداث من دروس وعبر؛ فإن المسلمين لا يعرفون من أين يأتي النصر؟ وينظرون فقط للأسباب المادية من قوة سلاح وكثرة عدد وضخامة جيوش ،ولا ينظرون أو ينسون أن الأمر كله بيد الله عز وجل، وأن النصر من عند الله وحده، ويأتي من حيث لا يظن ويحتسب الناس؛ فالله عز وجل سلط عليهم الخلاف والشقاق وحب الزعامة؛ ليتفرق صفهم، ويذهب ريحهم، وسلط عليهم عدواً من غير المسلمين ـ ومن حيث لا يعلمون ـ ليشغلوا به عن حرب المسلمين، ثم انظر كيف يكون مصير الخونة والعملاء وما حجم قدرهم؟ إن قدرهم لا يعدو عند من باعوا دينهم وأوطانهم من أجله قيد أنملة، وما هم إلا كالحذاء البالي الذي لا يحتاج له ولا

فائدة فيه إلا على المزابل، وما أسواه من مصير وقدر.

• معركة باب الشزري:

ارتد «شارلمان» على رأس قواته المجتمعة ومعه أسيره «سليمان بن يقظان» وغيره من الرهائن، وسار شمالاً نحو بلاد «البشكنس»، وكان أهلها قد اجتمعوا وقرروا التصدي لعدوان «شارلمان»، واعتزموا الدفاع عن بلادهم خصوصًا، وقد شجعتهم وقفة مدينة «سرقسطة» وأهلها ضد جحافل «شارلمان»، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء المناطق المجاورة للتعاون في دفع العدو المشترك، ولكن جحافل «شارلمان» هجمت بكل عنف على عاصمة «البشكنس» «بنبلونة» ودمرتها بالكلية لمعاقبة «البشكنس» على تعاونهم مع المسلمين، ووقوفهم في وجه «شارلمان».

اتجه «شارلمان» بجيوشه بعد ذلك عائدًا إلى بلاده عن طريق ممرات جبال «البرنيه» ـ البرانس ـ الكبرى، الفاصلة بين «إسبانيا» و«فرنسا»، وهناك حدث ما يجب أن نسطره بأحرف من ذهب وضياء في كتب التاريخ؛ لتعرف الأجيال الحالية واللاحقة ما كان عليه آباؤهم من عزم وقوة إيمان وشجاعة منقطعة النظير، حيث أرسل الأمير «عبد الرحمن الداخل» فرقة من جيش «قرطبة» للتعاون مع ولدي «سليمان بن يقظان» المأسور لدى «شارلمان» في استرداد الأسير رغم خيانته، فقد قام «مطروح» و«عيشون» ابنا «سليمان» بالتعاون مع «الحسين الأنصاري» وجنود «قرطبة»، والتخطيط للهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجي، وقام الأمير «عبد الرحمن الداخل» بعمل ذكي ينم عن عقلية عسكرية شديدة؛ حيث قام بتسليح أهل «البشكنس» بعدد كبير من السهام والرماح، وأمرهم بالوقوف على قمم الجبال العالية على رءوس ممرات جبال «البرنيه» ـ خاصة الممر الشهير والمعروف باسم «ممر باب الشزري» ـ والذي سوف يسلكه «شارلمان» بجيوشه الكبيرة.

وبتخطيط من الأمير العبقري «عبد الرحمن الداخل» وتنفيذ من القوات الإسلامية بقيادة «مطروح» و«عيشون»، وبمساعدة من قبائل «البشكنس» هجمت القوات الإسلامية على مؤخرة الجيش الفرنجي عند مروره بممر «باب الشزري» كالصاعقة المحرقة المفاجئة، ومن هول المفاجأة أسفر الهجوم عن نتيجة رائعة للمسلمين ومروعة للكافرين؛ حيث لم يستطع الفرنج أن يدافعوا عن أنفسهم في تلك الشعاب الضيقة خاصة وسهام «البشكنس» ورماحهم تنهال عليهم من قمم الممرات، وأسفر الهجوم المفاجئ عن فصل مؤخرة الجيش الفرنجي وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة وفي مقدمتها الخزانة الملكية، وكذلك الأسرى وفي مقدمتهم «سليمان بن يقظان»، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق، والتي كان يقودها أمير فرنجي من أخلص أتباع «شارلمان»، وأقرب أصدقائه واسمه «هردولاند» أو«رولان»، وقد قتل هذا الأمير مع جنوده في الهجمة الفجائية على مؤخرة الجيش، وكان مقتله مصيبة كبيرة على الفرنج خاصة «شارلمان»، والجدير بالذكر أن الأدب الفرنسي خلَّد ذكرى «رولان» هذا بأنشودة مكونة من أربعة آلاف بيت عرفت باسم «أنشودة رولان»؛ وهي من أشهر أناشيد الفرنسيين، وتغلب عليها الأساطير والخرافات، وتوضح أيضًا كيف يهتم العدو برجاله وأبطاله، ويخلد ذكراهم للأجيال من بعدهم، بل ظلت موقعة «باب الشزري» مستقى خصبًا لكثير من الكتاب والشعراء الفرنج، وكذلك كتَّاب الملاحم لقرون عديدة.

وقعت الهزيمة المروعة على أكبر وأشهر ملوك الفرنج «شارلمان»، وتمزق جيشه الضخم شر ممزق على يد عصابة مجاهدة من المسلمين الأبطال الذين ظهر معدنهم عند الشدائد، وفشل مشروع «شارلمان» لغزو «الأندلس» وإنهاء الوجود الإسلامي بها بعد هزيمة مروعة، وفقدان زهرة جنوده، ونكبة عالمية جعلت سمعته في الحضيض، وأيضًا حفظت دولة الإسلام الوليدة في «الأندلس» من خطر الفناء، ووحدت الصف المسلم، وقضت على محاولات الثائرين والخائنين المتكررة.

فتح المدينة المقدسة

الزمان / ٢٠ شوال ـ ١٩٠هـ

المكان / مدينة «هرقلة» المقدسة عند «الروم» ـ «الأناضول».

الموضوع / «هارون الرشيد» يفتح أعظم مدن «الروم» انتقامًا من غدر ملك «الروم».

الأحداث

• مقدمة:

صفحة من صفحات العزة والكرامة، التي تضيء ظلمة الواقع الأليم، المخضب بدماء المستضعفين من أبناء هذه الأمة المنكوبة بكيد أعدائها، وغفلة أبنائها، إنها صفحة من الزمن الجميل الذي كانت فيه للإسلام وللمسلمين ريادة، وللأمة قيادة؛ نقدمها لكل باحث عن المجد الضائع لتكون له نبراسًا ونوراً على الطريق.

• دولة الإسلام وأعدائها:

بلغت الدولة الإسلامية أوج قوتها واتساعها في عهد الخليفة العباسي «هارون الرشيد»، وامتدت النهضة الحضارية إلى شتى فروع المعرفة، هذا بالإضافة إلى القوة العسكرية الجرارة التي لا يقوم لها أحد، مع حالة عامة من التدين والتمسك بسنة المصطفى ﷺ، ونشاط كبير للحالة العلمية؛ حيث

اجتمع في تلك الفترة أكبر علماء الإسلام: مثل «الإمام الشافعي» و«ابن حنبل» و«إسحاق» و«يحيى بن معين» و«ابن المبارك»، وغيرهم كثير، وبالجملة كانت الدولة الإسلامية درة العالم، وتاج المعمورة وقتها.

(وهذا يوضح لنا حقيقة هامة: هي أن المجتمع المسلم لا يقوم على القوة العسكرية فقط، بل لابد من التكامل الحضاري الأخلاقي السلوكي للمجتمع؛ فقوة وعلم ودين وأخلاق ونهضة حضارية تعطينا محصلة نهائية: مجتمع مسلم قوي ظاهر راقٍ).

في صدر الإسلام كانت هناك قوتان كبيرتان تحكمان العالم: دولة «الفرس»، ودولة «الروم»، واستطاع المسلمون أن يزيلوا «الفرس» من الوجود بالكلية، ويمحوها من وجه الأرض؛ مصداقًا لدعوة الرسول ﷺ على مُلك «كسرى» بالتمزيق والتبديد؛ جزاءً لما قام به «كسرى» مع رسالة الرسول إليه، أما دولة «الروم» فثبتت في الوجود لدعوة الرسول لهم؛ لإكرام «هرقل» رسالة الرسول، ولكنهم طردوا من «الشام» بالكلية، وصارت دولتهم في «آسيا» الصغرى، في المنطقة المعروفة بـ«الأناضول»: «تركيا» الآن، وقد أصابهم الضعف الشديد، ودخل الوهن قلوبهم؛ فلم يجسروا على حرب المسلمين، بل أكثر من ذلك دفع «الروم» الجزية للمسلمين حتى يهادنوهم.

في عهد «الرشيد» كان يملك أمر «الروم» امرأة اسمها «إريني»، وكانت وصية على ابنها «قسطنطين» السادس لصغره، وقد اتفقت هذه المرأة مع «الرشيد» على المهادنة ودفع الجزية؛ لما رأت ضعفها وقوة المسلمين، وفي نفس الوقت كان عليها خطر شديد من ناحية الغرب من ملك نصراني آخر هو «شارلمان» ملك «فرنسا» و«ألمانيا» وأجزاء من شمال «أسبانيا»؛ حيث كان يطمع في ضم أملاكها لدولته، وظلت هذه الملكة هكذا فترة من الزمان، حتى

اشتد ساعد ابنها «قسطنطين» واستقل بالحكم، وكان شابًا متهورًا، لا يحسن تدبر عواقب الأمور، قام بأعمال عدائية على الحدود بين الدولتين؛ مما أنذر بوقوع القتال مع المسلمين، وكان يزكي أوار حقده ضد المسلمين رجل اسمه «نقفور»، وكان شديد الحقد على الإسلام والمسلمين، وقد كان وضيعًا يعمل كاتبًا في قصر الملكة «إريني»، وأدركت الملكة أن أفعال ولدها سوف تضر بالصالح العام لدولة «الروم» التي لا تحتمل حربًا مع المسلمين؛ فقامت بالقبض على ولدها، وسملت عينيه حتى لا يصلح للحكم ـ لاحظ أن عادة سمل العينين عادة رومية انتقلت لبلاد المسلمين مع تحكم القادة الأتراك في مقاليد الحكم في منتصف القرن الثالث الهجري ـ وعادت «إريني» مرة أخرى ملكة على «الروم»، واستمرت في دفع الجزية للمسلمين.

أثارت هذه الفعلة غضب الكثيرين داخل مملكة «الروم»؛ فاستغل ذلك «نقفور»، وجمع الناس حوله، وقام بعمل انقلاب عسكري ضد «إريني»، وخلعوها من الحكم، وأصبح «نقفور» ملكًا على «الروم»؛ فكان أول ما عمله أن وقع معاهدة سلام مع الملك «شارلمان» تم ترسيم الحدود فيها بين الدولتين، ووقع اتفاق بعدم الاعتداء بين الدولتين، وذلك كي يتفرغ لقتال المسلمين.

● إعلان الحرب:

بعد أن اطمئن «نقفور» على الأوضاع الداخلية، وأمِن من شر «شارلمان» من ناحية الغرب بدأ في تنفيذ مخطط ضد المسلمين؛ فأرسل برسالة للخليفة «هارون الرشيد» جاء فيها ما يلي:

من «نقفور» ملك «الروم» إلى «هارون» ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، وحملت

إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثاله إليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن؛ فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما قد حصل قِبَلَك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ «الرشيد» الرسالة استشاط غضبًا حتى أن أحدًا لم يجرؤ على محادثته، ثم أخذ «الرشيد» الرسالة وكتب على ظهرها رسالته الشهيرة جداً في كتب التاريخ، والتي جاء فيها:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم من «هارون الرشيد» أمير المؤمنين إلى «نقفور» كلب «الروم»: قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام.

(انظر إلى عزة القائد والزعيم المسلم الذي لا يصبر على إهانة من كافر، ولا ذلة من عدو؛ فالإسلام الذي يؤمن به يمنعه من الذلة والخضوع لأعداء الإسلام).

أعد «هارون الرشيد» من يومه جيوشًا جرارة، خرج بنفسه على رأسها يقود الجيوش، وسار بأقصى سرعة مخترقًا بلاد «الروم»، لا يمر على بلد إلا أخذها، ولا حصن إلا فتحه، ولا معسكر للجند إلا أخربه، حتى دب الفزع والهلع في قلوب «الروم»، وكذا كلبهم «نقفور» الذي شعر بفداحة خطئه بما داهمه من الهجوم الكاسح؛ فطلب الموادعة وخضع لـ«الرشيد» وتذلل له، حتى وافق «الرشيد» على قبول الجزية، والرجوع عن بلاد «الروم»، وعاد المسلمون إلى بلادهم فكيف كان رد فعل الكلب «نقفور»؟

• غدر الكلب:

رغم أن الكلب يضرب به المثل في الوفاء إلا أن الكلب الذي نتكلم عنه كان الغدر متأصلاً فيه؛ لأنه كلب كافر لا يؤمن باللَّه، فما إن عاد المسلمون إلى بلادهم، وأمن الكلب «نقفور» من عودة «الرشيد» لبعد المسافة، ولشدة

البرد وقتها؛ حتى قام «نقفور» المجرم بنقض العهد، وأخذ المسلمون الذين تركهم «الرشيد» كحاميات لبعض الحصون: فجدع أنوفهم، وقطع آذانهم، ومَثَّلَ بهم.

(وهكذا يكون عهد الكافر الذي لا يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمة، وهكذا ينجلي الحقد الأسود الذي يملأ قلوبهم تجاه الإسلام وأهله).

طارت أخبار ما وقع من غدر وخيانة بسرعة، ولم يجسر أحد على أن يخبر «الرشيد» بما جرى؛ لعلمهم أنه يستعظم سفك دماء المسلمين، ويغضب من أجل ذلك غضبًا شديدًا؛ فاحتال أحد الشعراء وأنشد بين يدي «الرشيد» أبياتًا من الشعر تحمل الخبر، وكان مطلعها:

نقض الذي أعطيته «نقفور» وعليه دائرة البوار تدور

فلما فرغ الشاعر من قصيدته قال «الرشيد» أو قد فعلها «نقفور»؟ وبسرعة وبدون تردد قرر «الرشيد» العودة بالجيوش، وفي ظل بردٍ شديد، وعظم تكلفة ومؤنة؛ ليثبت لأعداء الإسلام أن عهد وذمة المسلمين لا تُخفر هكذا، وأن دماء المسلمين ليست رخيصة الثمن، بل لها طالبٌ ولو بعد حين.

(ليت تلك العزة والكرامة تعود مرة أخرى حتى لا يقفوا عاجزين وجامدين بينما دماء إخوانهم تغطي جميع بقاع الأرض، ولا بواكي لهم).

وعندما علم الكلب «نقفور» بعودة المسلمين خاف من غائلة غدره وخيانته؛ فأعاد العمل بالمعاهدة، وأسرع بتقديم الجزية وديات القتلى، وأظهر الطاعة، وأسرع في الخضوع، فعاد عنه «الرشيد».

• فتح هرقلة تأديب الغادرين:

لما عاد «الرشيد» إلى بغداد كان يخطط في نفسه أنه سيعود مرة أخرى لتأديب هذا الخائن الغادر، وذلك لعلمه أنه سوف يعود مرة أخرى لنقض العهود إذا سنحت

له الفرصة بذلك، وكان لابد من عمل يردع كل من تسول له نفسه الاعتداء على حرمات المسلمين، وقد خطط «الرشيد» للهجوم على مدينة «هرقلة»، وهي أقدس مدينة عند «الروم»، ومن أشرف مدنهم؛ لتكون الضربة موجعة وحاسمة.

استعد «الرشيد» للهجوم على «هرقلة» في فصل الصيف؛ كي يكون الطقس مناسبًا - وهذا من ذكاء القائد الذي يحسن التخطيط لعمله - وحشد جيشًا ضخمًا يقدر بـ ١٣٥ ألف مقاتل، سوى المتطوعين والمجاهدين حسبة في سبيل اللَّه، وسار الجيش بقوة حتى وصل إلى مدينة «هرقلة»، وضرب عليها المسلمون حصارًا شديدًا، وأسقط في يد «نقفور» الذي كان مشغولاً وقتها بخلافات داخلية بينه وبين بعض كبار رجال «الروم» الذين لم تعجبهم سياسته الحمقاء وتهوره، وأيضًا جبنه عن محاربة المسلمين، ولم يستطع «نقفور» أن يفعل شيئًا للمدينة المقدسة، التي ظلت صامدة أمام الحصار حتى وقعت تلك الحادثة التي أدت لفتح المدينة؛ فيا ترى ما هذه الحادثة؟

• البطل ابن الجزري:

ربما لا يعرف هذا الاسم الغالبية العظمى من المسلمين؛ ذلك لغفلتهم عن أبطالهم وشجعانهم، وانشغالهم بالأكاذيب والأباطيل التي تروجها آلة الدعاية الـ«صهيوصليبية» المسماة بـ«هوليود»؛ فأصبح قدوة الشباب، ورمز البطولة والقوة عندهم: «رامبو» و«روكي» و«سوبرمان» إلى غير ذلك من الأساطير الموهومة التي يُخدع بها الشباب الناشئة من المسلمين.

«ابن الجزري» هذا كان بطلاً من أبطال المسلمين، ومن فرسانهم المشهورين بمداومة الغزو، ومواصلة الجهاد في سبيل اللَّه على الجبهة الرومية، وكان سببًا لفتح هذه المدينة المقدسة؛ فكيف كان ذلك؟!

أثناء الحصار الشديد للمدينة خرج بطل أبطال «الروم»، وأكبر فرسانهم، وطلب المبارزة من المسلمين على باب المدينة؛ فلم يخرج له أحد؛ لفرط شجاعته، وضخامة هيئته، وقال الرومي ليخرج لي اثنين فلم يجبه أحد؛ فقال ليخرج لي ثلاثة، وظل كذلك حتى وصل بالعدد إلى عشرين رجل من المسلمين ليبارزوه، وحدد موعداً من الغد لذلك، وكان «الرشيد» وقتها نائمًا؛ فلما استيقظ وعلم بذلك غضب لما لم يخرج أحد من المسلمين لمبارزته.

(وهذا طبيعي أن يغضب القائد لما يظنه جبن من جنوده، خاصة إذا كان هؤلاء الجند هم جند الإسلام، وكتيبة الرحمن).

وعندها جاء المجاهدون والمتطوعون إلى «الرشيد»، وقالوا له: يا أمير المؤمنين أخرج لهذا الكافر رجلا من عامة المسلمين؛ فإذا قتله فت ذلك في عضد «الروم» وانهارت مدينتهم، وإذا قتله الرومي لم يؤثر ذلك في نفس المسلمين لعدم علمهم بشخصية من خرج للمبارزة؛ فوافق «الرشيد» على ذلك، وطلب منهم أن يرشحوا رجلا لتلك المهمة؛ فانتخب المجاهدون من بينهم البطل الجسور «ابن الجزري».

ولما خرج «ابن الجزري» للمبارزة عرفه «الروم»؛ لأنه كان من الأبطال المرابطين على الثغور، وكان معروفًا لدى «الروم»، وكان كلاهما من الأبطال الشجعان؛ فظلا يتبارزان فترة طويلة ولا يقدر أحدهما على الآخر، وفجأة أظهر «ابن الجزري» الفرار من أرض المبارزة، ودخلت الكآبة والحزن على المسلمين، وهللت «الروم» وفرحت بشدة، وركض الرومي خلف «ابن الجزري» ليدركه، ولكن «ابن الجزري» استدار بفرسه في حركة خداع بارعة، ورمى الرومي بخنجر كان في يده فأصاب الرومي في رقبته، وهجم «ابن الجزري» عليه وقتله قبل أن يهوي من فوق فرسه؛ فكبر المسلمون تكبيراً

شديداً، وسقطت المدينة من هول الصدمة، وشدة الوقعة، وأُخذ أهلها، وتم تهديم المدينة بالكلية فلم يعد لها ذكر ولا أثر بعدها.

أمر الخليفة «الرشيد» بصب الأموال على البطل «ابن الجزري»، ولكنه رفض أن يأخذ منها درهمًا واحدًا؛ لأنه كان يقاتل في سبيل اللّه وابتغاء الثواب من اللّه عز وجل.

هذا الموقف والمشهد يوضح لنا أن هؤلاء الناس لم يكونوا يجاهدون من أجل دنيا ولا مال ولا شهرة، إنما يجاهدون من أجل إعلاء كلمة لا إله إلا اللّه؛ لذلك نصرهم اللّه عز وجل وكبت عدوهم.

سير أعلام النبلاء	الكامل في التاريخ	البداية والنهاية
تاريخ الخلفاء	فتوح البلدان	موسوعة التاريخ الإسلامي
المنتظم	تاريخ الرسل والملوك	محاضرات الخضري
العبر في من غبر ٢/١	التاريخ الإسلامي	تاريخ بغداد

فتح عمورية . معركة العزة الإسلامية

الزمان / ٦ رمضان ـ ٢٢٣ هـ.

المكان / «عمورية» ـ آسيا الصغرى.

الموضـــوع / المسلمون بقيادة الخليفة «المعتصم بالله» يفتحون أعز مدن «الروم» البيزنطيين.

الأحداث

• مقدمة:

الأزمة الحقيقية التي تعيشها أمة الإسلام في وقتنا الحاضر هي في المقام الأو ل أزمة في الإيمان؛ الذي هو المحرك الأساسي لحياة الإنسان ـ خاصة المسلم ـ لأن الإيمان إذا ما دخل القلوب وملأها فإن آثاره وأعراضه تفيض على الجوارح والسلوكيات والتصرفات وردود الأفعال، وبغياب الإيمان تغيب معظم أسلحة المسلم ـ إن لم تكن كلها ـ ومن أعظم ما فقده المسلمون الآن بضعف إيمانهم العزة والكرامة، وكلاهما من أقوى أسلحة المؤمن في حربه ضد أعداء الإسلام، وبغيابهما أصبح المسلمون مثل الجثة الهامدة، بل مثل الأموات الذين لا يسمعون ولا يتحركون، ولا تهزهم الأحداث، ولا تؤرقهم الدماء المراقة، والأعراض المنتهكة، والمقدسات الأسيرة، ولا يقلق مضاجعهم بكاء اليتامى، وعويل الأرامل، ودموع الأزواج الذين يرون زوجاتهم يغتصبن أمام أعينهم ولا يملكون لهم يداً، هذا رغم أن الإسلام يفرض علينا أن نتحلى

بالعزة والكرامة، وأن نتمثل قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ولعل السبب الرئيس لضياع العزة والكرامة من قلوب المسلمين الآن أنهم قد التمسوا العزة والكرامة من عند غير الله عز وجل، تمامًا كما فعل المنافقون من قبل، وعندها أذلهم الله عز وجل، وأوكلهم إلى أنفسهم وعدوهم، وصدق الفاروق عمر عندما قال: «إنا كنا أذل أمة على وجه الأرض فأعزنا الله بالإسلام؛ فمتى ابتغينا العزة في غير دين الله أذلنا الله»، ونحن نُذَكِّرُ من التمس العزة من عند أمريكا وأوروبا وغيرهم، ومن التمس العزة في القومية الوطنية والقبلية، ومن التمس العزة في مال أو جاه عشيرةٍ، كل هؤلاء نذكرهم بقول الحق: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ [فاطر: ١٠]، وأيضًا نقدم لهم تلك الصفحة الناصعة البياض من صفحات كتاب كبير للعزة والكرامة سطره المسلمون الأولون بدمائهم وأرواحهم من أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله.

• حلف الشيطان:

واجهت الدولة العباسية في مطلع القرن الثالث الهجري - وبالتحديد سنة ٢٠٣ هـ - فتنة عاتية هائلة، كادت أن تقتلع جذور الدولة العباسية من أساسها، وهددت الوجود الإسلامي في منطقة ما وراء النهر بالهضبة الإيرانية كلها، وهي فتنة «بابك الخرمي»: وهو رجل فارسي اتبع مذهب الإباحية، وروج له حتى تبعه الكثير من سكان الجبال ممن يغلب عليهم الجهل والشقاوة، وكان «بابك» هذا داهية من دواهي الزمان استطاع أن يستغل ميل الناس للشهوات والغرائز، ودخل عليهم من هذا الباب حتى استغوى الكثيرين، ثم ما لبث أن تحول من مذهب إباحي إلى قوة عسكرية نظامية قوية، واتبع أسلوب العنف والشدة، والسفك الشديد لدماء وأموال المسلمين، وبدأ يكون

مملكة كبيرة تكون نواة لإعادة مملكة فارس المجوسية القديمة، والتي أزالها المسلمون في أيام الصحابة الأولين.

لم ينتبه المسلمون في بداية الأمر لخطورة دعوة «بابك» الإباحية حتى تحولت الدعوة لحركة عسكرية؛ فتجرد له الخليفة «المأمون» العباسي، وظل يرسل له الجيش تلو الآخر، ولكن لم يستطع القضاء عليه؛ فلما حضرت «المأمون» الوفاة أوصى خليفته وأخاه «المعتصم بالله» أن يواصل قتال «بابك الخرمي»، وأن يقضي على هذا المذهب الخبيث، وبالفعل تجرد الخليفة «المعتصم بالله» لحرب «بابك الخرمي» وأتباعه الإباحيين، وأرسل إليه خيرة قواد الدولة العباسية وأمهرهم: الواحد تلو الآخر حتى استطاع في النهاية أن يضيق الخناق على «بابك»، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الوقوع، وعندها أرسل «بابك الخرمي» برسالة إلى «توفيل بن ميخائيل» ملك «الروم» البيزنطيين يعلمه فيها: أن «المعتصم» قد وجه عساكره ومقاتليه إليه، ولم يبق على بابه أحد، ويعلمه أنه إن أراد الخروج إليه فليس في وجهه أحد يمنعه؛ وظن «بابك» أن ملك «الروم» إن تحرك يكشف عنه ضغط المسلمين عليه، وبالفعل خرج «توفيل» في جيش جرار يفوق المائة ألف، والتحق بجيشه الآلاف من أتباع «بابك الخرمي» من سكان جبال «أرمينيا» بـ«آسيا» الصغرى، وأغاروا على مدينة «زِبطرة» فأوقع بأهلها مذبحة كبيرة، ومثَّل بجثث القتلى: فسمل العيون، وقطع الأنوف والآذان.

(وهذا يوضح مدى الحقد والغل الذي يعتمل في قلوب أعداء الإسلام ضد المسلمين، وأنهم إذا ما أتتهم الفرصة فسيفرغون شحنات الكراهية الممتلأة بها قلوبهم، وهذا يفسر لنا عدم تحرك مشاعر أي أحد من دعاة الحرية والتقدم والديموقراطية عندما يقتل الآلاف والملايين من أبناء المسلمين، في حين يبكون ويولولون على حقوق

الخراف التي يذبحها المسلمون في عيد الأضحى، وأيضًا هذا يبين مدى العلاقة الوثيقة بين أعداء الإسلام على اختلاف نحلهم ومللهم، واجتماعهم على حرب المسلمين، حتى وإن كان بعضهم لبعض عدو).

• أستاذ العزة الإسلامية:

لما خرج ملك «الروم»، وفعل ما فعله بأهل الإسلام طارت الأخبار إلى الخليفة «المعتصم بالله»، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي «الروم» قائلة: «وا معتصماه»، وكان «المعتصم» وقتها جالسًا على سريره؛ فانتفض واقفًا وقال: «لبيك لبيك»، وجرى في قصره وهو يقول بأعلى صوته: «النفير النفير»، ثم ركب دابته، وأخذ معه حقيبته وزاده، وانطلق بفرسه وحده كالأسد الكاسر لا يلوي على شيء، ولولا أن أدركه القادة والأعيان لسار وحده، وقالوا له: لابد من أن تعبئ الجيش، وتجمع الناس؛ فوافق «المعتصم بالله» على ذلك، واستدعى القضاة والشهود وأهل العدالة، وأشهدهم على نفسه بأن ميراثه: ثلث لولده، وثلث لوالديه، وثلث لله تعالى، وأنه لن يعود من جهاده حتى ينتصر للمسلمين، وينتقم من أعداء الإسلام.

(وقد يعجب المرء من قوة وعزة وكرامة «المعتصم»، وسرعة استجابته، ولكن هذا الأمر كان عاديًا جدًا على قلوبهم ونفوسهم الأبية؛ لأن هذا هو الإسلام، وهذا ما أمرنا به؛ فالعزة والكرامة ليست مسألة طارئة أو عارضة على قلوب المخلصين من المسلمين، بل هو أساس وأصل ثابت في قلوبهم، ونحن نعجب من ذلك في زماننا ـ وحق لنا ـ فنحن في زمان ضاعت فيه كل معاني وقيم وأسس الإسلام من قلوبنا؛ فنستغرب إذًا هذه الاستجابة الفورية لنداء الأسارى والحيارى، ونرى أن هذا مثال شامخ لا يدرك أبدًا، رغم أن من يقرأ هذه الحقبة التاريخية يرى أمثلة رائعة، بل لا تقل روعة عن

موقف «المعتصم بالله»، ولكنها الذلة التي خربت قلوبنا ونفوسنا؛ فأفقدتنا ذاكرتنا).

سار «المعتصم» بما تجهَّز عنده من المسلمين بأقصى سرعة لإنجاد المسلمين بـ«زبرطة»، ولما وصل إلى المدينة وجد أن مجرم «الروم» قد رجع إلى بلاده؛ فجعل «المعتصم» مدينة «زبرطة» قاعدة لتجميع الجيوش، وأرسل في مدائن الإسلام يدعوهم للجهاد ضد «الروم»، ثم سأل «المعتصم» عن أمنع وأحصن بلاد «الروم»؛ فقيل له: «عمورية» وهي مدينة لم يعرض لها أحد من قبل ظهور الإسلام لوقتنا الحالي، وهي عين النصرانية، وأشرف عند «الروم» من «القسطنطينية»، فاستعد «المعتصم» وقرر الهجوم على «عمورية»؛ لتأديب الكافرين المعتدين، وزجراً لهم عن العودة لمثلها، وجهز «المعتصم بالله» جيشًا لم يسبق إليه، وحشد أفضل وأقدر قواده الأبطال، ووضع خطة محكمة للقتال، حيث قسَّم الجيش إلى ثلاثة أجزاء، كل جزء يدخل على بلاد «الروم» من اتجاه مختلف، في شبه كماشة طاحنة على أرض «الروم»، وجعل قائده «الأفشين» على جزء؛ وقائده الآخر «أشناس» على الجزء الثاني؛ وقاد «المعتصم» الجزء الثالث.

• خطة الهجوم على عمورية:

بعد أن وضع «المعتصم» خطة الهجوم على «عمورية» قدَّم الجزء الذي يقوده «الأفشين»، وأمره أن يدخل من ناحية مدينة «سروج»، ثم منها إلى «أرمينيا» حتى يصطدم مع ملك «الروم» «توفيل بن ميخائيل»، في حين أمر قائده الآخر «أشناس» أن يدخل من ناحية «مرج الأسقف» ليهجم على ملك «الروم» من خلفه، وبالتالي يقع «توفيل» بين كماشة المسلمين، واستطاع «الأفشين» أن يسبق «أشناس»، ويصطدم مع «الروم» الذين فوجئوا بقوة الصدمة الإسلامية

في القتال؛ ففر كثير من جنود «الروم» من أرض القتال، واستطاع «توفيل» أن يتخلص من المأزق بصعوبة شديدة، وعاد إلى معسكره، وضرب أعناق المتخاذلين في القتال، وأرسل في جميع أنحاء مملكته يأمر بالنفير العام للوقوف في وجه الحملة الإسلامية على بلاده؛ ولما وصلت الأخبار لـ«المعتصم» بهذا النصر الكبير لـ«الأفشين» على «توفيل» سُرَّ به جداً، وأرسل إليه وإلى «أشناس» يأمرهم بالتجمع على مدينة «عمورية» بعد أن أصبح الطريق مفتوحًا إليها.

اجتمع المسلمون عند «عمورية»؛ وكانت مدينة شديدة التحصين، عالية الأسوار، لها أبراج قوية؛ فقام «المعتصم» بتقسيم قادة جيوشه على أبراج المدينة كل واحد منهم يتولى الحرب والهجوم من ناحيته، وحدث شيء عجيب، بل هو أمر من عند اللَّه ليعلم به المسلمين من أين يأتي النصر؛ ذلك أن رجلاً من المسلمين قد أسره «الروم» من قبل، وأجبروه على التنصر؛ فتظاهر بذلك تحينًا لفرصة الهرب؛ فلما نزل المسلمون على المدينة، وضربوا عليها الحصار هرب هذا المسلم، وطلب الدخول على «المعتصم» وأخبره بنقاط ضعف المدينة - خاصة في جزء معين من أسوار المدينة - فأمر «المعتصم» بالتركيز على هذا الجزء فانصدع السور.

كان أمير «عمورية» رجلاً اسمه «ناطس»، وقد شعر بوطأة الحصار الإسلامي عليه؛ فأرسل برجلين من طرفه إلى ملك «الروم» «توفيل بن ميخائيل» يطلب منه الإمدادات والنجدات السريعة، ولكن استطاعت المخابرات الإسلامية القبض على هذين الرجلين، وعرفوا منهما خطة «ناطس» في كبس المسلمين ليلاً؛ فرد «المعتصم» على «ناطس» بحيلة ذكية؛ حيث أمر بالهدايا والأموال لهذين الرجلين، وأوقفهما في مكان يراه «الروم» ليعلموا أن

هذين الرجلين قد خانا «الروم»، وقبلا الأموال والهدايا ليدب اليأس والهزيمة النفسية في قلوب «الروم» المدافعين عن المدينة، ويعلموا أن لا ملجأ لهم من سيوف المسلمين وحصارهم إلا التسليم، وهذا ما وقع بالفعل بعد ذلك.

• فتح عمورية:

بعد أن فرق «المعتصم» قواده على أسوار المدينة وأبراجها، وكان قد أمر كلا من قائديه الكبار «الأفشين» و«أشناس» أن يتولى أحدهما القتال يومًا، والآخر في اليوم الذي يليه، وهكذا بنظام الطاحونة القتالية؛ مما أرهق المدافعين عن المدينة - خاصة من يتولى الدفاع عن المنطقة الضعيفة، والتي سبق أن دل عليها المسلم الهارب من المدينة - حيث ركز عليها المسلمون هجومهم، وكان القائد الرومي الموكل بالدفاع عن تلك المنطقة اسمه «وندوا»، وقد أصيب معظم رجاله أثناء قتالهم ضد المسلمين؛ فاجتمع مع «ناطس» أمير «عمورية»، وطلب منه إمدادات من الرجال ليستريح رجاله قليلاً، ويداووا جراحهم، ولكن «ناطس» رفض بشدة، وشتم «وندوا»؛ فعندها عزم «وندوا» على الخروج للمسلمين ليطلب لنفسه ولرجاله الأمان على أموالهم ودمائهم على أن يفتح لهم الطريق من ناحيته.

بالفعل خرج «وندوا» واجتمع مع «المعتصم»، وطلب منه الأمان؛ فأمنه «المعتصم»، وأعطاه ما أراد، وأمر الجنود بالهجوم على أسوار المدينة بمنتهى القوة حتى انصدع السور من الناحية الضعيفة - ولم يكن به مدافعون كما هو متفق عليه مع «وندوا» ودخل المسلمون كالسيل المنهمر، وحاول «الروم» التصدي لهم، ولكن هيهات هيهات، وأوقع بهم المسلمون هزيمة منكرة، ونزل «ناطس» من حصنه، واستسلم لجيش «المعتصم»؛ فأخذه المسلمون أسيرًا، وأمر «المعتصم» بهدم المدينة وإحراقها بالكلية حتى أصبحت أثرًا بعد

عين، انتقامًا من أعداء الإسلام على ما فعلوه في حق بلاد المسلمين وأبناء المسلمين، وأخذ أهل مدينة «عمورية» كلهم أسرى، وباعهم بأبخس الأثمان؛ ليتأدب أعداء الإسلام ويرتدعوا بعدها.

(وهذا ما يجب على المسلمين أن يفعلوه مع أعدائهم المجرمين المعتدين؛ ليعلموا أن للإسلام حامٍ، وعن حرمته مدافع، ولثأره طالب؛ فيرتدعوا أن يعودوا لمثلها، وذلك مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]).

البداية والنهاية	التاريخ الإسلامي	فتوح البلدان
النجوم الزاهرة	تاريخ الخلفاء	محاضرات في تاريخ العباسيين
المنتظم	موسوعة التاريخ الإسلامي	سير أعلام النبلاء
تاريخ الرسل والملوك	الكامل في التاريخ	

معركة سومنات . فتح الهند الأعظم

الزمان/ ١٥ذي القعدة ـ ٤١٨هـ

المكان/ مدينة «سومنات» ـ نهر «الجانج» ـ «الهند»

الموضوع/ المسلمون بقيادة «محمود بن سبكتكين» يفتحون بلاد «الهند».

الأحداث

• مقدمة:

يعتبر دخول الإسلام إلى بلاد «الهند» الشاسعة أشبه ما يكون بالملاحم الأسطورية التى سطرها كبار المؤلفين والمؤرخين، والإسلام قد دخل بلاد «الهند» الضخمة والواسعة منذ القرن الأو ل الهجري، ولكنه ظل فى بلاد «السند» بوابة «الهند» الغربية فترة طويلة من الزمان، حتى جاء العهد الذي اقتحم فيه الإسلام تلك البلاد الكبيرة، المتشعبة الأفكار والعادات، والمبنية على نظام الطبقات؛ فاصطدم الإسلام ـ ليس فقط مع القوة المادية، والجيوش الحربية ـ ولكنه اصطدم أيضًا مع الأفكار الغريبة، والانحرافات الهائلة، والضلالات المظلمة؛ لذلك فإن معركة الإسلام مع الكفر بأنواعه الكثيرة بـ«الهند» ظلت لمئات السنين ـ ومازالت قائمة حتى وقتنا الحاضر، والذي نلمسه جليًا في المذابح والمجازر السنوية والموسمية التي يقوم بها عباد البقر من الهندوس ضد المسلمين، الذين تحولوا من قادة وحكام للبلاد إلى أقلية، وذلك رغم ضخامة أعدادهم مقارنة بغيرهم من بلدان العالم.

• الإسلام والهند :

بلاد «الهند» قديمًا قبل التقسيم الحالي كانت تشمل : «باكستان» ، و«أفغانستان» ، و«بنجلادش» ، و«بورما» ، وغيرهم إلى حدود الصين ، وكانت منقسمة إلى بلاد «الهند» وبلاد «السند» ؛ لذلك فلقد عرفت عند الجغرافيين باسم «شبه القارة الهندية» لضخامتها ، ولقد دخل الإسلام إلى بلاد «السند» منذ الأيام الأولي للدولة الإسلامية ، وبالتحديد سنة ١٥ هـ في خلافة «عمر بن الخطاب» عن طريق الحملات الاستكشافية لـ«الحكم بن أبي العاص» الذي وصل إلى ساحل «الهند» ، وتواصلت الحملات الاستكشافية أيام أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» ، ولكنه رضي اللَّه عنه رفض إرسال جيوش كبيرة خوفًا على المسلمين ؛ لبعد البلاد واتساعها .

ظل الأمر هكذا في صدر الدولة الأموية حتى تولى «زياد بن أبيه» «العراق» وما بعدها ؛ فقرر جعل سواحل «الهند» ولاية منفصلة سميت بـ«الثغر» ، وتشمل المساحة التي تلي «سجستان» و«زابلستان» و«طخارستان» («أفغانستان» الآن) ، وكان أول من تولاها رجل اسمه «راشد بن عمرو» ، ومن يومها بدأت الحملات الجهادية القوية للفتح الإسلامي لـ«الهند» ، وبرز رجال في تلك الحملات : أمثال «عياد بن زياد» و«سعيد بن أسلم» و«محمد بن هارون» ، وكلهم أكرمهم اللَّه بالشهادة في ميادين الجهاد .

كان التحول الكبير في مسيرة الفتح الإسلامي للهند عندما تولى الشاب القائد «محمد بن القاسم الثقفي» رحمه اللَّه قيادة الحملات الجهادية بناحية «السند» ، وحقق انتصارات هائلة ، توجها بالقضاء على ملك «السند» «داهر البرهمي» ، وفتح معظم بلاد «السند» ، وضمها للدولة الإسلامية ، وأزال عنها شعائر الشرك والكفر و«البوذية» و«البرهمية» ، وذلك سنة ٨٩هـ ، ولكن

«محمد بن القاسم» مالبث أن راح ضحية لمؤامرة دنيئة قامت بها «هيتا ابنة داهر»؛ حيث ادعت وافترت عليه كذبًا أنه اغتصبها، وسجن «ابن القاسم»، ومات في سجنه، وحزن عليه أهل «السند» حزنًا شديداً، وبموته توقفت حركة الفتح الإسلامي لـ«الهند».

وبعد ذلك انتفض ملوك «الهند» و«السند»، وعادوا إلى عروشهم؛ فلما تولى الخليفة الراشد «عمر بن عبد العزيز» كتب إلى ملوك «السند» يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يظل كل ملك منهم في مكانه، وله ما للمسلمين، وعليه ما عليهم؛ فأجابوه ودخلت بلاد «السند» كلها في طاعة المسلمين، وأسلم أهلها وملوكها، وتسموا بأسماء العرب، وبهذا أصبحت بلاد «السند» بلاد إسلام، وقد اضطرب أمر «السند» في أواخر أيام بني أمية، ولكنها عادت إلى الطاعة والانتظام في أيام «أبي جعفر المنصور»، وفي أيامه افتتحت «كشمير» ودخلت في دولة الإسلام، ولكن ظلت بلاد «الهند» الغربية بعيدة عن الإسلام حتى ظهرت عدة دول محلية موالية للخلافة العباسية، ولكنها مستقلة إداريًا وسياسيًا وماليًا، ومن أعظم تلك الدول المحلية التي ساعدت على نشر الإسلام دولة الغزنويين وقائدها الفاتح الكبير «محمود بن سبكتكين».

• الدولة الغزنوية:

اسمها مشتق من اسم عاصمتها: وهي مدينة «غزنة» ـ الموجودة حاليًا بـ«أفغانستان» ـ وأصل هذه الدولة يرجع إلى القائد «سبكتكين» الحاجب التركي الذي عمل في خدمة الأمير «عبد الملك بن نوح الساماني»، وترقى في المناصب، وارتفعت به الأطوار حتى نال رضا أمراء «السامانية»؛ فعينوه واليًا

على «خراسان» و«غزنة» و«بيشاور»؛ فكون نواة الدولة «الغزنوية»، وتفرغ لمحاربة أمراء وملوك «الهند»، وخاصة ملوك شمال «الهند»، وأكبرهم الملك «جيبال» الذي قاد ملوك وأمراء الشمال الهندي، واصطدم مع المسلمين بقيادة «سبكتكين» سنة ٣٦٩ هـ، وكان النصر حليفًا للمسلمين؛ فرسخ بذلك «سبكتكين» الوجود الإسلامي وكذا أركان دولته الوليدة ببلاد «الأفغان» و«طاجيكستان».

وكل ما قام به «سبكتكين» كان باسم «السامانيين»: ملوك ما وراء النهر، ولم يعلن استقلاله حتى وقتها، ثم قام بأداء أعظم مهمة لصالح الدولة «السامانية»، عندما قضي على قوة «البوبهيين» الشيعة بـ«نيسابور» سنة ٣٨٣هـ؛ فقام الأمير «نوح بن نصر الساماني» بتعين «محمود بن سبكتكين» واليًا على «نيسابور»، وبالتالي غدت الدولة «الغزنوية» أوسع من الدولة «السامانية» نفسها، ومات «سبكتكين» سنة ٣٨٨هـ، وخلفه ابنه «محمود» لتدخل المنطقة عهدًا جديدًا من الفتوحات، لم تعرف مثله منذ أيام الخليفة «الفاروق».

• الفاتح الكبير:

لم يكد الأمر يستقر للقائد الجديد «محمود بن سبكتكين» حتى بدأ نشاطًا جهاديًا واسعًا اثبت انه من أعاظم الفاتحين في تاريخ الإسلام، حتى قال المؤرخون: أن فتوحه تعدل في المساحة فتوح الخليفة «عمر بن الخطاب»، وقد اتبع سياسة جهادية في غاية الحكمة تقوم أساسًا على تقوية وتثبيت الجبهة الداخلية عسكريًا وسياسيًا وعقائديًا وهو الأهم؛ فعمل على مايلي:

١- القضاء على كل المذاهب والعقائد الضالة، المخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة: مثل الاعتزال والتشيع و«الجهمية» و«القرمطة» والباطنية، والعمل

علىٰ نشر عقيدة السلف الصالح بين البلاد الواقعة تحت حكمه .

٢ـ قضىٰ علىٰ الدولة «البويهية» الشيعية ، والتي كانت من عوامل التفرق والانحلال في الأمة الإسلامية كلها ، حتىٰ بلغ بها الأمر في التفكير بالعودة للعصر «الساماني» الفارسي ، واتخاذ ألقاب المجوس : مثل «شاهنشاه» ، وبالقضاء علىٰ تلك الدولة الرافضية قدم السلطان «محمود» أعظم خدمة للإسلام .

٣ـ أزال الدولة «السامانية» التي بلغت حالة شديدة السوء : من الضعف والانحلال أثرت بشدة علىٰ سير الحملات الجهادية والفتوحات علىٰ الجبهة الهندية .

٤ـ أدخل بلاد الغور : وسط «أفغانستان» ـ وهي مناطق صحراوية شاسعة ـ في الإسلام ، وأرسل إليهم معلمين ودعاة وقراء ، وقضىٰ علىٰ دولة «القرامطة» الصغيرة بـ«الملتان» ، وكان يقودها رجل اسمه «أبو الفتوح داود» ، وأزال عن هذه البلاد العقائد الضالة والفرق المنحرفة : مثل الباطنية ، والإسماعيلية .

٥ـ أعلن خضوع دولته الضخمة وتبعيتها للخلافة العباسية ببغداد ، وخطب للخليفة العباسي «القادر باللّٰه» ، وتصدىٰ لمحاولات وإغراءات الدولة الفاطمية للسيطرة علىٰ دولته ، وقام بقتل داعية الفاطميين «التاهرتي» الذي جاء للتبشير بالدعوة الفاطمية ببلاد «محمود بن سبكتكين» ، وأهدىٰ بغلته إلىٰ القاضي «أبي منصور محمد بن محمد الأزدي» ، وقال له : «كان يركبها رأس الملحدين ؛ فليركبها رأس الموحدين» .

وهكذا ظل السلطان «محمود بن سبكتكين» يرتب للبيت من الداخل ، ويقوي القاعدة إيمانيًا وعقائديًا وعسكريًا ، ويكوِّن صفًا واحدًا استعدادًا لسلسلة الحملات الجهادية الواسعة لفتح بلاد «الهند» .

• فتوحات الهند الكبرى:

بدأ السلطان محمود فتوحاته الكبيرة ببلاد «الهند» من مركز قوة بعد أن ثبت الجبهة الداخلية لدولته؛ فقد كان يسيطر على إقليم «غزنة» - وهو الإقليم الجبلي المسيطر على سهول «البنجاب» - فكانت مداخل الجبال وممر خيبر الشهير في يده، وكذلك لم يكن هناك أي مناوئ، أو معارض داخلي للسلطان «محمود» يعيق حملاته الجهادية، والهضبة الإيرانية كلها تحت حكمه وسيطرته؛ لذلك كانت البداية في غاية القوة.

بدأت الحملات الجهادية بحملة كبيرة على شمال «الهند» سنة ٣٩٢ هـ؛ حيث انتصر السلطان «محمود» على ملك «الهند» الكبير والعنيد «جيبال» وجيوشه الجرارة، ووقع «جيبال» في الأسر؛ فأطلقه السلطان «محمود» لحكمة يعلمها الله ثم هو: وهي إذلاله نتيجة حروبه الطويلة ضد المسلمين منذ أيام والده السلطان «سبكتكين»، وكان من عادة الهنود أنه إذا وقع منهم في أيدي المسلمين أسيرًا لا تنعقد له بعدها رياسة؛ فلما رأى «جيبال» ذلك حلق رأسه، ثم أحرق نفسه بالنار؛ فاحترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة.

غزا السلطان «محمود» بعد ذلك أقاليم: «ويهنده»، و«الملتان»، و«بهاتنده»، ثم حارب «أناندابال بن جيبال»، وانتصر عليه، وأزال حكمه من شمال «الهند» تمامًا، وقضى على سلطانه في «البنجاب»، وبعد ذلك مباشرة عمل على نشر الإسلام الصحيح في كل نواحي «السند» إلى حوض «البنجاب».

تصدى السلطان «محمود» لمحاولة أمراء شمال «الهند» استعادة ما أخذه المسلمون، وانتصر عليهم في معركة هائلة سنة ٣٩٨ هـ، وفتح أحصن قلاع «الهند» قلعة «بيهيمنكر» على «الهملايا»، وأخضع مدينة «ناردين» أحصن وأقوى

مدن إقليم «الملتان».

وفي سنة ٤٠٨ هـ فتح السلطان «محمود» إقليم «كشمير»، وحوله لبلد مسلم، وكان لهذا الفتح صدىً بعيد نتج عنه دخول العديد من أمراء «الهند» في الإسلام، وعبر السلطان «محمود» بجيوشه نهر «الكنج» أو «الجانج» وهدم نحو عشرة آلاف معبد هندوسي، ثم هاجم أكبر مراكز «البراهمة» في «موجهاوان»، وواصل تقدمه وهو يحطم أية قوة هندية تبرز له، ويحول المعابد «الهندوسية» إلى مساجد يعبد الله فيها وحده، وقد أخذ السلطان «محمود» على عاتقه نشر الإسلام في بلاد «الهند»، والقضاء على الوثنية فيها، وبلغ في فتوحاته إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية، ولم تتل به قط سورة ولا آية.

• فتح سومنات:

استمر السلطان الكبير «محمود بن سبكتكين» في حملاته وفتوحاته لبلاد «الهند»، وكان كلما فتح بلداً، أو هدم صنماً، أو حطم معبداً قال الهنود: إن هذه الأصنام والبلاد قد سخط عليها الإله «سومنات»، ولو أنه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء، ولم يعر السلطان «محمود» الأمر اهتمامه حتى كثرت القالة، وأصبحت يقيناً عند الهنود؛ فسأل عن «سومنات» هذا فقيل له: إنه أعظم أصنام وآلهة الهنود، ويعتقد الهنود فيه أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه - على عقيدة التناسخ - فيعيدها فيمن شاء، وأن المد والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر له.

يقع «سومنات» على بعد مائتي فرسخ من مصب نهر «الجانج» بإقليم «الكوهرات» في غرب «الهند»، ولهذا الصنم وقف عشرة آلاف قرية، وعنده ألف كاهن لطقوس العبادة، وثلاثمائة رجل يحلقون رءوس ولحى زواره، وثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون على باب الصنم، أما

الصنم «سومنات» نفسه فهو مبني على ست وخمسين سارية من الصاج المصفح بالرصاص، و«سومنات» من حجر طوله خمسة أذرع، وليس له هيئة أو شكل، بل هو ثلاث دوائر وذراعان.

عندما اطلع سلطان الإسلام السلطان «محمود» على حقيقة الأمر عزم على غزوه وتحطيمه، وفتح معبده: ظنًا منه أن «الهند» إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام؛ فالسلطان «محمود» لا يبغي من جهاده سوى خدمة ونشر الإسلام؛ فاستخار اللّه عزوجل، وخرج بجيوشه ومن انضم إليه من المتطوعين والمجاهدين-وذلك في ١٠ شعبان سنة ٤١٦هـ-واخترق صحاري وقفار مهلكة: لا ماء فيها ولا ميرة، واصطدم بالعديد من الجيوش الهندية وهو في طريقه لـ«سومنات»، مع العلم أنه قد أعلم الجميع بوجهته وهدفه؛ ليرى الهنود إن كان «سومنات» سيدفع عن نفسه أو غيره شيئًا.

بلغ السلطان «محمود» بجيوشه مدينة «دبولواره» على بعد مرحلتين من «سومنات»، وقد ثبت أهلها لقتال المسلمين ظنًا منهم أن إلههم «سومنات» يمنعهم ويدفع عنهم؛ فاستولى عليها المسلمون، وحطموها تمامًا، وقتلوا جيشها بأكمله، وساروا حتى وصلوا إلى «سومنات» يوم الخميس ١٥ ذي القعدة سنة ٤١٦هـ؛ فرأوا حصنًا حصينًا على ساحل النهر، وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم.

وفي يوم الجمعة ١٦ ذي القعدة وعند وقت الزوال-كما هي عادة المسلمين الفاتحين-زحف السلطان «محمود» ومن معه من أبطال الإسلام، وقاتلوا الهنود بمنتهى الضراوة؛ بحيث إن الهنود صعقوا من هول الصدمة القتالية بعدما ظنوا أن إلههم الباطل سيمنعهم ويهلك عدوهم، ونصب المسلمون السلالم على أسوار المدينة وصعدوا عليها، وأعلنوا كلمة التوحيد والتكبير،

وانحدروا كالسيل الجارف داخل المدينة، وحينئذ اشتد القتال جداً، وتقدم جماعة من الهنود إلى معبودهم «سومنات»، وعفروا وجوههم وسألوه النصر، واعتنقوه وبكوا، ثم خرجوا للقتال فقتلوا جميعًا، وهكذا فريق تلوالآخر: يدخل ثم يقتل - وسبحانه من أضل هؤلاء حتى صاروا أضل من البهائم السوائم - قاتل الهنود على باب معبد الصنم «سومنات» أشد ما يكون القتال، حتى راح منهم خمسون ألف قتيل، ولما شعروا أنهم سيفنون بالكلية ركبت البقية منهم مراكب في النهر وحاولوا الهروب؛ فأدركهم المسلمون فما نجا منهم أحد، وكان يومًا على الكافرين عسيراً، وأمر السلطان «محمود» بهدم الصنم «سومنات» وأخذ أحجاره، وجعلها عتبة لجامع غزنة الكبير شكراً لله عز وجل.

• أعظم مشاهد المعركة:

لهذا المشهد نرسله بصورة عاجلة لكل الطاعنين والمشككين في سماحة وعدالة الدين الإسلامي، وحقيقة الجهاد في سبيل اللّه، وأن هذا الجهاد لم يرد به المسلمون أبداً الدنيا وزينتها، بل كان خالصًا لوجه اللّه، ولنشر دين الإسلام، وإزاحة قوى الكفر، وانطلاقًا من طريق الدعوة الإسلامية.

أثناء القتال الشرس حول صنم «سومنات» رأى بعض عقلاء الهنود مدى إصرار المسلمين على هدم «سومنات»، وشراستهم في القتال حتى ولو قتلوا جميعًا عن بكرة أبيهم؛ فطلبوا الاجتماع مع السلطان «محمود»، وعرضوا عليهم أموالاً هائلة، وكنوزاً عظيمة في سبيل ترك «سومنات» والرحيل عنه؛ ظنًا منهم أن المسلمين ما جاءوا إلا لأجل الأموال والكنوز؛ فجمع السلطان «محمود» قادته، واستشارهم في ذلك؛ فأشاروا عليه بقبول الأموال للمجهود الضخم، والأموال الطائلة التي أنفقت على تلك الحملة الجهادية؛ فبات

السلطان «محمود» طول ليلته يفكر ويستخير اللّه عزوجل، ولما أصبح قرر هدم الصنم «سومنات»، وعدم قبول الأموال، وقال كلمته الشهيرة: «وإني فكرت في الأمر الذي ذكر؛ فرأيت إذا نوديت يوم القيامة أين «محمود» الذي كسر الصنم؟ أحب إليَّ من أن يقال: الذي ترك الصنم لأجل ما يناله من الدنيا؟!».

وهكذا نرى هذا الطراز العظيم من القادة الربانيين الذين لم تشغلهم الدنيا عن الآخرة، ولا أموال الدنيا وكنوزها عن نشر رسالة الإسلام، وخدمة الدعوة إليه، والذين ضربوا لنا أروع الأمثلة في بيان نصاعة وصفاء العقيدة الإسلامية، وأظهروا حقيقة الجهاد في سبيل اللّه وغاياته النبيلة.

الكامل في التاريخ	البداية والنهاية	تاريخ الخلفاء
التاريخ الإسلامي	النجوم الزاهرة	موسوعة التاريخ الإسلامي
تاريخ الخلفاء	أيعيد التاريخ نفسه؟	فتوح البلدان
أطلس تاريخ الإسلام	سير أعلام النبلاء	وفيات الأعيان

معركة ملازكرد ـ سقوط الدولة البيزنطية

الزمان / الجمعة ٧ ذي القعدة ـ ٤٦٣هـ.

المكان / «الرهوة» ـ «أرمينية» ـ آسيا الصغرىٰ.

الموضوع / جيوش المسلمين بقيادة «ألب أرسلان» تنتصر علىٰ جحافل البيزنطيين.

الأحداث

• الفتنة العالمية:

كانت تجتمع منذ منتصف القرن الخامس الهجري ـ «منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ـ في الأفق أعراض الفتنة العالمية الكبري، التي أخذت عناصرها تختمر ببطئ، ثم تسفر ما بين آن وآخر عن صدام وشيك مصطرم بين الشرق والغرب، أو الإسلام والصليبية؛ حيث آلت القوىٰ الإسلامية العظمىٰ في العالم القديم إلىٰ الضعف التفرق، وذهاب الريح؛ فالدولة الإسلامية فقدت مركزها القديم كخلافة حقيقية للمسلمبن، ووقعت تحت مطارق أمراء وقادة وحكام الأقاليم، الذين استقلوا بأجزاء من الدولة العباسية، وسيطروا عليها، ولم تعد هذه الأقاليم تتبع الخلافة العباسية في شيء إلا الاسم فقط، والدعاء للخليفة العباسي يوم الجمعة فقط، وعدا ذلك لاشيء منذ زمن بعيد قامت دول داخل الخلافة العباسية تشهد علىٰ هذا الضعف والضياع للسلطة الحقيقية: مثل

الدولة السامانية والطاهرية والطولونية والصفارية، ثم كان التحدي الأكبر للخلافةالعباسية في ظهور الدولة الشيعية الخبيثة الرافضية المعروفة بالفاطمية، والتي استولت على المغرب العربي ومصر والشام والحجاز، ومثلت أكبر تحدٍ للخلافة العباسية طيلة قرنين من الزمان.

أما في الأندلس فقد انهارت الدولة الأموية، وقامت مكانها دول الطوائف الضعيفة الهزيلة، وتحول ميزان القوى لصالح إسبانيا النصرانية، وأخذت قواعد الأندلس التليدة في السقوط واحدة تلو الأخرى؛ لتشهد على الضعف الشديد الذي دب في جسد الأمة الإسلامية الكبير .

أما على الطرف الأخر كانت الدولة البيزنطية ما تزال حصن أوربا النصرانية من ناحية الشرق، وكانت أوربا وقتها تتمخض عن مقدمات مشروعها الضخم لغزو الشرق المسلم، ولكن الدولة البيزنطية أيضًا وقتها قد بلغت حالة من الضعف والتفكك ما جعل ثمانية من القياصرة يتعاقبون على عرش الدولة الرومانية القديمة في أقل من عشرة أعوام، ووقع بين أساقفة بيزنطة، والبابا في روما فتنة كبيرة أدت لوقوع ما يسمونه بالانفصال الكبير بين الكنيسة الشرقية والغربية سنة ١٠٥٣م.

وبالجملة أصبح العالم كله يتوق إلى قوة جديدة فتية تحسم الصراع بين طرفين كلاهما ضعيف ومتفرق.

• القوة الجديدة:

ولأن اللَّه عز وجل حافظ لدينه وناصر لشريعته وجنده؛ فإن من سنن اللَّه عز وجل التي لا تتبدل ولا تتغير في خلقه وفي الكون سنة الاستبدال، وسنة المدافعة، فسنة الاستبدال تفتضي أنه إذا لم يقم الجيل المسلم القائد بأعباء الدين

والواجب المناط به تجاه الدعوة والحراسة؛ فإن اللّٰه عز وجل يستبدل هذا الجيل ويأتي بالجيل القادر على حمل مسئولة الدين وأعبائه، ونلمح هذا آيات عديدة في كتاب اللّٰه عز وجل مثل قوله عز وجل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وقوله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩].

أما سنة المدافعة فتقتضي أن أولياء اللّٰه في مدافعة مستمرة، ومنازلة دائمة مع أولياء الشيطان والباطل، فأعوان كلا الفريقين في حرب مستمرة وصراع أبدي، ولا يتصور وجود أحدهما بدون الأخر، ولن يترك فريق الأخر ينعم بالراحة والأمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

في هذه الفترة العصيبة من حياة الأمة الإسلامية ظهرت القوة الجديدة التي كانت حلمًا يراود المستضعفين والمقهورين تحت نير العدوان الصليبي في المشرق والمغرب؛ وهذه القوة الجديدة هي قوة «السلاجقة»؛ وهي قبائل تركية ظهرت منذ أوائل القرن الخامس الهجري في سهول التركستان، ونزح جدهم ومتبني دولتهم «سلجوق بن دقاق» في أهله وعشيرته إلى أجوار بخارى، وأعلن إسلامه هو وعشيرته، ونذر نفسه هو وأولاده لنشر الإسلام في القبائل التركية الوثنية، ووصلت قيادة هذه القبائل لحفيده «طغرلبك»، الذي وسع نطاق نفوذ السلاجقة، وأعلن ولائه الكامل للخليفة العباسي ولأهل السنة، واهتم بمحاربة البدع والفرق الضالة: مثل الروافض والمعتزلة، ومن هم مثلهم.

• الدولة البيزنطية والقوة الجديدة:

كانت الدولة البيزنطية منذ أن خبت قوة الدولة العباسية خصيمتها الكبرىٰ قد استطاعت أن تدفع فتوحاتها نحو الشرق والغرب، وأن تفرض الجزية علىٰ كثير من الأمراء المسلمين في شمالي الجزيرة والشام، وكان ظهور «السلاجقة» ـ القوة الجديدة ـ نذيراً لتلك الدولة بصدام وشيك مع هذه القوة الجديدة، والواقع أن «طغرلبك» ما كاد يتوطد ملكه في «خراسان» وما حولها، حتىٰ قرر تحويل دفة القتال ناحية الغرب علىٰ حدود الدولة البيزنطية، وشن السلاجقة سلسلة حملات حربية علىٰ «أرمينية» كللت كلها بالظفر، وكان أعظمها معركة «أرزن» أغنىٰ وأحصن مدن «أرمينية»، والتي وقع فيها في الأسر القائد العام البيزنطي «ليبارتيس» في الأسر، فعرض الأمبراطور «قسطنطين السابع» افتداءه بمبلغ طائل ولكن «طغرلبك» أفرج عنه بلا مقابل، ورد الأمبراطور البيزنطي الأمر بإصلاح مسجد قسطنطينية، والدعاء فيه لـ«طغرلبك»، وقد أدىٰ ذلك لارتفاع شأن «طغرلبك» في العالم الإسلامي كله، واستمر «طغرلبك» في جهاده ونصرة الإسلام والخلافة، حتىٰ توفاه اللَّه عز وجل فخلفه ابن أخيه «ألب أرسلان»، ومعناه بالتركية «الأسد الباسل»؛ فكان حقًا أسداً شجاعًا ورجل الساعة.

• أسد الإسلام الجديد:

ما كاد «ألب أسلان» أسد الإسلام الجديد يستقر في الملك، وينظم شئونه الداخلية بعد خلافات طارئة مع عمه وبني أعمامه، حتىٰ بدأ غزواته لأراضي الدولة البيزنطية فسار في قلب الأناضول، وغزا مدينة «قيصرية» الغنية، ثم انتقل بعدها لأذربيجان لتأديب أهلها الخارجين عن الإسلام حتىٰ أخضعهم، ثم وجه راياتهم إلىٰ أرمينية وبلاد «الكرج» ـ جورجيا الآن ـ في جيش ضخم،

ومعه ولده وولي عهده «ملك شاة»، ووزيره الشهير «نظام الملك»، واستطاع خلال هذه الحملة أن يفتح معظم بلاد «الكرج» و«أرمينية» البيزنطية، حتى استطاع أن يفتح مدينة «آني» عاصمة «أرمينية»، وذلك سنة ٤٥٦هـ وكانت «أرمينية» بمثابة الحصن المنيع لبيزنطة، من الشرق لحصانة موقعها، وصعوبة مسالكها، وبعد هذه الحملات القوية انشغل «ألب أرسلان» في بعض الحوادث الداخلية نتيجة عدة ثورات قامت بها بعض الأمراء الخارجين عن سلطة السلاجقة، وكان في ذلك فرصة سانحة لبيزنطة لالتقاط الأنفاس، والبحث عن منقذ لها، وقائد يقودها في هذه الفترة العصيبة.

وهكذا نري أن الأطماع والأحقاد ومتاع الحياة الدنيا دائماً ما تفرق الصف المسلم، وتعطل مسار التقدم، وتفشل كل مشروعات الازدهار، فمازال طلاب الدنيا وعشاق المناصب يصطرعون على الدنيا وزينتها، ولا يبالون بحق ولا بطاعة، ولا بدعوة ولا بأولويات؛ فانشغال «ألب أرسلان» يقمع الفتن الداخلية أدي به لإفشال مشروعة الكبير الذي كان ينويه: ألا وهو فتح «القسطنطينية»، والتي كان الطريق إليها معبداً بعد سقوط «أرمينية»، ولكنها الدنيا وأهلها وعشاقها.

• ظهور منقذ الصليب:

في هذه الفترة تعاقب على ملك بيزنطة العديد من القياصرة: منهم الرجال ومنهم النساء، ولم يتميز منهم أحد بالكفاءة اللازمة لإنجاز مهمة إنقاذ صليب بيزنطية من الضياع تحت سيوف المسلمين، حتى ظهر القائد العسكري «رومانوس ديوجين»، الذي لمع نجمه بعد عدة انتصارات حققها في القتال ضد الأتراك «البشناق» غير المسلمين في منطقة «البلقان» فانعقدت عليه الآمال، وحطت عنده الرحال خاصة بعد ثلاثة انتصارات متتالية على بعض أمراء

المسلمين في الفترة ما بين سنة ٤٦١ ـ ٤٦٣هـ ـ هي الفترة التي انشغل فيها «ألب أرسلان» بتأديب الخارجين عليه، وعندها تَوَجّه أهل بيزنطة إمبراطوراً عليهم، وتلقب «برومانوس الرابع»، وأخذ هذا القائد المنقذ في التفكر عمل عسكري ضخم ضد السلاجقة، ينهي بها وجودهم الإسلامي في منطقة آسيا الصغرىٰ والجزيرة، ووقف تقدم السلاجقة في منطقة شمال الشام، وبالفعل حشد «رومانوس» جيشًا ضخمًا يعتبر أضخم جيش ترسله الدولة البيزنطية في صراعها الطويل والقديم ضد الإسلام والمسلمين، منذ عهد الرسول ﷺ وغزوة مؤتة سنة ٨هـ، حتىٰ وقت هذه المعركة؛ إذ يقدره المؤرخون بأربعمائة ألف مقاتل، جاء شطر كبير منه من أوربا الغربية، أو الفرنج كما يطلق عليهم في كتب التاريخ الإسلامي، كلهم جاءوا لنصرة الصليب، والذب عن حياضه ضد المسلمين.

وصلت أنباء تلك الحملة الجرارة للسلطان «ألب أرسلان» وهو في مدينة «خوي» من أعمال أذربيجان، ولم معه سوىٰ خمسة عشر ألفًا من المقاتلين، وكان «رومانوس» قد اخترق بجيشه الجرار ولاية «خلاط» في قلب الأناضول، ودخل «آرمينية» المسلمة، وسار إلىٰ «ملازكرد» وهي بلدة حصينة علىٰ نهر «مرادسو»، ومازالت هذه المدينة قائمة لعصرنا الحالي.

• معركة ملازكرد:

سار «ألب أرسلان» بسرعة جارفة لمنع تقدم الحملة الصليبية الضخمة علىٰ ديار الإسلام، والتقت طلائع السلاجقة بطلائع الصليبيين، وكانوا من القبائل الروسية؛ فانتصر المسلمون انتصاراً باهراً، ووقع قائد الطلائع البيزنطي «بازيلكوس» في الأسر، ولكن هذا الانتصار العاجل لم يدفع «ألب أسلان» في التسرع في الصدام بجيشه الصغير مع حملة ضخمة بمثل هذا العدد، فأرسل

في طلب هدنة مع «رومانوس» لعله يلتقط أنفاسه، وتأتيه أمداد المسلمين من كل مكان.

ولكن الكبرياء والغطرسة أصل ثابت في أعداء الإسلام تؤزهم أزًا للاستعلاء والتكبر والتجبر؛ فإن «رومانوس» ظن أن طلب الهدنة إنما جاء عن ضعف المسلمبن وخوفهم وإحجامهم عن الصدام؛ فقال كلمته الشهيرة التي استوجبت عليه هزيمة لم يسمع بمثلها في التاريخ؛ حيث قال: «لا هدنة إلا في الري»، أي في عاصمة السلاجقة في «خراسان» مما أدىٰ إلىٰ إشعال الحمية والغضب للَّه ولرسوله ﷺ وللإسلام في صدر «ألب أرسلان» ومن معه، وقبلوا تحدي «رومانوس» ومن معه، واستوثقوا علىٰ القتال.

كان «ألب أرسلان» يصحب معه في حملاته الجهادية العديد من العلماء والفقهاء كقيادة روحية، ودعم معنوي للجند المسلم، وكان إمامهم وقتها الفقيه الكبير «أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري»، الذي قال لـ«ألب أرسلان» هذه العبارة الرائعة: «إنك تقاتل عن دين وعد اللَّه بنصره وإظهاره علىٰ سائر الأديان، وأرجو أن يكون اللَّه تعالىٰ قد كتب باسمك هذا الفتح؛ فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي يكون الخطباء فيها علىٰ المنابر؛ فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر».

وبالفعل قام «ألب أرسلان» وصلىٰ بالناس الجمعة ظهرًا، وبكىٰ خشوعًا وتأثرًا، ودعا اللَّه عز وجل طويلاً، وطلب المدد والعون من اللَّه عز وجل وحده، ولبس البياض، وكفنه معه وتحنط استعدادًا للموت، وأعلنها ممدودة تتردد في أرجاء السماء الفسيحة: «إن هزم فإن ساحة الحرب تغدو قبره».

(نحن في أمس الحاجة لهذه النوعية الفريدة من القادة الربانيين، الذين لا يخافون في اللَّه لومة لائم، ولا يطلبون العون والمدد إلا من اللَّه وحده، النوعية التي تبذل نفسها وروحها في سبيل اللَّه؛ النوعية التي لا تفرق: هزيمة، أم نصرًا أواستشهادًا؛ النوعية التي تستمع إلى نصح العلماء والفقهاء وأهل الورع والدين، عندها يتحقق لأمة الإسلام كل عز ومجد فقدناه.)

اشتعلت الحرب الطاحنة التي هي بكل مقاييس العقل والمنطق والمادة محسومة لصالح البيزنطيين؛ فأنى لخمسة عشر ألفًا بالتصدي لأربعمائة ألف مقاتل، ولكنها الأمة المسلمة التي إذا ما تمسكت بدينها وسنة رسولها ما قام لها عدو، التحم الجيشان بمنتهى القوة والعنف في ظاهر مدينة «ملازكرد»، وزحف «رومانوس» في قواته دفعة واحدة، ولم يلجأ إلى نظام القوات المتلاحقة، واستمر القتال حتى مغرب الشمس، وثبت المسلمون ثباتًا عظيمًا في منتهى البراعة، والجلد حتى أصاب العدو التعب والإرهاق؛ فحاول «رومانوس» الانسحاب للخلف قليلاً للراحة ومواصلة القتال حتى اليوم التالي، وعندها انتهز «ألب أرسلان» الفرصة، وهجم بكل خطوطه على الصفوف المتراجعة، حتى أحدثوا ثغرة، وعندها هرع الفرسان المسلمون، وانثالوا إلى قلب الروم وأمطروهم وابلاً من السهام المتة، وانقض المسلمون السلاجقة على الروم البيزنطيين من كل ناحية، ووقعت مقتلة عظيمة في صفوف الأعداء، ووقع في الأسر أعداد كبيرة على رأسهم «رومانوس» نفسه، الذي ظل يقاتل بنفسه حتى النهاية، ووقعت الهزيمة المروعة على أعداء الإسلام في ٧ذي القعدة ٤٦٣هـ الموافق ٢٦ أغسطس سنة ١٠٧١م.

في صباح اليوم التالي للمعركة أُخذ القيصر الأسير. وكان أول قيصر يقع في أسر المسلمين. أُخذ لمعسكر السلطان الذي قام بتأنيبه على أفعاله، وضربه بيده ثلاث مقارع، وقام «ألب أرسلان» بوضع قدمه على هامة «رومانوس» تحقيرًا وإذلالاً له، وإظهارًا لعز الإسلام وأهله، ثم قام بعمل يدل على سماحة الإسلام وطهارته؛ حيث عفى عن «رومانوس» نظير دفع جزية سنوية للمسلمين، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين في كل بلاد الروم، والقسم بأغلظ الأيمان على عدم العودة مرة أخرى لقتال المسلمين.

• النتائج الخطيرة لمعركة ملازكرد:

كانت هزيمة «ملازكرد» أفدح خطب نزل بالدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية منذ أحقاب طويلة، وكان بها أكبر الأثر في تحطيم منعتها، وفقدانها للقب حامية الصليب، وكانت إيذانًا بسقوط الدولة البيزنطية القديمة.

فتحت تلك المعركة الطريق لتدفق المسلمون السلاجقة في منطقة آسيا الصغرى، وتأسيس دولة أو سلطنة سلاجقة الروم؛ حيث إن «ألب أرسلان» قد عين على أثر الموقعة أميرًا من أبناء عمومته هو «سليمان قطلمتش» حاكمًا على الأراضي المفتوحة بآسيا الصغرى، وقد استطاع «سليمان» أن يوسع أملاكه غربًا حتى قرب «المرمرة» وشواطئ البحر المتوسط، وأن ينتزع «أنطاكية» من الروم، وكانت بيدهم منذ أجيال.

كان لهذه المعركة أعظم الأثر في إثارة الحملة الصليبية عند أوروبا الغربية، خاصة عند بابا روما «جريجوري السابع»، حيث بدا لأوروبا من جديد أن سيل الغزوات الإسلامية يقتحم الدولة الشرقية، وأنها لم تعد السد المنيع الذي

يتحطم عليه هذا السيل، ووصل الأمر لأن يذهب قيصر القسطنطينية «ميخائيل السابع» والذي توج على العرش بعد وقوع «رومانوس» في الأسر إلى «روما» مستنجدًا ببابا روما، راكعًا بين يديه، باكيًا على ركبتيه، طالبًا منه شن حربًا صليبية من ناحية الغرب على ديار الإسلام، وهو ما تم بالفعل بعد هذه المعركة بسنوات قليلة.

موقف البيزنطيين والفاطميين	النجوم الزاهرة	اتعاظ الحنفا
من ظهور الأتراك السلاجقة	تاريخ آل سلجوق	أطلس تاريخ الإسلام
البداية والنهاية	وفيات الأعيان	الكامل في التاريخ
مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام		

موقعة الزلاقة . أعظم معارك الأندلس

الزمان/ الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ.

المكان/ سهل «الزلاقة» ـ غرب «الأندلس».

الموضوع/ المسلمون بقيادة «يوسف بن تاشفين» يحققون أعظم انتصار في تاريخ «الأندلس» ضد الصليبيين.

الأحداث

• مقدمة:

لا يزال تاريخ «الأندلس» مجهولاً بالنسبة لمعظم المسلمين؛ هذا رغم أن دولة الإسلام بـ«الأندلس» تعتبر أطول دولة إسلامية في تاريخ الأمم والممالك الإسلامية؛ إذ استمرت قرابة الثمانية قرون على ربوع «الأندلس» رايات التوحيد، وترتج جنباتها بالأذان، وتسعد سهولها ووديانها بالجيوش الإسلامية، والمجاهدين في سبيل الله، وفي جوامعها خرج العلماء والقراء والأدباء، وكانت لهذه الدولة حضارة زاهرة شعَّ نورها على القارة الأوربية التي كانت في ظلمات وجهالات، وتاريخ دولة الإسلام بـ«الأندلس» أكبر وأعظم مما يظن المسلمون، وفصوله أروع وأمتع مما يتوقعه القارئون، وهذه واحدة من أعظم صفحات تاريخ أمة الإسلام بـ«الأندلس»؛ لأنها قراءة واستصحاب لكل ما نراه ونعايشه من أحوال المسلمين الآن، وهذا يعطينا استشرافًا لما سيحدث لهذه الأمة؛ شريطة أن تسلك نفس الطريق.

• الأوضاع داخل الأندلس:

منذ الفتح الإسلامي للأندلس سنة ٩٢هـ، وقيام دولة عظيمة للإسلام في قلب أوروبا النصرانية، مرت هذه الدولة بعدة أطوار، تأرجحت بين قوة وضعف، وتجمع وتفرق، وهي كالآتي:

١- عصر الولاة من سنة ٩٢ ـ ١٣٨هـ

٢- عصر الخلافة الأموية ١٣٨هـ ـ

٣- عصر الحاجب المنصور وأولاده، وهي تابعة للخلافة الأموية أيضًا من سنة ٣٩٩هـ.

٤- عصر الصراع على الخلافة من سنة ٣٩٩ هـ حتى سنة ٤٢٢ هـ.

وكان عصر الصراع على الخلافة مشئومًا على وضع دولة الإسلام بـ«الأندلس»؛ لأنه كان تقدمة وسببًا لظهور عصر ملوك الطوائف، الذي يعد بحق -ومن غير إجحاف ولا تأويل- أسوأ العصور الأندلسية، وسر نكبتها، وأول زوالها، ولم يعلم الوزير «أبو محمد بن جهور» مدى خطورة القرار الذي اتخذه عندما أعلن إلغاء الخلافة الإسلامية في «الأندلس» سنة ٤٢٢هـ عقب انهيار حكم الأمويين، وحجته في ذلك عدم وجود الرجل المناسب لهذا المنصب، وكثرة الصراعات بين الزعامات القبلية، ومهما كانت مبررات هذا القرار؛ فلقد فتح هذا القرار الباب على مصراعيه لفتنة عمياء، وداهية صماء؛ إذ تشرذمت الأمة المسلمة بـ«الأندلس»، وتمزق الجسد الواحد في تلك البلاد البعيدة عن حاضرة الخلافة الإسلامية، وانقسمت لدويلات صغيرة استقل كل طامع، وكل ذي عِشرة وعصبية بمقاطعته، وأعلن نفسه ملكًا عليها، وتسمى بعضهم بأمير المؤمنين، وتلقبوا بألقاب الخلفاء السابقين، وكلهم لا يستحقون أن يكونوا بهذه المناصب، ولا ما هو دونها؛ فأغلبهم طامعون، ومحدثو نعمة، ولا يرجعون إلى دين أو

فضل أو نباهة، وصدق فيهم قول الشاعر «ابن رشيق القيرواني»:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخًا صَورةَ الأسد

وبذلك دخلت الأمة المسلمة بـ«الأندلس» عهدًا جديدًا، بل قل نفقًا مظلمًا: وهو عهد ملوك الطوائف، وقد حكم في هذه الفترة نحو عشرين أسرة مستقلة في عشرين مدينة كبيرة، ومن أشهر ملوك الطوائف:

- «بنو عباد» بـ«أشبيلية».
- «بنو حماد الأدارسة» بـ«مالطة» و«الجزيرة الخضراء».
- «بنو زيري» بـ«غرناطة».
- «بنو هود» بـ«سرقسطة».
- «بنو النون» بـ«طليطلة».

ولقد ساد هذا العصر في «الأندلس» الترف والأدب والشعر، وغلبت أجواء الليونة والميوعة على أهل «الأندلس»، وراجت قصص وحكايات العشق والغرام، وغلب الانحلال على أخلاق الكثير من الناس خاصة الطبقات العليا، أما ملوك الطوائف أنفسهم فكان حالهم فيما بينهم ومع رعاياهم من ناحية، ومع الصليبيين من ناحية أخرى تمامًا كقول الشاعر:

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

فملوك الطوائف أرهقوا رعاياهم بالضرائب، والمكوس الجائرة، والطلبات المرهقة كل يوم، وذلك كله من أجل إشباع شهواتهم، وسد رغباتهم، وتقوية سلطانهم، أما مع جيرانهم المسلمين؛ فالإغارة والاعتداء الدائم من أجل إضافة أملاك جديدة لدائرة ملك كل واحد منهم على حساب

جيرانه المسلمين؛ فاندلعت حروب مدمرة بين «بني هود» و«بني النون»، وبين بني عباد وبني جهور، وهكذا استمر ملوك الطوائف في قتال وصراع داخلي من أجل اكتساب الأراضي والحصون.

أما حالهم مع أعدائهم الصليبيين في الشمال: فهم في منتهى الخنوع والذلة، والضعف والخور؛ فالجميع يدفعون الجزية لملك الصليبيين «ألفونسو» السادس، والأدهى من ذلك يطلبون مساعدته في حربهم ضد بعضهم البعض.

• حرب الاسترداد الصليبية:

الحقيقة الهامة التي يجب ألا تغيب عن أذهان المسلمين: أن عدوهم لا يستطيل عليهم، ولا يستأسد عليهم إلا حال ضعف وتفرق وتخاذل المسلمين، وما حدث في «الأندلس» خير مثال؛ فعندما وصلت دولة الإسلام بـ«الأندلس» إلى عصر ملوك الطوائف المشئوم، وشعر أعداء الإسلام بأن الوقت قد حان لتنفيذ مخططهم الآثم القديم بدأوا في الإعداد لما عرف في تاريخ «أسبانيا» النصرانية بـ «حرب الاسترداد الصليبية»، والغرض منها إزالة الوجود الاسلامي من «الأندلس» بالكلية، وإعادتها مرة أخرى لحكم الصليب، وقد بدأت هذه الحرب على يد أشهر ملوك أسبانيا «ألفونسو» السادس الذي أيقن أن الوقت قد حان لتنفيذ خطة الحرب المقدسة! بعد أن بان له ضعف وخضوع ملوك الطوائف، بعد إقرارهم جميعًا بدفع الجزية له، والاستظلال بحمايته ضد بعضهم البعض؛ فقام «ألفونسو» بتوحيد عدة إمارات إسبانية: مثل «ليون»، و«قشتالة»، و«إستوريا» تحت لوائه؛ ليكونوا صفًا واحدًا أمام الوجود الاسلامي بـ«الأندلس».

(وهذا مما يحزن النفس، ويدمي القلب: أن يعمل أعداء الإسلام بما يأمر به الإسلام، في حين أن المسلمين لا يعملون بما أمرهم به دينهم؛ فأي خزي وعار هذا الذي تحياه الأمة المسلمة عندما تتفرق وتختلف، ويحارب بعضها بعضًا، وتسهل

الطريق أمام عدوها ليفترسها؛ كما قال الشاعر:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

• ناقوس الخطر:

كان ملوك الطوائف في غفلتهم نائمون، وفي غيهم سادرون، وبصراعاتهم منشغلون، و«ألفونسو» السادس على الطرف الآخر من «الأندلس» يوحد الصف، ويرهق ملوك الطوائف بطلباته المادية، ويستولي على الحصون القريبة من حدود مملكته، ويتوسع أفقيًا على حساب أملاك الدولة المسلمة، وبعد ذلك وثب «ألفونس» وثبة كبيرة - كانت بمثابة ناقوس الخطر للمسلمين - حيث استولى «ألفونسو» على مدينة «طليطلة» من ملوك «بني النون» في صفر سنة ٤٧٨ هـ، وذلك بعد أن ظل لمدة سبع سنوات متصلة يعمل ويخطط ويحاصر «طليطلة»، حتى استولى عليها، ودشن بذلك حرب الاسترداد، وأشعل حماسة الصليبيين في كل أوروبا، وسرت روح دينية صليبية خالصة، وتقاطر صليبيو أوروبا إلى تلك المدينة التليدة «طليطلة»، والتي كانت تمثل بعداً معنويًا آخرَ؛ ذلك لأن هذه المدينة كانت عاصمة «أسبانيا» النصرانية قبل دخول الإسلام، وهذا كله جرى وملوك الطوائف - وخاصة «المعتمد بن عباد» - لا يحركون ساكنًا، ولا يجرؤ واحد منهم على تحريك جندي واحد لنصرة إخوانهم بـ«طليطلة».

(سبحان الله! سبع سنوات، والمدينة محاصرة، وباقي المسلمين يرون إخوانهم تحت الحصار، والعدو ببابهم، وهم لا يحركون ساكنًا كأن الأمر لا يعنيهم، وكأن أهل المدينة ليسوا مسلمين، ودماؤهم وأعراضهم وحرماتهم المستباحة ليست من الإسلام في شيء، ولا يزال كثير من المسلمين يفكر بعقلية «ابن نوح» عندما قال: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] وهي رسالة جريئة لكل مسلم يظن أنه في مأمن وإخوانه يُحاربون).

لقد كان «ألفونسو» هذا متجبراً متكبراً عنيداً، شديد الكفر والحقد على المسلمين، ساعده ضعف ملوك الطوائف وخنوعهم، وانشغالهم باللهو والملذات على تنفيذ خطته الشريرة لاسترداد «الأندلس» للحكم الصليبي مرة أخرى، وكان هؤلاء الملوك ـ زوراً ـ لا يزنون عند «ألفونسو» شيئًا، وبلغ من استهزائه بهم أنه ذات يوم أرسل لـ«المعتمد بن عباد» ـ الذي يعد وقتها أقوى ملوك الطوائف، وأكثرهم تعاونًا مع «ألفونسو»ـ أرسل سفيراً من عنده يطلب منه السماح لزوجه أن تدخل جامع «قرطبة» لتلد فيه حسب إشارة القساوسة والأساقفة؛ لأن جامع «قرطبة» مشيد على أرض كنيسة مقدسة عند النصارى، وذلك حتى يَسلم المولود من الأذى، وكان «ألفونسو» لا يعيش له أولاد، فلم يتمالك «ابن عباد» نفسه فقتل حامل الرسالة لوقاحتها، وأمر به فصلب منكوسًا بـ«قرطبة».

ودخل الصراع بين «أسبانيا» النصرانية و«الأندلس» الإسلامية طوراً جديداً، تحولت فيه كفة الصراع لصالح الصليبيين على حساب المسلمين، وحدث نوع انتفاضة صليبية على المستوى الأوروبي عامة ـ والأسباني خاصة ـ وأخذ «ألفونسو» في التخطيط بعد الاستيلاء على «طليطة» في الاستيلاء على مملكة «إشبيلية»؛ لأنها كانت الأولى على طريق الاسترداد، وبدأت خطوات الاستيلاء بالبحث عن مبررات ـ ولو كانت واهية ـ للانقضاض على «إشبيلية»، وجاء المبرر عندما أرسل «ألفونسو» رسولا يهوديًا من عنده اسمه «ابن شاليب» إلى «المعتمد بن عباد» ليقبض منه الإتاوة المعتادة، فأساء «ابن شاليب» الأدب مع «ابن عباد»، واتهمه بتزوير النقود المدفوعة؛ فظل «ابن عباد» يصفعه على وجهه حتى خرجت عيناه من شدة الصفع، وقتل كل من حضر مع اليهودي، وكانوا خمسمائة إلا ثلاثة؛ أبقاهم ليعودوا بالخبر لـ«ألفونسو» الذي أقسم بأغلظ الأيمان ليغزون «إشبيلية»، وليأخذنها من يد «ابن عباد».

أعد «ألفونسو» جيشين كبيرين: زحف أحدهما إلى مدينة «باجة»، ثم إلى مدينة «إشبيلية»، والآخر قاده «ألفونسو» بنفسه، ونزل قبالة قصر «ابن عباد» على الناحية الأخرى من نهر الوادي الكبير الذي يفصل بين «أسبانيا» النصرانية و«الأندلس» الإسلامية، ثم أرسل برسالة كلها تهكم واستهزاء بـ«ابن عباد»؛ يقول فيها: لقد كثر بطول مقامي في مجلسي هذا الذباب، واشتد على الحر؛ فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي، وأطرد الذباب عن وجهي؛ فكتب على ظهر الرسالة «ابن عباد» قائلا له: قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تريح منك، لا تروح عليك. فما حكاية الجلود اللمطية؟!

• ما زال في القلب نخوة:

كان وزر سقوط «طليطلةَ» يقع في المقام الأول على عاتق «المعتمد بن عباد»؛ ذلك لأنه أقوى ملوك الطوائف وقتها، ويملك الجيوش القادرة على ردع الصليبيين، وهو أيضًا أقرب الجيران لـ«طليطلة»، ومملكة «إشبيلية» متاخمة لمملكة «طليطلة»، وهو أيضًا كان على علم تام بنوايا «ألفونسو» السادس، تجاه «طليطلة»، ولكنه آثر الصمت والجمود مكانه ليسكت «ألفونسو» السادس بدوره عن طموحات وتوسعات «ابن عباد» في جنوب مملكة «طليطلة»، وذلك كله استجلب العار واللعن على «ابن عباد»، وشعر بفداحة خطئه تجاه إخوانه المسلمين حيث لا ينفع الندم.

شعر «المعتمد بن عباد» بحقيقة نوايا «ألفونسو» السادس ضد مملكته «أشبيلية» وسائر بلاد «الأندلس»، واتضح له ذلك من حادثة «ابن شاليب» اليهودي، وما جرى بعدها؛ فاجتمع عنده مشايخ «قرطبة» و«أشبيلية» وقالوا له: هذه بلاد «الأندلس» قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت، فأشار بعضهم

بالاستعانة بالقبائل العربية في شمال أفريقيا (تونس، ليبيا) على أن يعطوهم الأموال اللازمة ويجاهدوا معهم، ولكن الجمهور رفضوا هذا الاقتراح؛ لأن هذه القبائل كانت مفسدة تحيا على السلب والنهب.

(لعمر اللَّه هذا هو الصواب إذ كيف ينصر دينَ اللَّه أمثالُ هؤلاء المفسدين؟! فنصر دين اللَّه يحتاج إلى رجال أقوياء صالحين مصلحين).

اقترح القاضي عبد اللَّه بن أدهم الاستعانة بالمرابطين؛ فمن هم المرابطون؟

المرابطون هم مجموعةً من القبائل البربرية التي ترجع لأصول عربية من «حميَر»، دخلت واختلطت بالبربر، وتكاثروا بـ«المغرب» الأوسط و«الجزائر» الآن، ثم انحازوا إلى جنوب «الجزائر»، ودخلوا الصحراء واستوطنوها، وعاشوا حياة خشنة بعيدة عن الترف واللهو، وظلوا هكذا حتى نزل عليهم فقيه اسمه «عبد اللَّه بن ياسين الجزولي» ليعلمهم الفقه والحديث والقرآن، واستطاع هذا الفقيه البار أن يبذر في نفوس هؤلاء البربر بذرة حب الجهاد في سبيل اللَّه، ونشر دين الإسلام وسط القبائل الوثنية المنتشرة بحوض «النيجر» ومملكة «غانا» وأطلق عليهم اسم «المرابطين» أي المرابطين للجهاد في سبيل اللَّه في الرباط الذي بناه لهم «عبد اللَّه بن ياسين» على جزيرة عند مصب نهر «النيجر»، وكانت نواة الجهاد في سبيل اللَّه، وكان أول زعيم للمرابطين الأمير «يحيى بن عمر» ثم أخوه «أبو بكر بن عمر» الذي عمل على نشر دعوة المرابطين في سائر أنحاء المغرب، حتى وافت معظم بلاد المغرب العربي لحكم المرابطين في عهد الأمير «يوسف بن تاشفين» الذي يعتبر أعظم أمراء المرابطين، والذي حوَّل ملك الدولة المرابطية من نطاق محلي إلى دولة عظيمة مترامية الأطراف، وملك سياسي وجهادي ضخم كان له الفضل الأول في إدخال الإسلام إلى قلب القارة السوداء، وما دخل الإسلام إلى «غانا»

و«نيجيريا» وغرب «أفريقيا» ووسطه إلا على يد المرابطين، وكانت هذه الدولة العظيمة تدين بالولاء التام للخلافة العباسية، وقد نال «يوسف بن تاشفين» لقب أمير المسلمين بعد مرسوم الخلافة له بذلك سنة ٤٦٦ هـ في عهد الخليفة العباسي المستظهر بالله، إذن كانت الدولة المرابطية دولة جهادية في المقام الأول؛ قامت على أساس الشريعة، ولم يعرف أهلها لهوًا ولا ترفًا، إنما هم في جهاد ودعوة؛ وهي المواصفات المطلوبة لمن ينصر دين الله، وينتصر لإخوانه المسلمين.

لما أشار القاضي «عبد الله بن أدهم» بهذا الرأي وافق عليه الجميع، وبالفعل عينه «ابن عباد» سفيرًا لأمير المسلمين المرابطين «يوسف بن تاشفين» ليعلمه بأحوال مسلمي «الأندلس»، وكيد الصليبيين لهم، وكان «يوسف بن تاشفين» على علم بما جرى للمسلمين هناك لكثرة من يفد عليه من مشايخ وعلماء «الأندلس» طالبين النجدة، ولما عوتب «المعتمد بن عباد» في الاستعانة بالمرابطين، وخوفوه من ذلك بذهاب ملكه؛ قال «المعتمد بن عباد» كلمته الشهيرة التي تدل على بقايا نخوة مازالت موجودة بالقلب عند ملوك الطوائف حيث قال: «لأن أكون راعي جمال في صحراء «إفريقيا»، خير من أن أرعى الخنازير في «قشتالة»، ولأن أكون مأكولاً لـ«ابن تاشفين» خير من أن أكون أسيرًا لـ«ألفونسو»، والله لا يشهد الناس ليَّ يوم القيامة أني قد كنت سببًا لإعادة «الأندلس» كافرة مرة أخرى.

(رغم مساوئ وأخطاء «ابن عباد» الكثيرة إلا أنه بهذه الكلمة ضرب لنا مثلاً عظيمًا في النخوة والحمية الإسلامية، تختلف تمامًا عن حال كثير من المسلمين الآن؛ الذين يؤثرون الانضواء تحت ظل الكفر والاحتماء بالصليب عن الاتحاد مع جيرانه المسلمين، أو حتى الانصهار معهم؛ فلا عجب إذًا أن تكون الأمة المسلمة الآن مأكولة لأمريكا وأشياعها).

• العبور العظيم:

استشار «يوسف بن تاشفين» مشايخ وعلماء المرابطين فأفتوا جميعًا بوجوب نصرة مسلمي «الأندلس» فأعلن «يوسف» النفير العام في بلاد «المغرب» و«أفريقيا» فجاءه المتطوعون من كل مكان، واجتمعت عنده أعداد كبيرة، وما كادت سفن المرابطين تنشر قلاعها حتىٰ قصد «يوسف بن تاشفين» إلىٰ مقدمة سفينة، ودعا اللَّهَ عز وجل بقلب مخلص قائلاً: اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاحًا للمسلمين فسهل عليَّ جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتىٰ لا أُجُزه، فهدأ البحر الثائر، وجازت السفن سراعًا ولما نزل أرض «الأندلس» سجد للَّه شكراً.

(وهكذا يجب أن يكون شعور القائد المؤمن الصادق في توكله على اللَّه عز وجل، فلا يغتر بقوته ولا جنده، إنما يعلم أنه على الدوام مفتقر لربه جل وعلا، متوكل عليه في كل الأمور، وهذا ما نساه أو تناساه المسلمون الآن: فلا بالأسباب أخذوا، ولا على ربهم اعتمدوا).

ولقد اصطحب «يوسف بن تاشفين» معه آلاف الإبل، ولم يكن أهل «الأندلس» قد رأوا الإبل من قبل؛ فلما دخلت الجيوش ومعها الإبل ارتفع رغاؤها إلىٰ عنان السماء؛ ففزع الناس وخيولهم من مناظر الإبل.

وصلت الأخبار لـ«ألفونسو» السادس وكان معسكراً بجيوشه علىٰ الضفة الأخرىٰ من نهر الوادي الكبير؛ فأسرع عائداً إلىٰ «طليطلة» وأعلن هو الآخر بدوره النفير العام في صليبي «أسبانيا» و«أوروبا»؛ فجاءوه من كل حدب وصوب يرفعون شعار الصليب علىٰ صدورهم، ويرددون أهازيج الكنائس وأناشيد الرهبان؛ مما قوىٰ عزيمة «ألفونسو»؛ فأرسل «ألفونسو» برسالة طويلة لـ«ابن تاشفين» يتهدده فيها ويتوعده، ويصف له قوة جيوشه وكثرة جنوده، فرد «يوسف» عليه بثلاث كلمات

كان لها وقع السحر على «ألفونسو»؛ حيث كتب على ظهر رسالته: «والذي يكون ستراه»، فارتاع «ألفونسو» وعلم أنه بُلي برجل له عزم وحزم.

• المنام العجيب:

أثناء الاستعداد للمعركة الهائلة حدث أمر عجيب كان من قبيل إشارة بالنصر للمسلمين؛ حيث رأى «ألفونسو» السادس في منامه كأنه راكب فيلاً وبين يديه طبلة صغيرة وهو ينقر فيها، فقص هذا المنام على من عنده من القساوسة واليهود فما عرف أحد منهم تأويلها؛ فدس على رجل مسلم عالم بالتأويل يهوديًا من طرفه يسأله عن تأويل المنام، فقال المسلم لليهودي: أنت تكذب لا يمكن أن يكون هذا المنام لك أبدًا، فأخبره اليهودي بالحقيقة فقال المسلم: نعم تأويل الرؤيا من كتاب اللَّه عز وجل وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨-١٠] وهذا يقتضي هلاك الجيش الذي يجمعه «ألفونسو»، فلم يعجب هذا التأويل «ألفونسو» ورفضه، ولما اجتمع جيشه ورأى كثرته فأعجبته أحضر العالم المسلم المعبر للرؤيا وقال له: بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم، وأحارب الشياطين والجن والملائكة.

(أعداء الإسلام على مر العصور، وفي كل زمان ومكان يظنون أنهم قادرون على الدنيا، متحكمون في المصائر والمقادير، يظنون أنهم أقوى من اللَّه عز وجل - تعالى اللَّه عما يقول الكافرون الجاحدون المنكرون - تراهم يعبدون القوة، ويقدسون السلاح، ويحاربون في سبيل الطاغوت، تغرهم جيوشهم وسيوفهم، ويشجعهم ضعف المسلمين وتَفَرُّقهم، ولهؤلاء نقدم قول اللَّه عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]).

• معركة الزلاقة العظمى:

وصلت حلقة الصراع إلى آخر فصولها، وتراءى الجيشان؛ المسلمون يقودهم أمير المرابطين «يوسف بن تاشفين» ومعه «المعتمد بن عباد» يقود القوات «لأندلسية المسلمة، ومعه «المتوكل بن الأفطس» يقود الميمنة، وأهل «بلنسية» يقودون الميسرة، وإجمالي الجيوش بضع وعشرون ألفًا، في حين أن الصليبيين يقدر تعدادهم بثمانين ألف مقاتل، وقيل أكثر من ذلك بكثير، وهم معسكرون على بعد ثلاثة أميال من المعسكر الإسلامي، ويفصل بين الجيشين نهر صغير.

لبث الجيشان الخصمان كل منهما تجاه الآخر لا يفصلهما سوى النهر مدة ثلاثة أيام، وكتب «يوسف بن تاشفين» قبيل المعركة إلى «ألفونسو» عملاً بأحكام السنة كتابًا يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام، أو الجزية، أو الحرب ولكن «ألفونسو» تكبر ورفض الرسالة.

حاول «ألفونسو» خداع المسلمين فكتب إلى «المعتمد بن عباد» يقول: إن الجمعة لكم، والسبت لليهود وهم وزراؤنا وخدامنا، ولا نستغني عنهم، والأحد لنا فاللقاء يكون الإثنين، وكان هذا الخطاب يوم الخميس عصراً، وكان «ألفونسو» يبيت الغدر بالمسلمين، والهجوم عليهم وهم غافلون يوم الجمعة أثناء الصلاة، ولكن «المعتمد بن عباد» لم ينخدع بهذه المكيدة، واستعد للقتال يوم الجمعة خاصة بعد أن رفعت له الاستخبارات المسلمة أخباراً مفادها أن هناك جلبة وضوضاء كبيرة داخل المعسكر الصليبي ليلة الجمعة؛ مما يؤكد على نية الصليبيين واستعدادهم للهجوم يوم الجمعة.

وفي صبيحة يوم الجمعة الموافق ١٢ رجب ٤٧٩ هـ زحف الصليبيون بكل قواتهم ظانين غفلة المسلمين، ولكنهم فوجئوا بالقوات الأندلسية بقيادة «المعتمد بن عباد» يبرزون لهم ويشتبك الجيشان في معركة عارمة، وتضغط مقدمة الجيوش الصليبية على القوات الأندلسية بمنتهى العنف؛ مما أصابهم بهزة شديدة ألزمتها

التراجع إلى الخلف، وفر كثير من المقاتلين من أرض المعركة، واختل نظام الجيش الإسلامي، ولم يثبت في وجه الصليبيين إلا «المعتمد بن عباد» وفرسانه الإشبيليين، وأصيب «المعتمد» بإصابات بالغة، ومع ذلك ظل ثابتًا في مكانه يقاتل بمنتهى البسالة، هذا كله والجيوش المرابطة لم تنزل ميدان القتال؛ حيث كانت خطة «يوسف ابن تاشفين» تعتمد على استدراج الصليبيين، ثم عمل حركة التفاف سريعة تجعلهم بين فكي كماشة محكمة، وبالفعل أسرعت الفيالق المرابطة يقودهم أمهر القادة «سير بن أبي بكر اللمتوني» واخترقت الجيوش الصليبية في الوقت الذي كانت متقدمة بكل قواتها ناحية معسكر المرابطين، وقامت تلك الفيالق بمهاجمة مؤخرة الجيوش الصليبية وفتكت بها، وأضرمت النار في معسكر «ألفونسو» الخلفي وأراد «ألفونسو» أن يرتد بقواته لإنقاذ المعسكر من الحريق فاصطدم مع الفيالق المرابطية، ومن ناحية أخرى ضغطت مقدمة المرابطين والأندلسيين على الصليبيين الذين وقعوا في الكماشة القاتلة، وأمعن المسلمون القتل في الصليبيين، وعمد المرابطون لطريقة جديدة في القتال لم يعتد عليها الصليبيون؛ وهي طريقة الصفوف المتراصة المتناسقة الثابتة، وعجز الصليبيون عن التعامل مع هذه الطريقة الجديدة.

ثم جاءت الضربة الأخيرة في القتال عندما وقع «يوسف بن تاشفين» بالحرس الأسود؛ -وهي كتيبة خاصة مكونة من أربعة آلاف مقاتل من منطقة «غانا» في منتهى الضراوة والشجاعة القتالية، ولا يقاتلون إلا بالخناجر والرماح القصيرة، -سواستطاع الحرس الأسود القضاء تمامًا على أية بقية مقاومة لدى الصليبيين، بل أكثر من ذلك استطاع أحدهم أن يطعن «ألفونسو» السادس في فخذه طعنة نافذة خرقت الدرع الحديدي وهتكت فخذ «ألفونسو» الذي ظل بعدها سائر عمره أعرجًا من أثر تلك الضربة.

قرر «ألفونسو» الهروب من المعركة بعد أن أيقن من أن بقاءه هلاك له وللجيش كله، ولكنه من شدة وهول القتال لم يستطع أن يفارق المعركة إلا في أربعمائة من فرسانه معظمهم جرحى، مات منهم ثلاثمائة في الطريق، ولم

يعد «ألفونسو» إلى «طليطلة» إلا في مائة مقاتل فقط.

وبلغ في النهاية عدد شهداء المسلمين ثلاثة آلاف شهيد، في حين عدد قتلى الصليبيين ثمانين ألفًا إلا مائة، وقد أمر يوسف بجمع رءوس قتلى الصليبيين وصنع منها تلاً عظيمًا وقف عليه المؤذن، ورفعوا من فوقه الأذان والإعلان بالنصر.

(هكذا يجب أن يُفعل مع أعداء الإسلام ليعلموا أن ليس في قلوبنا تجاه مَن حاربنا، واعتدى على أراضينا وأعراضنا وحرماتنا رحمة أو شفقة؛ ليرتدع هؤلاء الكافرون عن العودة لمثلها؛ مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]).

ومن الطرائف التاريخية أن الذي صد الصليبيين في المشرق حيث بلاد «الشام» هو صلاح الدين يوسف، والذي تولى صد الصليبيين في المغرب حتى بلاد «الأندلس» هو «يوسف بن تاشفين» ولكن شهرة «يوسف» الشرق غطت على شهرة «يوسف» الغرب رغم الدور الرائع الذي قام به في حفظ دولة الإسلام بـ«الأندلس» من الضياع، وكلاهما ـ إن شاء اللَّه عز وجل ـ معلوم معروف عند اللَّه عز وجل، واللَّه أعلم بالعواقب.

الكامل في التاريخ	البداية والنهاية	المعجب في أخبار المغرب
الروض المعطار	نفح الطيب	النجوم الزاهرة
الحلة السيراء	دولة الإسلام في الأندلس	تاريخ ابن خلدون
المنتظم	التاريخ الإسلامي	
الصلة لابن بشكوال	وفيات الأعيان	

تحرير إمارة الرها ـ كسر الصليب

الزمان/ ٦ جمادئ الآخرة ـ ٥٣٩ هـ.

المكان/ إمارة «الرها» ـ «آسيا» الصغرئ [تركيا الآن].

الموضوع/ المسلمون بقيادة الأمير «عماد الدين زنكي» يحررون أول إمارة صليبية بـ«الشام».

الأحداث

• مقدمة:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها» [صحيح الجامع: ١٨٧٤]، **فالتجديد لهذه الأمة سُنَّةٌ ربانية ماضية باقية ببقاء هذه الأمة، وهذا التجديد لا يقتصر على فرع من فروع الدين: كالفقه، أو الحديث مثلاً؛ بل هو تجديد شامل للدين كله، وهذا التجديد لا يعني التطوير أو التبديل والتغيير، ولكن يعني البعث وإعادة العمل بالمندثر من أمر هذه الأمة الخاتمة، لذلك فإن أمر التجديد لا يقتصر على رجل أو شخص بعينه، ولكنه قد يكون ـ وهو الأغلب ـ مجموعة من الناس في عدة أماكن يقومون على تجديد دينهم ودين الأمة بصورة متكاملة تؤدي في النهاية لمحصلة انبعاث الأمة من جديد، وأحيانًا يكون المجدد شخصًا واحداً في باب واحد تمس إليه الحاجة، وبتجديد هذا الباب ينبعث الدين من جديد، وهذا ما حدث بالفعل لقائد تلك المعركة الهائلة وهو الأمير «عماد الدين زنكي» التركي.**

• إمارة الرها عبر التاريخ:

تقع إمارة «الرها» في منطقة الجزيرة؛ وهي المنطقة الواقعة أقصى شمال الجزيرة العربية بين «العراق» و«الشام» أي في جنوب منطقة «آسيا» الصغرى وهي الآن تقع بين «تركيا» و«سوريا»، وقد فتحت «الرها» أيام الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» سنة ١٧ هـ على يد القائد «عياض بن غنم الفهري» وهو الذي تولى فتح بلاد الجزيرة، وكانت إمارة «الرها» تابعة للإمبراطورية الرومية، وأغلب سكانها نصارى، فلما فتحها المسلمون لم يجبروا أحدًا من أهلها على ترك دينه والدخول في الإسلام، ولم يلبث أهل «الرها» حتى دخلوا في دين اللَّه أفواجًا، وكانت لـ«الرها» خصوصية عند الرومان، وخصوصية عند المسلمين، فعند الرومان كانوا يعتبرونها من المدن الدينية عندهم، وتنتشر بها الكنائس والصوامع والقلايات ـ أماكن اعتكاف للرهبان انفرادية ـ أما خصوصيتها عند المسلمين ترجع لكونها على حدود الدولة الإسلامية، ومن الثغور الهامة؛ لأنها في قبالة الدولة البيزنطية، وكان الخلفاء دائمًا يهتمون بالثغور، ويدعمون أهل الثغور بالجند والمرابطين للدفاع عن هجوم العدو في أية لحظة، وكانت منطقة الجزيرة خاصة «أنطاكيا» و«الرها» تسمى منطقة العواصم أو الثغور.

ظلت إمارة «الرها» تتبع الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية حتى عصر الدول الأعجمية المتحكمة في الخلافة العباسية، بعد أن أصابها الضعف والوهن؛ ومن هذه الدول المتحكمة كانت دولة «السلاجقة» الأتراك وهي دولة سُنِّيَّة قوية، ودولة «البويهيين» وهي دولة شيعية، وهذا التناوب بين الدول المتحكمة في الخلافة جاء على حساب منطقة الثغور؛ حيث أصبحت معرضة باستمرار لهجمات الدولة البيزنطية، وساعدهم في ذلك وجود رجال ليسوا على مستوى المسئولية، وحل بهم الطمع، والحرص على الدنيا، وجمع المال

إلى التآمر والعمالة للدولة الرومية كما حدث سنة ٤٢٢ هـ عندما كان يحكم إمارة «الرها» رجلان: الأول اسمه «ابن عطير» والآخر «ابن شبل»، وهذا بالقطع من علامات الضعف والوهن، ونذير اختلاف وتفرق، وتمثل ذلك عندما راسل «ابن عطير» ملك الروم «أرمانوس» وباع له حصته في المدينة بعشرين ألف دينار، وجاء الرومان ودخلوا المدينة بعد أن ساعدهم «ابن عطير» في دخولها، وقام الرومان بعمل مذابح مروعة للمسلمين بالمدينة، وخربوا المساجد، وحولوا الجوامع الكبيرة إلى كنائس.

(وهكذا نرى أن قصة الخيانة تتكرر عبر تاريخ هذه الأمة التي ما ضاعت إلا بخيانة الخائنين، وعمالة العملاء ـ حتى وقتنا الحالي ـ وهل ضاعت فلسطين قديمًا والعراق حديثًا إلا بالخيانة من رجال يتحكمون في مقاليد الأمور كأنهم يملكون البلاد بساكنيها بضاعة تباع وتشترى؟!).

• الحملات الصليبية على الشام:

منذ أن أطلق البابا «أوربان الثاني» صيحة الحروب الصليبية على أرض الإسلام سنة ٤٨٨ هـ في مجمع «كليرمونت» الفرنسي، وجاءت الاستجابة الكبيرة والواسعة بصورة لم يتوقعها «أوربان الثاني» نفسه، وأثارت هذه الدعوة الصليبية حماسًا شديدًا في «فرنسا» و«إيطاليا» بالذات، ونهض عدد من أشراف نواحي «فرنسا» بفرسانهم لقيادة الحركة، والفرنسيون أكثر الناس استجابة واشتراكًا في الحملات الصليبية ضد المسلمين.

ومن أهم القادة المشتركين في الحملة الصليبية الأولى على أرض الإسلام:

١ـ «ريمون الرابع» «كونت تولوز» وهو القائد العام للحملة، وكان لقبه «أنوكانور» أي: حامي «بيت المقدس».

٢ـ الأسقف «أوهماروي» أسقف« لي بويه» .

٣ـ «بولدوين كونت بولونيا» وهو أخو «ريمون الرابع» .

٤ـ «روبرت الثاني دوق نورماندي» .

٥ـ «استيفان هنري كونت بلوا» .

وكلهم من «فرنسا» ، وقد تحركت تلك الحملة سنة ٤٩٠ هـ، ووصلت إلىٰ «القسطنطينية» عاصمة الدولة «البيزنطية» ، وهناك اجتمع معهم ملك «الروم» وحضهم علىٰ تحرير «بيت المقدس» ، وإعادة مملكة الصليب علىٰ أرض «الشام» و«الجزيرة» ، وانطلقوا من «القسطنطينية» إلىٰ منطقة «آسيا» الصغرىٰ حيث دولة «سلاجقة الروم» المسلمين ، واشتبكوا مع جيش القائد «سليمان قتلمش» عند مدينة «قونية» ـ في «تركيا» الآن ـ وانتصروا علىٰ المسلمين ، وواصلوا سيرهم إلىٰ «الشام» ؛ حيث كان الهدف الأصلي «بيت المقدس» .

وقبل التوجه إلىٰ «الشام» انفصل عن كتلة الحملة الصليبية الكونت «بولدوين» عند مدينة «مرعش» وقرر الهجوم بمن معه علىٰ مدينة «الرها» بأرض الجزيرة ، وذلك سنة ٤٩٢ هـ في شهر جمادىٰ الآخرة ، وبالفعل استولىٰ عليها بمساعدة أهل المدينة ؛ حيث كان أغلبهم من الأرمن النصارىٰ ، وأنشأ فيها أول إمارة صليبية بأرض الإسلام .

(وهذا يوضح مدى حقيقة ولاء غير المسلمين للدولة المسلمة التي يعيشون فيها، ويقودنا لحقيقة أهم؛ ألا وهي أن هؤلاء المواطنين ما هم إلا تابوراً خامساً لأعداء الإسلام، ليس هذا قديمًا فقط، ولكن لوقتنا الحاضر، واسألوا ـ إن شئتم ـ أهل «البوسنة» وسكان «نيجيريا» و«ساحل العاج» و«مصر» و«السودان» و«كشمير» و«الفلبين» والقائمة طويلة أليمة، وصدق اللَّه عز وجل عندما قال: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ

الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وصدق الشاعر:

كل العداوات قد ترجى مودتها إلا عداوة مَن عاداك في الدين)

أسفرت هذه الحملة الصليبية على أرض الإسلام عن ظهور مملكة صليبية هي مملكة «بيت المقدس» وثلاث إمارات صليبية اثنان بـ«الشام» وهما «أنطاكية» و«طرابلس» وواحدة بالجزيرة شمال العراق بـ«الرها».

• ومضات خافتة:

وأثارت هذه الحوادث الجسام المسلمين جميعًا، ولكن الاستجابة ظلت ضعيفة في ظل تفرق المسلمين، والاقتتال الداخلي بين أمراء الدولة «السلجوقية»، ولكن على المستوى الشعبي كان الغضب مشتعلاً بالصدور، وأثارت أخبار المذابح المروعة التي وقعت للمسلمين بـ«الشام» مشاعر الغضب والحزن عند جمهور المسلمين، وبدأت بعض الومضات الخافتة تلوح في الأفق.

كان أول من تحرك من أمراء المسلمين هو أمير «الموصل»: «مودود»، وكانت «الموصل» هي أقرب المدن إلى إمارة «الرها» الصليبية - وقد تولى «الموصل» سنة ٥٠٢ هـ وجهَّز الجيوش سنة ٥٠٥ هـ، وهاجم «الرها»، واستولى على عدة حصون من أرض «الرها»، وظل يقاتل الصليبيين، وينال منهم حتى سنة ٥٠٧ هـ وهي السنة التي اغتال فيها أحد الباطنية الأمير «مودود» وهو خارج من صلاة الجمعة، وكان صائمًا رحمه اللَّه؛ فلم يفطر رغم جراحاته حتى مات، وهذا يوضح مدى خطورة وشرّ الفرق المنحرفة مثل «الباطنية» و«الروافض» وغيرها على الأمة الإسلامية، ووقوف أمثال هؤلاء المنحرفين الملاحدة في صف أعداء الإسلام، والعجيب أن ملك الفرنج أرسل إلى المسلمين بـ«الموصل» يقول لهم بعد مقتل الأمير «مودود»: (إن أمة قتلت

عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها .)

تشجع المسلمون بعد جهاد الأمير «مودود»، وكان أول مَن تشجع بعده هو الأمير «نجم الدين إيلغازي» أمير «ماردين»؛ وهو أيضًا بجوار إمارة «الرها»، وقاد جيشًا مسلمًا، والتقى مع قوة صليبية عند بلدة «قسطون» جنوبي «حلب» سنة ٥١٣ هـ وانتصر عليهم، وكان لهذا الانتصار صدى بعيد في بلاد الإسلام، وإن كان الانتصار في ذاته صغيرًا، ولكنه دل على أن مواجهة الصليبيين والانتصار عليهم أمر ممكن، وأيضًا سهل، وبعبارة أخرى: انكسرت الأسطورة الصليبية التي كان يُرَوِّجُ لها أمدًا أنها لا تقهر .

• ظهور النجم الساطع:

كان من النتائج الطيبة لاهتمام الوزير «نظام الملك» السلجوقي بالعلم والمدارس، وتحريضه لسلاطين السلاجقة على تعيين الأمراء ذوي الكفاءة والديانة، والتي ظهرت بعد وفاة «نظام الملك» نفسه - كان من نتائج ذلك أن ظهر نجم الأمير «عماد الدين زنكي»؛ فقد تولى قيادة الحامية العسكرية لـ«بغداد» عاصمة الخلافة في عهد السلطان السلجوقي «محمد»؛ فأظهر كفاءة وحسن قيادة، وضرب على يد المفسدين واللصوص بـ«بغداد»، وهذا دفع القاضي «بهاء الدين الشهرزوري» أن يطلب من السلطان «محمد» أن يجعل «عماد الدين زنكي» أميرًا على «الموصل» ليكون قريبًا من الصليبيين بـ«الشام» والجزيرة، ويعمل على الصمود والوقوف أمامهم؛ فوافق السلطان «محمد»، وصار «عماد الدين زنكي» أميرًا على «الموصل» سنة ٥٢١ هـ، وهي قريبة كما قلنا من إمارة «الرها» الصليبية؛ فأخذ في العمل على توحيد بلاد الجزيرة المحيطة بـ«الرها»؛ ليكون الصف المسلم واحدًا قبالة العدو الصليبي، وبالفعل استطاع أن يضم جزيرة «ابن عمر» ثم «نصيبين» ثم «سنجار» ثم «حرَّان»،

كل ذلك في نفس العام الذي تولى فيه: (٥٢١ هـ)؛ مما يوضح مدى كفاءة وشجاعة «عماد الدين» ووضوح هدفه، وسلامة خطته أمام العدو الصليبي.

بعدما أبان الأمير الفذ «عماد الدين زنكي» عن كفاءة ومهارة قيادية وأظهر أنه صاحب خطة مرسومة، وهدف محدد بدأ «عماد الدين» في التحرك إلى طريق النصر وذلك بالسير بخطى ثابتة نحو الغاية النبيلة: وهي تحرير «بيت المقدس» وبلاد الإسلام من رجس وعدوان الصليبيين.

- **على طريق النصر:**

أول ما بدأ به «عماد الدين» - وفوراً سنة ٥٢٢ هـ - تخليص مدينة حلب من حصار الصليبيين لها، وأيضًا من حكامها الضعاف المنشغلين بالدنيا عن نصرة الإسلام؛ ذلك لأن الصليبيين عندما رأوا قدوم «عماد الدين» وتوحيده لكثير من بلاد الجزيرة قرروا حصار مدينة «حلب» ليمنعوا تقدمه نحو باقي بلاد «الشام»، ولقد أرسل «عماد الدين» من طرفه القاضي «كمال الدين الشهرزوري» ليطلب النجدة من السلطان «مسعود السلجوقي»، ولكن القاضي حذر «عماد الدين» بقوله: إذا جاءت عساكر السلطان اتخذوا ذلك حجة وملكوا البلاد»؛ فقال «عماد الدين»: «إن هذا العدو - يقصد الصليبيين - قد طمع فينا، وإن أخذ حلب لم يبق بـ«الشام» إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار».

(ما قاله هذا القائد الفذ يعتبر درسًا غاليًا لمن يريد أن يتعلم فقه القيادة، والموازنة بين المصالح والمفاسد، وهذا عكس كثير من الأمراء الذين لا يبالون بشيء في سبيل ملكهم وكراسيهم، ولو استعانوا بأكفر أهل الأرض على أتقى أهل الأرض).

والخلاصة: أن «عماد الدين» استطاع أن يتسلم «حلب» دون الحاجة لجيوش السلطان «مسعود»، وصار الصليبيون بإزاء رجل قوي يستطيع التصدي لأحلامهم التوسعية بأرض الإسلام.

وفي نفس السنة ٥٢٢ هـ استطاع «عماد الدين» أن يتسلم مدينة «حماة» حتىٰ يتمكن من إحكام الحصار علىٰ حصن «الآثارب»، وكان هذا الحصن يقع علىٰ بعد ثلاثة أميال من «حلب» علىٰ طريق «أنطاكية»، وكان المسلمون يلقون من هذا الحصن ضرراً بالغًا، وكان الصليبيون بهذا الحصن يغيرون علىٰ «حلب» و«حماة» والبلاد المحيطة، ويلقىٰ المسلمون منهم شدة وعنتًا؛ فاستعد «عماد الدين» لفتحه، وأعد الجيوش، وضرب الحصار علىٰ هذا الحصن، ودار بين المسلمين والصليبيين قتال شرس، كان يعد أول قتال بين «عماد الدين زنكي» والصليبيين بـ«الشام»، وأنزل اللّٰه عز وجل نصره علىٰ المؤمنين، وأمر «عماد الدين» بهدم هذا الحصن حتىٰ لا يكون بعد ذلك نقطة انطلاق للصليبيين، واستدار المسلمون بهذا النصر، وضعفت قوىٰ الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصارىٰ جهدهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع.

بعد ذلك قرر «عماد الدين» القضاء علىٰ بؤرة مشتعلة أخرىٰ - بعد أن قضىٰ علىٰ حصن «الآثارب» - وكانت هذه البؤرة هي حصن وقلعة «بعرين»، وكان قريبًا من مدينة «حماة»، وقد علم الصليبيون بنية «عماد الدين»؛ فأجمعوا علىٰ التصدي له، وحشدوا كل أبطالهم وعساكرهم ليخيفوا «عماد الدين» فيرحل، ولكنه ظل صامداً، وقاتلهم أشد قتال عرفه كل من المسلمين والصليبيين حتىٰ شبهوا هذا القتال بيوم «الهرير» في معركة «القادسية» العظمىٰ، وانتصر المسلمون انتصاراً باهراً أنسىٰ المسلمين كل هزائمهم

السابقـة، وأعاد لهـم روح النصر والعزيمة، وكـان هذا النصر سببـا لإثارة حملة صليبية جـديدة على المسلمين قادها إمبراطور «القسطنطينية» وكان يـختلف في العقـيدة مع الصليـبيين المحتلين للشام : فـهو «أرثوذكسي»، وهـم «كـاثوليك»؛ فـاسـتطاع «عمـاد الدين» بذكـائه وفطنتـه أن يسـتغل تلك النقطة في الإيقـاع بين الفـريقين، حـتى رد إمـبراطور «القـسطنطينيـة» على عقبـه بعـدمـا رأى تخـاذل صليـبي «الشـام» عن نصرته، ووقـوف الأسـد الهصـور «عـماد الديـن زنكي» أمامـه يمنعه من التقدم.

• تحرير إمارة الرها:

لـم تكن أعـمـال الأمـير «عـمـاد الدين زنكي» لتـخفى على صليـبي إمـارة «الرها»، خـاصـة أن أمـيرها رجل داهيـة ذو عزم وشـجاعـة وصـبر، اسـمـه «جوسلين» حيث شـعر أن كل ما يقوم به «عـماد الدين» من الفتوحـات وتوحيد الصف المسلم مـوجـه في المقام الأول إلى إمـارة «الرها»؛ فـعـمد «جـوسلين» إلى تقوية دفاعـات المدينة في تحصيناتهـا، وظل مـقيـمًا بهـا لا يفـارقهـا أبدًا رغـم أن أهله وذريتـه كـانوا مازاوا فـي «فرنسـا»، إلا أن خـوفـه من هجوم «عـمـاد الدين» على المدينة حال غيابه دفع للبقاء بها، وتحمل من أجل ذلك فراقه لأهله.

(عجبًا لأمـر أعداء الإسلام، وعجبًا لصبـرهم على باطلهم، وحربهم لله ورسوله وللمؤمنين؛ فإن العداوة المتأصلة في قلوبهم تدفعهم لتحمل الصعاب، وخوض المشاق من أجل غـايتهم المقـدسة! ألا وهي حـرب الإسلام، وصـدق الحق عندما قـال: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤] فحُقَّ لجند الإسـلام أن يكونوا أشد صبرًا وثبـاتًا ويقينًا من عدوهم؛ لأنهم يرجون رضا الله عز وجل ثم الجنة، سفالثبات الثبات يا جند الإسلام).

علم «عماد الدين» أن «جوسلين» مرابط بالمدينة لا يغادرها أبدًا، وذلك الأمر يجعل فتح المدينة في غاية الصعوبة؛ فكان لابد من الحيلة والمكر مع هذه الشخصية الخطيرة؛ فأظهر «عماد الدين» أنه مشغول بحرب القبائل الكردية التي تسيطر على قلاع «الهكارية» في منطقة ديار «بكر» ـ جنوب «تركيا» الآن ـ وكانت هذه القبائل ذات نزعة استقلالية، ولا تقبل التوحد في صف «عماد الدين» لدواعي عصبية وقبلية، وبالفعل انطلت هذه الخدعة على «جوسلين» المحترق شوقًا لأهله وعياله بـ«فرنسا» فسافر مسرعًا إلى «أوروبا» ليرى أهله وعشيرته، وكان «عماد الدين» قد بث العيون لتأتيه بالأخبار عند رحيل «جوسلين»، وبالفعل وصلت له الأخبار فاستعد للقتال من يومه، ونادى في المعسكر الإسلامي بالرحيل إلى «الرها» من يومه.

اجتمعت الجيوش الإسلامية عند قائدهم «عماد الدين زنكي» في أقل من يوم، ووضع الطعام للجند، ووضعت مائدة الأمير «عماد الدين» فقال لهم: (لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا مَن يطعن غدًا معي بباب «الرها»)، وهذا معناه في مصطلح الحروب أن يكون طاعن الباب هو أول الجيش، وأشدهم شجاعة وجرأة؛ فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبي لا يُعرف صغير السن؛ ذلك لأن الجميع يعلم أن «عماد الدين زنكي» هو أشجع الناس وأقواهم، وأجرؤهم في ساحات القتال، وأنه لا أحد يجاريه في هذا المضمار، فقيل للصبي: ارجع فما أنت في هذا المقام؛ فقال لهم «عماد الدين»: دعوه فواللّه إني أرى وجهًا لا يتخلف عني.

(وهكذا يجب أن تكون تربية النشء المسلم على البطولة والشجاعة، وتنمية المواهب، وتحفيز الطاقات حتى لا ينشأ الشباب في ميوعة ودعة وليونة، وأحيانًا خنوثة كما هو حال شباب هذه الأيام، ذلك لأنهم تربوا على الترف وسماع الأغاني الفاسقة،

والأفلام الماجنة؛ فنشأوا كالغواني).

سار «عماد الدين» بجيوشه مسرعًا حتى وصل إلى أسوار مدينة «الرها»؛ فكان هو أول مَن حمل على الصليبيين ومعه الأمير والصبي، وشد المسلمون وجدوا في القتال ليفتحوا المدينة قبل أن ينجدها الصليبيون في «الشام»، وقام هذا الأمير المذكور بإنقاذ حياة «عماد الدين زنكي» قبل أن يفتك به أحد فرسان الصليبيين غدرًا وغيلة، وحمل «عماد الدين» عدة مرات على أسوار المدينة المنيعة، وزحف بقواته بمنتهى القوة، وقام النقابون بنقب أسوار المدينة، وحمى وطيس القتال، والصليبيون يقاتلون بمنتهى الضراوة أملاً في وصول إمدادات من صليبيي «الشام»، واستطاع النقابون أن ينقبوا السور، وتدفقت الجيوش المسلمة داخل المدينة كالطوفان الجارف الذي لا يقوم له شيء، وقضوا على كل المقاتلين الصليبيين بالمدينة، وسبوا الذرية وأخذوا الأموال.

كان في نية «عماد الدين» عند فتح المدينة أن يهدم قلعتها، ويدك أسوارها حتى لا يحاول الصليبيون العودة إليها مرة أخرى إذا ضعف عنها المسلمون يومًا من الأيام؛ فلما دخلها رأى أن تلك المدينة لا ينبغي أن تهدم أو تخرب؛ لما فيها من العمران والبنيان، فأمر بإعادة كل ما غنمه المسلمون من تلك المدينة؛ فامتثل الجنود وأعادوا كل ما أخذوا، وأفرجوا عن السبي كله فلم يفقد منه شيء.

(لعمر اللَّه هذا هو الانضباط والالتزام العسكري الصحيح، الذي يضمن نجاح الجيوش في تحقيق أهدافها، والانتصار على عدوها).

كان تحرير إمارة «الرها» من أعظم وأهم فتوحات المسلمين في تلك الفترة؛ فلقد عادت الثقة للمسلمين، وسرت روح جهادية جديدة في نفوس المسلمين، وكان هذا النصر من أعظم المصائب على الصليبيين بـ«الشام» و«أوروبا»؛

لمكانة المدينة التاريخية والدينية عندهم، وقد رأىٰ بعض الصالحين الأمير «عماد الدين زنكي» في رؤيا صالحة فسأله: ما فعل اللّه بك؟ فقال: غفر لي بفتح «الرها».

ومن أعجب الأمور في فتح «الرها» أن الأخبار وصلت لـ«أوروبا» في نفس يوم الفتح؛ ذلك لأن ملك «صقلية» قد أرسل سرية بحرية للإغارة علىٰ مدينة «طرابلس» الغرب؛ فنهبوا وقتلوا وكان بـ«صقلية» رجل صالح من المسلمين، كان ملك «صقلية» يحترمه ويكرمه، ويقدمه علىٰ مَن عنده من القساوسة والرهبان؛ فلما وصل إليه خبر السرية قال للرجل الصالح: أين كان محمدكم عن تلك البلاد وأهلها؟ يقصد نصرة اللّه عز وجل للمسلمين؛ فقال له الرجل المسلم: كان قد غاب عنهم وشهد فتح «الرها»، وقد فتحها المسلمون الآن، فضحكوا منه فقال الملك لهم: لا تضحكوا فواللّه ما يقول إلا الحق. ثم جاءت الأخبار بفتح «الرها» بعد أيام قليلة بعد أن انتشر الخبر في «أوروبا» كلها.

الكامل في التاريخ	محاضرات الخضري	التاريخ الإسلامي
البداية والنهاية	فتوح البلدان	الروضتين في أخبار الدولتين
المنتظم	موسوعة التاريخ الإسلامي	أيعيد التاريخ نفسه؟
الطريق إلى بيت المقدس	سير أعلام النبلاء	وفيات الأعيان

معركة دمشق العظيمة . حصن الإسلام

الزمان / ٦ ربيع أول ـ ٥٤٣ هـ.

المكان / «دمشق» ـ «الشام».

الموضوع / فشل الحملة الصليبية الثانية في احتلال «دمشق».

الأحداث

• عندما يغيب الأسد:

عندما أطلق البابا «أوربان الثاني» شرارة الحملات الصليبية في مجمع «كليرمونت» سنة ٤٨٥هـ، وجد أعداء الإسلام في ذلك فرصة سانحة لتفريغ مخزون الحقد والكراهية الهائل في قلوبهم ضد الإسلام والمسلمين، وكانت أولى الحملات الصليبية سنة ٤٩٠هـ، واستمرت مدة سنتين، وأسفرت عن سقوط «بيت المقدس» في ٢٢ شعبان سنة٤٩٢هـ، بعد مذبحة مروعة راح ضحيتها سبعون ألف مسلم: بين رجل، وامرأة، وشيخ، وطفل، وقد انتهت تلك الحملة بتكوين أربع إمارات صليبية في «الشام»: وهي إمارة «الرها»، وإمارة «طرابلس»، وإمارة «أنطاكيا»، وإمارة «بيت المقدس»، وبذلك ثبَّت الصليبيون أقدامهم بـ«الشام»، ولم يكن هناك من يصدهم عن غيهم؛ وذلك لانتشار العقائد الفاسدة بـ«الشام»: مثل الرفض، والتصوف؛ بسبب حكم الدولة الفاطمية الخبيثة لتلك البلاد لسنوات طويلة؛ مما روج لعقيدة التشييع

والرفض، وقد سهل ذلك على الصليبين مهمتهم؛ لأن العقيدة هي السد المنيع، وقاعدة دفاعات المؤمنين الحصينة.

ظل الوضع هكذا، وكان الصليبيون في استقرار وتمكن من البلاد - خاصة بعد تحقق هدفهم الأغلى: وهو «بيت المقدس» - حتى قيض الله عز وجل للأمة الإسلامية من يجدد لها ما اندرس من أمر دينها خاصة أمر جهاد الكافرين، وظهر القائد الكبير «عماد الدين زنكي»: وكان رجلاً فذًا ذا همة عالية، وغاية سامقة، عمل على توحيد «الشام» والجزيرة لتكوين جبهة واحدة قوية أمام العدو الصليبي، وتفرغ بعدها لقتال الصليبيين، وأعاد بعدها لحظيرة الإسلام الكثير من الحصون والمدن، وحررها من قبضة الصليبين، وتوج أعماله الجهادية العظيمة بتحرير مدينة «الرها» سنة ٥٣٩هـ، وأزال بذلك أول إمارة صليبية أنشئت بـ«الشام»، ولكن الأيدي الآثمة امتدت لتغتال الحلم الإسلامي بتحرير البلاد المحتلة، وقُتل «عماد الدين زنكي» أثناء حصاره لقلعة «جعبر»، وكانت قلعة لإيواء اللصوص وقطاع الطرق، وعندها تنفس الصليبيون الصعداء، وظنوا أن الجو قد خلا لهم، وأن غياب الأسد سيجعل ميدان القتال أوسع وأرحب، ولكنهم غفلوا عن حقيقة مهمة: وهي أن الأسد قد خلّف لهم من وراءه أسودًا أخرى؛ ستحمل الراية الجهادية بعده، وبالفعل ظهر كل من «نورالدين محمود» و«سيف الدين غازي».

عندما قتل «عماد الدين زنكي» فرح الصليبيون بشدة لغياب أسد «الشام»، وحاولوا سريعًا انتهاز تلك الفرصة السانحة، وكانت أول بوادر الصحوة الصليبية العصيان الذي أعلنه نصارى مدينة «الرها»، وحاولوا الاتصال بالصليبيين لإعادة تكوين الإمارة السابقة، ولكن الأمير المجاهد «نور الدين محمود» وقف لهم

بالمرصاد، وعندها شعر الصليبيون أنهم لن يقووا على مجابهة «نور الدين» أرسلوا إلى أوروبا يستصرخونهم لنصرة الصليب بـ«الشام»!!.

• الحملة الصليبية الثانية:

كان لسقوط إمارة «الرها» الصليبية دوي كبير في أنحاء أوروبا عمومًا، وفي مقر البابوية خصوصًا، وارتفع صدى هذا الدوي بعد الاستغاثات المتكررة الصادرة من نصارى «الشام» لإخوانهم بأوروبا، وجاءت التلبية في عام ٥٤٣هـ عندما تحرك اثنان من أكبر قادة أوروبا: وهما ملك ألمانيا «كنراد الثالث»، وملك «فرنسا» «لويس السابع»، وسلك كل واحد منهما طريقًا يختلف عن الآخر في شبه كماشة للانقضاض على «الشام» من ناحيتين: الألماني من ناحية آسيا الصغرى، والفرنسي من ناحية القسطنطينية.

كان خط الجيش الألماني عاثرًا؛ فعند مدينة «قونية» بآسيا الصغرى هجمت قوات سلاجقة الروم المسلمة على الجيش الألماني ومزقته شر تمزيق، وشتت شمله، وفر «كنراد الثالث» من أرض المعركة إلى مدينة «نيقية»؛ حيث التقى بـ«لويس السابع» وهو في غاية الذلة والمهانة، ورغم أن «لويس السابع» قد اختار الطريق الآمن؛ فإنه لم ينج من غارات السلاجقة المسلمين؛ مما اضطره لتعديل مساره آخذًا طريق البحر، ثم «أنطاكيا»، فـ«بيت المقدس» متناسيًا الهدف من حملته: وهو استعادة «الرها»، والتفكير في هدف أكبر وأخطر.

• دمشق.. حصن الشام:

كان للفشل والهزائم المخزية التي نالتها الحملة الصليبية الثانية في بدايتها على يد السلاجقة المسلمين أثر بالغ في تغيير مسار الحملة، والتفكير في هدف آخر غير استعادة «الرها» يحفظ لهم ماء وجوههم وكرامتهم المهانة بسيوف المسلمين، وكان

التفكير قد اتجه إلى مدينة «دمشق» التي هي درة بلاد «الشام» وحاضرته وعاصمته، وحصن «الشام»؛ والتي فتحها المسلمون سنة ١٤ هـ، ومن وقتها - وحتى وقتنا الحاضر - وهي في قبضة المسلمين، لم تخرج عنها إلا أيامًا معدودات: هي أيام التتر؛ وهي أيضًا محلة الإسلام، وبها سينزل «عيسى» عليه السلام في آخر الزمان ليقتل «الدجال»، ووردت عدة أحاديث ذكر فيها اسم «دمشق» جمعها صاحب كتاب «مصابيح السنة»، وعلى الرغم من ضراوة وشدة الحملة الصليبية الأولى، والتي جاء فيها مليون صليبي - منهم ثلاث مائة ألف مقاتل - إلا أنهم لم يفكروا في الهجوم على «دمشق» رغم أهميتها.

كان الحاكم الفعلي لمدينة «دمشق» رجلاً اسمه «معين الدين إنز» فلما وصلته أخبار استعداد الصليبين للهجوم على دمشق جمع المقاتلين، ونظم الصفوف، ووزع السلاح على أهل البلد للدفاع عن مدينتهم، ولكنه شعر بكثرة وقوة الحملة الصليبية؛ فقرر الاستعانة بالأسود الجديدة: «نور الدين محمود»، و«سيف الدين غازي»، وكان «نور الدين» حاكمًا على مدينة «حلب»، وأخوه «سيف الدين» حاكمًا على مدينة «الموصل»، وبالفعل استجابا سريعًا، وكونا جيشًا كبيرًا يقدر بسبعين ألفًا - هذا غير المتطوعين، وأرسل «نور الدين محمود» إلى «معين الدين إنز» حاكم «دمشق» يقول له: «قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي؛ فأريد أن يكون نوابي بمدينة «دمشق» لأحضر وألقى الفرنج؛ فإن انهزمت دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا أنازعكم فيه».

أزعجت هذه الرسالة «معين الدين إنز» حاكم «دمشق»، وخاف من قدوم «نور الدين» لـ«دمشق»؛ وذلك لميل الناس والمسلمين إليه؛ خاصة وأن «معين الدين» هذا لم يكن أصلا من الأسرة الحاكمة، بل تغلب على البلد، وكان رجلاً طماعًا مؤثرًا لمنصبه وكرسيه على مصالح الأمة، وتلك الصفات دعته ليقدم على

خطوة في غاية السوء؛ حيث قام بإغلاق أبواب المدينة أمام الجيوش المسلمة التي جاءت أصلاً للدفاع عن المدينة، ثم قام باستغلال قدوم المسلمين لنصرته أسوأ استغلال؛ حيث استخدم الجيوش كسكين تهديد وإرهاب للصليبيين؛ فأرسل لملك الألمان يقول له: «ملك الشرق - يقصد نور الدين - قد حضر لنصرة أهل «دمشق»؛ فإن رحلتم عنا وإلا سلمت البلد له، وحينئذٍ تندمون».

• معركة دمشق العظيمة:

لم يكن هذا التهديد ليخيف حملة صليبية كبيرة مثل هذه الحملة؛ خاصة وأن الذي يقودها ملك من أكبر ملوك أوروبا، وبها من الغيظ والحقد على المسلمين ما لا يعلمه إلا اللَّه عز وجل، وذلك بعد الضربات الموجهة عند آسيا الصغرى على يد السلاجقة المسلمين، ولكنهم ترددوا في مواصلة الهجوم على «دمشق» خوفًا من «نور الدين»، وأخيه «سيف الدين»، وهنا قام قسيس فرنسي عظيم القدر عند «لويس السابع» - اسمه «إلياس» - بافتراء منام كاذب على النبي «عيسى» عليه السلام يعده فيه بالظفر على المسلمين بفتح «دمشق»، وإعادتها لحكم الصليبيين كما كانت أيام «هرقل» قائد الروم الأشهر، وعندها حميت نفوس الصليبيين، وقويت عزائمهم على مواصلة الحملة.

تقدمت الحملة الجرارة حتى نزلت بالميدان الأخضر على بُعد نصف فرسخ من «دمشق»، وخاف الناس خوفًا عظيمًا، وأخرجوا مصحف عثمان وسط صحن الجامع الأموي، واجتمعوا حوله يدعون ويتضرعون ويبكون طالبين النصر والعون من اللَّه عز وجل، وخرج للقائهم مائة وثلاثون ألف مقاتل، وذلك يوم ٦ ربيع أول سنة ٥٤٣هـ، وكان ممن خرج لجهاد الصليبين العالم الكبير «حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي» شيخ المالكية بـ«الشام»، وكان في التسعين من عمره، فلما رآه «معين الدين إنز» قال له: «يا شيخ إنك

معذور لكبر سنك»، وطلب منه العودة؛ فقال له «حجة الدين»: «قد بعت واشتري مني؛ فوالله لا أقلته ولا استقلته». يقصد قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، ثم تقدم فقاتل حتىٰ سقط شهيداً في هذه المعركة الرهيبة الطاحنة، التي صمد فيها أهل «دمشق» صموداً عجيباً، واستماتوا في الدفاع عن مدينتهم .

وجد «معين الدين» نفسه في مأزق خطير؛ ففتح أبواب المدينة، وطلب المساعدة الفورية من «أسد الدين»، و«نور الدين» فأقبلا كالليوث الغاضبة؛ فلما رأىٰ الصليبيون قدوم المسلمين، وعلموا أن الدائرة ستدور عليهم حاولوا الفرار من ميدان ««دمشق»؛ فأدركتهم الأسود الهادرة، وأعملت أنيابها الحادة في أجساد الغزاة الكافرين، وقُتل منهم الكثيرون بعدما كادت الحملة أن تنجح في هدفها وتحتل «دمشق»، وعاد ملك الألمان وكذا ملك الفرنسيين كلاهما يجر أذيال الخيبة، وقد تجللا بالعار والفضيحة من هول ما لاقوه من هزائم في أول الحملة وفي آخرها: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

الكامل في التاريخ	النجوم الزاهرة	المنتظم
الطريق إلى بيت المقدس	وفيات الأعيان	البداية والنهاية
موسوعة التاريخ الإسلامي	شذرات الذهب	التاريخ الإسلامي
الروضتين في تاريخ الدولتين	سير أعلام النبلاء	فتوح البلدان

معركة حطين . بشارة الفتح الأعظم

الزمان / السبت ربيع ثان ـ ٥٨٣هـ .

المكان / سهل «حطين» ـ بحيرة «طبرية» «الشام» .

الموضوع/ المسلمون بقيادة «صلاح الدين الأيوبي» يسحقون الصليبيين بـ«حطين» .

الأحداث

• ما أصل الحروب الصليبية ؟

نستطيع أن نقول : إن أصل الحروب الصليبية يرجع في المقام الأول لكرسي البابوية بروما ، وكان أول من فكر في ذلك البابا «جريجوري السابع» ؛ وهو من أصل ألماني ، وكان واسع الطموح والنشاط ، وقد شجع رهبان «دير كلوني» ـ وهو دير كاثوليكي في «فرنسا» ـ على الدعوة للمذهب الكاثوليكي ، وأعطاهم صلاحيات واسعة لذلك ؛ فنشأت فيه حركة حماس ديني ، وتجرد رجاله لنشر النصرانية بين قبائل وسط أوروبا من «المجر» ، وشمالها من الشعوب النورماندية ، وأحس البابا «جريجوري السابع» أن تحت يده قوة يمكن أن يستخدمها لفرض إرادته على الشعوب النصرانية كلها .

ونستطيع أن نجمل الأسباب التي أدت لقيام الحروب الصليبية في الآتي :

(١) الشخصية الدينية المضطرمة بالحماس والطموح الصليبي الجامح للبابا

«جريجوري السابع»؛ الراغب في توحيد العالم النصراني تحت قيادته وسيطرته، خاصة بعد وقوع الانشقاق الكبير في الكنيسة سنة ١٠٥٤م، وأدىٰ لانشقاق كنائس المشرق عن كنائس المغرب.

(٢) معركة «ملاذكرد» التي انتصر فيها الأتراك السلاجقة المسلمون بقيادة «ألب أرسلان» علىٰ الرومان البيزنطيين بقيادة «رومانوس الرابع» عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، والتي فتحت الطريق لانسياح المسلمين في منطقة آسيا الصغرىٰ وتكوين ما عرف باسم «سلطنة سلاجقة الروم» المسلمين، وأخذت هذه السلطنة في التوسع علىٰ حساب الدولة البيزنطية؛ مما جعل «ألكسيوس كومنين» إمبراطور بيزنطة يستغيث بالبابا «جريجوري» عارضًا عليه إخضاع الكنيسة الأرثوذكسية لسلطان البابا، والمذهب الكاثوليكي.

(٣) هذا السبب الثالث يعتبر عكس السبب الثاني تمامًا؛ فلقد كان علىٰ الطرف الآخر من العالم الصراع علىٰ أشده بين المسلمين والإسبان بـ«الأندلس»، وبدأت كفة ميزان القوىٰ تتحول لصالح النصارىٰ، وتوج هذا التحول في حادثة سقوط مدينة «طليطلة» التليدة - وهي عاصمة الإسبان القديمة قبل الإسلام - سنة ٤٧٨هـ، وقيام ما يسمىٰ في تاريخ الأندلس بحرب الاسترداد الصليبية؛ مما أدىٰ لاشتعال حماسة وحمية صليبيي أوروبا، وتقاطر صليبيو «فرنسا» و«إنجلترا» و«إيطاليا» وغيرهم علىٰ «إسبانيا» للاشتراك في الحرب الصليبية الإسبانية، وكان الملك «ألفونسو السادس» أول من وضع شارة الصليب علىٰ صدره أثناء القتال إعلانًا بصليبية القتال والمعركة ضد المسلمين.

(٤) تضاعف عدد سكان أوروبا خلال القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين، وكانت أوروبا فقيرة من حيث الموارد الطبيعية؛ فاحتاجوا إلىٰ أرض جديدة للتوسع والزراعة، كذلك كان لنظام التوريث في كل من «فرنسا»، و«إنجلترا» دور بارز في البحث عن أرضٍ جديدة خارج أوروبا؛ حيث كان لا

ينال الثروة إلا أكبر الذكور، في حين يحرم باقي الأولاد من الميراث، كما أن الزيادة في عدد السكان أدت لزيادة في عدد الحجاج النصارىٰ لـ«بيت المقدس».

(٥) الشائعات والأباطيل التي روجها «بطرس الناسك» ـ وهو فرنسي انتظم في سلك الرهبنة بعد فشله في الزواج، وخيانة زوجته له، مما دعاه للرهبنة والانطواء علىٰ نفسه، ثم بدأ في البحث عن دور يشتهر به بين الناس، وكان شديد الحقد علىٰ الإسلام والمسلمين ـ فأخذ في التجول في ربوع أوروبا يدعو لحرب صليبية لاسترداد «مهد المسيح» بزعمه، وتحرير «بيت المقدس» من المسلمين! وافترىٰ أكاذيب كثيرة عن اضطهاد المسلمين للحجاج النصارىٰ، واستطاع هذا البطرس الكاذب في إثارة حمية نصارىٰ أوروبا الذين كانوا يضطرمون وقتها بروح دينية عميقة.

• مجمع كليرمونت:

لم يطل العمر بالبابا «جريجوري السابع» حتىٰ ينفذ خطته الشريرة؛ حيث أخذه اللَّه عز وجل أخذ عزيز مقتدر سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٥م، وتولىٰ مكانه تلميذه النجيب «أوربان الثاني»، والذي حاز شرف إطلاق شرارة الحرب الصليبية! وذلك عندما دعىٰ أمراء وفرسان وكبراء أوروبا لمجمع «كليرمونت» بـ«فرنسا» سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م لإعلان الحرب الصليبية المقدسة علىٰ الإسلام وبلاده، وجاء رد فعل الأمراء والكبراء أكبر بكثير مما تصوره «أوربان الثاني»، وتسابق ملوك وأمراء أوروبا في التطوع للاشتراك في الحملات الصليبية علىٰ بلاد المسلمين، بل أسرع «بطرس الناسك» وقاد الآلاف من العوام النصارىٰ لحملة غير منظمة، وقد انخدع هؤلاء العوام بخطب «الناسك» الحماسية، وصور لهم بلاد المسلمين أنها كلأ مباح بلا حارس ولا حافظ، وانطلقوا في سنة ٤٩٠هـ في الحملة الأولىٰ، والتي عرفت بحملة الرعاع، وقد أبادهم المسلمون السلاجقة عند مدينة قونية.

جاءت بعدها الحملة الصليبية الثانية ـ وهي المنظمة والقوية ـ يقودها أمراء

«فرنسا» و«إيطاليا»، واستطاعوا الاستيلاء على أجزاء كبيرة من «الشام»؛ بما فيها «بيت المقدس»، و«الرها»، و«طرابلس»، و«أنطاكيا»، وكثير من المدن الشامية، وكان العالم الإسلامي وقتها منقسمًا على نفسه، وأمراء السلاجقة الأتراك يقتتلون فيما بينهم على السلطة، والخليفة العباسي لا حول له ولا قوة، والدولة العبيدية الخبيثة جاثمة على الديار المصرية؛ وهي متهمة بالتواطؤ مع الصليبيين ومكاتبتهم للمجيء لبلاد «الشام» واحتلالها؛ ليمنعوا تقدم السلاجقة إلى مصر؛ حيث كان الأمير «أقسيس» السلجوقي على وشك فتح مصر، وإسقاط الدولة الشريرة، ومسلمو «الأندلس» و«المغرب» منشغلون بالصراع الطويل مع نصارى «إسبانيا»، وبالجملة لم يكن العالم الإسلامي في وضع يسمح له برد عادية الحملات الصليبية على بلاد «الشام».

• الأبطال الثلاثة:

في الوقت الذي كان العالم الإسلامي يعاني من حالة متدهورة ومتأخرة من التفكك والتشرذم؛ كان عوام المسلمين وخاصتهم يحلمون بظهور النجم المخلِّص الذي سيقود المسلمين، ويوحد الصفش، شات الخافتة في سماء الأمل أبقت في القلوب بعض اليقين بنصر اللَّه، هذه الومضات ممثلة في شخصية الأمير «مودود»، والأمير «نجم الدين إيلغازي»، والأمير «آقسنقر»، والأمير «طغتكين»، وكل هؤلاء الصليبيين، واصطدموا معهم عدة مرات أظهرت أنه مازال في الأمة بقية من حمية، وأن الأمة ستتمخض قريبًا عن أبطال عظام.

بالفعل تمخضت الأمة بعد طول عناء عن الأبطال الثلاثة ـ ونعني بهم: الأمير «عماد الدين زنكي»: أول من نظم الصفوف، ووحد الجهود، وسار على خطة مدروسة، وخطوات سليمة حتى استطاع أن يتوج جهوده الطويلة التي بدأت منذ عام ٥٢٦هـ ـ وهو العام الذي أسقط فيه أول إمارة صليبية ببلاد

المسلمين وهي إمارة «الرها» ـ وطهّر بلاد الجزيرة الفراتية من الوجود الصليبي، وشعر الصليبيون يومها أنهم أمام رجل من طراز فريد غير سابقيه، وصار همهم الأول حفظ ما في أيديهم بعدما كانوا يخططون لاحتلال بلاد الإسلام كلها، ثم جاء من بعده ولده الأمير «نور الدين محمود»: الذي يعتبر مجدد شريعة الجهاد في القرن السادس الهجري، وأفضل أمراء هذا الزمان، والذي استطاع أن يرد الحملة الصليبية الثالثة؛ التي كانت تهدف لاحتلال «دمشق»، واستولى على خمسين مدينة وحصن وقرية، واستطاع أن يُسقط الدولة العبيدية الشريرة على يد تلميذه النجيب «صلاح الدين الأيوبي»، وهو البطل الثالث، وفارس الميدان المقدام، ورجل الساعة الذي حاز الشرف كله، وجنى ثمار سعي وكد من سبقوه، وهو معهم.

• توحيد الصف المسلم:

بعد أن مات الأمير الكبير الشهيد «نور الدين محمود» سنة ٥٦٩هـ ـ كان وقتها «صلاح الدين الأيوبي» حاكماً على مصر بعد أن سقطت الدولة العبيدية الشريرة ـ كان «نور الدين محمود» يمنع أي مظهر من مظاهر الخروج على شرع اللَّه عز وجل، ومنع كل المنكرات في بلاد «الشام»، وأظهر السنّة، وقمع البدعة، وقضى على كافة العصاة والمفسدين؛ وذلك لعلمه أن الصف المسلم أذا أراد أن ينتصر على عدوه فلابد أولاً أن ينتصر على الشيطان، ويرضي اللَّه عزوجل عنه باتباع القرآن والسُّنّة، ونصرة دين اللَّه؛ فينزل نصر اللَّه وقتها على الصف المسلم، وكانت هذه السيرة الحميدة تضايق أرباب المعاصي والفواحش الذين لم يجرؤوا على الظهور بمعصية طالما أن «نور الدين» حي على ظهر الأرض، فلما مات «نور الدين» ظهر الفساد في الأرض، وأظهر العصاة ما طالما استخَفَوا به، حتى إن أخاه «سيف الدين غازي» صاحب «الموصل» لما تحقق

من موته - وكان كارهًا لنور الدين - نادىٰ مناديه في مدينة «الموصل» بالمسامحة باللَّهو واللعب والشراب والطرب، ومع المنادي دف ومزمار، ولسان حال العصاة والسكارىٰ والزواني كما قال الشاعر:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي: هي الخمر ولا تسقني سرًا وقد أمكن الجهر

وعندها طمع الصليبيون في استعادة ما سبق وحرره «نور الدين» منهم، وعزموا علىٰ الهجوم علىٰ «دمشق»؛ فهادنهم أمراء «الشام»، ودفعوا لهم أموالاً ضخمة حتىٰ يرجعوا عنهم.

(وهذا يوضح لنا حقيقة مهمة جدًا: وهي أن المعاصي والذنوب من أهم أسباب تسليط الكفار علينا، وأن المسلمين طالما كانوا متمسكين بدينهم وشرعهم فلن يجد الكافرون والأعداء عليهم سبيلاً، ويبين لنا أيضًا مدى حقيقة الهجمة الإفسادية الشرسة التي قام بها العدو على قلوب وعقول ونفوس المسلمين، قبل غزوهم ميدانيًا وواقعيًا؛ فالبث المباشر، وبيوت الأزياء، ومسابقات ملكات جمال العالم، والأفلام والمسلسلات الخليعة، والدش، والقنوات السرية، والاختلاط، والموضة، وروايات الغرام، ودعاوى التحرر، والانحلال الخلقي، والمحافل الماسونية التي تروج للفاحشة، والأفلام المأجورة، والشخصيات العميلة، وتقليد الغرب، والانفتاح على عوايد الغرب، وغير ذلك كثير كان السبيل الأول لتمهيد الطريق لاحتلال بلاد الإسلام؛ فهل يعتبر المسلمون؟!).

أثارت تلك الجزية التي دفعها أمراء «دمشق» الناصر «صلاح الدين»، وكتب إليهم يلومهم علىٰ ذلك؛ فردوا عليه ردًا شنيعًا أظهر مكنون صدورهم، ومدىٰ حقدهم علىٰ ما وصل إليه «الناصر صلاح الدين» من مكانة وقيادة في العالم الإسلامي، وشعر «صلاح الدين» بخطورة الوضع علىٰ الجبهة الشامية، وأن مجهودات كل من سبقوه: ابتداءً من الأمير «مودود»، وحتىٰ الأمير «نور الدين

محمود» ستذهب أدراج الرياح، وسيعود الصليبيون لاحتلال ما حرره المسلمون من قبل بسبب حفنة من الأمراء الفاسدين الذين لا يصلحون في تلك الفترة االمهمةمن حياة الأمة؛ فقرر التوجه إلىٰ «الشام» لتوحيد الصف المسلم هناك، والقضاء علىٰ الفتنة الناشئة فيها بسبب أمراء السوء، واختلاف الآراء، وظهور المنكرات والفواحش.

(وعادة الدنيا تكون وراء كثير من الابتلاءات والمصاعب التي واجهت تلك الأمة، وطالما أن الصف ليس علىٰ قلب رجل واحد فالنتيجة الحتمية هي الفشل؛ كما قال الحق في محكم التنزيل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وهذا هو الرسول ﷺ يعلمنا حقيقة مهمة، ودرسًا غاليًا؛ فيقول لنا: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت علىٰ من كان قبلكم؛ فتنافسوها كما تنافسوها؛ فتهلككم كما أهلكتهم» متفق عليه، وزواه أيضًا الترمذي والنسائي وابن ماجه).

أجمع «الناصر صلاح الدين» علىٰ ضرورة توحيد الصف المسلم في «الشام» ومصر، ورأىٰ ضرورة ترتيب البيت من الداخل قبل التفرغ لجهاد الصليبيين، وبالفعل بدأ أولاً بـ«دمشق» لأهميتها، وكونها حاضرة «الشام»، وما زالت مطمعًا لهجمات الصليبيين، وبالفعل دخلها سنة ٥٧١هـ، وسار في أهلها سيرة حسنة مثل أيام الشهيد «نور الدين محمود»، ثم توجه بعدها إلىٰ مدينة «حلب»، وهناك واجه متاعب كثيرة؛ ذلك لأن معظم أهل «حلب» من الشيعة الروافض الذين يحترقون غيظًا وحقدًا علىٰ «الناصر صلاح الدين» الذي أزال دولة الرفض الخبيثة في «مصر»: دولة «بني عبيد» يهودية الأصل، واستغل

الأمراء الطامعون ذلك فحرضوا أهل «حلب» على مقاومة «صلاح الدين»، واشترط أهل البلد ـ الروافض ـ إظهار شعائر الرفض: من الأذان بـ« حي علي خير العمل» وأعياد عاشوراء، إلى غير ذلك، ووافق الأمراء الطامعون على كل هذه البدع المخالفة من أجل التصدي للناصر «صلاح الدين»، ولكن هيهات لتلك الطغمة الفاسدة أن تقف أمام سيوف الحق والعدل، ولما عجز أهل البلد عن مقاومته لجئوا إلى الخيانة والمؤامرة؛ فاستأجروا بعض الباطنية ـ وهم فرقة من السلاجقة يشبهون الروافض في كثير من المعتقدات، وبينهم توافق وتناصر قديم وحديث ـ وذلك لاغتيال الناصر، ولكنهم أيضًا فشلوا، وعندها راسلوا أمير «طرابلس» الصليبي، ووعدوه بأموال جزيلة إن هو رحَّل عنهم «صلاح الدين»، ولكنه رفض.

(وهكذا نرى مدى عداوة فرق الشيعة الروافض ـ على اختلاف أنواعهم ـ لأهل السُّنَّة عمومًا، والمجاهدين خصوصًا، وقد كانت في التاريخ قديمًا وحديثًا الكثير من المواقف التي توضح مدى التعاون الوثيق بين الشيعة وبين أعداء الإسلام؛ فمن الذي أدخل التتار بغداد حتى أسقطوا الخلافة العباسية، وأحرقوا بغداد بمن فيها؟ إنهم الشيعة ، ومن الذي تعاون مع البرتغاليين الصليبيين ضد العثمانيين المسلمين، وسهلوا لهم احتلال الجزيرة العربية؟ إنهم الشيعة ، ومن الذي أصدر الفتوى الشهيرة بعدم التصدي والمقاومة للهجوم الأمريكي على العراق مؤخرًا؟ إنهم الشيعة، ومازالت المؤامرة مستمرة).

بعد محاولات مضنية استطاع «الناصر صلاح الدين» أن يأخذ «حلب»، ويزيل منها شعائر الرفض والبدع المغلظة، وبعدها انتقل إلى «حماة» التي دخلت طوعًا تحت قيادة «الناصر»، ومن بعدها انتقل إلى مدينة «الموصل» ـ وكانت مثل الحانة من كثرة الخمور والفواحش والمنكرات بها ـ وقد حاول أمير

«الموصل» «سيف الدين غازي» مقاومة «صلاح الدين»، وحشد الجيوش لحربه، ولكن أنى لأمثال هؤلاء الفاسدين الطماعين الانتصار، وواصل «صلاح الدين» رحلته الشاقة في توحيد الصف المسلم بـ«الشام» حتى تحقق له ما أراد سنة ٥٧٨هـ، وبعدها قرر «الناصر» توجيه كل همه لقتال الصليبيين لتحرير «بيت المقدس» وباقي البلاد والمدن المحتلة.

• أرنولد.. الكلب الصليبي:

كان الصليبيون منذ الحملة الصليبية الثانية قد أقاموا لهم ثلاث إمارات صليبية كبيرة: وهي إمارات «الرها»، وقد استعادها المسلمون سنة ٥٣٩هـ أيام «عماد الدين زنكي»، وإمارة «طرابلس» ويحكمها أمير مشهور من أدهى وأعتى المحاربين الصليبيين، ولكنه على خلاف واسع مع باقي الأمراء الصلبيين بـ«الشام»، وهذا الخلاف جعله يتصالح مع «صلاح الدين»، ويتحالف معه ضد باقي الصليبيين، وإمارة «أنطاكيا» وهي بعيدة نسبيًا عن «الشام» و«حلب»، ومملكة «بيت المقدس» ويحكمها ملك كل الصليبيين جودفري، هذا غير الكثير من المدن والقلاع والحصون التي استولى عليها الصليبيون، واستوطنوها وتوارثوها، وكان من أشد هؤلاء الصليبيين حقداً وحسداً وكيداً للإسلام والمسلمين الكلب الصليبي المجرم «أرنولد» أمير «الكرك»؛ وهو فرنسي الأصل، صليبي حتى النخاع، مُلِئَ كفراً وكراهية ضد المسلمين حتى حشاشته، وكان هذا الكلب الصليبي صاحب فكرة شيطانية ـ لا تخطر على بال إبليس نفسه ـ حيث حاول قطع الطريق على قوافل الحجاج براً وبحراً؛ تمهيداً لاحتلال المدينة النبوية، ونبش القبر الشريف، ولم يكن «الناصر صلاح الدين» ليخفى عليه أمثال تلك الأطماع الصليبية؛ فيأمر القائد «حسام الدين لؤلؤ» أمير البحر بإعداد الأساطيل اللازمة لصد محاولات «أرنولد» الشريرة، وينجح «لؤلؤ» في

ذلك لكن الصليبي الحاقد «أرنولد» يأخذ قافلة من حجيج أهل مصر؛ فينهب أموالهم، ويقتلهم جميعًا، وهو يضحك قائلاً: أين محمدكم؟ دعوه ينصركم، وعندما يعلم «الناصر صلاح الدين» - وكان وقتها مريضًا بشدة - فنذر لله عز وجل إن شفاه اللَّه من مرضه ليقتلن هذا الكلب الصليبي بيده.

• صيحة الجهاد المقدس:

بعد أن تأكد «الناصر صلاح الدين» من وحدة الصف المسلم وسلامته من العناصر الفاسدة التي تعمل لصالحها الخاص، ولا يهمها صالح الأمة المسلمة، وبعدما تأكد «الناصر صلاح الدين» أن المسلمين أصبحوا على استعداد تام لتحمل مسئولية رحلة طويلة وشاقة من الجهاد ولتحرير المقدسات والبلاد الإسلامية من الأسر الصليبي - عندها أطلق «الناصر صلاح الدين» صيحة الجهاد المقدس، واستدعى الجنود المصرية والحلبية والحمصية والجزيرية والشامية، واستعد الجميع لحرب طويلة وحاسمة مع الصليبيين بـ«الشام»، ورغم ذلك لم يتجاوز عدد الجيوش المسلمة أكثر من اثني عشر ألفًا فقط، ولكنهم على قلب رجل واحد.

(لم تكن الكثرة يومًا هي العنصر الحاسم في القتال، ولقد خاض المسلمون من قبل معارك هائلة مع جيوش عددها أكثر من عشرين أو ثلاثين، وأحيانًا سبعين ضعفًا - كما كان يوم مؤتة - ومع ذلك انتصر المسلمون بفضل اللَّه؛ فإن العنصر الحاسم والحقيقي في القتال هو الإيمان الذي يقر في القلوب، وكلما ازداد الإيمان كلما قرب النصر وسهل، ولم يقم من الخلق أحد لأهل الإيمان، ولما أهمل المسلمون هذا الجانب، وهذا السلاح الخطير لم تغن عنهم كثرتهم من اللَّه شيئًا، ووقع بهم ما كانوا يكرهون).

• تحالف الخصماء:

لما تسامع الصليبيون بـ«الشام» باستعداد الناصر وجنوده لرحلة الجهاد المقدس ضدهم اجتمعوا فيما بينهم، وتشاوروا فيما العمل؟ وكان أكثرهم حماسة ونشاطًا ـ بالقطع ـ الكلب الصليبي «أرنولد» أمير «الكرك»، خاصة أن «الناصر صلاح الدين» قد قرر بدء رحلته الجهادية بحصار مدينة «الكرك»؛ لمعاقبة كلبها العقور «أرنولد»، وكان الصليبيون متخاصمين فيما بينهم، وكان الخصام على أشده بين «أرنولد» أمير «الكرك» و«جوميز» أمير «طرابلس»؛ لتحالفه مع «صلاح الدين» ومهادنته له، واستطاع «أرنولد» إقناع باقي أمراء الصليبيين بالضغط على «جوميز» عن طريق التهديد الديني؛ فأرسلوا إليه بطريرك القدس والقساوسة والرهبان، وهدده البطريرك أنه سيفسخ زواجه، ويحرمه من دخول الجنة! إلى غير ذلك من التهديد والوعيد، وبالفعل أذعن «جوميز» لذلك التهديد، واعتذر وتنصل، وتاب؛ فقبلوا عذره وغفروا له زلته، وانضم إلى تحالفهم ضد المسلمين، وأصبح تعداد جيشهم الصليبي أكثر من ستين ألفًا، ولمزيد من التأييد المعنوي لهذا الجيش الصليبي اصطحبوا معهم الصليب المقدس ـ الذي يزعمون أنه الذي صُلب عليه «عيسى» عليه السلام ـ وهذا أمر باطل يقينًا.

(ومرة أخرى يعطينا أعداء الإسلام درسًا جديدًا، ومثلاً من أمثلة كثيرة عبر التاريخ تكررت في حتمية الاتحاد، ولم الشمل، ونبذ الخلافات جانبًا حال التصدي للعدو؛ فهل فقِه المسلمون هذا الكلام؟).

• حرب الماء:

اجتمعت الجيوش الصليبية في «عكا»، ومنها صارت إلى «صفورية»، وعندما وصلت الأخبار إلى «صلاح الدين» عقد مجلسًا استشاريًا على مستوى قادة الجيش وأمرائه للتشاور في كيفية إدارة هذه المعركة المصيرية، واتفقوا في النهاية على حتمية الهجوم الشامل بكل الجيش على الصليبيين، مع تطبيق تكتيك قديم للسيطرة على مجريات القتال: هذا التكتيك هو حرب الماء، والذي يقوم على السيطرة على بحيرة «طبرية» التي تعتبر مصدر الماء العذب الوحيد للمعسكر الصليبي في «صفورية»، وكان الهدف من وراء هذا التكتيك إخراج الصليبيين من مكانهم بـ«صفورية» ليتمكن المسلمون من قتالهم عند سهل «حطين»؛ ذلك لأن «صفورية» ضيقة لا تصلح كميدان قتال، خاصة بالنسبة للمسلمين الذين يتميزون بالقتال في المناطق المفتوحة لخبرتهم الطويلة والشهيرة في حرب الصاعقة بالكر والفر.

وبالفعل هجم المسلمون على مدينة «طبرية» التي لم تكن بها مقاومة كبيرة؛ لانضمام الصليبيين بها للتحالف الصليبي بـ«صفورية»، واحتلوها في ٢٣من ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ، وقاموا بإحراق مخازن العتاد والمؤن في المدينة؛ حتى لا ينتفع بها الصليبيون بعدها، وأحكموا قبضتهم على البحيرة، ومنعوا اقتراب الصليبيين منها، وكانوا قد نفد ما عندهم من مياه الصهاريج، واستبد بهم العطش، خاصة أن الجو كان شديد الحرارة بفعل قيظ الصيف اللافح، وكانت «طبرية» ملكًا لزوجة الأمير «جوميز» أمير «طرابلس» المصطلح حديثًا مع باقي الصليبيين؛ فوقع منه استيلاء المسلمين على «طبرية» أسوأ موقع، وحاول إثناء عزم التحالف الصليبي عن مواصلة القتال مع المسلمين، وخوفهم من عواقب هذه المعركة بعد أن استبان قوة وعزم «الناصر صلاح الدين» هذه المرة على قتال الصليبيين، والحماسة الشديدة عند جنود المسلمين، ولكن شيطان الصليبيين

«أرنولد» وقف لهذه المحاولات بالمرصاد، وقال لـ«جوميز»: «قد أطلت علينا في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم، وتميل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا، وأما قولك: إنهم كثيرون؛ فإن النار لا يضرها كثرة الحطب»؛ فقال «جوميز»: «أنا واحد منكم: إن تقدمتم تقدمت، وإن تأخرتم تأخرت، ولكنسوف ترون ما يكون؛ فعندها قَوِيَ عزم الصليبيين على قتال المسلمين، وخرجوا جميعًا من معسكرهم بـ«صفورية»، وهذا عين ما قصده «صلاح الدين».

• معركة حطين:

برز «الناصر صلاح الدين» هو وجنوده يوم الجمعة ٢٤ من ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ، وصف جيشه استعداداً للقاء الدامي في صبيحة يوم السبت، وقد جهز «الجاليشية» - رماة السهام - تجهيزاً خاصًا؛ إذ كان سيعتمد عليهم بصورة كبيرة في القتال؛ وذلك لفارق العدد بين الجيشين، وفي يوم السبت ٢٥ من ربيع الثاني ٥٨٣هـ برز الجيشان، وقد طلعت الشمس في وجوه الصليبيين، واشتد عليهم الحر، وأطلق سلاح «الجاليشية» سهامهم كالجراد المنتشر من كثافتها، وانقضت كرجوم السماء الغاضبة على شياطين الإنس؛ فقُتل كثير من خيل الصليبيين، وتحول معظم فرسانهم للقتال على الأرض، وكان أول وقود المعركة شاب صغير من أبطال المسلمين مرق كالسهم بين صفوف الصليبيين يضرب يمينًا وشمالاً، وهو يقاتلهم قتالاً عجيبًا لا يتناسب مع صغر سنه، وكثافة من يقاتل، واستمر هكذا حتى تكاثر عليه الصليبيون وقتلوه شهيداً، وعندها اندلعت شرارة الحمية الإسلامية، وصاحوا جميعًا بأعلى صوت اللّه أكبر، وهاجموا كالأسود الضواري على صفوف الصليبيين، وكسروهم كسرة فظيعة.

كان وقت القتال في أوج حرارة الصيف وشمسه المحرقة، وكانت أرض المعركة مليئة بالحشائش الجافة؛ فأمر «الناصر صلاح الدين» بإلقاء النار على

هذه الحشائش ؛ فاشتعلت بصورة سريعة وكبيرة جداً ؛ فاجتمع على أعداء الإسلام من الصليبيين : حر الشمس، وحر النار، وحر السلاح، وحر العطش الشديد لفقد الماء، إضافة لحر جهنم إن شاء اللَّه يوم القيامة، ولما رأى الأمير «جوميز» هذا الأثر أيقن بالهزيمة التي سبق وأن تنبأ بها ؛ ففارق أرض القتال ؛ وقد سمح له «صلاح الدين» بالفرار لأن مثله إذا حوصر يقاتل باستماتة، ولا يموت حتى يقتل من المسلمين، وفي فراره هزيمة نفسية ، وانهيار مروع لمعنويات الجيش الصليبي وهذا ما تم بالفعل.

(وهذا يدل على مدى فقه «الناصر صلاح الدين» وخبرته العسكرية والنفسية الكبيرة، وإلا لا يقدم على هذا العمل إلا أعقل الناس وأفقههم).

لما فر الأمير «جوميز» من أرض المعركة أُسقط في أيدي الصليبيين، وكادوا أن يستسلموا، ثم تزامروا فيما بينهم، وعلموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ؛ فحملوا على المسلمين عدة حملات متكررة بقوة وحنق، وكادت أن تزيل المسلمين عن مواقعهم لولا لطف اللَّه عز وجل بالمسلمين، وكان «الناصر صلاح الدين» على فرسه يحرض المسلمين على القتال والثبات، ولم يستطع الصليبيون نصب خيامهم إلا خيمة ملكهم الكبير «جودفري»، وظل الصليبيون يقاتلون بمنتهى القوة إلا أنه كان للمسلمين اليد الطولى في القتال، وظلوا هكذا حتى استطاع المسلمون الاستيلاء على صليبهم الأعظم «صليب الصلبوت» ؛ فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك، وانحاز مائة وخمسون فارساً من الفرسان الكبار للدفاع عن مَلِك «بيت المقدس» «جودفري» ؛ والذي كان وقتها في خيمته على رأس تل بسهل «حطين».

كان العطش من أقوى الأسلحة التي تفتك بالصليبيين ؛ إذ بقوا ليومين بلا ماء للشرب، وحملات المسلمين مستمرة عليهم، مما دفعهم للتخلي عن خيمة «جودفري» التي وقعت بيد المسلمين الذين أخذوا كل من فيها أسرى، وكان

فيهم «جودفري»، و«أرنولد» ، ورئيس فرسان المعبد الداوية، ودارت خيول المسلمين على الصليبيين، وأحاطوا بهم كالسوار على المعصم، والدائرة بقطرها حتى قتل منهم ثلاثون ألفًا، وأسر منهم ثلاثون ألفًا، ولم يفلت منهم أحدٌ، وكان من رأى القتلى قال: لم يأسروا أحدًا، ومن رأى الأسرى قال لم يقتلوا أحدا، حتى إن الجندي المسلم كان يقود بمفرده بضعة وثلاثين أسيراً، وكان المسلم يبيع أسيره الصليبي بنعل يشتريه ليلبسه، وأصلح آخر نعله بأسير، وجرت أحوال مباركة لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين.

(وها هو ما نعنيه بالضبط من هذا الكلام؛ فالحقيقة المهمة التي نريد أن نستخرجها من هذا الموقف: أن أمة الإسلام إذا ما أفاقت من غفلتها، وقامت من كبوتها، ورفعت راية الجهاد من جديد، ونصرت دين اللَّه، وسنة رسوله؛ فإن اللَّه عز وجل يعيد لها ما سُلب منها، وما أُخذ من كرامتها وأرضها وعزها، وهذا ما حدث مع المسلمين بـ«الشام» وقتها؛ فإن الصليبيين لما دخلوا «الشام» كان المسلمون متفرقين ومختلفين: الدنيا همهم، والمال هدفهم، الدين أضاعوه، والمصحف نحّوه، والحق تركوه؛ فسلط اللَّه عز وجل عليهم عدوهم، ولما أفاقوا ونهضوا، وعادوا للحق، واتبعوا الشرع، واتحد الصف أعاد اللَّه لهم كل ما كان لهم وزيادة، ونصرهم على عدوهم، ورفع شأنهم، أقبلت أيام سعدهم التي غابت الآن عنا).

• نهاية عدو الله:

لما تمت الواقعة، ونزل النصر على المسلمين جلس «الناصر صلاح الدين» على سريره، وأمر بضرب أعناق فرسان المعبد المعروفين بـ«الداوية»، وكانوا من أشد الناس عداوة للمسلمين، وأنكاهم في الحرب والقتال، ثم استدار «الناصر» إلى عدو اللَّه «أرنولد» الكلب الصليبي، أخبث الأعداء، وقام إليه للوفاء بنذره أن يقتله بيده، وتحول من خيمته تلك لأخرى، وأحضر «أرنولد»،

وقبل أن يقتله دعاه للإسلام؛ فأبى الخبيث وامتنع، وأصر على كفره وإن أزهقت روحه؛ فقام إليه «الناصر صلاح الدين»، وقال له: نعم أنا أنوب عن رسول اللَّه ﷺ في الانتصار لأمته، ثم قتله، وأرسل برأسه لباقي ملوك الصليبيين في الخيمة الأولى؛ فارتعدت فرائصهم، وأيقنوا الهلاك، ولكن الناصر عرّفهم أن «أرنولد» قد سب رسول اللَّه ﷺ، وهذا جزاؤه.

(فمن ينوب الآن في الانتصار لرسول اللَّه ﷺ الذي يتعرض الآن لحملات كبيرة وواسعة من السب والتشهير والاستهزاء والرسوم الساخرة، كل ذلك والمسلمون لا يحركون ساكنًا، ولا ترتجف نفوسهم، ولا تتحرك قلوبهم حمية ونصرة لرسول اللَّه ﷺ؛ فأنى إذًا ننتصر أو ننتظر الشفاعة؟!).

كان هذا الفتح العظيم إشارة وتقدمة للفتح العظيم والأكبر؛ يوم عودة «بيت المقدس» للمسلمين بعد ذلك بعدة شهور؛ تتويجًا لرحلة «الناصر صلاح الدين» الجهادية المباركة.

الكامل في التاريخ	سيرة صلاح الدين	البداية والنهاية
النجوم الزاهرة	البرق الشامي	الروضتين في تاريخ الدولتين
المنتظم	موسوعة التاريخ الإسلامي	محاضرات الخضري
الطريق إلى بيت المقدس	أيعيد التاريخ نفسه؟	التاريخ الإسلامي

تحرير بيت المقدس ـ استعادة الكرامة

الزمان / ٢٧ رجب ـ ٥٨٣ هـ

المكان / «بيت المقدس» ـ «الشام»

الموضوع / المسلمون بقيادة «صلاح الدين الأيوبي» يحررون «بيت المقدس» بعد إحدىٰ وتسعين سنة من الأسر الصليبي .

الأحداث

• مقدمة:

أعظم الأمراض التي يمكن أن تصيب القلوب، وتحطم النفوس، وتغتال الأحلام، وتقتل الآمال، وتفتك بالرجاء: مرض اليأس، ذلك الذي تغلغل ـ وللأسف الشديد ـ في قلوب كثير من المسلمين؛ فإن اليأس إذا دخل قلبًا وتمكن منه يحول صاحبه إلى حطام إنسان، وخيال مآته، فمع اليأس يتحول المسلم إلى جثة هامدة: لا يتحرك، ولا يتكلم، ولا يعمل، ولا يأمر بمعروف، ولا ينهى عن منكر، ولا يحاول تغيير حاله أو واقعه، ولا يحلم أو حتى يفكر في الحلم، مع اليأس يرتدي المسلم نظارة سوداء يرى بها كل الأشياء سوداء، حتى نور الصبح عنده أسود؛ لذلك فإن اللَّه عز وجل نهى عن اليأس، وحذر منه، ووصف أهله بأشد الأوصاف؛ فقال تعالى: ﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ انَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

اليأس الآن هو الذي يصور للمسلمين أن عدوهم لا يُقهر، ولا يمكن الانتصار عليه، اليأس الآن هو الذي يحجم ويعطل كل محاولات الانبعاث والانطلاق

لاستعادة الكرامة المفقودة، والمجد المسلوب، اليأس الآن هو الصخرة والعقبة الكأداء التي تقف في طريق النجاح، وتتحطم عليها كل المجهودات المخلصة لنصرة الدين، وبالجملة :فإن اليأس داء قاتل للناس عامة، والمسلمين خاصة، والحق أن المسلمين يفترض أن يكونوا أبعد الناس عن اليأس؛ لأن دينهم يعصمهم من ذلك، ولكنهم لما تخلوا عنه، وجعلوه وراء ظهورهم، ونبذوا دستورهم الرباني: (القرآن) وقعوا في هذا الداء العضال، ولعل أهم أسباب وقوع المسلمين في داء اليأس جهلهم الكبير بتاريخهم، وما جرى لأجدادهم من مواقف تتناسب ـ لحد التطابق أحيانًا ـ مع واقعهم الأليم، وكيف تعامل الأجداد مع هذه المواقف؟ وكيف انتصرت الأمة من قبل؟ وعندها سيتضح لها طريق الانتصار، وأنه مهما طال الظلم والظلام، واشتد سواد الليل؛ فإن الفجر الباسم قادم من جوف الليل الجاثم.

• طموحات وعقبات:

كان للحادث الجلل، والمصاب الأفظع الذي نزل بالأمة في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ: عندما احتل الصليبيون «بيت المقدس»، وقتلوا في ساحة «الأقصى» سبعين ألفًا من أهل المدينة، ـ حتى إن الدماء وصلت إلى صدور الخيل ـ كان لهذا الحدث وقع هائل على الشعوب الإسلامية أجمعين، ولكن لم يكن له نفس الوقع عند الحكام والأمراء والملوك الذين انشغلوا بصراعاتهم الداخلية، وبالاقتتال على الملك، وجمع الأموال من حلها وحرامها، لذلك لم تكن هناك ردود أفعال تجاه الوجود الصليبي بـ«الأقصى» على مستوى القيادات، وإنما على مستوى بعض الغيورين من الولاة والأمراء: نذكر منهم الأمير «مودود» أمير «الموصل» ت ٥٠٧ هـ، والأمير «آقسنقر البرسقي»، ولكن كل هذه المجهودات بقيت محدودة، والاستجابة العامة ضعيفة، حتى قيض اللَّه عز وجل لهذه الأمة الأسرة المجاهدة آل «زنكي»: وهم «عماد الدين زنكي»، وولداه: «نور الدين محمود»، و«سيف الدين غازي»، والأسرة المجاهدة الأخرى آل

أيوب»: «نجم الدين أيوب»، وأخاه «أسد الدين شيركوه»، والابن الصالح «صلاح الدين الأيوبي».

بدأت الراية الجهادية على يد «عماد الدين زنكي» الذي ظل يجاهد حتى استشهد سنة ٥٤١ هـ، وحمل الراية من بعده ولده: «نور الدين محمود» - الملقب بـ«الشهيد» - وعلى يديه عادت كثير من البلدان المسلمة إلى حوزة الإسلام، بعد أن ظلت فترة طويلة تحت نير الصليب، ولكنه مات قبل أن يتحقق هدفه الأسمى: وهو تحرير «بيت المقدس»، وذلك سنة ٥٦٩ هـ، ويأتي الدور على «صلاح الدين الأيوبي» هذا التلميذ النجيب الذي تتلمذ على يد أستاذ الجهاد ومجدده «نور الدين محمود»، قام «صلاح الدين الأيوبي» بحمل راية الجهاد، ومواصلة البناء، وتكملة السعي الذي بدأه من كان قبله، وكان الطموح عظيمًا، والهدف عاليًا، والجائزة الجنة، ولكن «صلاح الدين الأيوبي» اصطدم في طريقه بعدة عقبات كان لابد من التعامل معها وإزالتها؛ لتمهيد الطريق إلى الفتح الكبير.

• عقبة الدولة الفاطمية:

دولة رافضية خبيثة: تظهر الإسلام، وتبطن الكفر والزندقة والإلحاد، وكان وجودها بمصر من أهم أسباب ضياع المقدسات: إذ كيف ينتصر الملاحدةوالزنا دقة؛ فهم أكفر من اليهود والنصارى، بل إن هذه الدولة الشريرة تتحمل تبعة قدوم الصليبين لبلاد «الشام»: إذ ثبت تاريخيًا أن الفاطميين قد كاتبوا الصليبيين ليقدموا إلى بلاد «الشام»؛ ليكونوا حاجزًا بينهم وبين الدولة السلجوقية السنية القوية، والتي حاولت إزالة الدولة الفاطمية، وكانت قاب قوسين أو أدنى من ذلك.

وقد استطاع «صلاح الدين الأيوبي» إسقاط هذه الدولة النجسة إلى غير رجعة في عهد «نور الدين محمود»، بعد أن خلع آخر خلفاء الفاطميين

«العاضد»، وتم تحويل الديار المصرية للمذهب السني، ووقف «صلاح الدين» بالمرصاد أمام المحاولات المتعددة التي بذلها بعض الفاطميين بمصر لإعادة الدولة النتنة مرة أخرىٰ، وأصبحت مصر بعدها جبهة هجومية، ونقطة انطلاق وتجميع للقوىٰ الإسلامية، بعد أن كانت مصدر كل الشرور علىٰ الأمة المسلمة.

• عقبة تفرق الصف المسلم:

وهي أشد العقبات التي واجهت «صلاح الدين الأيوبي»؛ ذلك أن الأمر بـ«الشام» قد اضطرب جداً بعد وفاة «نور الدين محمود»، وظهرت الأطماع الشخصية، والشرور والآثام، وشجع ذلك الصليبيون في سرعة الهجوم علىٰ «دمشق»، وضعف المسلمون عن صدهم؛ فدفعوا لهم أموالا طائلة ليرجعوا عنهم، وكان «صلاح الدين» وقتها حاكماً للديار المصرية، وكان أمراء «دمشق» و«حلب» و«حمص» و«حماة» ليسوا علىٰ مستوىٰ المسئولية، ولا يقدرون خطورة موقف المسلمين بـ«الشام»؛ فكل ما يهمهم الاحتفاظ بملكهم - مهما كان الثمن - حتىٰ ولو كان الثمن كرامتهم وأرضهم وقدسهم؛ فالمهم ملكهم فقط؛ لذلك فلا عجب أن يقف هؤلاء عقبة كئود أمام محاولات توحيد الصف المسلم أمام أعداء الإسلام الصليبيين، ولا عجب أن نجدهم يؤثرون دفع الجزية للصليبيين علىٰ أن يكونوا تحت راية يقودها «صلاح الدين الأيوبي».

وقد استطاع «صلاح الدين الأيوبي» أن يوحد الجبهة الشامية تحت راية واحدة بعد مجهودات استمرت من سنة ٥٧٠ هـ حتىٰ سنة ٥٧٨ هـ؛ وذلك باستخدام الترغيب والترهيب، والحصار والقتال، حتىٰ إنه تعرض عدة مرات لخطر الاغتيال، كما حاول أهل «حلب» ذلك سنة ٥٧٦ هـ، ولكن اللّٰه عز وجل نجاه من هذا الكيد الذي جاء علىٰ يد فرقة الحشاشين الباطنية.

(هكذا يكون فناء الأمم: عندما يتفرق الصف، وتختلف الكلمة، وتستحل الحرمة،

عندما يرفع السوط، ويوضع السيف، وتحمل الأمة سلاحها على نفسها؛ فهل عند ذلك تنتصر؟! وصدق الحق عندما قال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]).

• عقبة البؤر الصليبية:

بعد ما تم لـ«صلاح الدين» ما أراد من توحيد الجبهة الداخلية، والقضاء على الفتن المثارة على يد الشيعة الروافض بـ«الشام» ومصر، وجد أمامه عقبة أخرى لا تقل خطورة عن سابقتيها: وهي عقبة وجود بؤر صليبية منتشرة في «الشام» تحول بين «صلاح الدين» وهدفه: «الأقصى»، وكانت هذه البؤر المشتعلة عبارة عن قرى وحصون وموانئ وتجميعات، وكان لابد من التعامل معها بصورة قوية وقاطعة لتطهير الطريق من أحجاره، وكان «صلاح الدين» وقتها قد اطمأن على سلامة الجبهة الداخلية: «مصر و الشام»، وارتفاع الوعي والحس الإسلامي لدى الجميع، وتنامي الشعور بالمسئولية عند جند الإسلام، وعندها أطلق «صلاح الدين» صيحته الجهادية منذ سنة ٥٨٠ هـ؛ فجاءته الجنود من كل حدب وصوب: من «الشام»، و«مصر»، و«الحجاز»، و«اليمن»، وكل من أراد نصرة دين اللَّه، واستعادة المقدسات، وكان الهدف القضاء على هذه البؤر المشتعلة؛ ففتح كلا من «عكا»، و«يافا»، و«طبرية» و«صيدا»، و«بيروت»، و«عسقلان»، و«اللاذقية» وحصون «كوكب»، و«الشغر»، و«بكاس»، و«درب ساك»، و«بغراس»، و«صفد»، و«شقيف»، و«صهيون»، و«بيت الأحزان»، وغيرها كثير حتى تم له القضاء على هذه البؤر الصليبية، وأصبح الطريق بعدها مفتوحًا إلى «بيت المقدس».

• أول إشارات النصر:

إذا صلحت النية، وخلص القصد، وصح الهدف، وجد السعي تظهر الإشارات على صحة الطريق تباعًا وتتري، وقد بانت أول إشارات النصر، وعلامات الرضا من المولى جل وعلا عن عباده المجاهدين عندما انتصر

المسلمون على الصليبيين في موقعة «حطين» الهائلة، وماوقع فيها من الآيات الباهرات: من أسر ملوك وأمراء الصليبيين، واستلاب صليبهم المقدس، وانتقام «صلاح الدين» من أمير «الكرك» الكافر «أرناط»، أو «أرنولد» بأن قتله بيديه وفاءً بنذره الذي قطعه على نفسه يوم أن علم أن الكلب «أرناط» قد اعتدى على الحجيج المسلم، واستهزأ بالنبي ﷺ، فكانت هذه الموقعة أكبر حافز للمسلمين ليواصلوا كفاحهم وجهادهم لتحرير «بيت المقدس».

كان «بيت المقدس» وقتها قد أصبح ملجأ كل صليبي منهزم في المعارك السابقة، خاصة فرسان المعبد الصليبي - وهم أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين - وكان بالمدينة البطريرك الأكبر عندهم؛ فاجتمعت بالمدينة أعداد ضخمة بلغت الستين ألفًا، وانضم إليهم أهل «عسقلان»، واستوثق الجميع على القتال حتى الموت، والدفاع عن المدينة المقدسة، وكلهم يرى أن الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون «بيت المقدس».

(إن المرء ليعجب من هذا الحرص العجيب، والصبر البليغ في الدفاع عن العقيدة والدين من جانب هؤلاء الصليبيين، وهم كفار مشركون بالله عز وجل، وعلى الباطل والضلال، وتزداد حسرته ولوعته من تخاذل المسلمين الآن عن الوقوف مثل هذا الموقف البطولي في الدفاع عن الدين والعقيدة؛ فهل ياترى يكون الكافرون من أحفاد القردة والخنازير أشد تمسكًا ودفاعًا عن دينهم الباطل منا معاشر المسلمين؟!).

• الفتح العظيم:

أصبح الطريق مفتوحًا أمام الجيوش الإسلامية لتحقيق الهدف الأسمى بعد توحيد الصف، والقضاء على البؤر المشتعلة، وقطع خطوط الإمدادات عن المدينة، وبالفعل نزلت الجيوش الإسلامية يقودهم «صلاح الدين الأيوبي» على «بيت المقدس» في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ، وكانت المدينة شديدة

التحصين، وقد استدل «صلاح الدين» على كثرة من فيها بالضجيج والجلبة الصادرة من داخلها، وقام «صلاح الدين» بالدوران حول المدينة حتى يستطيع أن يحدد أي الأماكن التي سيركز عليها الهجوم، وبالفعل حدد نقطة الهجوم الذي تم في ٢٠ رجب سنة ٥٨٣ هـ.

نصب المسلمون آلات الحصار والمجانيق على أسوار المدينة، واندلع القتال بضراوة شديدة، وقاتل الصليبيون دون البلد قتالاً هائلاً، وبذلوا أرواحهم ودمائهم دون ذلك في نصرة دينهم وصليبهم! وأثناء القتال استشهد الأمير الكبير «عز الدين عيسى»: وهو من أكابر الأمراء، وكان محبوبًا للعام والخاص؛ فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك؛ فحملوا حملة رجل واحد على سور المدينة، وحميت نفوسهم، وقويت عزائمهم، واشتدوا في القتال حتى أزالوا الصليبيين عن مواقعهم، وتعلقوا بسور المدينة، ونقبوا سورها، والمجانيق توالي الرمي على الأسوار، ووقع جزء من السور، وظهر ما كان مستترًا داخل المدينة؛ حيث رأى المسلمون الصلبان معلقة في كل مكان: على الأبواب، والدور، والمساجد، وكان هناك صليب كبير معلق فوق قبة الصخرة؛ فاشتعلت قلوب المسلمين، وازدادوا حنقًا وغضبًا للَّه عز وجل، وشدوا كالأسود من أجل نصرة الرب المعبود، وأسقطوا عدة أبراج للمدينة، وقتلوا من فيها من الصليبيين.

لما رأى الصليبيون شدة قتال المسلمين، وعزمهم الأكيد على فتح البلد خرج ملك المدينة الصليبي - واسمه «باليان» - وطلب الصلح من «الناصر صلاح الدين»، وتسليم البلد، وذل بين يدي «صلاح الدين» ذلة شديدة، ورجاه واستعطفه ليوافق على الصلح، ولكن «الناصر صلاح الدين» رد عليه بحسم قائلاً: لا أفتحها إلا عنوة؛ كما افتتحتموها أنتم عنوة، ولا أترك فيها أحدًا من النصارى إلا قتلته، كما قتلتم أنتم من كان فيها من المسلمين»، وعندها شعر

«باليان» باليأس، وقنط من موافقة «الناصر»؛ فقال: «إن لم تعطنا الأمان رجعنا فقتلنا كل نسائنا وأطفالنا، وقتلنا أسارىٰ المسلمين - وكانوا أربعة الآف أسير - ثم نحرق كل الدور والمساجد والأماكن الحسنة، ونهدم قبة الصخرة والمسجد «الأقصىٰ»، ثم نخرج لكم بسيوفنا: نقاتل قتال من لا يرجو حياة، حتىٰ نموت أعزاء، ولا نموت حتىٰ نقتل منكم أعدادنا»، ولما رأىٰ الناصر العزم الأكيد، واليأس القاتل في كلام «باليان» وافق علىٰ الصلح، علىٰ أن يدفع كل واحد منهم فدية الرجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والصغير اثنين.

(وهذا من فقه «صلاح الدين»، وتقديره للمصالح والمفاسد؛ فلم يصمم على القتال؛ لأن الخسائر ستكون أضعاف الأرباح).

• مشاهد مضيئة:

سمح «صلاح الدين» للفقراء بالخروج من المدينة دون فدية، وقضىٰ يومًا كاملاً من بزوغ الشمس حتىٰ غروبها وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء ليخرجوا من غير فدية.

يروي أحد المؤرخين الإنجليز «مل»: ذهب عدد من النصارىٰ الذين غادروا «القدس» إلىٰ منطقة «أنطاكيا» - وهي نصرانية - فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبىٰ عليهم أن يضيفهم؛ فطردهم؛ فساروا علىٰ وجودهم في بلاد المسلمين؛ فقوبلوا بكل ترحاب.

قيل للسلطان «صلاح الدين» والبطريرك خارج بأمواله وذخائره، وكانت كثيرة جدًا، لم يصرفها علىٰ فداء الفقراء والمساكين من النصارىٰ، فقيل للسلطان: لم لا تصادر هذا فيما يحمل، وتستعمله فيما تقوي به أمر المسلمين؟ فقال: «لا آخذ منه غير العشرة دنانير، ولا أغدر به»، ويعلق مؤرخ آخر وهو «ستانلي لي بول» علىٰ هذه الحادثة بقوله: قد وصل الأمر إلىٰ أن سلطانًا مسلمًا

يلقي على راهب مسيحي - لا ضمير له - درسًا في معنى البر والإحسان. ونحن لا نملك إلا أن نعلق على هذا المشاهد المضيئة بقول الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

دخل المسلمون المدينة في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ، وكان يوم جمعة؛ فوجدوا أن الصليبيين قد غيروا ملامح المدينة، وخاصة المسجد «الأقصى»: الذي ملأه الصليبيون صلبانًا ورهبانًا وخنازير، وجعلوه إسطبلاً لخيولهم، ووجدوا أن قبلة المسجد ومحرابه قد جُعلا خلاءً - فعلى من فعل منهم لعنة اللَّه في الدنيا والآخرة - ووضعوا أعلى قبة الصخرة صليبًا كبيرًا من الذهب، فتسلق بعض المسلمين الصخرة وقلع هذا الصليب وألقاه أرضًا، وعندها صاح الناس كلهم صوتًا واحدًا من داخل المدينة وخارجها: المسلمون كبروا فرحًا وحمدًا وشكرًا للَّه عز وجل، والصليبيون صاحوا توجعًا وألمًا على معبودهم الباطل؛ فكانت هذه الصيحة أعظم صيحة سمعت على وجه الأرض وقتها.

• أول جمعة بالبيت:

تم تنظيف المدينة، وطهرت من أنجاس عباد الصليب، وغسلت الصخرة بماء الورد، وطهر المسجد «الأقصى»، وعاد له بهاؤه ورونقه، وأقيمت أول جمعة بـ«الأقصى» في ٤ شعبان ٥٨٣ هـ، وأحضر المنبر الذي صنعه القائد الكبير «نور الدين محمود» ليوضع في المسجد «الأقصى» بعد فتحه؛ فكان ما بين صنعه وفتح «بيت المقدس» عشرون سنة، وهذا من علامات رضا اللَّه عز وجل عن «نور الدين محمود»، وقام الخطيب «محيي الدين بن الذكي»

فخطب خطبة بليغة عظيمة: بدأها كلها بتحميدات القرآن، وقد ذكر هذه الخطبة بطولها «أبو شامة» في «تاريخ الروضتين». ولنا أن نتخيل منظر الناس يوم أن رفع المؤذن الأذان لأول مرة في المسجد «الأقصى» بعد واحد وتسعين سنة من الأسر: فالعيون تبكي، والقلوب ترتجف، والألسنة تلهج بحمد اللَّه وشكره، والجميع خاشع للَّه عز وجل فرحًا بهذا الفتح العظيم.

• خاتمة لا بد منها:

من هذا الفتح العظيم لابد أن نخرج بحقيقة مهمة: وهي أن المسلمين وقتها - رغم ضعفهم، وتفرقهم، وسطوة عدوهم - لم يدخل اليأس إلى قلوبهم - رغم طول فترة الأسر الصليبي للقدس - فلم يعترف أي أمير أو ملك مسلم بالوجود الصليبي على أرض القدس، ولم يسلِّموا لهم بذلك، ولم يقل أحد منهم أن للصليبيين حقًا به؛ لطول احتلالهم له، ولم يضع أي أمير أو حاكم مسلم يده في يد الصليبيين في معاهدة تقسم القدس بينهم وبين العدو والمحتل، بل ظلوا طول الواحد والتسعين سنة يجهزون ويحضرون للفتح، ويقاتلون ويكافحون من أجل هذا الفتح العظيم، ونحن نقول هذا الكلام خصيصًا لمن يأس من طرد الصهاينة من نفس البقعة الطاهرة، وظن أن فترة الثلاث والخمسين سنة قد أعطتهم صك ملكية لتلك القطعة الغالية من قلب أمتنا؛ فلا يأس مع الإيمان، ولا قنوط من نصر اللَّه عز وجل.

أيعيد التاريخ نفسه؟	البرق الشامي	الكامل في التاريخ
البداية والنهاية	تاريخ دمشق	الروضتين في أخبار الدولتين
المنتظم	سيرة صلاح الدين لابن شداد	التاريخ الإسلامي
الطريق إلى بيت المقدس	النجوم الزاهرة	

معركة الأرك . الأندلسية

الزمان / الأربعاء ـ ٩ شعبان ـ ٥٩١ هـ.

المكان / حصن «الأرك» ـ شمال «قرطبة» ـ «الأندلس» المفقود.

الموضوع / المسلمون بقيادة «يعقوب المنصور» ينتصرون على صليبيي «الأندلس» في معركة هائلة.

الأحداث

• مقدمة:

في تاريخ أمتنا الإسلامية مواقف وأيام حقٌ لها أن تكتب بماء الذهب، وحروف النور على صفحات الذاكرة، لاعلى صفحات الكتب والمراجع؛ لأنها خير شاهد على عظمة هذا الدين ومكانة جنده، والعجب كل العجب أن هذه الأيام والوقعات لا يعرفها معظم المسلمين، حتى من انتسب للدعوة منهم ـ إلا من رحمه اللَّه عز وجل ـ رغم أنها من دواعي الفخر والعزة والكرامة أن نحفظ هذه الأيام، ونحفظها لأبنائنا وأحفادنا، وليعلموا أنه كانت لأمتهم أيام ودول، وصولات وجولات، حتى تكاثر علينا أعداء الإسلام، وبأيدينا أعطيناهم زمامنا، ورفعنا سيفنا على أنفسنا، لذا فيجب علينا وسط ظلمات الحاضر الأليم أن نضيء شمعة من تاريخ أمتنا؛ حتى يأنس بها المستوحشون من ظلمة الواقع، ويلتف حولها اليائسون من نصرة اللَّه، ولعلها تتحول يومًا إلى شمس مشرقة لنا ومحرقة لعدونا.

• الأندلس في القرن السادس الهجري:

كانت الأوضاع داخل «الأندلس» في القرن السادس الهجري في جملتها مستقرة رغم التغير الكبير الذي حدث في السلطة المسلمة الحاكمة في «الأندلس»؛ حيث كانت دولة المرابطين العظيمة هي التي تحكم «الأندلس» و«المغرب العربي» في أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس الهجري، ولكن سرعان ما ظهرت قوة جديدة أخذت في النمو تدريجيًا حتى أحاطت بالدولة المرابطية، هذه القوة هي دولة الموحدين، التي قامت على يد رجل ادعى المهدية اسمه «محمد بن تومرت»، ولكن المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، وباني مجدها هو خليفة «ابن تومرت» واسمه «عبد المؤمن بن علي»، والذي كان في بدايته يعمل في صناعة الفخار، واستطاع بعلو همته، وعزيمته الحديدية أن يكون رأس دولة الموحدين، التي ورثت دولة المرابطين، وحكمت «المغرب العربي» كله: من «تونس» وحتى «ساحل الأطلنطي»، وأيضًا حكمت «الأندلس» الإسلامية، وكان أول من حكم «الأندلس» من الموحدين هو «عبدالمؤمن بن علي» وذلك حتى سنة ٥٥٨هـ، ثم تولى من بعده ولده «يوسف بن عبد المؤمن» الذي ظل يحكم حتى استشهد في معركة «شنترين» سنة ٥٨٠هـ، وتولى بعده ولده «يعقوب بن يوسف»، وكان رجل الساعة؛ فقد كان «يعقوب» هذا ـ الملقب بـ«المنصور» ـ متصفًا بالورع والعدل والحزم، مع التبحر في العلوم الشرعية والعقلية، مع شدة في تحري الحق، ومطاردة الظلم والبغي، وكان يعاقب الولاة الظالمين بأشد العقوبات إذا ثبتت في حقهم الجنايات، هذا غير قدرته القيادية والسياسية الكبيرة، وعمله الدؤوب في رعاية شؤون الدولة العظيمة، مما جعل عهده أزهى عهود الدولة الموحدية، وكذلك عهد الانتصارات المتتابعة «للأندلس» على «إسبانيا» الصليبية.

أما الأوضاع في «إسبانيا النصرانية» في هذا القرن فقد كانت هناك ثلاث ممالك صليبية كبيرة تسيطر على «إسبانيا» النصرانية، وهذه الممالك هي: مملكة «قشتالة» وهي أكبرهم، وملكها هو «ألفونسو الثامن»، ومملكة «ليون»، ومملكة «ناقارا»، وكلاهما أصغر حجمًا وشأنًا من «قشتالة»، التي ظلت طوال حلقات الصراع الطويل بين المسلمين والصليبيين بـ«الأندلس» رأس الحربة الصليبية ضد المسلمين.

• الاضطرابات الإفريقية:

لم يكن سقوط دولة المرابطين بالشيء اليسير والهين على قلوب الكثيرين من أولياء وأتباع هذه الدولة العظيمة، صاحبة الفضل الكبير في نشر الإسلام بغرب ووسط القارة الإفريقية؛ لذلك بقيت فلول من أتباع تلك الدولة العريقة تحارب وتناوئ دولة الموحدين، وعلى رأس هؤلاء «بنو غانية»؛ وهم ولاة الشرق الأندلسي أيام استطاعوا الاستقلال بحكم «جزائر الأندلس الشرقية» - «ميورقة» وغيرها - ولم يستطع أحد من خلفاء الدولة الموحدية التغلب عليهم، حتى ظهر نجم الدولة الموحدية «يعقوب المنصور»، الذي لم يدخر وسعًا في حرب «بني غانية»، واستمر على ذلك عدة سنوات حتى أجلاهم عن «جزائر الأندلس الشرقية»، ولكنهم انتقلوا إلى شمال إفريقيا، وبالتحديد «تونس» وأجزاء من «الجزائر»، وأحكموا سيطرتهم عليها، وأوقعوا بالموحدين هزيمة مروعة سنة ٥٨٣هـ، وأثاروا الكثير من الاضطرابات بإفريقيا، مما حدا بـ«يعقوب المنصور» أن يتفرغ لقتال «بني غانية»، ويقضي على ثورتهم مهما كلفه ذلك.

كانت هذه الاضطرابات الإفريقية، وانشغال «المنصور» بقمعها دافعًا للصليبيين بـ«الأندلس» للهجوم على الأراضي المسلمة، واحتلال المزيد من المدن والحصون لصالح «إسبانيا»، وبالفعل استطاع ملك «البرتغال»: «سانشو

الأول» أن يقوم بغارات مخربة على غرب «الأندلس» استولى فيها على مدينة «شلب» الكبيرة، ومدينة «باجة» و«يابرة»؛ وهذه الغارات شجعت «ألفونسو الثامن» ملك «قشتالة» على الهجوم من ناحيته على أجوار مملكة «إشبيلية»، واستولى على عدة حصون كبيرة، وقتل الكثير من المسلمين.

بعد أن انتهى «المنصور» من القضاء على الاضطرابات الإفريقية التفت إلى «الأندلس»، وقرر تأديب البرتغاليين في غرب «الأندلس»، وأعلن النفير العام في بلاد «المغرب» العربي، وجاءته جموع المتطوعين من كل مكان، وعبر «المنصور» إلى «الأندلس» سنة ٥٨٦هـ، وقاد المسلمين لحملات جهادية ناجحة: استرد خلالها المدن التي سبق وأن احتلها البرتغاليون، ودمر فيها القوة البرتغالية الناشئة، وقمع شرها، وأجَّل الانتقام من «ألفونسو الثامن» ملك «قشتالة»؛ ذلك لأن أخباراً مقلقة وردت مرة أخرى من إفريقيا تفيد أن «بني غانية» قد أعادوا ترتيب أوراقهم، واستأنفوا نشاطهم بهمة مضاعفة ـ وكان ذلك سنة ٥٩٠هـ ـ ووجد «المنصور» نفسه بين نارين: نار الاضطرابات الإفريقية على يد أولياء وأتباع الدولة المرابطية السابقة «بني غانية»، ونار العدوان الصليبي في شمال وغرب «الأندلس»، ولكنه قرر أن يتجه مرة أخرى إلى شمال إفريقيا للقضاء على الفتنة بها؛ لأن ضياع «المغرب» يعني ضياع الدولة كلها، ولكنه فوجئ بأمر لم يكن في الحسبان جعله يغير كل خططه ويتفرغ لـ«ألفونسو الثامن» ملك «قشتالة» الصليبي.

• الغطرسة الصليبية:

كان «ألفونسو الثامن» ملك «قشتالة» الصليبي يضطرم بنوازع صليبية كبيرة، مغلفة بغطرسة وتكبر شديد؛ فلما أحس بالقلاقل والاضطرابات التي تحدث هنا وهناك، وانشغال «المنصور» بالحرب على الجبهتين قرر انتهاز الفرصة

وأرسل «مارتن لوبث» مطران «طليطلة» في حملة تخريبية محضة إلى أراضي «الأندلس»، أفسدت فيها أشد الإفساد، ثم أتبع ذلك العدوان برسالة استفزازية تفيض بمشاعر العداء والكراهية والغطرسة والتحدي، قام بإنشائها وزير «ألفونسو» - وهو رجل يهودي حاقد اسمه «يوسف بن الفخار» - وهذا هو نص الرسالة كاملة؛ لنرى فيها العقلية الصليبية المحضة في التعامل مع المسلمين:

«أيها الأمير ...لا يخفى عليك أنك أمير الملة الحنيفية كما أنني أمير الملة النصرانية، وأنك لا يخفى عليك ما هو عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل، وإهمال الرعية، وأنا أسومهم الخسف، وأسبي الذراري، وأمثل بالكهول، وأقتل الشباب، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم، وقد أمكنتك يد القدرة، وأنتم تعتقدون أن الله قد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم، ونحن الآن نقاتل عدداً منكم بواحد منا، ولا تقدرون دفاعًا، ولا تستطيعون امتناعًا، ثم حُكي لي أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتمطل نفسك عامًا بعد عام، وتقدم رجلاً وتؤخر الأخرى، ولا أدري أالجبن أبطأ بك ؟أم التكذيب بما أُنزل عليك؟ ثم حُكي لي عنك أنك لا تجد سبيلاً إلى الحرب، ولعلك لا يسوغ لك التقحم فيها، فها أنا أقول لك ما فيه، وأعتذر عنك، ولا أن توفيني بالعهود والأيمان أن توجه ما عندك من المراكب والشواني لتحملني إليك بحملتي حتى أبارزك في أعز الأماكن عندك، فإن كان ذلك غنيمة عظيمة جاءت إليك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة الملتين، والتقدم على الفئتين».

ويتضح لنا من نص الرسالة مدى الروح الصليبية المسيطرة عليها، وأن الحرب بين المسلمين وعدوهم ليست حرب مكاسب ولا أراضٍ، وليست

حربًا اقتصادية، إنما هي حرب دينية محضة وخالصة، ولا هدف لها إلا إبادة المسلمين والتحكم في مصائرهم، وتملك أعناقهم، ومهما تغلفت حروبهم وتسمت بأسماء كثيرة زائفة؛ فهي في النهاية حرب دينية لا تنتهي إلى قيام الساعة.

لما وصلت الرسالة إلى «يعقوب المنصور» كتب على ظهرها سطرًا واحدًا جاء فيه قوله عز وجل: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]، وأعلن النفير العام في جميع أنحاء مملكته الواسعة في «المغرب» و«الأندلس»، وقرر هذه المرة أن تكون الحملة الجهادية أضخم الحملات الجهادية على أرض «الأندلس»، فاجتمع عنده عشرات الآلاف من المجاهدين فعبر بهم إلى جزيرة «طريف» في جمادى الآخرة سنة ٥٩١هـ، ومنها توجه إلى «إشبيلية» عاصمة الإسلام في «الأندلس»؛ فاجتمع عنده الجنود الأندلسيون يقودهم البطل الكبير «ابن صناديد».

كانت أنباء العبور الإسلامي والجيوش الجرارة إلى «الأندلس» قد هزت جنبات «الأندلس»، وجعلت «ألفونسو الثامن» يجتمع مع مجلس شورته للتأهب للحرب، واستدعى كل الأمراء والأشراف والأبطال، وبعث إلى زميليه ملكي «ليون»، و«ناقارا» يطلب منهما العون فوعداه بذلك، ولكن من شدة غروره وثقته بالنصر لم ينتظر قدومهما، وتحرك بقواته إلى قلعة «رباح» - وكانت مركزًا للتجمع والعدوان الصليبي على «الأندلس» لسنوات طويلة - وبجوارها أنشأ «ألفونسو الثامن» حصنًا جديدًا ليكون معسكرًا لجيوشه عند منطقة «الأرك» التي تعتبر النقطة الحدودية الفاصلة بين أراضي المسلمين والصليبيين بـ«الأندلس».

• على طريق النصر:

انطلقت الجيوش الإسلامية لتبادر الصليبيين بالهجوم حتى وصلت قريبًا من محلة الجيش الصليبي، وهناك نصبت معسكرها، وذلك في يوم ٣ شعبان سنة ٥٩١هـ، وما أن حط الجيش الإسلامي رحاله حتى ظهرت سرية من فرسان الصليبيين خرجت لتستطلع أخبار التحركات الإسلامية؛ فاشتبكت معها طائفة من الجند المسلمين وأبادوها في الحال، فكان ذلك بشارة أولية على الفتح القريب.

وفي ليلة الجمعة الرابع من شعبان ٥٩١هـ قام الخليفة «يعقوب المنصور» يصلي من الليل، ويدعو ويبتهل إلى الله عز وجل طلبًا للنصر، وبينما هو راكع في مصلاه إذ غلبه النوم فرأى كأن بابًا قد فتح في السماء، ونزل منه فارس أبيض حسن الوجه، وبيده راية خضراء منشورة، وقد سدت الأفق من عِظَمِهَا؛ فسلم عليه، فقال له: «من أنت يرحمك الله؟ فقال: «أنا ملك من السماء جئت لأبشرك بفتح من رب العالمين لك ولعصابتك المجاهدين؛ الذين أتوا تحت رايتك»، فنهض «المنصور» من نومه مستبشراً، وموقنًا بالنصر والظفر.

في يوم السبت ٥ شعبان سنة ٥٩١هـ قام «يعقوب المنصور» باستعراض الجيوش الإسلامية، وعيَّن القواد والأمراء، وقسمها لعدة أجزاء على أن تكون القوات الأندلسية هي رأس الحربة في القتال، تعاونها قبائل العرب والبربر، على أن تكون القوات الخاصة بالخليفة مرابطة خلفهم للتدخل في الوقت المناسب.

في يوم الثلاثاء ٨ شعبان سنة ٥٩١هـ حاول الصليبيون الاشتباك مع المسلمين ولكن «المنصور» آثر أن يتمهل ليوم الأربعاء ليستكمل تنظيم الجيوش، وفيها قام القائد العام للجيوش الوزير «أبو يحيى»، وصاح بصوت جهوري يقول للناس: «إن أمير المؤمنين يطلب إليهم أن يغفروا له؛ فإن هذا موضع غفران، وأن يتغافروا

فيما بينهم، وأن يطيبوا أنفسهم، وأن يخلصوا نفوسهم ونياتهم لله»، فبكى الناس، وصاحوا من جانبهم بطلب الغفران من الخليفة، ثم قام القاضي «أبو علي بن حجاج»، وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبيانًا في الحث على الجهاد وفضله ومكانته، وكان لها أبلغ الأثر في إنعاش النفوس، وتنبيه الضمائر، وتقوية العزائم، وتنقية السرائر، والاستعداد للمعركة الفاصلة.

• معركة الأرك الرهيبة:

وفي ضحى هذا اليوم التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ نشبت المعركة الرهيبة بين الفريقين، وكان الصليبين قد رأوا جيوش المسلمين تزحف نحو معسكرهم ببطء؛ فنزلوا بجموعهم الجرارة كالليل الدامس، وقد احتجبوا بالدروع والتروس، واعتمدوا في هجومهم الأول على الصدمة العنيفة الصاعقة، مع التركيز على قلب الجيش المسلم؛ الذي يقوده القائد العام «أبو يحيى» اعتقاداً منهم أن الخليفة «المنصور» موجود بالقلب؛ ذلك لأن «المنصور» قد لجأ لحيلة ذكية: حيث رفع الأعلام الخليفية الخاصة به في القلب لينخدع الصليبيون بذلك، ويركزوا على القلب في حين إن «المنصور» بالخلف، وليس بالقلب كما يظنون.

كانت الصدمة عنيفة وقوية لدرجة أن القائد العام «أبا يحيى» قتل هو وكبار فرسانه بعد أن قاتلوا قتال الأبطال، وكان لسقوطه في ميدان القتال شهيداً أثر بالغ؛ حيث انطلق البطل الكبير «ابن صناديد» الأندلسي، وقاد جموع المسلمين، واصطدم بمقدمة الصليبيين بشدة وعنف، في حين أمر القبائل العربية وجموع المتطوعين بالالتفاف حول جيوش الصليبيين، ومهاجمة معسكرهم من الخلف؛ فأحاطوا بالصليبيين من كل مكان، ودارت رحى الحرب الطاحنة؛ وسالت الدماء بغزارة؛ وكثر القتل في مقدمة الصليبيين التي اضطربت بالهجمة الأولى.

قام «ألفونسو الثامن» بحمل هجمة ثانية لإنقاذ مقدمة جيشه التي طحنها المسلمون، وركز هجومه على ميسرة الجيوش المسلمة، وبالفعل تقهقرت ميسرة المسلمين؛ فلما رأى «المنصور» ذلك نهض بنفسه، وخرج من معسكره، وتقدم منفرداً وهو يحث الجند على الثبات والجهاد، وكان لتلك الحركة أعمق وقع في نفوس الجنود؛ فاضطرمت هممهم وعزائمهم، واندفع الجيش المسلم بكامله على صفوف الصليبيين الذين لم يتحملوا هذا الهجوم الشامل الكاسح، وحاول «ألفونسو» عبثًا أن يثبت جيشه خاصة بعد سقوط كبار قواده وفرسانه قتلى الواحد تلو الآخر، وذهبت جهوده أدراج الرياح مع زيادة أعداد القتلى والجرحى في جيشه، وجاءه كبير القساوسة في جيشه وأفهمه أن اللَّه قد تخلى عن النصارى، ولا فائدة من مواصلة القتال؛ فهرب «ألفونسو» تحت جنح الظلام في عشرين من رجاله إلى العاصمة «طليطلة».

فرت فلول الصليبيين ولجأت إلى حصن «الأرك» يقوده «دون ديجو»، وتعدادهم خمسة آلاف؛ فطوق المسلمون الحصن، وكان «المنصور» يعتقد أن «ألفونسو» بالحصن، وقد أصر على أخذه أسيراً لكسر غطرسته وتكبره، وليخضد شوكة الصليبيين بالأندلس لفترات طويلة، ولما علم «المنصور» أن «ألفونسو» قد فر إلى «طليطلة» وافق على فك الحصار عن الحصن نظير إطلاق سراح جميع أسارى المسلمين عند الصليبيين.

انتهت تلك المعركة الخالدة بنصر عظيم، وفتح هائل للمسلمين تأخر به سقوط «الأندلس» لسنوات كثيرة، وخسر الصليبيون عشرات الآلاف، وغنائم لا تعد ولا تحصى، وفتحت الطريق أمام استئناف الحملات الجهادية على أراضي «إسبانيا» النصرانية، والقضاء على البؤر المشتعلة: مثل قلعة «رباح» وغيرها، وبدأت كفة ميزان القوى تميل لصالح المسلمين.

من المواقف العجيبة حقًا في هذه المعركة، والتي تبين مدى النزعة الصليبية التي تحكم الصراع بين المسلمين والصليبيين: أن «ألفونسو الثامن» قد كان واثقًا من النصر لدرجة أنه قد اصطحب معه مجموعة من التجار اليهود بأموالهم لشراء أسرى المسلمين! أما الموقف الآخر أن «الأندلس» لما سقطت بيد الصليبيين بعد ذلك بثلاثة قرون قاموا ببناء كنيسة كبيرة مكان أرض المعركة؛ لتنسى الأجيال الآتية المعركة وأثرها، ولا تتذكر إلا الكنيسة الظاهرة أمامهم.

الكامل في التاريخ	النجوم الزاهرة	نفح الطيب
البيان المغرب	البداية والنهاية	وفيات الأعيان
دولة الإسلام في الأندلس	موسوعة التاريخ الإسلامي	

معركة دمياط - حرب الثلاث سنوات

الزمان / الأربعاء ١٩ رجب ٦١٨ هـ.

المكان / ثغر «دمياط» ـ الديار المصرية .

الموضوع / المسلمون بقيادة الملك «الكامل محمد الأيوبي» يطردون الصليبيين من «دمياط» .

الأحداث

● **مقدمة:**

راج عند كثير من الناس أن الدافع الحقيقي وراء شن الحملات الصليبية الغاشمة على ديارالإسلام لمدة قرنين من الزمان يرجع إلى ثروات وغنى الديار الشامية، وخيراتها الكثيرة التي أسالت لعاب الطامعين والمحرومين من أبناء أوروبا، وأن هذه الحملات رفعت شعار الصليب لتتستر خلفه وتخفي أطماعها الاقتصادية،وإنما الذي روج لهذه الأكذوبة المفضوحة علميًا وتاريخيًا هم أذناب الأعداء وصنائعهم من المفتونين من أبناء المسلمين الذين انخدعوا بالمناهج البحثية الاستعمارية، واستغلوا جهل المسلمين بتاريخ أمتهم التليدة، ويكفي أن نعرف أن الذي أطلق شرارة هذه الحملات الصليبية على ديار المسلمين: هو البابا «أوربان الثاني»، وكل الحملات التالية كان الذي يأمر بتحريكها هو بابا «الفاتيكان»، وكان بمثابة القائد الأعلى للقوات المسلحة الصليبية في أوروبا؛ فكان يعزل من يشاء وبعين من يشاء، بل كان يعاقب من

يتـوانى ويتكاسل في حـرب المسلمين، كمـا فـعل بابا روما «أنوسـنت الثالث» عندمـا أصدر قراراً بحرمان الملك «فـردريك الثاني» ملك «ألمانيا» من الرحمة والجنة ، وطرده من شـعب الكنيـسة؛ ذلك أنه عـقـد اتفاقـيـة صلح مع الملك «الصـالح الأيوبي»، ولم يقاتـله، وكان هَمُّ البـابوات الأكبـر في تلك الحقـبة من الزمـان هو مواصلة الحـملات الصليـبية على بلاد المسلمين، وكل بابا يوصي من بعده بمواصلة الجـهاد المقـدس ضد المسلمين، ومعركتنا واحدة من هذا النوع.

• الحملة الصليبية الخامسة:

منذ وفـاة السلـطان «الناصـر صـلاح الدين الأيوبي» سـنة ٥٨٩ هـ وبابا رومـا «أنوسنـت الثـالث» يخطـط ويدبرلشن حـملة صليـبيـة جـديدة علىٰ الإسـلام لاسترجـاع ما استلبه «صـلاح الدين» منهم ، وبالفـعل تجهزت الحملة الصليبية الرابعـة سنة ٦٠٠هـ، وقـادها أمـراء «فرنسـا»، ولكن بدلاً من أن تـتجـه الحـملة لبـلاد «الشـام» توجـهت إلي «القـسطنطينيـة» بعـد أن حـدثـت فيـهـا ثورة داخليـة أطاحت بالإمبـراطور «إسـحاق الثـاني»، وفـر ابنه «ألكسيـوس» إلىٰ بابا رومـا ، وعرض عليه إخضـاع الكنيسة الشـرقية «الأرثوذكسـية» لسلطان الكنيسة الـغربية «الكاثوليكـيـة» نظير مـساعدتـه في استـرداد العرش ، ودخلت الحـملة الصليـبية الرابعة إلىٰ «القسطنطينية» واستولت عليها ، وارتكبت فيها مجازر رهيبة جعلت أهلها النصارىٰ يتمنون لوأن «القسطنطينية» كانت بأيدي المسلمين للدفاع عنهم ، وأضـحت الكنيسـة الشـرقـيـة خـاضـعـة للكنيسـة الغربيـة ، وتـعمق الخـلاف بين النصارىٰ بسبب المذهبية والقتال ، وفترت همة المحاربين الصليبيين .

لم تفـت هذه الخـلافـات والمشـاكـل الداخليـة فـي عـضـد البـابا «أنـوسنت الثـالث»، الذي قـرر التحضـير لحـملة صليـبية خـامسـة ، تكون قـوية وحاسـمة لتعـويض الفـشـل الذريع الذي حـدث للحـملة الرابـعة ، فـأرسل لأمـراء وملوك

أوروبا الذين لم يشتركوا في الأحداث الدامية للحملة الرابعة؛ فلبى النداء كل من «ليوبولد» ملك «النمسا»، و«أندريه الثاني» ملك «المجر»، و«بهمايو» ملك «قبرص»، وغيرهم من أمراء أوربا الذين جاءوا لينالوا شرف الاشتراك في حرب المسلمين! وقد قررت الحملة أن تغير خط سيرها المعتاد، والذي كان يتوجه براً عبر «القسطنطينية»، ومنها لأسيا الصغرى، ثم «الشام»، وقاموا بعبور البحر الأبيض المتوسط، والتوجه إلى مدينة «عكا» الساحلية، وكانت ما زالت تحت قبضتهم لم تحرر بعد.

كانت بلاد «الشام» و«مصر» وقتها تحت حكم الملك «العادل أبي بكر الأيوبي»؛ وهو أخو «صلاح الدين الأيوبي» ورفيق كفاحه، وشريك جهاده الطويل ضد الصليبيين، وهو أيضاً نظيره وقرينه في الحزم والجد والصبر والثبات أمام أعداء الإسلام، وهو حامل راية الجهاد بعد رحيل أخيه «الناصر صلاح الدين»؛ فلما وصلت أخبار الحملة الصليبية الخامسة أسرع بجيش صغير، ومعه ولده الأمير «عيسى» لمنع تقدم الصليبيين، وعسكر في منطقة «بيسان» بالأردن، ولكنه فوجئ أن جيوش الصليبيين من الضخامة بحيث يصعب على جيش العادل الصغير التصدي لهم، فآثر العادل «أبوبكر» أن يتراجع إلى «دمشق» حتى ينظم قواته، وتنضم إليه الجيوش المصرية، ولم يتسرع في الاصطدام مع الصليبيين.

«هذا من فطنة القائد وحزمه عند المواقف الصعبة والحساسة، التي تحتاج للحكمة والروية أكثر مما تحتاج للشجاعة والإقدام، الذي يعتبر في حالتنا تلك تهور وتسرع لا مبرر له، يتنافى مع قوله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]».

دخل «العادل أبو بكر» «دمشق» وبالغ في تحصينها، وأرسل إلى أمراء البيت

الأيوبي في أرض «الجزيرة» و«الموصل» و«حيفا» وغيرهم؛ ليأتوا لنصرة الإسلام، وأرسل ولده الأمير «عيسى» لحفظ «بيت المقدس» من هجوم الصليبيين عليه؛ لأنه الأهم لكلا الطرفين، فتقدم الصليبيون وحاصروا قلعة «الطور»؛ فدافع عنها أبطال الإسلام دفاعًا هائلا أذهل الصليبيون أنفسهم؛ حتى إنهم اضطروا للرجوع عنها، وحاولوا الهجوم على «بيت المقدس»، ولكن الطريق كان شديد الصعوبة؛ فرجعوا إلى «عكا»، وقد قرروا تغيير خطة ومسار الهجوم تمامًا؛ حيث قرروا الهجوم على مصر، وبالتحديد على مدينة «دمياط».

• وفاة الملك العادل:

اتجهت الحملة الصليبية بكل قوتها حيث مدينة «دمياط»؛ التي هي أهم ثغور الديار المصرية على البحر المتوسط؛ فوصلوا إليها في شهر صفر ٦١٥هـ، وضربوا عليها حصاراً شديداً طيلة أربعة شهور متواصلة، وهم في قتال دائم مع الحامية المدافعة عن «دمياط»، وكان يقودها الأمير «محمد» الابن الأكبر، وولي عهد الملك «العادل أبي بكر الأيوبي»، كان على النيل عند «دمياط» برج كبير منيع اسمه برج السلسلة؛ لأنه كان فيه سلاسل حديدية ضخمة بين طرفي النيل، وهي بمثابة القفل للديار المصرية، وهذا القفل يمنع مرور سفن الأعداء من دخول مصر، وبعد أربعة شهور من القتال الضاري الحامي المتواصل استطاع الصليبيون السيطرة على برج السلسلة، وقطعوا السلاسل الضخمة؛ لتدخل سفن الصليبيين إلى المدينة، وبذل الأمير «محمد» جهوداً كبيرة، وباشر القتال بنفسه لصد الصليبيين، ومن ذلك أنه نصب جسراً عظيمًا لمنع مرور السفن؛ فقاتل الصليبيون عليه حتى قطعوه، فأخذ الأمير «محمد» عدة سفن كبار، وخرقها ليغرقها في النيل؛ ليسد بذلك مجرى النيل، وبالفعل نجح في ذلك، ولكن الصليبيين قصدوا خليجًا قديمًا هناك اسمه «الأزرق» كان يجري فيه النيل

قديمًا، فأعادوا حفره، أجروا فيها الماء حتى سارت فيه سفنهم، كل ذلك والأمير «محمد» يواصل القتال معهم.

(سبحان اللَّه! انظر إلى هذه الهمة العالية والإرادة الصلبة، التي لا تعرف اليأس، والإصرار القوي الذي لا يعرف التراجع والملل؛ رغم أنهم أعداء للإسلام، ويقاتلون في سبيل الطاغوت؛ فأين المسلمون الآن؟! وأين أصحاب الهمم العالية؟! والمقاتلون في سبيل اللَّه؟! وهل هذا السؤال سيظل بلا إجابة؟! وإلى متى؟!).

لما وصلت أنباء سقوط برج السلسلة بيد الصليبيين إلى «الملك العادل أبي بكر» - وكان وقتها في مرج الصفر - تأوه لذلك تأوهًا شديدًا، ودق بيده على صدره أسفًا وحزنًا على مصيبة المسلمين، ومن شدة حزنه وغمه بما جرى أصيب من فوره بمرض شديد - لأمر يريده اللَّهُ عز وجل، ويعلم وحده حكمته - وكان في هذا المرض وفاة الملك «العادل أبي بكر الأيوبي» يوم الجمعة ٧ جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ، بعد حياة طويلة بالجهاد في سبيل اللَّه، والذب عن حياض الإسلام، والدفاع عن بيضة الأمة، فرحمه اللَّهُ عز وجل.

• سقوط دمياط:

لما مات الملك «العادل أبو بكر» رحمه اللَّهُ اضطربت الأمور داخل بلاد «الشام ومصر»؛ لأنه كان من المفترض أن يتم تقسيم البلاد بين أولاده الثلاثة الكبار: الأمير «محمد» يكون ملكًا على «مصر»، والأمير «موسى» يكون على «دمشق»، والأمير «عيسى» يكون على «بيت المقدس» و«فلسطين»، وكان الثلاثة متفقين على ذلك، ولكن لما مات «العادل أبو بكر» أثناء هذه الأزمة ظهر قائد عسكري اسمه «أحمد بن المشطوب» خطط لخلع الأمير «محمد» من حكم مصر، وتولية أخيه الأصغر واسمه «الفائز»؛ ليصير الحكم الفعلي للبلاد في يد «ابن المشطوب» من وراء الأستار، فوصلت هذه الأخبار للأمير «محمد» وهو

قبالة الصليبيين بـ«دمياط»، والقتال على أشده، فاضطر أن يغادر موقعه مسرعًا في الليل؛ ليتدارك الأمر قبل استفحال الفتنة.

لما طلع الصبح لم يجد الجنود قائدهم بينهم فساءت الظنون، وتحيرت العقول، وأصبحوا جسدًا بلا رأس؛ فركب كل واحد هواه، ولم يقف الأخ على أخيه، وفروا جميعًا، وتركوا معسكرهم بما فيه من سلاح ومؤن، ووجد الصليبيون معسكر المسلمين خاويًا على عروشه؛ فاسترابوا في بداية الأمر، وخافوا من كونها خدعة من المسلمين، ولما ظهرت الحقيقة دخلوا المعسكر، وغنموا كل ما فيه بلا ضرب ولا طعن، وكل ذلك بسبب ما فعله «ابن المشطوب».

بعدما استولى الصليبيون على معسكر المسلمين أحاطوا بمدينة «دمياط»، وقاتلوا أهلها برًا وبحرًا، وعملوا عليهم خندقًا كبيرًا لقطع الإمدادات عن المدينة، واستمات أهل «دمياط» في الدفاع عنها، وصمدوا طويلا، ولكن الطعنة الغادرة، والطامة القوية جاءتهم على يد إخوانهم المسلمين ـ الذين لا يصح أن نطلق على مثلهم اسم الإسلام، ولا شرف الانتساب إليه؛ وذلك أن قبائل الأعراب ـ الذين وصفهم اللَّهُ عز وجل بأنهم أشد كفرًا ونفاقًا ـ لما سمعوا بخروج أهل «دمياط» للدفاع عن ديارهم قاموا بالإغارة، والسلب والنهب للقرى المحيطة بـ«دمياط»، واستغلوا انشغال الرجال بالدفاع عن مدينتهم في الاعتداء على الحرمات والأعراض؛ فكانوا بذلك أضر من الصليبيين على المسلمين، ووقع أهل البلد بين نارين: نار الصليبيين، ونار الأعراب؛ فاضطروا في النهاية للاستسلام؛ فغدر بهم الصليبيون، وأقاموا لهم المجازر الوحشية المرعبة.

ومما سبق نرى أن «دمياط» ما سقطت إلا بسبب طلاب الدنيا، وعبيد المال، وعباد السلطة والمناصب: مثل «ابن المشطوب» والأعراب؛ فالدنيا رأس كل خطيئة، وسبب كل بلية أصابت هذه الأمة المنكوبة بخطايا بعض أبنائها.

• الأمة بين شقي الرحى:

لما تملك الصليبيون «دمياط»، وذبحوا معظم سكانها، وفر الباقي شرعوا في عمارتها، وبالغوا في تحصينها، وبثوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون، ثم قاموا بهدم المساجد، وحولوا الجامع الكبير إلى كنيسة، ولما سمع صليبيو أوروبا بذلك أقبلوا من كل حدب وصوب، وأصبحت «دمياط» دار هجرتهم، وقبلة أطماعهم، وكثرت أعدادهم بشدة، حتى ضاقت عليهم، واستمروا على ذلك ثلاث سنوات كاملة.

لم يكن هذا هو البلاء الوحيد الواقع على الأمة الإسلامية، ذلك أننا لو نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامي وقتها لوجدنا أن الأمة من ناحية الشرق تتعرض لهجوم كاسح بربري متوحش من التتار؛ الذين اكتسحوا ديار الإسلام من أول حدود «الصين» الغربية حتى أضحوا على مشارف «العراق» و«أذربيجان»، ومن ناحية الغرب استولى صليبيو إسبانيا على معظم بلاد «الأندلس» ولم يبق للمسلمين سوى إمارة «غرناطة» في الجنوب، وأشرف المسلمون على خطة خسف وهلاك في شرق ووسط وغرب المعمورة، وأصبحت الأمة الإسلامية بين شقي الرحى.

• معركة الثلاث سنوات:

ظل أمر المسلمين في اضطراب واختلاف أكثر من ثلاث سنوات؛ فالأمير «محمد» حاكم الديار المصرية يواجه الكثير من المتاعب الداخلية، وضغط الصليبيين في «الشام» و«مصر»، ولا يستطيع أن يخرج لقتال الصليبيين بـ«دمياط»، خاصة أن خلافاً كبيراً وقع بين إخوته «عيسى» حاكم «بيت المقدس»، وموسى حاكم «دمشق» على بعض الحصون والمدن بـ«الشام»، وعلى الطرف الآخر في الصراع ازدادت أعداد الصليبيين بـ«دمياط»، التي أصبحت دار

هجرتهم، وهذه الزيادة الكبيرة دفعت الصليبيين إلىٰ التفكير في احتلال باقي الديار المصرية مرة أخرىٰ، وإعادتها لحكم الصليب ـ وللعلم ما زال الصليبيون لوقتنا الحاضر يفكرون ويحلمون بإعادة مصر إلىٰ سلطان الصليب ـ وبالفعل استدعىٰ الصليبيون باقي إخوانهم من وراء البحار في أوروبا للحملة الكاسحة علىٰ مصر، خاصة بعد أن ظهر ضعف المسلمين، وتفرق كلمة قادتهم.

في هذه الأثناء أذن اللَّهُ بلطف من عنده علىٰ أمة الإسلام: حيث اتحدت كلمة الأخوة الثلاثة «محمد» و«موسىٰ» و«عيسىٰ» أبناء الملك «العادل» رحمه اللَّهُ في الوقت المناسب، وأرسل الأمير «محمد» لباقي إخوته رسالة عاجلة يقول فيها: «الوحا الوحا، العجل العجل، أدركوا المسلمين قبل أن يملك الصليبيون باقي أرض مصر»، وبالفعل استجاب كل من «موسىٰ» و«عيسىٰ» للنداء، وأقبلت الجيوش الإسلامية الشامية، واجتمع الجيشان: المصري والشامي عند نقطة معينة من النيل: اسمها بحر «أشمون» وقد خرج الصليبيون جميعهم للقتال، وحدث قتال ضارٍ بين الفريقين، وكانت الجولة الأولىٰ لصالح المسلمين؛ فقويت نفوسهم، وحميت عزائمهم علىٰ عدوهم.

حاول الأمير «محمد» التفاوض مع الصليبيين ليخرجوا من «دمياط»، ولكنهم طلبوا شروطًا رفض المسلمون أداءها، وواصل المسلمون القتال لمنع تقدم الصليبيين إلىٰ القاهرة، وبلغ الصليبيون لشدة ثقتهم بالنصر حد الغرور؛ لم يصطحبوا معهم المؤن الكافية لمواصلة القتال الطويل مع المسلمين؛ ظنا منهم أن قوة المسلمين قد ذهبت، وأمرهم قد تفرق؛ ففوجئوا بما لم يكن في حسبانهم.

• الغلطة الشنيعة:

قلنا إن الغرور والكبر والثقة الجامحة بالنصر دفعت الصليبيين ألا يأخذوا كفايتهم من المؤن لمواصلة القتال، وأن الغرور والكبر أيضًا دفعا قائد الحملة «جان دي بريين» - وهو أمير فرنسي رشحه البابا «أنو سنت الثالث» لأن يكون ملكًا على «بيت المقدس» بعد سقوطه بيد الصليبيين - هذا القائد المغرور أقدم على غلطة عسكرية شنيعة، تسفر عن غباوة قيادية غير مسبوقة؛ ذلك أنه دخل من اتجاه خاطئ عند فرع النيل بـ«دمياط»؛ بحيث يكون ظهره مكشوفا لهجمات المسلمين، وكان أمامه طريق واحد للعودة؛ فقامت مجموعة فدائية من أبطال المسلمين الذين باعوا واشترى الله عز وجل منهم، وعبرت إلى معسكر الصليبيين، وفجروا سدود النيل؛ ففاض الماء الكاسح على المعسكر الصليبي، وغرقوا في الأوحال؛ فلما أرادوا التحرك من هذا المأزق لم يكن لهم طريق سوى طريق واحد عليه جيوش المسلمين المتحدة، ووقعوا بين المطرقة والسندان.

حاول الصليبيون الاستغاثة بإخوانهم النصارى في أوروبا، وطلبوا منهم إرسال معونات عاجلة؛ فلبى إخوانهم في الصليب النداء، وأرسلوا لهم سفينة ضخمة محملة بالسلاح والمؤن، ولكن الأسطول الإسلامي استطاع أن يأسر هذه السفينة، وغنم ما عليها، وعندها أيقن الصليبيون الهلاك والعطب، وكشرت سيوف المسلمين عن أنياب المنايا، وذلت نفوسهم، وتنكس صليبهم، وخذلهم شيطانهم؛ فأرسلوا يطلبون الصلح مع قادة المسلمين على أن يخرجوا فقط سالمين، وبالفعل تم الصلح، وخرجوا من «دمياط» يجرون أذيال الخيبة و لم ينالوا شيئًا، وكفى اللَّهُ المؤمنين القتال.

وذلك في ١٩ رجب سنة ٦١٨هـ

من المواقف الرائعة حقًا أثناء القتال بين المسلمين والصليبيين أنه كان يخرج كل يوم من معسكر الصليبين كلب صليبي حاقد يشتم ويسب الرسول ﷺ بأفظع السباب، وجعل هذا ديدنه كل يوم، وكان الأمير «محمد» قد حفر شكل صورة هذا الكلب في مخيلته وذاكرته، وبعد أن تم الصلح وخرج الصليبيون من «دمياط» دارت الأيام.

وعاد هذا الكلب الصليبي الحاقد لقتال المسلمين، ولكنه وقع هذه المرة في الأسر بـ«الشام»، ولحظه العاثر رآه الأمير «محمد» وعرفه، فأمر به فحمل إلى المدينة النبوية ليذبح أمام الحجرة النبوية الشريفة في يوم الجمعة على مشهد ومسمع من الجميع، جزاءً وفاقًا لهذا الكلب الحاقد الذي قدمه الأمير «محمد» قربانًا للّهِ عز وجل، وانتقاما لكرامة رسول اللّهِ ﷺ.

التاريخ الإسلامي	البداية والنهاية	سلسلة الحروب الصليبية
تاريخ الخلفاء	النجوم الزاهرة	موسوعة التاريخ الإسلامي
الكامل في التاريخ	أطلس تاريخ الإسلام	
سير أعلام النبلاء	وفيات الأعيان	

معركة فارسكور. الحملة الأخيرة

الزمان / ٣ محرم ـ ٦٤٨ هـ.

المكان / «فارسكور» ـ «دمياط» ـ الديار المصرية.

الموضوع / المسلمون بقيادة «توران شاه الأيوبي» ينتصرون على الصليبيين بقيادة «لويس التاسع».

الأحداث

• تاريخ الحملات الصليبية:

أصل الحروب الصليبية التي انهالت على ديار الإسلام يرجع إلى الصراع الطويل بين المسلمين والإسبان بـ«الأندلس»، ولكن فكرة الحملات الصليبية المتتالية المتسابقة تعود لكرسي البابوية بـ«روما»؛ حيث المرجعية والزعامة الدينية لنصارى أوربا، ويعتبر البابا «جريجوري السابع» أول من فكر في الحملات الصليبية، ولكن العمر لم يمتد به حتى يرى بدايتها؛ والذي قام بإطلاق شرارة البدء هو تلميذه النجيب «أوربان الثاني»، وذلك في مجمع «كليرمونت» سنة ٤٨٥ هـ، ويعتبر ترتيب الحملات الصليبية وتاريخها كما يلي:

١ـ الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٨٩ هـ: بقيادة «بطرس الناسك»، و«والتر المفلس»، وهي تسمى «حملة الرعاع»؛ وقد قام المسلمون السلاجقة بإبادة تلك الحملة بأسيا الصغرى.

٢ـ الحملة الصليبية الثانية سنة ٤٩٠ هـ: بقيادة أمراء «فرنسا»، وهي

تسمى بحملة المليون نصراني وقد أسفرت عن احتلال بيت المقدس، وتكوين ثلاث إمارات صليبية بالشام هي: إمارة «الرها»، إمارة «طرابلس»، إمارة «إنطاكيا».

٣ـ الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٤٣ هـ: بقيادة «لويس السابع» ملك «فرنسا» و«كنراد» ملك «ألمانيا» لاسترداد إمارة «الرها» التي حررها «عماد الدين زنكي»، وانتصر المسلمون بقيادة «نور الدين محمود» على تلك الحملة في معركة «دمشق» الرهيبة.

٤ـ الحملة الصليبية الرابعة سنة ٥٨٥ هـ: بقيادة «بربروسا» إمبراطور «ألمانيا» و«أوغسطس» ملك «فرنسا» و«ريتشارد قلب الأسد» ملك «إنجلترا» وهي تسمى بحملة الملوك لاسترداد بيت المقدس الذي حرره «الناصر صلاح الدين»، وأسفرت هذه الحملة عن سقوط «عكا» بيد الصلبيين ولكنها بالجملة فشلت في أهدافها.

٥ـ الحملة الصليبية الخامسة سنة ٦٠٠هـ: وهي أفشل الحملات على الإطلاق إذ تحولت من قتال المسلمين لقتال داخلي بين النصارى الكاثوليك والأرثوذكس لغرض الهيمنة المذهبية، وأسفرت عن خضوع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية للكنيسة الغربية.

٦ـ الحملة الصليبية السادسة سنة ٦١٥ هـ: بقيادة «ليوبولد السادس» دوق «النمسا» و«أندريا الثاني» ملك «المجر» و«بهمايو» ملك «قبرص»، واستولت هذه الحملة على «دمياط» طيلة ثلاث سنوات، ثم حررها المسلمون بقيادة «الكامل» الأيوبي ابن أخي الناصر «صلاح الدين».

٧ـ الحملة الصليبية السابعة سنة ٦٢٥ هـ: بقيادة «فريدريك الثاني» ملك «ألمانيا»، وهي حملة صغيرة جداً ولكنها أسفرت عن نصر عظيم إذ تنازل فيها

«الكامل» الأيوبي عن بيت المقدس لـ«فريدريك الثاني»، وعد ذلك أعظم خطأ وقع فيه «الكامل» الأيوبي رغم سالف جهاده ضد الصليبيين.

• فرنسا والحملات الصليبية:

عندما دعا البابا «أوربان الثاني» لإعلان الحروب الصليبية على ديار الإسلام اختار لذلك مجمع «كلير مونت» بـ«فرنسا» ولم يختر «روما» التي هي عاصمة الكاثوليكية في أوروبا ومقر البابوية؛ ذلك لأن الفرنسيين كانوا أكثر الناس في أوروبا حمية وحماسة لحرب المسلمين وأشدهم تدينًا في تلك الفترة، وبالفعل لما أطلق «أوربان» شرارة الحملات الصليبية كانت الاستجابة الفرنسية من أعظم وأكبر الاستجابات، ولا تخلو أي حملة صليبية من أمير أو دوق أو ملك فرنسي، حتى أن كتب التاريخ الإسلامية تصف الصليبيين أيام الحروب الصليبية باسم [الفرنجة] تميزًا لهم عن البيزنطيين الذين كان يطلق عليهم اسم الروم أو الرومان، وكلمة الفرنجة هي الترجمة العربية لمصطلح الفرنسيس Les francs أي: الفرنسيين لأنهم أكثر مَن اشترك في الحملات الصليبية.

كان ملوك «فرنسا» مشهورين بالتدين والورع والطاعة الكاملة لأوامر البابوية ولم يشذ منهم عن ذلك إلا القليل، لذلك فقد كان اعتماد كرسي البابوية عليهم كبير وتأثيره عليهم عظيم، وظل الأمر هكذا حتى تولى عرش «فرنسا» الملك «لويس التاسع» المشهور بـ«التقي»، وبعد ذلك بقليل أصيب بمرض شديد كاد أن يودي بحياته فأشار عليه القساوسة والرهبان أن ينذر للَّه عزوجل نذرًا إن شفاه اللَّه تعالى أن يشن حملة صليبية ضد الكفار - يعني المسلمين - ذلك لأنه تخاذل عنْ حربهم لفترة طويلة بزعمهم فنذر «لويس» هذا

النذر لحكمة يعلمها اللّه عز وجل وحده.

شُفِي «لويس التاسع» من مرضه وأخذ يعد لحملة صليبية جديدة، وبعناية كبيرة وزودها بخيرة الفرنسيين والخيول والسلاح، وقرر أن يتجه بهذه الحملة إلى الشام أولاً حيث مازالت هناك بقايا بؤر صليبية قديمة من أيام الحملات الأولى: من أهمها مدينة «عكا» الساحلية الهامة، وبالفعل وصلت الحملة إلى هناك.

انتظر «لويس التاسع» قليلاً يفكر على مَن يهجم على الشام أم مصر، هو في الأصل خرج لحملة صليبية محضة خالصة التوجه الديني، لمجرد قتال الكفار - يعنون المسلمين - وليس لتحرير بيت المقدس تحديداً، كما كان هو الحال والهدف في سائر الحملات الصليبية السابقة، لذلك فقد قرر «لويس التاسع» أن يهجم على الديار المصرية التي كانت في هذا الوقت تعتبر أقوى الممالك الإسلامية، خاصة بعد اجتياح التتار الكاسح لديار الإسلام من ناحية الشرق، وقرر «لويس التاسع» أن تكون «دمياط» هي أولى أهداف الحملة الصليبية و«دمياط» عمومًا كانت محط أنظار كل الحملات القادمة من أوروبا على الديار المصرية.

• الصراع الداخلي:

الأمر الذي لابد أن يعرفه المسلمون جيداً: أن العدو متربص لهم دائمًا، ولا يغفل عنهم للحظة، وفي أي وقت يشعر فيه العدو أن أمر المسلمين متفرق وصفهم متشرذم فعندها ينقضون على ديار الإسلام بحدهم وحديدهم، والناظر لتاريخ الحملات الصليبية يجدها لا تهجم على بلاد المسلمين إلا حال تفرقهم واختلافهم.

كانت الجبهة الداخلية في «الشام» و«مصر» مشتعلة، وبها الكثير من القلاقل والاضطرابات، وذلك للبون الشاسع بين حكام «الشام» و«مصر»، فحاكم الديار المصرية هو الملك الصالح «أيوب» وكان رجلاً صالحًا من عظماء

الدولة الأيوبية، تولى الأمر بعد أخيه «الكامل محمد»، فصحح كثيراً من أخطائه خاصة جنايته العظيمة التي أقدم عليها سنة ٦٢٥هـ عندما تنازل طوعًا لا حربًا عن بيت المقدس لملك «ألمانيا» «فريدريك الثاني»، واستطاع الصالح «أيوب» أن يعيد بيت المقدس لحظيرة الإسلام سنة ٦٤٢هـ بعد معارك طاحنة، ونشر العدل بين الرعية، وقمع الفساد، واستضاف سلطان العلماء «العز بن عبد السلام»، وصاحبه «ابن الحاجب» بعد خروجهما من «الشام»، وأعاد للدولة الأيوبية هيبتها ومجدها السابق.

أما حاكم «الشام» فكان اسمه الصالح «إسماعيل» - وهو عم حاكم مصر الصالح «أيوب» - وكان «إسماعيل» هذا وبالاً على الأمة الإسلامية فقد كان رجلاً طماعًا حريصًا على الملك والدنيا، يعمل ليل نهار من أجل إزاحة ابن أخيه عن حكم «مصر» وضمها لـ«الشام» تحت حكمه، ولا يبالي بما فعل من أجل ذلك حتى إنه قام بالتنازل عن بعض حصونه، ومدن «الشام» للصليبيين من أجل ضمان مساعدتهم ضد ابن أخيه الصالح «أيوب»، وأباح لهم دخول «دمشق» لشراء السلاح والمؤن فأفتى «العز بن عبد السلام» بحرمة ذلك فأخرجه الصالح «إسماعيل» من البلد فسار حتى دخل «مصر»، وقام الصالح «إسماعيل» بحبس «عمر بن الصالح أيوب» حتى مات غمًا وهمًا، وظل الصالح «إسماعيل» يحارب ابن أخيه ولا يبالي بما يحدث للأمة من تفرق وتسلط العدو حتى أذله اللَّه عزوجل وأذهب عنه ملكه الذي فعل كل ما فعل من أجله، وأخذ ابن أخيه الصالح «أيوب» «دمشق» و«الشام» منه سنة ٦٤٣ هـ، ولم يبق للصالح «إسماعيل» بلد يأوي إليه ولا أهل ولا ولد ولا مال ومات شريداً طريداً فقيراً معدمًا، ولكنه لم يمت إلا بعدما أتعب الأمة الإسلامية عامة وابن أخيه الصالح أيوب خاصة.

• احتلال دمياط:

وصل «لويس التاسع» بجيش جرار يقدر بمائة ألف مقاتل إلى مدينة «دمياط» عن طريق البحر المتوسط لذلك فقد كان هجومهم على «دمياط» مفاجئًا ومباغتًا؛ لعدم وجود مراصد بحرية أوجوية وقتها تظهر الوجهة التي سيتجه إليها الأسطول والحملة، وعندما نزل الصليبيون على «دمياط» فَرَّ كُلُّ مَن فيها من الجند والحراسات ومعهم بعض العوام فلم يجد الصليبيون مدافعًا عن المدينة، فاستولوا عليها بسهولة وقاموا بارتكاب مذابح مروعة بحق أهل البلد المسلمين كما هي عادتهم مع كل بلد مسلم يدخلونه، وحولوا الجوامع والمساجد إلى كنائس وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٦٤٧هـ.

أعلن الصالح «أيوب» النفير العام في الديار المصرية فقصده الجنود من كل حدب وصوب، وأسرع رغم مرضه الشديد لمنازلة الصليبيين وقام ببناء مدينة قبالة «دمياط»؛ حيث الجهة الأخرى لمعسكر الصليبيين وأطلق عليها اسم «المنصورة» تيمنًا بالنصر على الصليبيين، ثم قام بالقبض على الجنود الفارين من وجه الصليبيين بـ«دمياط» وعزرهم تعزيراً شديداً وصل لحد شنق بعضهم تأديبًا لباقي الحاميات، ولام الباقي على ترك المصابرة قليلاً ليرهبوا عدو اللَّه وعدوهم ذلك كله والصالح «أيوب» مريضاً بشدة، ولكنه لشدة شجاعته وقوة صبره وجلده لم يظهر التوجع والألم أمام أحد.

تقدم «لويس التاسع» نحو «المنصورة» حيث معسكر المسلمين محاذراً الاقتراب من ضفة فرع النيل عند «دمياط»، حتى لا يقع في نفس خطأ الحملة الصليبية السادسة: عندما دخل قائدها «جان دي بريين» في اتجاه خاطئ سمح للمصريين أن يفتحوا عليها قنوات وسدود النيل فأفشل الحملة بأسرها، فاستفاد «لويس التاسع» من هذا الخطأ وسار بمحاذاة النيل ليهجم على معسكر

المسلمين بـ«المنصورة» واستقر في مدينة «فارسكور» ولكن لم يكن في حسبان «لويس التاسع» ما قام به المصريون المتطوعون للجهاد ضد الصليبيين حيث أقبلوا بأعداد كبيرة وذلك لشن حرب عصابات ضد المعسكر الصليبي بأسلوب الضربات الخاطفة، وقد قام المجاهدون المصريون ببطولات رائعة وأعمال فدائية في غاية الشجاعة والمكر ولا تخلو أحيانًا من الطرافة ضد الصلبيين.

• وفاة الصالح أيوب:

في تلك الأثناء تزايدت العلة والمرض على الصالح «أيوب» حتى أصبح محتجبًا عن الناس، والصلة بينهم وبينه عن طريق زوجته «أم خليل» الملقبة بـ«شجرة الدر»، وكانت امرأة عاقلة ذات حزم ودهاء وسياسة عظيمة، ومالبث أن مات الصالح «أيوب» رحمه اللَّه في ١٥ شعبان ٦٤٧هـ وفي قبالة أعداء الإسلام الذي قضى الصالح «أيوب» معظم حياته في جهادهم والتصدي لهم، وكان مسك الختام للدولة الأيوبية العظيمة بـ«مصر»، ذلك لأن بعده ستقوم الدولة المملوكية.

أخفت «شجرة الدر» خبر موته عن الجيش حتى لا يفت ذلك في عزمهم وهم أمام العدو، وظلت توقع على المناشير والقرابات بعلامته، ولم تسمح لأحد بالدخول عليه بحجة أنه مريض مدنف، ثم أرسلت إلى كبار الأمراء من مماليك الصالح «أيوب» أمثال «عز الدين أيبك» و«أقطاي» و«فخر الدين ابن شيخ الشيوخ» وغيرهم، وأطلعتهم على خبر موت الصالح «أيوب»، وتشاوروا فيمن يولونه على البلاد ليقود الجيش ضد الصليبيين، فاتفقوا على تولية الأمير «توران شاه بن الصالح أيوب»، وكان واليًا على مدينة «كيفا» بـ«الشام» هذا رغم أنه كان مجافيًا لأبيه حال حياته، وغير راضٍ عن طريقة أبيه في استجلاب المماليك الغزية، والتي عرفت باسم المماليك البحرية أو الصالحية.

• معركة فارسكور:

جاء الأمير «توران شاه» من حصن «كيفا» مسرعًا، وتولىٰ قيادة الجيوش، وقرر الهجوم بسرعة علىٰ الجيش الصليبي مستغلاً فترة فيضان نهر النيل، وأن الماء قد غطىٰ مساحات واسعة من الأرض، واصطدم «توران شاه» بسرعة بالصليبيين يوم الأربعاء ٣ محرم سنة ٦٤٨هـ، ودارت جيوش المسلمين حول معسكر الصليبيين واستولوا علىٰ مراكبهم الراسية بالنيل، وشعر الصليبيون أنهم محاصرون بين الماء والمسلمين، فاستماتوا في القتال، ولكن هيهات هيهات؛ فقد أخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، حتىٰ قتل منهم ثلاثون ألفًا، وغرق الكثيرون منهم في البحر، ووقع في الأسر كبار الأمراء، وعلىٰ رأسهم الصليبي التقي! «لويس التاسع» وأخوه.

وضع «لويس التاسع» في السجن ريثما ينظر «توران شاه» في أمره، وأخذ منه رداءه الذي كان يلبسه أثناء القتال، وأرسله مع رسول مخصص إلىٰ «دمشق» ليبشر الناس بالانتصار الكبير علىٰ الصليبيين، ودخل المسلمون كنيسة «مريم»، وأقاموا فيها فرحًا كبيراً لما جاءتهم بشائر النصر، وكادوا أن يخربوها نظراً لشماتة النصارىٰ فيهم من قبل عند سقوط «دمياط»، والطريف أن نصارىٰ «بعلبك» قد فرحوا بشدة عندما احتل الصليبيون «دمياط» فلما وصلتهم أخبار الهزيمة لبسوا السواد وأعلنوا الحداد، فأرسل والي البلد إلىٰ كبرائهم وأوقفهم صفًا وأمر اليهود بالبلد أن يصفعوهم ففعلوا.

لم يطل العمر بـ«توران شاه» حتىٰ يحكم في «لويس التاسع» بما يستحقه، والذين جاءوا من بعده قبلوا الفدية التي أرسلتها «مارجريت» زوجة «لويس التاسع» الملهوفة علىٰ زوجها، وكان مقدارها مائة ألف دينار ذهبية، وأقسم «لويس التاسع» بأغلظ الأيمان، وأعطىٰ العهود والمواثيق ألا يعود لحرب

المسلمين مرة أخرى، وخرج «لويس التاسع» من سجنه وهو يقول لمن معه لم أر أحمق من هؤلاء الذين قبلوا أخذ فدية من رجل مثلي مائة ألف فقط، ولو سألوني ملك «فرنسا» كله لأعطيتهم إياه نظير سراحي.

• نهاية لويس التقي !!:

ظهر من «لويس التاسع» بعض المواقف التي تدل على شدة صليبيته، ومتانة اعتقاده وكراهيته للمسلمين جعلت من النصارى بعد ذلك يعظمونه ويلقبونه بـ«التقي» وبـ«القديس»، بداية من نذره حرب المسلمين إن عوفي من مرضه، ثم قتاله المسلمين أثناء معركة «فارسكور»، ثم عزته وإبائه وهو سجين بـ«المنصورة» حيث رفض أن يلبس شارة «توران شاه» - وهذا يدل وقتها عرفًا على التبعية والخضوع - وقال: «كيف ألبس شارته وبلادي فرنسا في حجم بلاده مصر؟» ثم رفض أن يحضر وليمة الطعام التي صنعها «توران شاه» حتى لا يكون مثار سخرية واستهزاء من جند المسلمين، وأظهر ثباتًا وجلدًا وعزة أثناء الاعتقال؛ مما جعله معظمًا في عيون النصارى، ولكن السؤال الذي يثور هنا: هل حافظ «لويس» التقي على عهوده وأيمانه؟ وكيف كانت نهايته؟

كان «لويس التاسع» يضطرم بروح صليبية خالصة صرفة جعلته لا يرى أي عهود أو التزام مع الكافرين - يعني المسلمين - فما إن خرج من سجنه توجه إلى «عكا» بـ«الشام»، وبقي بها أربع سنوات يحاول أن يجمع جيشًا صليبيًا جديدًا يستعيد به «القدس» مستفيدًا من الخلاف الشديد بين أمراء المسلمين بـ«الشام» و«مصر»، وحاول الاتصال بكل أعداء الإسلام لتسهيل غرضه، فاتصل بفرقة الحشاشين الشيعية الكافرة أعداء المسلمين، واتصل بزعيم التتار «مونكو خان» ولكنه لم يفلح في شيء رغم معاونة نصارى «العراق» و«الشام» له بكل قوتهم.

وأخيراً قرر «لويس التاسع» العودة إلى «فرنسا» سنة ٦٥٢هـ، وظل بها يحلم بحرب صليبية جديدة ضد المسلمين رغم ما ناله من هزائم وخيبة أمل، واستمر على حلمه حتى سنة ٦٦٨هـ أي بعد ستة عشر سنة عندما جهز حملة صليبية جديدة اتجهت إلى «تونس» ظانًا أنه سيستولي عليها دون مشقة، وساعده في ذلك أخوه «شارل أنجو» ملك «صقلية»، ولكن «لويس» التقي فوجئ بمقاومة شرسة من الأعراب و قوات السلطان «المستنصر» سلطان «الحفصيين» جعلته يصاب بالهم والغم والحزن ثم أصابته الحمى القاتلة فمات في ١٠ محرم سنة ٦٦٩ هـ، وعاد جنوده برفاته ودفنوه في كنيسة عظيمة بـ«باريس» وصار من يومها القديس «لويس» التقي!!.

الجدير بالذكر هاهنا أن «لويس التاسع» قد كتب في مرض موته وصيةً هامة جداً عمل بها أعداء الإسلام بعد ذلك في حربهم ضد المسلمين، وقد تضمنت هذه الوصية الخطيرة الخطة التي يجب أن يسير عليها الصليبيون في حربهم ضد المسلمين، وتغيير أسلوب المواجهة من ميادين القتال بالسيف والرمح إلى ميادين العقيدة والإيمان، وتحويل الغزو من الغزو العسكري إلى الغزو العقلي والفكري، وحرب التدين الإسلامي الذي هو أقوى سلاح يفترس به المسلمون الصليبيين.

البداية والنهاية	تاريخ الخلفاء	أطلس تاريخ الإسلام
موسوعة التاريخ الإسلامي	التاريخ الإسلامي	معركة المنصورة
تاريخ الحروب الصليبية	وفيات الأعيان	
الغزو الفكري	النجوم الزاهرة	

معركة عين جالوت . كسر التتار

الزمان / الجمعة ٢٥ رمضان ـ ٦٥٨ هـ.

المكان / سهل «عين جالوت» ـ الشام.

الموضوع / المسلمون بقيادة «سيف الدين قطز» يوقفون الزحف التتاري على العالم الإسلامي.

الأحداث

• مقدمة: من هم التتار؟

يعود أصل التتار إلى الشعوب التركية التي هي سكان القارة الأسيوية فيما وراء النهر والجبال بدءاً من الهضبة الإيرانية حتى منتهى القارة في أقصى شرق «الصين»، والتتار فرع من هذه الشعوب التركية يسكنون صحراء «جوبي» بأطراف بلاد «الصين» الشمالية ـ منغوليا الآن ـ وهم قبائل رعوية تعيش على الرعي والسلب والنهب، أما ديانتها فهي قبائل وثنية تعبد الأوثان والكواكب، وتسجد للشمس عند شروقها وغروبها، وتنتشر بينها ديانة يطلق عليها «الشامانية» تقوم على تقديس أرواح الأجداد، وتقديم القرابين للحيوانات المفترسة.

ويطلق لفظ التتار على قبائل «المغول» و«الترك» و«الأويجور» وغيرهم، وسر هذا التقسيم يرجع إلى أيام سيطرة «جنكيز خان» على كل هذه القبائل،

و«جنكيزخان» نفسه لم يكن من عشيرة قوية، ولكنه كان ذا همة عالية وعزيمة لا تلين؛ جمع أفراد عشيرته ووحد صفهم، وخاض معارك طاحنة مع باقي القبائل التركية، وانتصر عليهم جميعًا، وكون مملكة واسعة مسكونة بتلك القبائل والأمم الأخرىٰ، وقهر ملك «الصين» و«كوريا» حتىٰ دانوا له بالطاعة، وأصبح نهر «جيحون» هو الحد الفاصل بين مملكته الشاسعة وأرض الإسلام، وبالتحديد الدولة الخوارزمية وسلطانها «علاء الدين خوارزم شاه».

استغل «جنكيزخان» خلافًا بسيطًا مع «علاء الدين» ليعلن بدء حملة تتارية رهيبة ومدمرة علىٰ بلاد الإسلام ابتداءاً من سنة ٦١٦هـ استولوا فيها علىٰ مدن عظيمة وعريقة مثل «بخارىٰ»، و«سمرقند»، و«مازندان»، و«الري»، و«همذان»، و«قزوين»، ثم يمم «جنكيزخان» وجهه ناحية الشمال فاستولوا علىٰ بلاد «القوقاز» و«البلغار» و«أذربيجان» وبلاد «الروس» و«المجر»، حتىٰ شعر «جنكيزخان» بدنو أجله سنة ٦٢٥هـ فقام بتقسيم العالم بين أبنائه الأربعة من زوجه الأولىٰ؛ كما تنص تعاليم التتار كما يلي:

* الابن الأكبر «جوجي»: بلاد «روسيا»، و«خوارزم»، و«القوقاز»، و«البلغار»، إلىٰ غرب المعمورة.

* الابن الثاني «جغطاي»: بلاد «الأويجور»، و«تركستان»، الغربية وبلاد ما وراء النهر: «جيحون».

* الابن الثالث «تولوي»: بلاد «خراسان»، و«فارس»، وما يمكن ضمه من «آسيا» الصغرىٰ وبلاد العرب.

* الابن الرابع «أوغطاي»: بلاد «المغول» ـ منغوليا الآن ـ و«الصين»، و«تركستان» الشرقية.

ومن خلا ل هذا التقسيم نلاحظ أن معظم بلاد الإسلام كانت من نصيب أسرة «تولوي» الذي مات سريعًا، وخلفه من بعده الطاغية الأسوأ تاريخيًا «هولاكو» عليه لعائن اللَّهِ عز وجل المتتابعة، وكان من سوء طالع الأمة الإسلامية في تلك الفترة.

• هولاكو والأمة الإسلامية:

كان «هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان» شديد الكره والبغض للأمة المسلمة، وكان ملكًا جبارًا كفارًا عنيدًا لا يطيق أن يرىٰ أو يسمع عن المسلمين، وكان هو الزعيم الفعلي لشعوب التتار كلها، رغم أن الخان الأعظم كان ابن عمه «كيوك» إلا أن «هولاكو» هو المحرك الفعلي لكل الحروب علىٰ المسلمين، وكان السر وراء هذه الكراهية العارمة للمسلمين أن نصارىٰ أوروبا قد رأوا القوة الناشئة للتتار فخافوا أن يدخلوا في الإسلام، كما سبق أن دخل إخوانهم السلاجقة في الإسلام فعملوا علىٰ احتراق التتار عن طريق النساء الغواني؛ فامتلأت بيوت التتار بالأوروبيات اللاتي سيطرن علىٰ رجال التتار، ومن هؤلاء «هولاكو» المجرم؛ فمخطوبته المقربة كانت نصرانية اسمها «ظفرخاتون»؛ فأذكت نار الحقد والكره للمسلمين بقلب المجرم «هولاكو» فقاد حملات مدمرة علىٰ بلاد الإسلام توجه سنة ٦٥٦هـ، بإسقاط الخلافة العباسية، واكتساح بغداد، وقتل سكانها المسلمين في أبشع مجزرة عرفها التاريخ، راح ضحيتها قرابة المليونين من المسلمين الأبرياء العزل، وأصبح «العراق» من أملاك الدولة التتارية.

لم يكن هدف «هولاكو» مجرد إسقاط الخلافة الإسلامية فقط؛ فقد كانت همته إفناء الأمة الإسلامية بأسرها حتىٰ لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض موحد يقول: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه؛ لذلك بعد أن انتهىٰ من «العراق» قرر

وبسرعة التوجه للشام لأخذها، ومنها إلىٰ «مصر»، ثم بلاد «المغرب»، ثم يعبر «الأندلس» ليمحو الأمة الإسلامية من الوجود تمامًا.

في الوقت الذي كان التتار يكتسحون بلاد الإسلام، ويحضرون للاستيلاء علىٰ «بغداد»، وإسقاط الخلافة الإسلامية، كانت الأوضاع في «مصر» و«الشام» بالغة السوء والتردي من الناحية السياسية: ففي «مصر» أصبح المماليك هم حكام البلاد بعد مقتل «توران شاه» آخر ملوك الأيوبيين علىٰ «مصر» وذلك سنة ٦٤٨هـ، وتولىٰ مكانه «عز الدين أيبك» حتىٰ سنة ٦٥٥ هـ وهي السنة التي قتل فيها علىٰ يد زوجه «شجرة الدر» التي غارت من هيمنته علىٰ الأمور، ورغبته في التزوج من بنت صاحب الموصل، ولكنها ما لبثت أن قتلت جزاءً وفاقًا، وتولىٰ «المنصور بن عز الدين أيبك» الحكم وهو في الخامسة عشرة من العمر، أما حكام «الشام» فهم أبناء البيت الأيوبي العريق، وعلىٰ رأسهم «الناصر بن العزيز» ومعه «المغيث بن العادل»، وكلاهما يد واحدة علىٰ المماليك بـ«مصر» وقد أعدوا العدة لحرب وغزو «مصر» لأخذها من المماليك عنوة في نفس الوقت الذي سقطت فيه «بغداد» ومعها الخلافة الإسلامية، ومع ذلك فهم في غفلتهم راقدون، وفي غيهم سادرون، وعلىٰ الدنيا والمناصب يقتتلون، فما أفاقوا إلا علىٰ جيوش الطاغية «هولاكو» وهي تطوق ديارهم فما الذي جرىٰ وقتها؟.

• احتلال الشام والحقد الصليبي:

بدأ «هولاكو» التحضير لغزو «الشام» بعد أن فرغ من «العراق» والخلافة؛ فأرسل الطاغية «هولاكو» إلىٰ الملك «الناصر» صاحب «دمشق» حتىٰ يحضر عنده بـ«بغداد» ليخدمه كنوع من الخضوع، وإعلان تبعيته كما هو المعتاد؛ فأرسل «الناصر» ولده «العزيز» ـ وهو شاب صغير ـ بهدايا كثيرة وتحف، ولكن «هولاكو» غضب من هذا التصرف من قبل «الناصر» وأمر جيوشه

الجرارة بغزو بلاد «الشام»، ووقع الرعب والفزع الشديد بين أهل «الشام» واستطاع التتار الاستيلاء على بلاد «الجزيرة»، وعبروا نهر «الفرات»، ثم أخذوا «حلب» وقتلوا كل أهلها في مذبحة مروعة؛ ذلك لأن أهلها أبدوا بعض المقاومة والامتناع، ثم أخذوا بعدها «حماة» دون قتال، واقتربوا من «دمشق» حاضرة «الشام»، وقد فر منها صاحبها «الناصر» الأيوبي الذي هام على وجهه من مكان لآخر حتى قبض عليه التتار في النهاية وأرسلوا به إلى «هولاكو» الذي قتله شر قتلة هو وابنه «العزيز»، ثم أناب «هولاكو» قائده «كتبغانوين» في قيادة الجيوش المتجهة لفتح «الشام» و«مصر».

كان هذا القائد المجرم من أشهر وأجرأ القادة التتر في القتال، وكان أذكاهم وأدهاهم في فنون الحصار والمناورة، وكان له حِيل غير مسبوقة في القتال؛ فكان إذا فتح بلدًا ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذي يليه، ويطلب من أهل هذا البلد أن يئووا هؤلاء المقاتلة عندهم، فإن فعلوا حصل مقصوده في تضييق الأطعمة والأشربة عليهم فتقصر مدة الحصار، وإن امتنعوا من إيوائهم عندهم قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين يغضبون من أهل البلد لعدم إيوائهم، فيضرب المسلمون بعضهم بعضًا وهو ينظر، ومن حيله أنه كان يتظاهر بقياس مستوى مياه الآبار في المدن المحاصرة، ويضع فيها سمًا قاتلاً ليهلك أهل المدينة من حيث لا يشعرون، وكان «كتبغانوين» يحب النصارى بدافع من المخطط النصراني الأوروبي والذي سبق أن ذكرناه من قبل.

نزل التتار يقودهم «كتبغانوين» على «دمشق» في آخر صفر سنة ٦٥٨هـ فأخذوها سريعًا بلا مدافعة أو ممانعة؛ فلقد هرب أميرها «الناصر»، وجعل التتار على «دمشق» رجلاً اسمه «إبلسيان»، وكان معظمًا لدين النصارى، وهكذا نرى أن معظم القادة والأمراء التتر كانوا معظمين

للنصارىٰ؛ فاجتمع مع الأساقفة والقساوسة، وعظمهم، وزار كنائسهم، وأظهر النصارىٰ - الذين طالما نعموا في ظل الدولة الإسلامية بالأمن والأمان والعدل والمساواة - مكنون صدورهم وأفرغوا شحنات الحقد الصليبي المكبوتة وأهانوا المسلمين وذموا الإسلام، وحملوا صليبًا كبيرًا وصاروا به في الشوارع وهم يقولون: «ظهر الدين الصحيح: دين المسيح» ومعهم أواني الخمر يرشون منها علىٰ وجوه الناس وملابسهم وأبواب المساجد، وجرت منهم أمور فظيعة تدل علىٰ مدىٰ الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين، وسوف يعلمون عاقبة ذلك سريعًا.

(وفي ذلك أبلغ رد على هؤلاء الحمقى الغافلين الذين يتغنون ليل نهار بالوحدة الوطنية، وإخوة الوطن، ووحدة المصير، إلى غير ذلك من الشعارات الكاذبة التي أضاعت عقيدة الولاء والبراء من قلوب المسلمين، في حين أن غير المسلمين ولاؤهم لدينهم وإخوانهم في الصليب مهما نأت ديارهم وتعددت أوطانهم).

• رجل الساعة:

ونعني به بطل الإسلام وقاهر التتار «سيف الدين قطز» وأصله يرجع إلىٰ الخوارزميين وقيل الأتراك القوقازيين، وذهب بعض المؤرخين إلىٰ أنه الأمير «محمود بن ممدود الخوارزمي» ابن أخت «جلال الدين خوارزم شاه» آخر سلاطين الخوارزميين المقتول سنة ٦٢٨ هـ، وكان قطز مملوكًا من مماليك السلطان «عز الدين أيبك»: أول من تسلطن في الدولة المملوكية، وترقىٰ في سلك الجندية حتىٰ صار كبير مماليك السلطان «عز الدين أيبك»؛ لذلك لما قُتل «أيبك» ثار قطز لمقتله، وانتقم من قاتلته «شجرة الدر»، وجعل ولد أستاذه الأمير «المنصور» حاكمًا علىٰ البلاد؛ حتىٰ لا تضطرب الأحوال، ويقتتل

الناس على الحكم والملك، وذلك سنة ٦٥٥ هـ: أي قبل سقوط «بغداد» ومعها الخلافة الإسلامية على يد الطاغية «هولاكو» وجيوشه الغاشمة.

تطورت الأمور سريعًا بعد سقوط الخلافة العباسية، وظهور عزم التتار على مواصلة الزحف على بلاد الإسلام: الشام، ومصر، ثم المغرب والأندلس، وعندها دعا «سيف الدين قطز» العلماء والقضاة والأمراء لمجلس شورى للبحث في كيفية مواجهة العدوان التتاري، وتفاوضوا فيما يتعلق بأخذ شيء من أموال العامة لمساعدة الجند، وكانت العمدة على ما يقوله الشيخ «العز بن عبد السلام»، ودار كلام طويل، والسلطان «المنصور» حاضر لا يتكلم بشيء لصغر سنه، وعدم إدراكه لما يقال، وكشف هذا المجلس عن عجز «المنصور» وعدم أهليته لمثل هذا المنصب الخطير، وهذا الأمر دفع «سيف الدين قطز» لأن يقدم على خلع ابن أستاذه «المنصور» واعتذر لـ«العز بن عبد السلام» و«ابن العديم» - وهما أكبر علماء الوقت - بصغر سن «المنصور»، وأنه لابد للأمة من سلطان قوي في هذه الأوقات العصيبة التي يتربص فيها الأعداء للمسلمين؛ فوافقه العلماء والأمراء على ذلك وأصبح «قطز» من يومها الملك المظفر «سيف الدين قطز».

كان «سيف الدين» رجلاً عابداً خيراً، يكثر من الصلاة وقراءة القرآن، وليس كمثله من المماليك الأتراك الذين يشربون المسكرات، ولا يختلط بلهوهم وعبثهم، وكان قد رأى رؤيا وهو صبي صغير رأى فيها رسول اللّه ﷺ يقول له: «أنت تملك الديار، وتكسر التتار»، ومن يومها وقطز يسعى لتحقيق هذه الرؤيا الحق، لأن سالشيطان لا يتمثل بالرسول ﷺ كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح.

• معركة عين جالوت:

أخذ «قطز» في الإعداد بسرعة لمواجهة التتار القادمين كالسيل الجارف، وكان قد اجتمع عنده معظم أمراء وملوك «الشام» الذين فروا منها بعد استيلاء التتار على «الشام»، وبعد مشاورة القادة والأمراء والعلماء قرر «قطز» أن يخرج بجيوشه للقاء التتار خارج الديار المصرية، ولا ينتظر لقدومهم عليه؛ فاجتمع عنده عشرات الآلاف من المتطوعين والمجاهدين المخلصين، الذين جاءوا للذب عن حياض الإسلام، والانتقام لمصاب المسلمين على يد التتار في بغداد وغيرها، وسارت الجيوش المصرية حتى وصلت حدود الشام.

كان أمير التتار وقائدهم الكبير «كتبغانوين» رغم دهائه العسكري الفذ معجبًا بنفسه مغرورًا، وإنما تأصل ذلك عنده لأنه لم يلق حتى ذلك الوقت من أبطال المسلمين الصادقين من يضعه في حجمه الحقيقي، فكل من قابلهم كانوا ضعافًا جبناء؛ فلما سمع بخروج «سيف الدين قطز» بجيوشه استشار من عنده من أسرى أمراء المسلمين مثل: «الأشرف» و«المجير بن الزكي»، فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بـ«قطز» حتى يطلب إمدادات من «هولاكو»، وهم في نيتهم تخذيله عن لقاء المسلمين، ولكن دفعه غروره وإعجابه بنفسه لأن يسرع بالصدام مع المسلمين، كأنه يسعى لحتفه بظلفه.

وفي يوم كيوم «بدر» وفي ساعة كساعة الظفر العظيم؛ يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ كان الصدام الهائل، الذي كان بداية النهاية لأسطورة التتار الذين لا يهزمون، وقد استفاق «كتبغانوين» ومن معه على الجيوش الإسلامية تملأ الوادي والسهل، وتحيط بهم من كل مكان، يتقدمهم «سيف الدين قطز»، وقد أمر جنوده ألا ينشبوا قتالاً حتى تزول الشمس، وتفيء الظلال، وتهب الرياح ويدعو الخطباء والناس في صلاتهم للمجاهدين، وهذا يذكرنا بما فعله الصحابي الجليل «النعمان

ابن مقرن المزني» في معركة نهاوند مع الفرس، وتهيأ المسلمون لقتال حتى الموت، قلوبهم مليئة بالإيمان والعزم الأكيد، ونفوسهم تضطرم برغبة عارمة في الانتقام لمصاب الأمة بأسرها على يد هؤلاء التتر البرابرة.

وبالفعل اصطدم الجيشان في معركة رهيبة من جنس المعارك الخالدة الأولى، واقتتل الفريقان قتال من لا يرى الحياة، وكان القائد المظفر «قطز» في مقدمة الجيش يقاتل قتال الأسد الكاسر، وقد حدث في بداية المعركة أن كسرت ميمنة التتار ميسرة المسلمين، وأشرف المسلمون على الهزيمة، هناك خلع المظفر خوذته معلنًا عن نفسه، وصاح بأعلى صوته: «وا إسلاماه»، وانطلق كالسهم مخترقًا صفوف التتار حاملاً لواء المسلمين، وكانت لتلك الصيحة فعل السحر في نفوس المسلمين الذين انقلبت هزيمتهم وفرارهم إلى نصر عظيم وإقبال كالسيل الجارف

• أعظم مشاهد المعركة:

وبينما القتال محتدم على أشده جرى مشهد هو الأعظم في هذه المعركة؛ حيث قتل جواد القائد «قطز» ولم يجد أحداً في وقتها من الوشايقة ـ وهم الذين معهم خيول إضافية ـ فترجل «قطز» وباشر القتال وهو واقف على رجليه بأرض المعركة، والقتال من حوله على أشده، فراه بعض الأمراء فترجل عن فرسه، وحلف على القائد «قطز» ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير «ما كنت لأحرم المسلمين من نفعك»، وظل هكذا حتى جاءه بعضهم بفرس فركبها؛ فلامه أحد الأمراء وقال له: «لِمَ لَمْ تركب فرس الأمير الذي حلف عليه؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك»، فقال القائد المؤمن بقلب مملوء بالإيمان واليقين والتواضع والإخلاص «أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، وقد قتل فلان وفلان وغيرهم من ملوك المسلمين فأقام اللَّه للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضع الإسلام»

(هذه هي العقيدة النقية، والإيمان الراسخ بحتمية نصر الإسلام، وأنه مهما أصاب الإسلام من هزائم وانكسارات بسبب ضعف وتفرق أبنائه وكيد أعدائه، فإنه أبدًا لن يضيع وسينتصر لا محالة، فهذا أمر كوني قدري، وأيضًا شرعي قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]).

ولم تغرب شمس يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ إلا والتتار قد هزموا هزيمة شنيعة، وقد فروا من المعركة، وقتل قائدهم اللعين «كتبغا نوين» قتله الأمير «شمس الدين آقوش»، ولما وصلت أخبار مقتله لـ«قطز» خر ساجدًا شكرًا لله عز وجل، ثم قال: «الآن أنام قرير العين لقد كان هذا الكلب حظ وسعد التتار، والآن ذهب سعدهم».

وقد كان في صحبة التتار أحد أمراء المسلمين بـ«الشام» من نسل الأيوبيين اسمه «السعيد» قد خان الإسلام، وناصح التتار، ولبس زيهم، وقاتل معهم المسلمين حفاظًا على ملكه وماله، فلما هزم التتار وقع «السعيد» الخائن أسيرًا بيد المسلمين، وعندها أصدر «قطز» قرارًا فوريًا بإعدام هذا الأمير الخائن جزاءً وفاقًا على خيانته للإسلام والمسلمين، وانتهت المعركة بأعظم انتصار للمسلمين في هذا العقد من الزمان.

البداية والنهاية	سلسلة المعارك الكبرى	أطلس تاريخ الإسلام
النجوم الزاهرة	تاريخ الخلفاء	وفيات الأعيان
التاريخ الإسلامي	موسوعة التاريخ الإسلامي	سير أعلام النبلاء

معركة حمص الكبرى . عودة الوعي

الزمان / الخميس - ٦٨٠ هـ.

المكان / حمص - الشام .

الموضوع / الجيوش الإسلامية بقيادة «سيف الدين قلاوون» تهزم جحافل التتار الغازية .

الأحداث

● **مقدمة:**

تعد أحداث هذه المعركة الكبرى درسًا من دروس الزمان البالغة الخالدة ،التي يجب أن يعيها الكثيرون منا، يجب أن يعيها الذين يفرقون الصف المسلم بشعارات وأفكار من عند أنفسهم: يوالون ويعادون عليها، ويجب أن يعيها أيضًا الذين يحرصون على كراسيهم ومناصبهم الزائلة على حساب مصلحة الأمة، ويجب أن يعيها هؤلاء الذين يبحثون عن طريق الانتصار الذي عرفه أعداء الإسلام جيداً فطموه بالحجارة والعوائق حتى لا يسلكه المسلمون فتعود لهم ذاكرة الانتصارات، وأخيراً يجب أن يعيه وبقوة هؤلاء الذين لا يرون في دراسة تاريخ أمتهم فائدة، ويهيلون التراب على تراثهم لهثًا وراء الزخارف المستوردة من عند أعدائنا، ووقوعًا في حبائل الحاقدين والكارهين للإسلام وأهله.

• النفق المظلم:

بعد أن حقق المسلمون انتصارهم الهائل على جحافل التتار البربرية الهمجية، والتي لم تكن هزمت من قبل وذلك في معركة «عين جالوت» الخالدة، سطع نجم المماليك في سماء البشرية عامة والأمة المسلمة خاصة؛ لأنهم تولوا مهمة إيقاف الانسياح الوحشي للتتار في أرجاء المعمورة كلها، وبرز يومها البطل والقائد العظيم «سيف الدين قطز» قائد النصر العظيم يوم «عين جالوت»، ومن بعده الأمير «بيبرس» الذي حكم «مصر» و«الشام» و«الحجاز» طيلة عشرين عامًا وقف خلالها كالسد المنيع أمام أعداء الأمة من الصليبيين، والتتار الذين حاولوا إعادة الكرة على ديار «الشام»، ولكن الأسد الضاري كان لهم بالمرصاد حتى مات سنة ٦٧٦هـ.

بعد ذلك بدأت السنن تعمل في هذه الأمة، وبدأت تدريجيًا في الولوج داخل النفق المظلم: نفق الفرقة والاختلاف، حيث تولى بعد «بيبرس» ولده «السعيد»، وكان شابًا صغيرًا لا يصلح للإمارة والملك، وكان ذلك أول الوهن؛ فانشغل «السعيد» باللّهو واللعب، واضطربت أحوال البلاد والمسلمين، وكره ذلك قادة الجند وأهل الحل والعقد فعملوا على خلعه، فتم ذلك سنة ٦٧٨هـ، ولكنهم داووا الخطأ بخطأ مثله، بل أشد، ذلك لأنهم جعلوا مكانه أخاه الأصغر «سلامش»، وكان في السابعة من العمر!! وتلك هي داهية الدواهي؛ إذ كيف يكون ولي أمر المسلمين طفلاً في السابعة؟ وجعلوا له وصيًا هو الأمير «قلاوون الصالحي» الذي شعر أنه من الحمق والسفه أن يكون ولي أمر طفل في السابعة؛ فخلعه، ونصَّب نفسه مكانه، وتلقب بـ«المنصور»؛ فبايعه الناس والأمراء.

عندما جرت تلك الأمور كان أمير «دمشق» رجلاً اسمه «سنقر الأشقر»،

وكان من المقربين للظاهر «بيبرس»، وكان أميرًا على «دمشق» وضواحيها من أيام الظاهر «بيبرس»، فرفض «سنقر الأشقر» مبايعة «المنصور»؛ لأنه كان يرى في نفسه أنه أحق بالسلطنة من «قلاوون الصالحي»، فأعلن نفسه واليًا وسلطانًا على «الشام»، وبايعه الأمراء والجند هناك، وجرت خطوب كثيرة، وأعد «قلاوون الصالحي» جيوشًا كبيرة وأرسلها للشام لمحاربة «سنقر الأشقر» باعتباره خارجًا على السلطة الشرعية، وزاد من الطين بلة انضمام الكثير من الأعراب والبدو لجيش «سنقر الأشقر»، وتفاقم الأمر جدًا وتقاتل المسلمون فيما بينهم، وانتصر المصريون على الدمشقيين، وهرب «سنقر الأشقر» إلى شمال «الشام»، واستولى على عدة حصون، ونقل بها متاعه وأمواله وعياله، واستعد لجولة أخرى مع «قلاوون الصالحي».

ولما دخلت سنة ٦٧٩هـ كانت المهزلة على أشدها؛ فـ«قلاوون الصالحي» الحاكم على «مصر» وبعض بلاد «الشام»، و«سنقر الأشقر» حاكمًا على «دمشق» وأعمالها، و«مسعود بن الظاهر» حاكمًا على الكرك، و«ناصر الدين محمد بن تقي الدين» حاكمًا على حماة، و«يوسف بن عمر» حاكمًا على «اليمن»، و«نجم الدين بن أبي نمي الحسني» حاكمًا على «مكة»، و«عز الدين جماز الحسيني» حاكمًا على «المدينة»، في حين أن التتار تحكم «العراق» وبلاد «الجزيرة» و«خراسان» و«أذربيجان» و«الموصل» و«إربل» وبلاد «بكر» وما حولها، وهكذا تمزق جسد الأمة تحت طعان أعدائها وخذلان أبنائها؛ وهل مثل هؤلاء يُنصرون؟!

• النتيجة الحتمية:

أثناء هذه الفرقة والاختلاف والاقتتال الداخلي بين المسلمين حدث ما لم يكن في حسبان هؤلاء الحريصين على ملكهم ومناصبهم، والذي كان لابد أن

يقع؛ فهو نتيجة حتمية لكل هذا التفرق والخلاف؛ حدث أن استعد التتار المتربصون بالمسلمين للهجوم مرة أخرىٰ علىٰ «الشام» و«مصر»؛ فهم لم ينسوا هزيمتهم الفظيعة بـ«عين جالوت»، وقد جاءتهم الفرصة عندما سمعوا بتفرق كلمة المسلمين واقتتالهم فيما بينهم، فأقبلوا بجحافل مهولة من «العراق» للانقضاض علىٰ «الشام»، وقد ظنوا أن «سنقر الأشقر» سيكون معهم علىٰ «قلاوون الصالحي»، وهكذا يظن دائمًا أعداء الإسلام في هؤلاء وأشباههم.

لما وصلت أخبار الهجوم التتاري الكاسح علىٰ بلاد «الشام» انجفل الناس من ديارهم خوفًا وفزعًا من بطش التتار بالمسلمين، فالذكريات الأليمة في أذهان الناس عن فظائع التتار منذ أيام «هولاكو» مازالت عالقة وحية في القلوب، ومما زاد من مخاوف الناس تفرق قادة المسلمين وحكامهم، وعدم وجود قوة نظامية موحدة لردع هؤلاء المعتدين..

• عودة الوعي:

عندما وصلت الأخبار للسلطان «قلاوون الصالحي» - وكان رجلاً عاقلاً حكيمًا - أدرك أن سر تقدم التتار ما لمسوه من تفرق كلمة المسلمين، وأن السبيل الوحيد لردع هؤلاء التتار هو توحيد المسلمين، والاتفاق علىٰ كلمة سواء أمام العدو، فأرسل «المنصور» إلىٰ «سنقر» برسالة يقول فيها: «إن التتار قد أقبلوا إلىٰ المسلمين، والمصلحة أن نتفق عليهم؛ لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم»، وكان «سنقر» في نفسه عاقلاً، ولكنه ما أقدم علىٰ ما أقدم عليه إلا لظنه في نفسه أنه الأجدر والأحق بالأمر، لذلك لما جاءته رسالة «المنصور» كتب إليه يقول: «السمع والطاعة واليد الواحدة علىٰ عدو المسلمين».

استعد المسلمون لقتال التتار، وبرز «سنقر» من ناحيته ومعه جنوده انتظارًا لقدوم «قلاوون» من «مصر»، وعمت الفرحة المسلمين، واطمأنت قلوبهم

وعادوا لديارهم استعداداً لقتال جحافل التتار الغازية، فلما علم التتار باتحاد كلمة المسلمين كروا راجعين إلىٰ «العراق» مرة أخرىٰ؛ لعلمهم بأن لا طاقة لهم بالمسلمين إذا اتحدوا، وفرح المسلمون بذلك فرحًا شديدًا.

• الحقد الأعمى:

هدأت الأمور قليلاً علىٰ الجبهة الشامية، واطمأن الناس عدة شهور لغياب التهديد التتاري، ولكن لم تطل فترة الهدوء كثيراً، ذلك لأن القائد العام للجيوش التتارية «منكو تمر بن هولاكو» الرهيب كان شديد الحقد والكراهية للمسلمين، تشرب قلبه الكفر والغل من أبيه التتاري وأمه الصليبية؛ فنشأ لا يطيق أن يسمع كلمة مسلم، أو يرىٰ مسلمًا، وتعتمل في قلبه رغبة عارمة للقضاء علىٰ دين الإسلام وأهله، في حين أن ملك التتار الأكبر هو «أبقا بن هولاكو» وكان رجلاً عاقلاً ولكنه ضعيف أمام سطوة أخيه «منكوتمر»، لذلك فقد أرغم «منكوتمر» أخاه «أبقا بن هولاكو» علىٰ إعلان الحرب مرة أخرىٰ علىٰ المسلمين بالشام لاستئصال دولة المسلمين بأسرها رغم معارضة «أبقا» لتلك الحرب.

وصلت أخبار الهجوم التتاري الجديد علىٰ «الشام» للسلطان «المنصور قلاوون» فكتب إلىٰ ملوك المسلمين بـ«الشام» و«الحجاز» و«اليمن» يستدعي الجيوش والجنود لمواجهة الزحف التتاري، واشتد الكرب علىٰ الناس، وقنت الخطباء والأئمة في الجوامع، واجتمع المصلون في جامع «دمشق»، ووضعوا المصحف العثماني بين أيديهم، وجعلوا يبتهلون لنصرة الإسلام ويدعون ويبكون، والتتار يقبلون شيئًا فشيئًا حتىٰ وصلوا إلىٰ مدينة «حماة»؛ فقاموا بإحراقها وقتل أهلها كعادتهم الشريرة مع كل بلد يدخلونها.

كان بالشام كثير من أهل الذمة من النصارىٰ واليهود، وكان لهم من قبل أيام الحملات الصليبية والهجوم التتاري الهولاكي الأول مواقف مخزية وحقيرة

في التعاون مع الأعداء على المسلمين، الذين كانوا يعاملوهم معاملة حسنة وطيبة لقرون خاصة موقف النصارى بـ«دمشق» سنة ٦٥٨هـ، وما فعلوه بالمساجد يوم دخول التتار، كل هذه الخيانات دفعت الملك «المنصور قلاوون الصالحي» لأن يصدر مرسومًا بإجبار أهل الذمة العاملين بالدووواين الرسمية باعتناق الإسلام خوفًا من غدرهم وخيانتهم للمسلمين لحساب التتار، وقد اعترض العلماء على هذا المرسوم، وتم إبطاله فعلاً ولكن بعد انتهاء المعركة الرهيبة.

• المعركة الكبرى:

وصل الجيش التتاري العرمرم الذي يقدر تعداده بأكثر من مائة ألف مقاتل إلى «حمص» حيث معسكر المسلمين وجيشهم يقدر بخمسين ألفًا، وذلك يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠هـ مع طلوع النهار، ولم يمهل التتار المسلمين شيئًا حتى بدأوا الهجوم الكاسح بكل قواتهم، وصمد لهم المسلمون صمودًا بالغًا فاقتتل الفريقان قتالاً رهيبًا لم يسمع بمثله من أيام «عين جالوت»، وتأرجحت كفة القتال من فريق لآخر، ففي أول النهار استظهر التتار على المسلمين وكسروا ميسرة الجيش الإسلامي، واضطربت الميمنة أيضًا، وفر كثير من المسلمين من أرض المعركة، فقامت مجموعة كبيرة من التتار باتباع الفارين.

كان هروب كثير من المسلمين من المعركة موجعًا ومؤلمًا على قلوب المخلصين والصادقين من المجاهدين، فقام السلطان «قلاوون الصالحي» فحفز الجند وثبت ثباتًا عظيمًا جدًا في طائفة قليلة من جنده، فلما رأى أعيان الأمراء والأبطال والشجعان ذلك الثبات من قائدهم تشجعوا فيما بينهم وأجمعوا أمرهم، وحملوا عدة حملات متتالية بشدة وبعنف على صفوف التتار، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة والسلطان «قلاوون» ثابت في مكانه يقاتل كالأسد الضاري

وليس معه إلا القليل، ثم جاء الأمير «عيسىٰ بن مهنا» أمير العرب بكتيبة من فرسان الصحراء، وصدم الجيش التتاري من ناحية العرض؛ فاضطرب الجيش التتاري لصدمته بشدة، وفر الكثيرون من أرض المعركة فأتبعهم المسلمون يقتلون ولا يأسرون.

حدث أثناء القتال ما لم يكن متوقعًا؛ ذلك أن الفريق التتاري الذي قام بمطاردة المسلمين الفارين في أول النهار قد عاد إلىٰ أرض المعركة فوجدوا إخوانهم بين قتيل وأسير، وجريح وفار، ووجدوا السلطان «قلاوون الصالحي» في طائفة قليلة من جنده، فطمعوا أن ينالوا ثأرهم من المسلمين بقتل سلطانهم، فهجموا بكل قوة وضراوة علىٰ كتيبة السلطان وكلهم حقد وكراهية، فثبت لهم السلطان ومن معه ثباتًا كبيرًا، وقاتل السلطان قتال الأبطال الكبار فلم يستطيعوا أن ينالوا منه شيئًا ورجع الناس إلىٰ سلطانهم وانتصروا علىٰ تلك الفرقة التتارية الحاقدة.

ومن المشاهد الرائعة والمؤثرة في القتال هذا الموقف البطولي الذي قام به أحد أبطال الإسلام: وهو الأمير «عز الدين الحاج» عندما اخترق صفوف التتار غير مكترث بكثرتها، وخاطر بنفسه من أجل هدف واحد وهو قتل قائد التتار الحاقد «منكوتمر»؛ حيث قام بقلب رمحه قبل أن يصل إلىٰ مكانه ليوهم أنه لا يريده؛ فلما اقترب منه قلب رمحه في لمح البصر، وطعن «منكوتمر» فأصابه إصابة بالغة، ولكن لم يقتله، وتكاثر عليه التتار حتىٰ قتلوه رحمه اللَّه، وكان من قبل ذو همة عالية، وديانة وحرص علىٰ طلب الشهادة في كل موطن، حتىٰ نالها في يوم معركة «حمص» الكبرىٰ.

انهزم التتار حتىٰ وصلوا إلىٰ نهر الفرات فغرق أكثرهم فيه، ونزل إليهم

أهل مدينة «ألبيرة» فقتلوا منهم خلقًا كثيراً، وسرايا الجيش الإسلامي خلفهم يطردونهم عن البلاد، حتىٰ أراح اللَّه منهم الناس، وكان من عزم السطان «المنصور» أن يواصل مطاردتهم حتىٰ يردهم عن بلاد الإسلام كلها، ويطردهم من «العراق» إلىٰ ما وراء النهر، ولكن اختلاف الصف مرة أخرىٰ بعد المعركة حال دون تحقيق هذا الهدف العظيم، أما ملك التتار «أبقا بن هولاكو» فقد أصيب بالهم والغم الشديد وساءه ما جرىٰ جداً؛ لأن الحرب كانت علىٰ غير هواه ورأيه، حتىٰ قتله الهم والحزن في نفس السنة في ذي القعدة سنة ٦٨٠هـ.

البداية والنهاية	محاضرات في تاريخ الأمة الإسلامية	أطلس تاريخ الإسلام
تاريخ الخلفاء	التاريخ الإسلامي	موسوعة التاريخ الإسلامي
النجوم الزاهرة		

معركة كوسوفا . ذاكرة الصليب

الزمان/ ٧٩١هـ .

المكان/ سهل قوص أو «كوسوفا» ـ البلقان .

الموضـــــوع/ العثمانيون بقيادة «مراد الأول» ينتصرون على الصرب ويفتحون منطقة البلقان .

الأحداث

• ذاكرة الصليب:

عندما قامت دولة الصرب الصليبية الحاقدة بعد تفتت ما كان يعرف سابقًا باتحاد «يوغسلافيا » قامت هذه الإمارة الصليبية الجديدة بضم إقليم «كوسوفا» ذي الأغلبية الألبانية المسلمة وذلك سنة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، وكان يوم إعلان الضم بمثابة الصدمة لذاكرة الأمة المسلمة ، حيث قال زعيم الصرب في خطبة حفل الضم عبارة في منتهي الغرابة قال : «والأن انتهت معركة كوسوفا» ، وتعجب الناس فما هي تلك المعركة؟ ولماذا يتحدث عنها هذا الصليبي الحاقد وهو في غاية التشفي والنشوة ؟ ، ولكن العجب يزول عندما يكتشفون أنها معركة وقعت قبل ستمائة سنة وزيادة ، وانتصر فيها المسلمون العثمانيون علي الصرب انتصاراً هائلاً فتحت على إثره بلاد «البلقان» أمام الإسلام ، فالمأساة الحقيقية التي تعيشها الأمة المسلمة الآن هي ضعف أو فقدان الذاكرة وطمس

الهوية وضياع الانتماء الحقيقي في وقت مازال أعداء الإسلام أصحاب ذاكرة حديدية يورث كل جيل منهم الآخر تراثه وتاريخه وعداوته للإسلام التي أصبحت مثل لبن الرضاع لابد أن يستقي منه الجميع ، فلاعجب إذاً عندما تضيع الأرض فلقد ضاعت من قبلها الذاكرة.

• القوة الناشئة:

في الوقت الذي كانت الأمة الإسلامية تترنح تحت ضربات أعدائها في مشارق الأرض ومغاربها من التتار وصليبي «إسبانيا» وصليبي أوروبا وغيرهم، وفي الوقت التي أشرقت فيه الأمة علي خطة خسف ودمار في مواطن كثيرة قيض اللَّه عزوجل لدينه قوة جديدة ناشئه في منطقة متوسطة من العالم بين الشرق والغرب ، هذه القوة هي الدولة العثمانية التي نشأت سنة ٦٩٩هـ في منطقة آسيا الصغرىٰ وبالتحديد في منطقة «الأناضول» التي كانت منقسمة لعدة إمارات في أغلبها ضعيف ومتفرق ومختلف ولربما متحارب، وحال إمارات «الأناضول» أصبح أشبه ما يكون بدولة الطوائف بـ«الأندلس» ، فقيض اللَّه عزوجل لـ«الأناضول» القوة العثمانية التي ستوحِّد الإمارات المتفرقة . كان أول من قاد الدولة العثمانية هو «عثمان بن أرطغرل» والذي حكم من سنة ٦٩٩هـ حتي ٧٢٦هـ، ومن بعده «أورخان الأول» والذي حكم من سنة ٧٢٦هـ حتي سنة ٧٦١هـ، ومن بعده كان «مراد الأول» والذي حكم من سنة ٧٦١هـ حتي سنة ٧٩١هـ، وقد ورث الدولة من أبيه وجده وحجمها وساحتها تبلغ خمسة وتسعين ألف كيلو متر مربع ، ولم يكن للدولة العثمانية أي قواعد بأوربا ما عدا ميناء «غاليبولي»، ولم تكن أية إمارة أناضولية انضمت للدولة العثمانية سوىٰ إمارة «قره سي» لاهتمام أبيه وجده بترسيخ وتأسيس شكل الدولة

العثمانية وتثبيت أركانها اجتماعيًا وسياسيًا وعلميًا واقتصاديًا .

• مراد الأول وتوحيد الأناضول:

كما سبق وقلنا أن «أورخان» كان مهتمًا بصقل الدولة الوليدة وتثبيت أركانها ، لذلك لم يتوسع أفقيًا إنما ركز على التوسع الرأسي ، فلما اعتلى السلطان «مراد الأول» سدة حكم الدولة العثمانية ركز كل جهوده على التوسع الأفقي على الجهتين الداخلية والخارجية ، وإنما نعني بالداخلية : منطقة «الأناضول» فحاول ضم الإمارات المسلمة بـ«الأناضول» بالطرق السلمية بالمصاهرة والمعاهدة ، ولكنه اصطدم بعداوة أمير القرمان «علاءالدين» الذي استنهض همم أمراء «الأناضول» لمحاربة الدولة العثمانية وعندها اضطر «مراد الأول» للجوء للخيار العسكري رغم كراهية جنوده لهذا النوع من القتال .

جهز «مراد الأول» جيشًا قويًا استطاع احتلال إمارة «القرمان» ، ولكنه ورغبة منه في المسالمة أبقى «علاء الدين» في إمارته وصاهره بالتزوج من ابنته ، ولكن نار حقد «علاء الدين» لم تبرد أو تنطفىء وأعاد الحرب مرة أخرى ضد الدولة العثمانية ، ولكن «مراد» انتصر عليه مرة أخرى ، ثم عفا عنه مرة أخرى ، وبعدها ضم إمارة «كرميان» وإمارة «دولة الحميد» وبذلك هيأ «مراد الأول» الجبهة الداخلية استعداداً للعمل على الجبهة الخارجية .

• العثمانيون وأوروبا:

من أول عام تسلم فيه «مراد» الحكم عمل على إيجاد نقطة استراتيجية للعثمانيين بأوروبا ، وبالفعل استولى على مدينة «أورنة» البلقانية سنة ٧٩٢هـ ، وكانت أهم مدينة بعد «القسطنطينية» عند الدولة البيزنطية ، وفوراً اتخذ «مراد الأول» قراراً هامًا جدًا يجعل من مدينة «أورنة» البلقانية الاوروبية

عاصمة للدولة العثمانية المسلمة لينقل الوجود الإسلامي إلى قلب القارة الأوروبية، وتكون نقطة انطلاق وقاعدة هجوم على أوروبا وقد ظلت «أورنة» عاصمة للدولة العثمانية حتى فتح «القسطنطنية» سنة ٨٥٧هـ، وبالفعل تم فتح مدينة «فليبه» - جنوبي بلغاريا اليوم - و«كلجمينا» و«وردار»، وبالتالي صارت «القسطنطينية» محاطة بالعثمانيين من كل مكان في أوروبا.

• الحلف الصليبي:

كانت الدولة البيزنطية أشد الدول الأوروبية تخوفًا من القوة الجديدة - الدولة العثمانية - للنوايا المعلنة لسلاطين تلك الدولة المسلمة بحتمية فتح «القسطنطينية»، وكان لسقوط «أورنة» وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وقع شديد في نفسية إمبراطور «القسطنطينية» الذي هرع لبابا «روما» «أوربان الخامس» وركع أمامه وقبل يديه ورجليه وطلب منهم المساعدة وإعلان حرب صليبية جديدة ضد المسلمين رغم الاختلاف العقائدي المذهبي بين الرجلين، فهذا أرثوذكسي وهذا كاثوليكي، وكلاهما يشهد على الآخر بالكفر، إلا أنه إذا تعلقت المسألة بعداوة الإسلام فهما متفقان متحدان، فأعلن البابا حربًا صليبية جديدة ضد المسلمين بأوروبا.

لم ينتظر ملك «المجر» الحاقد «أوروك الخامس» دعم البابا فاتحد مع أمراء «الصرب» و«البوسنة» و«رومانيا»، واستغلوا انشغال السلطان «مراد الأول» في حروب داخلية بآسيا الصغرى، حيث مازالت هناك بعض الإمارات المستقلة، وهجم الحلف الصليبي الذي يقدر بستين ألف مقاتل على مدينة «تشيرمن» عند نهر «مارتيزا»، ولكن القائد العثماني الكبير «لالاشاهين» قائد الحامية العثمانية هناك استطاع أن ينزل هزيمة ساحقة بالتحالف الصليبي رغم الفارق الكبير بين الجيشين، وهرب الأميران الصربيان ولكنهما غرقا في نهر

«مارتيزا» ونجا ملك «المجر» «أوروك الخامس» بشق الأنفس ، وبعد ذلك اتفق ملك الصرب «لازار بليانوفيتش».وكان شديد الكراهية والعداء للمسلمين عامة والعثمانيين خاصة.مع رجل لا يقل حقداً ولابغضاً منه للمسلمين وهو أمير البلغار (سيسمان) على قتال العثمانيين ولكن بعد مناوشات خفيفة مع العثمانيين أدركوا مدى ضعفهم مقارنة بالقوة العثمانية، فاضطروا إلى دفع جزية سنوية للسلطان «مراد الأول» الذي تزوج من ابنه أمير البلغار.

نتيجة لتأخر الصرب والبلغار في دفع الجزية اندفعت الجيوش العثمانية لتأديب المتمردين وفتحت بعض المدن الصربية في جنوبي «يوغوسلافيا» اليوم، وفتحت مدينة «صوفيا» سنة ٧٨٤هـ بعد حصار دام ثلاث سنوات وفتحت مدينة «سالونيك» المقدونية، وهي تقع الآن في «اليونان»، وبلغت قوة الدولة العثمانية وسلطانها «مراد الأول» أن إمبراطور «بيزنطة» «يوحنا باليوح» قام بقتل ولده (اندرونيكوس) خوفاً من بطش (مراد الأول) لأن «اندرونيكوس» تحالف من الخارجين على «مراد الأول».

• بين المطرقة والسندان:

كان الأمير «علاء الدين القرماني» نكبة من نكبات الزمان على الإسلام والمسلمين، فرغم إحسان السلطان «مراد الأول» له عدة مرات وصفحه المتكرر عنه ومصاهرته له وإقراره له على منزلته وقيادته لإمارة «القرمان»، إلا أن «علاء الدين» كان دائم التآمر والكيد للعثمانيين والتدبير لإزالة ملكهم ودولتهم رغم كل ما سبق، لذلك فقد استغل «علاء الدين» فرصة انشغال السلطان «مراد الأول» بحروبه على الجبهة الأوروبية ضد تحالف الصليب البلقاني وشن هجمات قوية بالاشتراك مع أمراء مقاطعات «فتشا/ أيدين/ صار وخان» بـ«الأناضول» وحقق مكاسب عديدة، مما جعل السلطان «مراد الأول»

يرتد سريعًا لـ«لأناضول» للقضاء على الفتنة الناشئة قبل أن يستفحل أمرها وتهدد الكيان العثماني كله .

استغل الصليبيون بدورهم انشغال «مراد الأول» بحرب «علاء الدين» وقرروا إعداد تحالف صليبي جديد لاسترداد ما استولى عليه العثمانيون بـ«البلقان» ، فتحالف الصرب و البلغار والبوسنيون وأعدوا جيشًا كثيفًا واستطاعوا أن يحققوا عدة انتصارات محدودة على الحامية العثمانية في جنوب الصرب ، مما شجع أمير البلغار «سيمانا» الأحمق أن يهجم على حدود الدولة العثمانية ولكنه فوجئ بما ليس له به طاقة من الجيوش العثمانية الجرارة التي داهمته كالإعصار الهادر ففر ناحية الشمال واعتصم بمدينة «نيكوبلس» في شمال بلغاريا ، وحاول إعادة الكرة وأرسل استغاثة صليبية لنصارى «البلقان» ، وبالفعل اجتمع عنده جيش كبير وهجم علي القوات العثمانية المحاصرة لـ«نيكوبلس» ، ولكنه هزم شر هزيمة ووقع أسيرًا بيد المسلمين ، ولكن السلطان «مراد الأول» كعادته عفا عنه وأحسن إليه وأبقاه أميرًا على نصف بلغاريا ، وضم النصف الأخر للدولة العثمانية .

وهكذا أصبح العثمانيون بين المطرقة والسندان مطرقة الصليبيين وسندان الطامعين وطلاب المناصب والدنيا

معركة كوسوفا (قوص أوه):

بعدما فرغ السلطان «مراد الأول» من أمير البلغار «سيسمان» كان لابد من تأديب الكلب الصليبي «لازار» ملك الصرب لأنه كان المحرض الأول للتحالف الصليبي البلقاني ، فكان حتمًا على المسلمين القضاء على رأس الأفعى الصليبية ، وكان «لازار» قد انسحب بجيوشه ناحية الغرب بعدما رأى هزيمة «سسيمان» وحاول «لازار» دخول بلاده والاحتماء بحصونه ، ولكن الجيوش العثمانية أدركته عند سهل كوسوفا «قوص أوه» ، ودارت حرب

طاحنة بين الفريقين على غيظ وحنق من كلاهما وصبر من كلاهما صبراً بليغًا حتى أنزل اللَّه عز وجل نصره على المسلمين، وقتل الخبيث «لازار» بسبب ما فعله من شناعات ومذابح بحق أسرى المسلمين.

• استشهاد مراد الأول:

بعد الانتصار الساحق الذي حققه المسلمون على الصرب الملاعين، قام السلطان «مراد الأول» يتفقد ساحة المعركة ويدور بنفسه بين صفوف شهداء المسلمين، وهو يدعو لهم كما تفقد الجرحى، وفي أثناء ذلك قام جندي حربي ملعون اسمه «مليكوفيتش» وكان قد تظاهر بالموت ليفلت من سيوف المسلمين، وأسرع نحو السلطان متظاهراً برغبته في الإسلام ومحادثة السلطان فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكن السلطان أشار للحرس بأن يطلقوه فلما اقترب من السلطان تظاهر أنه يريد تقبيل يد السلطان وبمنتهى الغدر الشيطاني أخرج هذا الكلب الصربي خنجراً مسمومًا من كمه وطعن به السلطان، وأسرع الحراس وهبروا الكلب بسيوفهم، ولكن ذلك لم يفد شيئًا فقد استشهد السلطان «مراد» ـ رحمه اللَّه ـ في ١٥ شعبان ٧٩١هـ وعمره ٦٥ عامًا.

من روائع الأخبار في شأن هذا السلطان العظيم أنه قد شعر قبل هذه المعركة أنها ستكون آخر معاركه الطويلة، والتي بلغت سبعًا وثلاثين معركة كلها في سبيل اللَّه ولم يخسر منها واحدة، فناجى ربه عز وجل ليلة المعركة فقال: «يا اللَّه يا رحيم يا رب السموات يا من تتقبل الدعاء لاتخزني يا رحمن يا رحيم، استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة أرسل علينا السماء مدراراً، وبدد سحب الظلام فنرى عدونا وما نحن سوى عبيدك المذنبين، إنك الوهاب ونحن فقراؤك، أفديك روحي فتقبل رجائي ولا تجعل المسلمين يبوء بهم الخذلان أمام العدو، يا إلهي إنني أقسم بعزتك وجلالك أنني لا أبتغي من

جهادي هذا الدنيا الفانية ولكنني أبتغي رضاك، ولا شيء غير رضاك يا إلهي إنني أقسم بعزتك وجلالك أنني في سبيلك فزودني تشريفًا بالموت في سبيلك».

فلما رأى اللَّه عز وجل صدقًا وإخلاصًا من «مراد» في سؤاله الشهادة في سبيله أعطاها إياه فانضم لطابور القادة الشهداء الذين قادوا الجيوش وسألوا اللَّه الشهادة مثل «أنس بن النضر»، و«البراء بن مالك»، و«النعمان بن مقرن»، وغيرهم ممن انطبق عليهم قول اللَّه عز وجل: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

تاريخ الدولة العلية	تاريخ الدولة العثمانية	أصول التاريخ العثماني
موسوعة التاريخ الإسلامي	أطلس تاريخ الإسلام	شذرات الذهب
التاريخ الإسلامي	عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية	
الدولة العثمانية المفترى عليها		

معركة نيكوبلس . التحالف المقدس

الزمان / ٢٣ ذي القعدة ـ ٧٩٨ هـ.

المكان / مدينة نيكوبلس ـ شمال بلغاريا .

الموضوع / السلطان «بايزيد الصاعقة» ينتصر على التحالف الصليبي الأوربي .

الأحداث

• مقدمة:

إن الحرب الظالمة الجائرة التي تقودها أمريكا ضد الإسلام وأهله هي حرب دينية محضة ـ لا شك في ذلك عند ذوي الفهوم السليمة ـ وإن لبست أقنعة زائفة كثيرة، وتدثرت بلباس الدفاع عن الحرية والديمقراطية، وغير ذلك من الأكاذيب التي لا تروج إلا على المغفلين بإرادتهم، تلك الحقيقة الجلية الواضحة أثبتتها صفحات التاريخ، وفصوله الزاخرة بدلائل التآمر الصليبي المستمر على هذه الأمة، ومن يحصر الحملات الصليبية في تلك الحملات السبع التي شنت على بلاد الشام من سنة ٤٩١هـ حتى ٦٨٠هـ ولا يتعداها هو قطعًا ويقينًا مخطئ، والتاريخ يكذبه، والأيام تخالفه، وما نرويه خير دليل.

السلطان الصاعقة:

هو السلطان «بايزيد بن السلطان مراد الأول»، وقد تولى سلطنة الدولة العثمانية وهو في الثلاثين من عمره، وكان شديد الحماسة للجهاد في سبيل الله عز وجل سريع الحركة، يحارب في عدة جبهات بهمة عالية وثابتة، ومن

سرعة تنقله وانقضاضه في القتال لُقب بالصاعقة، وكان العثمانيون منذ نشأتهم يعملون على تحقيق هدف أسمى: ألا وهو فتح «القسطنطينية»؛ لذلك فلقد كان الجهاد في سبيل الله هو الركيزة التي قامت عليها الدولة العثمانية؛ فهي دولة جهادية في المقام الأول، والهدف «القسطنطينية»، وكانت تحركات سلاطين العثمانيين كلها في ضوء هذا الهدف.

ونظراً لهذه السياسة الجهادية فلقد عمل السلطان «بايزيد الصاعقة» على التفاهم مع «الصرب» رغم كونهم ألد أعداء الإسلام، ورغم قتلهم لأبيه «مراد الأول» في معركة «سهل كوسوفا» إلا أنه رأى في ذلك مصلحة للمسلمين، حتى يكون الصرب حاجزاً بين العثمانيين وبين مملكة المجر التي كانت تعد وقتها أقوى الممالك الصليبية، ورأس الحربة في الصراع بين الشرق والغرب، أو الإسلام والصليبية، وعين السلطان «بايزيد الصاعقة» الأمير «اصطفان بن لازار» ملكًا على الصرب حتى يضمن ولاء الصرب، واشترط عليه أن يدفع له جزية سنوية، مع تقديم عدد من المقاتلين في حالة الحرب للقتال مع العثمانيين، ولو ضد إخوانهم: نصارى أوروبا.

(فقه المصلحة من أهم ما يلزم قادة المسلمين على مر العصور حتى لا يقدموا على خطوة في غير صالح الأمة، ولا يتأخروا عن خطوة فيها نفع عظيم: مؤجل، أو معجل).

• الجبهة الداخلية:

كانت الجبهة الداخلية أو «الأناضول» هي أولى خطوات السياسة الجهادية لـ«بايزيد الصاعقة»؛ إذ لابد من توحيد الصف قبل الشروع في أي عمل عظيم مثل الجهاد في سبيل الله، وكانت منطقة الأناضول منقسمة إلى عدة إمارات ودويلات صغيرة لا تستطيع الواحدة بمفردها تحقيق أي شيء؛ ومن هذه

الإمارات إمارة «فتشا» و«أيدين» و«صاروفان» و«اسفنديار» و«القرمان»، وقد استطاع «بايزيد» أن يقنع الإمارات الثلاثة بأهمية الاتحاد في وجه أعداء الإسلام، فانضموا للدولة العثمانية طوعًا، أما الباقي فقد رفضوا فكرة الاتحاد، بل أكثر من ذلك فلقد بدأ أمير القرمان الحرب ضد العثمانيين، ولكنه هزم، وفر هو وباقي الأمراء إلى مملكة «تيمورلنك»، وسيكون ذلك سببًا لمعركة «سهل أنقرة» بعد ذلك بعشر سنوات، وستكون الانهيار الأول للدولة العثمانية.

• تحالف الصليب المقدس:

بعد أن وحد «بايزيد الصاعقة» الصف الداخلي استدار إلى الهدف الأسمى: «القسطنطينية»؛ فاتجه إلى أوروبا، وقام بمحاصرة «القسطنطينية» سنة ٧٩٤هـ، وضيق عليها بشدة، ولكن في رأسه هدفًا آخر، حيث انقض فجأة وكعادته على «بلغاريا»، ووجه لها ضربة خاطفة، واستولى عليها بعد حرب سريعة، وقتل ملك بلغاريا «سيسمان»، وأصبحت بلغاريا من يومها ولاية عثمانية، وأعلن ابن «سيسمان» إسلامه، وانتقل للخدمة مع «بايزيد» الذي جعله واليًا على «صامسون».

كان فتح بلغاريا بمثابة الشرارة التي أطلقت مخاوف صليبي أوروبا، وأثارت أحقادهم، وأخرجت مكنونات صدورهم، وكان أشدهم تخوفًا وتوجسًا هو «سيجسموند» ملك المجر الذي شعر بالخطر العثماني يقترب من حدود مملكته؛ فهرع إلى البابا «بونيفاس» التاسع، وركع على ركبتيه أمامه وقبَّل يديه، وبللهما بدموعه، وطلب منه الدعوة لتكتل أوروبي صليبي ضد الدولة العثمانية في تحالف صليبي شامل يهدف لإزالة الوجود الإسلامي بالكلية من أوروبا.

لم يكن بابا روما «بونيفاس» التاسع بحاجة لتوسلات ملك المجر «سيجسموند»؛ لأنه هو الآخر كان قلقًا للغاية من تصاعد نجم العثمانيين،

وميولهم التوسعية في أوروبا وتركيزهم على هدف استراتيجي : وهو فتح «القسطنطينية» ، لذلك لم يتوانَ «بونيفاس» التاسع في إطلاق صيحته الصليبية الشهيرة ، والتي أدت لتقاطر كل صليبي أوروبا من جميع أرجائها ، ومن مختلف الجنسيات «ألمانيا ، وفرنسا ، وانجلترا ، واسكتلندا ، وسويسرا ، ولوكسمبرج ، والإمارات الإيطالية» إضافة إلى فرسان المعبد الذين خرجوا من الشام بعد انتهاء الحملات الصليبية عليها ، وتمركزوا في جزيرة «قبرص» ، فكان هذا التحالف هو الأكبر من نوعه ضد العثمانيين منذ قيامهم ؛ (**هذا التحالف هو عين ما ينهى أعداء الإسلام المسلمين عنه، ويخوفون منه، ويعملون جاهدين على ألا تجتمع للمسلمين راية واحدة تضم تحت لوائها كل من ينطق بالشهادتين على اختلاف ألوانهم وألسنتهم؛ فهم يطبقون الولاء والبراء، ويمنعونا عنه، ويتحالفون ويتحدون في حين أن المسلمين يتفرقون ويختلفون؛ فلا عجب أن تذهب ريحهم، ويفشل رأيهم، ويتذيلوا الركب**).

• معركة نيكوبلس:

تحركت الحملة الصليبية الجرارة يقودها ملك المجر «سيجسموند» ، وكان تعدادها مائة وعشرين ألف مقاتل ؛ مما أدخل الغرور والتيه إلى قلب «سيجسموند» ؛ فوقف مزهوًا يقول : «لو انقضت السماء من عليائها ؛ لأمسكناها بحرابنا» وهذا الغرور أدى بقادة الجيش الصليبي للاختلاف مع «سيجسموند» ؛ حيث كانوا يرون رأيًا مخالفًا له حتى كان يرى انتظار العثمانيين حتى يبدءوا الهجوم ، في حين يرى باقي قادة التحالف ضرورة المبادرة بالهجوم ، وغلب رأيهم رأي «سيجسموند» ، وقرروا الهجوم ، وانحدروا مع نهر «الدانوب» حتى وصلوا إلى مدينة «نيكوبلس» شمال بلغاريا في منطقة البلقان ، وكانت بالمدينة حامية عثمانية ؛ فقام الصليبيون بحصار المدينة ، واشتبكوا مع حاميتها ، وانتصروا عليها لفارق الإمكانيات الكبير .

لم تكن هذه التحركات والتحالفات من الجانب الصليبي لتخفى على قائد مثل «بايزيدالصاعقة» الذي حشد مائة ألف مقاتل، وأظهر أن وجهته بعض الإمارات الشمالية بالأناضول، والتي كانت خارج سيطرة الدولة العثمانية، ثم انحرف بسرعة كبيرة إلى جهة شمال الغرب حيث بلغاريا وبالتحديد مدينة «نيكوبلس»، وكعادته انقض كالصاعقة المحرقة على التحالف الصليبي، ولم يبال بالفارق بين الجيشين، ودارت رحى حرب طاحنة أذهل العثمانيون أعداءَهم من هول وشدة الهجوم، ولوقع الصدمة الإسلامية فر كثير من الجنود الصليبين من أرض المعركة بما فيهم «سيجسموند» نفسه، وصحبه في الهروب رئيس فرسان رودس، واستقلا سفينة كانت معدة لذلك على ساحل البحر الأسود.

أسفرت المعركة عن هزيمة ساحقة وثقيلة للتحالف الصليبي، ووقع الكثير من قادتهم وأمرائهم أسرى في يد المسلمين، ومن هؤلاء الكونت «دي نيفر» أمير «لوكسمبرج» الذي أقسم لـ«بايزيد» ألا يحاربه مرة أخرى؛ فرد عليه «بايزيد» قائلا: «إني أجيز لك ألا تحفظ هذا اليمين، وأنت في حل من الرجوع لمحاربتي؛ إذ لا شيء أحب إلي من محاربة جميع مسيحي أوروبا والانتصار عليهم»، ثم قال كلمته الشهيرة، التي أدخلت الرعب في قلوب كل صليبي العالم بأسره: «سأفتح إيطاليا، وسأطعم حصاني هذا الشعير في مذبح القديس «بطرس» بروما؛

(انظر إلى هذه العزة والكرامة كيف بلغت مداها في أيام الدولة العثمانية؟! التي يشوه تاريخها الآن كثير ممن ينتسبون للإسلام ـ اسمًا لا رسمًا ـ اقتداءً بأسيادهم من الغرب الذين صبوا حمم حقدهم وغيظهم على هذه الدولة العظيمة التي أدخلت الإسلام إلى أوروبا، ورفعت راية الجهاد في هذا الزمن الذي أصبح شعار كثير فيه طأطئ الرأس، وقبل اليد، وأخفت الصوت تحيى ذليلا، وتموت حقيرًا).

• نتائج المعركة:

كانت لهذه المعركة آثار هامة، ونتائج خطيرة على الصعيد العالمي كله منها: تضاؤل مكانة مملكة «المجر» على مستوى أوروبا خصوصًا، وعلى العالم عمومًا وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة؛ بصفتها حامية الصليب بأوروبا، وفقدت الكثير من أملاكها لصالح «ألمانيا» و«بولندا».

اتخذ «بايزيد» لقب «سلطان الروم»، وأرسل بذلك المعنى رسائل كثيرة إلى ملوك وأمراء المسلمين، وبشرهم بالنصر العظيم على الصليبيين، وكان اتخاذه لهذا اللقب دليلا على وراثته لدولة السلاجقة التليدة، وسيطرته على كل منطقة الأناضول؛ لذلك فلقد أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم بـ«القاهرة» يطلب منه الإقرار على هذا اللقب حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ صفة شرعية على الدولة العثمانية؛ فتزداد هيبة في العالم الإسلامي.

فتح هذا النصر الطريق أمام جموع المجاهدين في سبيل اللَّه للهجرة إلى الدولة العثمانية، وانتقل الآلاف لـ«الأناضول»، وأسهمت هذه الجموع في رفع مستوى الدولة العثمانية خاصة في عهد السلطان محمد الفاتح.

الدولة العثمانية في التاريخ الحديث	التاريخ الإسلامي
تاريخ الدولة العلية	الدولة العثمانية المفترى عليها
عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية	موسوعة التاريخ الإسلامي

موقعة فارنا - حزب الشيطان

الزمان/ ٢٨ رجب ٨٥٢ هـ - ٨٤٨هـ

المكان/ مدينة فارنا - بلغاريا - البلقان

الموضوع/ المسلمون العثمانيون بقيادة «مراد الثاني» ينتصرون على التحالف الصليبي الجديد.

الأحداث

• مقدمة:

هذه المعركة رسالة واضحة لكل من يثق في أعداء الإسلام، ويحسب أن لهم وعدًا أو عهدًا، رسالة لكل من لا يفهم قوله عز وجل: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠]، وقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢].

رسالة إلى هؤلاء الحمقى المنبهرين بأدعياء الحضارة والرقي وحقوق الإنسان، وإلى كل من وضع يده في يد أعداء الإسلام: يعاهدهم، ويتفق معهم، وهو يظن أنهم سيوفون بالعهد، ويحترمون الوعد، رسالة إلى خدام الشرعية الدولية، وأوفياء القانون الدولي في زمان لا يحترم فيه أعداء الإسلام أي شيء وكل شيء.

• السلطان مراد الثاني ورحلة الاتحاد:

عندما بدأت الدولة العثمانية في الظهور في أوائل القرن الثامن الهجري، وضعت لنفسها هدفًا استراتيجيًا، وهو فتح «القسطنطينية» عاصمة الدولة

البيزنطية، واعتمدت من أجل ذلك سياسة توسيع الرقعة الأفقية للدولة الوليدة؛ بضم إمارات الأناضول في آسيا الصغرىٰ، وبالفعل استطاع السلطان «بايزيد الصاعقة» توحيد الصف سنة ٧٩٣ هـ؛ بضم إمارات الأناضول، وبعدها اتجه «بايزيد» إلىٰ أوروبا ليحقق الحلم العثماني الكبير، واستطاع «بايزيد» أن يضم الكثير من المدن والمناطق الأوروبية للدولة العثمانية، وكسر التحالف الصليبي المقدس الذي دعا له البابا «بونيفاس» الرابع، وأصبح قاب قوسين أو أدنىٰ من تحقيق الحلم بفتح «القسطنطينية»، ولكنه اصطدم مع جحافل التتار بقيادة النكبة المتنسب للإسلام زوراً «تيمورلنك» الرافضي، وأسفر هذا الصدام عن انفراط عقد الدولة العثمانية مرة أخرىٰ، وذلك سنة ٨٠٤ هـ، وانفصلت إمارات الأناضول مرة أخرىٰ.

ظلت الدولة العثمانية تعمل علىٰ إعادة وحدتها، وبناء قوتها من جديد، واستمرت رحلة البناء والاتحاد من سنة ٨٠٤هـ حتىٰ سنة ٨٢٥هـ، وذلك في عهد السلطان «مراد الثاني»؛ وكان سلطانًا عالمًا عاقلا عادلا شجاعًا، مهتمًا بشأن العلم والعلماء، محبًا للخير، ميَّالا للرأفة والإحسان، وهو مع ذلك بطل شجاع صنديد، يباشر الحروب بنفسه، ويقود الجيوش دون غيره، وقد أفنىٰ حياته كلها في خدمة قضية الإسلام، ونصرة دين الله.

• متاعب الدولة العثمانية:

كانت أوروبا الصليبية تعلم علم اليقين أن الدولة العثمانية تسعىٰ لنشر الإسلام بين ربوعها، وأن الروح الجهادية العالية التي تمتلئ بها صدور العثمانيين ستساعدهم علىٰ مواصلة السعي الحثيث لتحقيق هذا الهدف، فعملت أوروبا الصليبية كل ما في وسعها من أجل إثارة المتاعب الداخلية، وحركات التمرد داخل الدولة العثمانية؛ فهي التي عملت علىٰ تحريض «تيمورلنك» علىٰ

الاصطدام مع العثمانيين، وكل ذلك من أجل أن ينشغل العثمانيون بأنفسهم عن الجهاد في سبيل اللّه؛ (**وهي خطة ما زال على منوالها ينسج أعداء الإسلا م؛ فإنك لا تكاد ترى صراعًا داخليًا، أو فتنة عمياء تشتعل في بلد إسلامي، إلا وتجد خلفها أصابع أعداء الإسلام تحرك الأحقاد، وتثير الأطماع، وتؤلب الأقليات، وهكذا، وما يحدث بالجزائر المسلمة مِن أحداث وفتن بمنطقة البربر خير دليل علي ما نقول**).

كان الإمبراطور البيزنطي «عمانويل الثاني» خلف كثير مِن المؤامرات والدسائس، والهدف والدافع معروف؛ فهو أوَّلُ مَن يتعرض للخطر إذا تفرغ له العثمانيون؛ فلقد احتضن «عمانويل» رجلا اسمه «مصطفى»: هو عم السلطان «مراد الثاني»، وأمده بأسطول بحري؛ ليقود حركة تمرد ضد العثمانيين، ولَمَّا فشلت تلك الحركة احتضن أخًا للسلطان اسمه أيضًا «مصطفى»، ولكن السلطان «مراد الثاني» كان بالمرصاد لكل هذه المحاولات فعمل على وأدها كلها، وقرر بعدها تلقين «عمانويل» درسًا قاسيًا؛ ليكف عن تآمره ودسائسه ضد المسلمين.

• تأديب المتآمرين:

كان أول التأديب من نصيب «عمانويل الثاني»؛ حيث سار السلطان «مراد الثاني» على رأس جيش قوي، واستولى على مدينة «سالانيك» سنة ٨٣٣هـ، وأصبحت جزءً لا يتجزأ مِن الدولة العثمانية حتى وقتنا الحاضر، ثم اتجه بعدها إلى البلقان، وقضى على حركات التمرد بها، والمدعومة مِن «القسطنطينية».

اتجه «مراد الثاني» بعد ذلك إلى بلاد الأرنؤوط «ألبانيا»، فاستولى على الجزء الجنوبي، وسلم أميرها أبناءه الأربعة كرهينة عند السلطان، حتى لا يثير الفتن مرة أخرى، وبعد هذه الفتوحات الكبيرة خضع ملك الحرب «ستيف لازار» للعثمانيين، ودفع الجزية، وتعهد بقطع كل صلاته مع ملك المجر: العدو اللدود للمسلمين عامة، والعثمانيين خاصة، وتبعه بعد ذلك أمير

الأفلاق «جنوب رومانيا» الآن، ودفع الجزية هو الآخر.

أما أقوى الضربات الموجعة التي تلقتها أوروبا من العثمانيين في حملة التأديب تلك فكانت ضد دولة المجر: التي كانت تعتبر نفسها حامية الصليب في أوروبا، ورأس الحربة الأوروبية في مواجهة التوسع العثماني؛ حيث اصطدم العثمانيون مع المجريين سنة ٨٤٢ هـ في معركة طاحنة انتهت بهزيمة المجريين، وأسر منهم سبعون ألفًا، وكان ملك الحرب وقتها قد مات، وجاء مكانه صليبي حاقد اسمه «جورج برانكوفيتش» خلع عهد وطاعة العثمانين، وتعاون مع المجريين، فلما هزم المجريون استدار السلطان «مراد الثاني» إلى الصرب، وحاصر بلجراد عاصمة الحرب ستة أشهر، ولكنه لم يتمكن من فتحها؛

(العجيب أن الصرب قبل هجومهم الوحشي البربري على مسلمي البوسنة قام زعيم الصرب «سلوبودان ميلوسوفتش» باستخراج جثة «جورج برانكوفيتش»، وسار بها في موكب مهيب في شوارع بلجراد لإثارة الحمية الصليبية عندهم، وليذكرهم بماحدث لهم من قبل على يد المسلمين؛ فأعداء الإسلام لا ينسون التاريخ أبدًا، وذاكرتهم الصليبية قوية، في حين المسلمين قد أبعدوا سهوًا وعمدًا عن تاريخهم وأمجادهم).

• الضربة الأليمة:

كان للحملات الناجحة التي قام بها العثمانيون على البلقان صدى هائل عند كرسي البابوية، الذي كان يحترق حقدًا وغيظًا على تلك الفتوحات، وقد هاله دخول الإسلام إلى تلك البقاع التي لم تعرف نور الهداية من قبل؛ فدعا بابا روما إلى حلف صليبي كبير للقيام بطرد العثمانيين من أوروبا؛ فاستجاب لدعوة البابا كل من المجر وبولندا والصرب ورومانيا والإمارات الإيطالية والإمبراطورية البيزنطية وألمانيا والتشيك، وأعطيت قيادة التحالف لقائد من أفضل القادة المجريين: وهو «يوحنا هيناوي».

(دائمًا وقت الأزمات تجد أعداء الإسلام يدًا واحدة، ويتناصرون على عدوهم الوحيد الإسلام، ويضربون أروع الأمثلة في وحدة الصف؛ فأين نحن يا عباد الله؟).

قامت القوات الصليبية المتحدة، وعبرت نهر «الدانوب» من ناحية الجنوب، ولم تكن الجيوش العثمانية وقتها مستعدة لخوض المعركة مع هذا العدد الضخم من الجنود الموتورين ضد الإسلام والمسلمين؛ فوقعت الهزيمة بقدر الله وحده على المسلمين سنة ٨٤٦ هـ، واستشهد عشرون ألفًا من المسلمين، وحاول مراد إعادة الكرة، ولكن على عجل، ودون استعداد كاف؛ فهزم مرة أخرى ولكن بصورة أفدح من الأولى؛ إذ استشهد هذه المرة ووقع في الأسر ثمانون ألفًا من بينهم «محمود شلبي» القائد العام للجيوش العثمانية، وزوج ابنة «مراد الثاني»، وعندها اضطر «مراد» لتوقيع معاهدة صلح لمدة عشر سنوات مع الأوربيين تنازل بموجبها عن عدة بلاد، وأجزاء قد فتحها من أوروبا، وقد حررت وثيقة الصلح باللغتين العثمانية والمجرية، وأقسم «مراد» على القرآن، وأقسم «لاديسلاسي» ملك المجر على الإنجيل بحضور الشهود من الطرفين.

اكتملت الضربات الأليمة على السلطان «مراد الثاني» بحادث أليم لابنه الكبير، وولي عهده من بعده الأمير «علاء الدين»، وأثر هذا الحادث في نفسية «مراد» بشدة، وفجع في ولده وهو في ريعان الشباب، واشتد حزنه على تلك المصيبة حتى قرر أن يخلو بنفسه قليلا، ويتفرغ للعبادة والذكر والمناجاة، ولأول مرة في تاريخ الملوك يقوم سلطان وهو في أوج سلطانه وقوته بالتنازل عن السلطة طواعية واختيارًا لولده الصغير «محمد الثاني»: وهو الفاتح، وكان عمره أربع عشرة سنة، وقد جعل له «مراد» بطانة من المخلصين وأهل الرأي؛ ليقوموا بأمره حتى يشتد عوده، وتوجه «مراد الثاني» إلى ولاية «مغنيسيا» بالأناضول ليتفرغ للعبادة.

• نقض المعاهدة:

اطمأن «مراد الثاني» على وضع الدولة تحت ظل حكم ولده «محمد الثاني»؛ وذلك لأن بينه وبين أعدائه الأوربيين معاهدة مدة عشر سنوات يكون

ولده الصغير بعدها قد اشتد عوده وقوي ساعده؛ فلا يستهين به أعداؤه، ولكن «مراد» لم يعلم أن الروح الصليبية لا تنطفئ نارها ضد المسلمين أبدًا، ولا يردعها عهد ولا ميثاق؛ حيث قام البابا «أوجين الرابع» بإيفاد الكاردينال «سيزاريني»، وهو رجل يتقد نشاطًا وعزمًا للتخلص من العثمانيين، ولديه رغبة عارمة في أن يرى أوروبا خالية تمامًا من أي مسلم، وقد كلَّفه بمهمة خاصة، وهي إقناع ملوك أوروبا عامة، وملك المجر خاصة بوجوب نقض عهدهم مع المسلمين بأية طريقة كانت.

وقام الكاردينال النشيط الشرير «سيزاريني» بزيارة ملوك أوروبا، ودعاهم لنقض العهد مع المسلمين، واستخدم من أجل ذلك مؤثرات وضغوط دينية، مثل إخبارهم: أن المعاهدة باطلة؛ لأنها عقدت بدون إذن البابا وكيل المسيح في الأرض، وقال لهم أيضًا: إن البابا سوف يبرئ ذمتهم من الآثام والخطايا الناجمة عن نكث العهد، وأيضًا سوف يعطي صك غفران لكل من يقوم بنقض العهد مع المسلمين وحربهم، وسوف يسدل عليهم بركته، ويطهرهم من الذنوب والأوزار! وهكذا اتبع «سيزاريني» أساليب شيطانية من أجل إقناع الأوروبيين بنقض العهد، وأعلن «لاديسلاسي» الحرب الصليبية الجديدة على المسلمين، ونقض العهد.

(دائمًا أعداء الإسلام يستغلون الفرصة المناسبة للنيل من المسلمين؛ فعندما شعروا أن الساحة قد خلت من رجل قوي، وأسد مجاهد؛ عندها ينقضون؛ فلا عهود تردعهم، ولا مواثيق تمنعهم، ولا أيمان توقفهم؛ فهم كما قال الحق: ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢]، فعندما يشعرون أن الأمة ضعفت ودب فيها الوهن؛ فعندها تسقط الأقنعة. وتختفي غصون الزيتون، وحمائم السلام، وتظهر «البي ٥٢» و«الإف١٦» والصقور الذئاب، والمذابح والمشانق، والضحية هم المسلمون).

• معركة فارنا:

وصلت أخبار الحلف الصليبي الجديد المكون من معظم صليبي أوروبا إلى مسا مع الأسد الرابض «مراد الثاني»، وهو في معتكفه، وجاء رجال الدولة يشرحون له خطورة الموقف وحساسيته، خاصة أن ولده «محمد الثاني» مازال صغيراً على مجابهة أمثال تلك الحملات الصليبية الكبيرة؛ فخرج الأسد من عرينه، وأعد الجيوش المسلمة لمواجهة هذا العدوان الصليبي، وقرر العمل من أجل نقل المعركة إلى الأرض الأوروبية؛ فاتفق مع أسطول «جنوة» لينقل جيشه المكون من أربعين ألف مقاتل من آسيا إلى أوروبا تحت سمع وبصر التحالف الصليبي في مقابل دينار لكل جندي.

(مرة أخرى يضرب لنا ملك مسلم المثل الرائع في فقه المصالح والمفاسد: فمراد خرج من معتكفه، وترك اعتزال الناس للعبادة، وعاد مرة أخرى للميدان من أجل نصرة الإسلام؛ فقد ترك النفع الخاص من أجل النفع العام، وهذا من أفقه الفقه أن يوازن بين الخاص والعام، ثم علمنا كيفية الاستفادة من خلافات الأعداء فيما بينهم؛ ذلك لأن «جنوة» رفضت نقض العهد، وحرم البابا أمراءها من المغفرة؛ فوقع بينهما الخلاف، فعرف مراد الثاني كيف يوظف هذا الخلاف لصالح الإسلام).

كان الأعداء قد وصلوا إلى مدينة «فارنا» ـ وكانت تحت السيطرة العثمانية ـ واحتلوها، بعد أن أقاموا مذبحة مروعة للمسلمين بها، وخاف سكان «أدرنة» ـ وهي القريبة من «فارنا» ـ من هجوم الصليبيين عليهم، ولكن وصول الجيوش المسلمة ثبت قلوب المسلمين هناك، وقويت عزائمهم، وانضم كثير من المتطوعين للجهاد في سبيل الله مع جيوش العثمانيين، ووصل المسلمون إلى «فارنا»، واستعدوا للصدام مع الصليبيين وقد وضع السلطان «مراد الثاني» المعاهدة التي نقدها أعداؤه على رأس رمح طويل؛ ليشهد الجميع على الغدر والعدوان؛ فالتهب حماس المسلمين.

وفي ٢٨ رجب سنة ٨٤٨ هـ اندلع القتال الشامل بين الفريقين: الصليبيين مدفوعين بالحقد الصليبي، وأماني المغفرة الكاذبة من كبيرهم، والمسلمين بإيمانهم ويقينهم بعدالة قضيتهم، وسلامة قصدهم، والروح الجهادية العالية التي تملأ القلوب والوجدان، وفي وسط الميدان التقى الرجلان: المسلم والصليبي، الوفي والغادر، التقى السلطان «مراد» مع الملك «لاديسلاس» وجهًا لوجه، واقتتلا سويًا في معركة شرسة تمكن فيها «مراد» من قتل «لاديسلاس»؛ حيث طعنه برمحه طعنة قاتلة ألقته من على ظهر جواده؛ فأسرع بعض المجاهدين، وجزَّ رأس «لاديسلاس»، ورفعها على رمح مهلِّلا ومكبرًا، وصاح في الأعداء: «أيها الكفار؛ هذا رأس ملككم» وكان لهذا المنظر وقع هائل على نفوس الصليبين؛ انهارت بعدها قوتهم وعزيمتهم، وولوا مدبرين، وركب المسلمون أعناقهم، وأخذوا بأقفيتهم: فريقًا يقتلون، ويأسرون فريقًا، وقتل محرض الفتنة ومثيرها: الكاردينال «سيزاريني» في المعركة جزاءً وفاقًا لغدره وحقده على المسلمين، وانتهت المعركة بنصر عظيم، وفتح هائل انقمعت به قوى الشر الصليبية سنين طويلة، وخرجت مملكة المجر الصليبية من حلبة الصراع مع المسلمين إلى الأبد، وكان يومًا عظيمًا: أعز الله فيه الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، وعلى الغادر تدور الدوائر.

النجوم الزاهرة تاريخ الدولة الصليبية عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية	التاريخ الإسلامي موسوعة التاريخ الإسلامي محمد الفاتح، للرشيد، أطلس تاريخ الإسلام	الدولة العثمانية المفترى عليها الدولة العثمانية في العصر الحديث

فتح القسطنطينية ـ الوعد الحق

الزمان/ ٢٠ جمادي الأولي ـ ٨٥٧هـ

المكان / «القسطنطينية» عاصمة الدولة البيزنطية

الموضوع / العثمانيون بقيادة «محمد الفاتح» يحققون الوعد النبوي بفتح «القسطنطينية».

الأحداث

• الحلم الموعود:

لقد كان فتح مدينة «القسطنطينية» حلمًا يراود كل المسلمين، وأملاً يسعي لتحقيقه الخلفاء والملوك والسلاطين منذ أن سمعوا البشارة النبوية بفتحها سئل رسول اللَّهﷺ أي المدينتين تفتح أولاً، أقسطنطينية أم رومية؟ فقال الرسولﷺ مدينة هرقل تفتح أولاً يعني «القسطنطينية».

وأيضًا بعدما سمعوا الوسام النبوي على صدر أمير الجيوش وصدر جيشه الذي سيتولي شرف فتح «القسطنطينية» بعدما قال النبي ﷺ: **«لتفتحنَّ القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»**.

• محاولات الفتح:

لما كان المسلمون مطالبين بتحقيق الوعد النبوي الحق الذي هو واقع لا محالة، بهم أو بغيرهم من مسلمي الأجيال المتتالية، فلقد حاول المسلمون فتح

«القسطنطينية» عدة مرات، وذلك منذ الجيل الأول لهذه الأمة وذلك كالآتي:

١ـ أولى هذه المحاولات لفتحها في عهد الخليفة الراشد «عثمان بن عفان» سنة ٣٢هـ/ ٦٥٣م عندما أرسل جيشًا يقوده «معاوية بن أبي سفيان» أمير الشام وقتها، فاخترق آسيا الصغرى حتى ضفاف البسفور كما قصدها أسطول بحري يقوده «بسر بن أرطأة» لدعم الجيش البري، وقد تحرك الأسطول من مدينة طرابلس الغرب لحرب «القسطنطينية» ولكن هذه المحاولة لم تنجح.

٢ـ ثاني هذه المحاولات سنة ٤٤هـ/ ٦٦٥م في عهد «معاوية»، ولكنها أيضًا لم تفلح أيضًا.

٣ـ ثالث هذه المحاولات سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م حيث أعاد «معاوية» الكرة وبعث جيشًا ضخمًا بقيادة «سفيان بن عوف» وفي الجيش جماعة من أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار، مثل «ابن عباس» و«ابن الزبير» و«ابن عمر» و«أبي أيوب الأنصاري» وعاونهم الأسطول البحري واخترق مضيق «الدردنيل» واستمروا في حصار المدينة طيلة سبع سنوات برًا وبحرًا دون جدوى حتى انسحب المسلمون سنة ٥٦هـ.

٤ـ رابع هذه المحاولات سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م في عهد «سليمان بن عبد الملك» حيث انتدب أخاه «مسلمة» وأمره ألا يغادر «القسطنطينية» حتى يفتحها، وكان مسلمة من أكفأ القادة العسكريين في الدولة الأمويه، فسار مسلمة مخترقًا هضاب الأناضول وفتح عدة حصون للروم، وضرب على المدينة حصارًا قويًا حتى كاد أن يفتحها ولكن وفاة «سليمان بن عبد الملك» حالت دون إتمام الفتح، ولكن «مسلمة» بنى مسجدًا في «القسطنطينية» وصلى فيه المسلمون.

٥ـ خامس هذه المحاولات وأشهرها في عهد الخليفة العباسي «المهدي» عندما سار ولده «هارون الرشيد» سنة ١٦٥هـ/ ٧٨٣هـ غازيًا للدولة البيزنطية حتى

وصل إلى ضفاف البسفور الآسيوية وعسكر فوق تلال «اسكوتاري» في مواجهة «القسطنطينية» وكان على عرش الدولة يومئذ طفل صغير هو «قسطنطين السادس» ، ومقاليد الحكم بيد أمه «إريني» ؛ فهزم المسلمون البيزنطيين هزيمة منكرة ، واضطرت «إريني» أن تعقد الصلح وتتعهد بدفع الجزية .

• الدولة العثمانية والقسطنطينية:

كانت خامس محاولات فتح «القسطنطينية» هي بمثابة المحاولات الأخيرة للدولة العباسية ، وذلك لأن عصور القوة قد ولت بعد ذلك ، وأقبلت عصور الضعف ، وسيطر الأخرين على مقاليد الخلافة ومصاير الخلفاء من أتراك إلى بويهيين إلى سلاجقة ، واشتغل المسلمون بأنفسهم ، وتوقف ركب الجهاد لكثرة الاضطرابات الداخلية ، وانفصلت أجزاء كبيرة من جسد الدولة المسلمة لصالح دولة العبيديين الشريرة ، واستقل كثير من الولاة بولاياتهم ، وصاروا ملوكاً وأمراء ، فأنشئوا دولاً وممالك منها الصالح ، وكثير منها غير ذلك .

ظل الأمر كذلك حتى ظهر نجم الدولة العثمانية التي ورثت دولة السلاجقة في منطقة آسيا الصغرى ، وكان لهذه الدولة هدف استراتيجي كبير وضعه لهم مؤسس الدولة الأول «عثمان الأول» ؛ وهذا الهدف هو فتح «القسطنطينية» ، وبدأت المحاولات منذ قيام الدولة العثمانية ، ولكنها أخذت صورة التركيز والجدية الكبيرة ابتداء من عهد السلطان «بايزيد» الملقب بالصاعقة ؛ لسرعة تحركاته وانقضاضه في الحروب على أعدائه ، عندما حاصر «القسطنطينية» سنة ٧٩٨هـ ، وشدد عليها حتى كاد أن يفتحها لولا تدخل نكبة الإسلام «تيمورلنك» بجيوش جرارة تفوق الثمانمائة ألف مقاتل ، ومحاربة «بايزيد» في معركة سهل أنقرة ، والتي نتج عنها تمزق الدولة العثمانية ، وخروج إمارات الأناضول عن جسم ، الدولة ؛ فاشتغل العثمانيون من وقتها

بإعادة تنظيم الدولة وتجميعها من جديد، حتى استطاع السلطان مراد الثاني تحقيق ذلك بمجهود شاق وطويل، استغرق خمسين عامًا.

• سلطان الساعة (محمد الثاني):

خلف السلطان «مراد الثاني» ولده «محمد الثاني»، والذي كان أبوه «مراد» يعده لهذا المنصب منذ نعومة أظافره، فلقد عهد إلى مجموعة من كبار علماء زمانه أمثال المولى «الكوراني» و«شمس الدين أمن» بتربيته على الآداب والأخلاق الإسلامية، تحفيظه القرآن، وعلوم الشرع، والرياضيات، واللغات الفارسية والعربية، بل إن «مراد الثاني» قد نزل عن السلطنة لابنه «محمد» وهو في الرابعة عشر من عمره، ولكن لم تغب عينيه عن ولده، بل سارع بالتدخل لإنقاذ ولده عندما نقض ملوك أوربا عهدهم مع العثمانيين، وأعدوا حملة صليبية كبيرة للهجوم على الدولة العثمانية، وهكذا نشأ «محمد الثاني» متمرسًا على القيادة والشجاعة، وكذلك تدينه وحبه للخير، وحماسته الشديدة للجهاد.

ولقد كان شيخ «محمد الثاني» العالم «شمس الدين آق» صاحب الدور الأبرز في تكوين شخصية السلطان «محمد الفاتح»؛ حيث رباه منذ نعومة أظافره على أمرين هما:ـ

١ـ مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

٢ـ الإيحاء دومًا لـ«محمد» منذ صغره بأنه الأمير المقصود من الحديث النبوي **«لتفتحن «القسطنطينية»، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»**.

• خطوات على طريق النصر:

منذ أن تولى السلطان «محمد الثاني» الحكم سنة ٨٥٥هـ وهو لا يرى إلا هدفًا واحدًا وعملاً محددًا ألا وهو فتح «القسطنطينية»، فشرع للتجهيز للفتح بعد دراسة عميقة ووافية عن موقع «القسطنطينية» والذي يتميز بتحصينات

شديدة، وموقع عالمي فريد، وذلك لعدة أسباب :

١ـ المدينة تقع على مانع مائي هو بحر مرمرة، ومدخل البحر المسمى بالقرن الذهبي، وعليه سلسلة ضخمة جداً لمنع دخول أية سفينة أجنبية معتدية .

٢ـ المدينة محاطة بأسوار ضخمة وعالية من كل الجوانب حتى من ناحية البحر .

٣ـ يوجد حصن ضخم شديد التحصين عند مدخل المدينة لمقاومة أي عدو .

لذلك كان أول قرار اتخذه «محمد الثاني» هو بناء قلعة «روسلي حصار» على الجانب الأوروبي على مضيق البسفور، في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان «بايزيد الصاعقة» على الجانب الأسيوي، وقد حاول إمبراطور «القسطنطينية» منع بناء تلك القلعة، ولكن «محمد الثاني» أصر على بنائها حتى اكتملت قلعة عالية وضخمة وصل ارتفاعها إلى اثنين وثمانين متراً.

• جيش الفتح:

أخذ السلطان «محمد الثاني» في إعداد جيش الفتح المظفر وذلك على خطين متوازيين وبعدين متقاربين هما :

١ - البعد المادي: وذلك بحشد أعداد ضخمة من الجنود النظاميين والمتطوعين حسبة لوجه اللَّه عزوجل حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون، مقاتل وزودهم بأحدث الأسلحة ومن أهمها المدافع التي كانت مستحوذة على اهتمام «محمد الثاني»، وعني بدراستها جيداً واستقدم أشهر صناع المدافع وقتها وهو المهندس «أوربان المجدي»، وأحسن استقباله وعهد إليه بصنع مدفع ضخم جداً أطلق عليه اسم المدفع السلطاني، واهتم «محمد الثاني» أيضاً اهتماماً خاصاً بالأسطول العثماني وزوده بالسفن الكبيرة والمتوسطة والصغيرة لتسهل عليه المناورات البحرية حتى بلغ عدد هذه السفن أربعمائة سفينة مختلفة الأحجام.

٢- البعد المعنوي: وذلك باصطحاب مجموعة كبيرة من الدعاة والعلماء والوعاظ والقراء أمثال الشيخ «شمس الدين آق» الذي يعتبر الفاتح الروحي للقسطنطينية، وكان هؤلاء الدعاة والعلماء يقومون بغرس روح الجهاد في نفوس المجاهدين وتقوية معنوياتهم وإيمانهم وشحذهم وربطهم بالغاية العليا ورضا اللَّه عزوجل والجنة، والتركيز على ما يرضي اللَّه بفعل الصالحات وترك المنكرات حتى صار الجيش ربانيًا مهيئًا للقيام بالفتح العظيم؛ ولا يتم نجاح جيش بدونهما، فإن اللَّه عزوجل أمر بهما عندما قال في محكم التنزيل: ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾ في الإعداد المادي وقال أيضاً: ﴿ **و على اللَّه فليتوكل المتوكلون** ﴾، وفي الإعداد الإيماني والمعنوي، فلا يهمل جانب على حساب الآخر، فلا يغتر أحد بقوته وجيشه، وكذلك لا يتواكل على اللَّه ويترك الأخذ بالأسباب.

• خطبة المجاهد المسلم:

بعد أن أعد «محمد الثاني» جيوشه الجرارة وتأكد من عزيمتهم الجهادية واستعدادهم التام لهذا العمل الكبير خرج بهذه الجموع الغفيرة من المجاهدين والمتطوعين من مدينة «أدرنة»، التي كانت نقطة انطلاق الحملات الجهادية العثمانية على أوروبا، واستغرقت الرحلة مدة شهرين حتى وصلوا إلى أسوار «القسطنطينية»، وذلك لأن المدافع الثقيلة عطلت سير الجيوش، حتى وصل المسلمون في يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ، فقام السلطان القائد «محمد الثاني» بجمع الجنود في حشد يضيق به الفضاء ثم خطبهم خطبة بليغة حثهم فيها على الجهاد والصبر والتضحية، ثم قال لهم: وإذا تم لنا فتح «القسطنطينية» تحقق فينا حديث رسول اللَّه ﷺ ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير؛ فأبلغوا أبناءنا العساكر فردا أن

الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفًا، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليجتنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، وليتركوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون الإسلام بذلك قد سبق دعاة حقوق الإنسان واتفاقيات جنيف لحقوق الأسري واحترام المدنيين بعدة قرون، وجعل تلك الأمور من قبل الواجبات التي لا يسع المسلم خرقها والاعتداء عليها وهو بذلك قد فاق هؤلاء المتشدقين بالمدنية والحرية، وغير ذلك ممن إذا خاضوا معارك كان شعارهم وكل شيء مباح، فإن شعارات حقوق الإنسان لكل أحد إلا المسلمين.

• الإمبراطور قسطنطين:

إذا كان السلطان «محمد الثاني» هو رأس الدولة العثمانية، والمحرك الأساسي لتلك الحملة الجهادية؛ ففي المقابل على الطرف الآخر من الصراع كان الإمبراطور «قسطنطين» إمبراطور بيزنطة على مستوى الحدث، وأبدى عزيمة وصبراً وجلداً كبيراً، وقوة شديدة في التصدي للمسلمين، وبذل محاولات ضخمة للصمود في وجه محاولات الفتح، ومن أهم الأعمال التي قام بها «قسطنطين» ما يلي:

١ـ حاول منع بناء قلعة «روملي حصار» عند مضيق البسفور، وتعهد بدفع أموال طائلة نظير ذلك من ماله الخاص، ولكنه فشل أمام إصرار «محمد الثاني» على بنائها.

٢ـ قدم الكثير من الهدايا والرشا لبعض مستشاري السلطان «محمد الفاتح» ليؤثروا على قراره بالفتح.

٣ـ قام بخطوة كبيرة وجريئة في نفس الوقت؛ حيث طلب مساعدة بابا روما «نيقولا الخامس» زعيم المذهب الكاثوليكي، وعرض عليه نظير ذلك إخضاع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بـ«القسطنطينية» للكنيسة الكاثوليكية،

ولكن هذه الخطوة أغضبت جمهور الأرثوذكس بـ«القسطنطينية»، ورفضوا هذا العمل من جانب إمبراطورهم؛ حتى قالوا إنا نفضل أن نرى في ديار البيزنط عمائم الترك على أن نرى القبعة اللاتينية.

٤ـ قام بتعيين القائد العسكري الكبير «جوستنيان» والذي جاء على رأس قوة متطوعة لنصرة «القسطنطينية» قائداً عاماً للدفاع عن المدينة، وكان لهذا القائد الفذ دور كبير في تقوية دفاعات المدينة، وشحذ همم المدافعين عنها لخبرته العسكرية الكبيرة.

٥ـ دخل في مفاوضات مفتوحة ومباشرة مع السلطان «محمد الثاني» لتخليص مدينته وشعبه بكل ما أوتي من حيلة، وعرض على «محمد الثاني» الدخول في طاعته مع دفع أموال طائلة، مع عروض ومزايا أخرى، ولكن «محمد الثاني» أصر على تسليم المدينة تسليماً كاملاً.

٦ـ كان «قسطنطين» دائم التواجد في كنيسة «آيا صوفيا» في صلوات مستمرة لشحذ همم الناس بالمدينة، وتكليف القساوسة والرهبان بالطواف في شوارع المدينة لتحريض الناس على الثبات والصبر وظل «قسطنطين» متواجداً بين أبناء مدينته ورفض الخروج منها لطلب النجدة من الممالك الأوروبية؛ حتى يظل بينهم يقويهم، ويشد من أزرهم حتى آخر لحظة، وأصر على المقاومة حتى النهاية ويلمح هذا الإصرار على المقاومة في خطابه، الذي أرسل به إلى السلطان «محمد الفاتح» رداً على طلب التسليم تجنباً لإراقة الدماء، وجاء في هذا الخطاب أنه يشكر اللّه إذا جنح السلطان إلى السلم، وأنه يرضى أن يدفع له الجزية، أما «القسطنطينية» فإني أقسم أن أدافع عنها إلى أخر نفس في حياتي؛ فإما أن أحفظ عرشي وعرش أجدادي، وإما أن أدفن تحت أسوارها.

• الهجوم الشامل:

بعد أن استعد المسلمون للفتح الكبير، وتم حشد ربع مليون مقاتل، وكذلك الأسلحة اللازمة، قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة على شكل ثلاثة أقسام رئيسية لإحكام الحصار على المدينة ونشر المدافع العملاقة أمام الأسوار، وبث فرقًا خاصة للمراقبة والاستخبارات حول المدينة، وفي نفس والوقت كان الأسطول البحري محيطًا بالمدينة من خارج القرن الذهبي، وذلك بسبب وجود السلسلة الضخمة التي تمنع مرور أية سفينة، وبدأ الهجوم الشامل يوم الجمعة ٢٧ ربيع أول سنة ٨٥٧هـ، وبدأت المدافع العثمانية تطلق قذائفها المدوية التي أفزعت سكان المدينة، وحطمت بعض أسوار المدينة التي سارع المدافعون عنها بإعادة ترميمها، ووافق ذلك قدوم مساعدات نصرانية بقيادة «جوستنيان» الإيطالي؛ فارتفعت معنويات نصارى المدينة، خاصة أنهم قد استطاعوا صد الهجوم الأول للعثمانيين، وقد قام السلطان «محمد الثاني» بعزل قائد الأسطول العثماني «بالطه أوغلى» لفشله في منع المساعدات النصرانية من عبور القرن الذهبي إلى داخل المدينة؛ وقد كانت للهزائم البحرية للأسطول العثماني أثر شديد في نفوس مستشاري ووزراء السلطان «محمد الثاني»، وحاولوا إقناعه بالعدول عن تلك الحرب والرضا بالجزية، ولكنه أصر بشدة على مواصلة الفتح، خاصة بعد أن استشار شيخه وأستاذه «شمس الدين آق» والذي أشار عليه بالمواصلة، لأن الفتح قريب، والنصر قادم لا محالة، وأن هزيمة الأسطول أول مرة ستكون دافعًا لزيادة العزم على الفتح.

• أعجب عبور في التاريخ:

كان السلطان «محمد الثاني» يفكر في كيفية تفعيل دور الأسطول العثماني خاصة بعد أن تعرض لهزائم متكررة، وأيضًا لعدم قدرته على

الحركة والمناورات بسبب السلسلة الضخمة الموجودة عند القرن الذهبي، وبعد تفكير عميق لاحت للسلطان فكرة عبقرية فذة وغير مسبوقة، وهي نقل سفن الأسطول العثماني من مرساها في ميناء «بشكطاش» إلى القرن الذهبي، وذلك على ألواح خشبية عملاقة مدهونة بالزيت والشحم بحيث تنزلق السفن على تلك الألواح لمسافة تقدر بثلاثة أميال، واستطاع العثمانيون سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو في ليلة واحدة؛ وكان مشهد عبور السفن اليابسة وهي تمخرها كمخرها البحور والأمواج في غاية العجب، وكم كانت دهشة أهل «القسطنطينية» وهم يشاهدون سفن العثمانيين وهي تعبر الحقول واليابسة، ودب اليأس والفزع في قلوبهم، وأيقنوا الهزيمة وراجت بينهم الإشاعات والأراجيف، وانهارت معنويات المدافعين عن المدينة.

• أساليب القتال العثمانية:

اتبع العثمانيون في قتالهم أساليب قتالية مختلفة ومتطورة، وعلى مراحل متتابعة من أجل إيقاع الاضطراب والفوضى في نفوس المدافعين عن المدينة وتشتيت تركيزهم في القتال على جبهات كثيرة، بل إن العثمانيين ابتكروا أساليب قتالية غير مسبوقة صارت سنة متبعة بعد ذلك في حروب المدن؛ ومن هذه الأساليب:

١ـ أسلوب الحرب النفسية: حيث كان العثمانيون في قتالهم ضد الروم يظهرون بطولات رائعة وخارقة في غاية الشجاعة والاستهانة بالموت، مثل تسلق الأسوار الأمامية للمدينة، وإطلاق صيحات التكبير المدوية والتي تشق عنان السماء، وتزلزل قلوب الأعداء، ومنها أيضاً أنهم ذات ليلة أشعلوا ناراً عظيمة، وكثيفة حول معسكرهم وتعالت أصواتهم بالتهليل والتكبير، حتى

خيل للعدو أن النار قد اندلعت في معسكر المسلمين، ولكنهم فوجئوا أن المسلمين يحتفلون بالنصر مقدماً مما أوقع الرعب في نفوس الأعداء.

٢- أسلوب حفر الأنفاق: وهو أسلوب عجيب ابتكره العثمانيون في محاولاتهم لفتح المدينة؛ حيث قاموا بحفر أنفاق تحت الأرض في مناطق مختلفة لاختراق المدينة من المنطقة الممتدة بين «أكرىٰ فبو» وشاطئ القرن الذهبي، مما أصاب أهل المدينة بالفزع الشديد حتىٰ شكوا في أي صوت يسمعونه أنه صوت حفر الأنفاق، وخيل إليهم أن الأرض ستنشق ويخرج منها العثمانيون كالأشباح المفزعة، مع العلم أن هذا الأسلوب قد كلف العثمانيين الكثير لاختناق البعض، واحتراق البعض الآخر، ووقوع البعض في أسر الأعداء الذين أعدموهم علىٰ الفور.

٣- أسلوب القلاع العملاقة: حيث صنع العثمانيون قلعة ضخمة خشبية متحركة مكونة من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلىٰ من الأسوار، وقد كسوها بالدروع والجلود المبللة لتمنعها من الاحتراق، وشحنوا تلك القلعة العملاقة بالجنود والسلاح، ودفعوا تلك القلعة حتىٰ صارت ملاصقة لسور المدينة، ووقف الإمبراطور «قسطنطين» بنفسه يدافع عن أسوار المدينة ودارت معركة طاحنة بين المسلمين والبيزنطيين، وتمكن بعض المسلمين من اختراق الأسوار، ولم يستطع البيزنطيون من ردهم إلا بعد خسائر ضخمة.

٤- أسلوب الهجوم الكاسح الضاري: وهو أسلوب عمد إليه المسلمون من أول يوم في القتال: حيث شنوا هجومهم بالأسلوب الشامل الكاسح الضارىٰ باستخدام المدفعية العملاقة التي صبت حمم نيرانها علىٰ المدينة، وأمطرتهم بوابل متصل من القذائف ذات الصوت الفظيع الذي أدخل الرعب في قلوب سكان المدينة، حتىٰ أنه من شدة قذف المدفعية انفجر العديد من مدافع

العثمانيين، على رأسهم المدفع السلطاني الكبير والذي انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل طاقمه كله بما فيهم المهندس «أوربان» المجري مخترع المدفع.

٥ـ أسلوب الجوائز الكبرى: وقد استخدمه السلطان «محمد الثاني» عندما وضع جائزة كبرى من الأموال والإقطاعات لأول جندي ينصب الرايه الإسلامية على سور «القسطنطينية»، ووضع أموالاً كبيرة لفرق المجاهدين المتطوعين التي تولت عملية الاصطدام مع حراس الأبواب الأمامية للمدينة، وكل هذا التحفيز والجوائز أشعلت حمية الجند المسلمين، فصاروا يقاتلون في منتهى الضراوة خاصة فرق الإنكشارية الذين قاتلوا في شجاعة نادرة، وكانوا طليعة من اقتحم المدينة.

• الليلة الأخيرة:

وهي الليلة التي سبقت الفتح العظيم، وكانت الأخيرة للجانبين: المسلم في هجومه وحصاره، والرومي في دفاعه وصموده، وكانت ليلة بها الكثير من الأحداث والعبر، نبدأها بالمعسكر المسلم، ثم المعسكر النصراني.

المعسكر المسلم: أمر السلطان «محمد الثاني» في تلك الليلة جنوده بالتوبة والخشوع والتقرب إلى الله عز وجل، والاجتهاد في الدعاء حتى يفتح الله لهم البلد، وبات الناس يصلون ويبتهلون ويرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير، والعلماء والمشايخ يطوفون على الجنود يشدون من أزرهم، ويقرأون عليهم آيات الجهاد والجنة وأحاديث الشهادة، أما السلطان نفسه فقد بات ليلته يتفقد أسوار المدينة، ويعين أماكن ومواقع الاقتحام ويخطب في الجند ويحمسهم ويعدهم بالجوائز العظيمة لأوائل الفاتحين، ثم عقد اجتماعاً على مستوى القادة وضع لهم فيه الخطوط العامة للفتح الإسلامي، وكيفية تعامل المسلمين الفاتحين مع أهل المدينة على منهج الإسلام، وفي آخر الليل نزل مطر خفيف

من السماء فنظر إليه السلطان وقال: لقد أولانا اللَّه رحمته وعنايته، فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه، فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة، وكانت هذه آية من اللَّه عز وجل على رضاه وبشراه لهذا الجيش المؤمن.

المعسكر النصراني: في هذه الليلة أخذت الشائعات تهيمن على سكان المدينة، وتنهب من معنويات المدافعين عنها، خاصة بعد أن حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء بزعمهم، وأخذوا يتجولون به في المدينة لتقوية عزائم المدافعين والسكان، وهم يستغيثون بها ويتضرعون إليها، وهذا قطعًا شرك باللَّه، وفجأة سقط التمثال من أيديهم، وتكسر على الأرض؛ فعدوا ذلك شؤمًا ونذيرًا بالهزيمة الأكيدة، وكذلك نزلت صاعقة من السماء أصابت بعض أبراج كنيسة «آياصوفيا»، فهب بطريرك الكنيسة للإمبراطور «قسطنطين» وأخبره أن اللَّه قد تخلى عنهم، وأن الهزيمة لا محالة غدًا، أما «قسطنطين» فكما قلنا كان رجلاً على مستوى الحدث، وأبدى صبرًا وجلدًا وصمودًا لا يليق إلا بأهل الإسلام، وتعجب الناس من صلابته وتمسكه حتى النهاية، قام «قسطنطين» بجمع سكان المدينة في قداس عام حضره الجميع للابتهال والتضرع إلى اللَّه عزوجل في كنائس المدينة كلها، وخطب فيهم خطبة بليغة، ودعاهم فيها للدفاع عن المدينة حتى آخر قطرة من دمائهم، والاستماتة في حماية النصرانية ضد المسلمين، وكانت خطبة مشحونة بالعواطف والأشجان، ثم قام بتوديع أهله، ثم لبس مغفره وتوجه إلى الصفوف الأمامية لمتابعة عمل الحراسات المدافعة عن الأبواب.

• الفتح العظيم:

وفي يوم الثلاثاء الموافق ٢٠ جمادي الأولى سنة ٨٥٧هـ وفي أول ساعة من ساعات اليوم الواحدة صباحًا، بدأ الهجوم العام الشامل وبخطة حربية جديدة

وضعها السلطان «محمد الثاني»، وتقوم على أساس الهجوم الكاسح على عدة محاور مع استخدام أسلوب البدل بين كتائب المهاجمين، بحيث تحارب كتيبة ثم تستريح وتقاتل بعدها كتيبة أخرى، مما أرهق المدافعين عن المدينة، وكان الهجوم موزعًا على كثير من المناطق ولكنه مركز بالدرجة الأولي على منطقة «وادي كيكوس» بقيادة «محمد الثاني» نفسه، وقد استبسل المدافعون عن المدينة، وكبدوا المسلمين الكثير من الخسائر، ولكن لم يمنع ذلك المسلمين من مواصلة هجومهم الشامل، خاصة وأن نظام البدل قد أربك المدافعين عن المدينة، وأنهك قواهم التي صارت موزعة على كتائب متبادلة مستريحة، في حين هم متعبون من مواصلة القتال والدفاع.

وبعد أربع موجات هجومية قام بها العثمانيون مع بزوغ شمس الصباح، أصدر السلطان «محمد الثاني» أوامره للجنود بالانسحاب، حتى تقوم المدفعية العثمانية بعملها في تهديم الأسوار العملاقة للمدينة، ثم سكتت المدفعية ودخلت فرقة فدائية من خلاصة أبطال الإنكشارية، استطاعت أن تقتحم أسوار المدينة، ورفعت الأعلام العثمانية عند برج «طوبقابي»، مما أوقد نار الحماسة عند المسلمين، وأخمدها عند عدوهم، إضافة لهروب قائد المدافعين عن المدينة «جوستنيان» بعد إصابته بإصابة بالغة، وقاد «قسطنطين» جموع المدافعين بنفسه، كما أن السلطان «محمد الثاني» هو الذي كان يقود المهاجمين بنفسه، وواصل المسلمون خطتهم على أسوار المدينة، والاستيلاء على أبراجها، حتى تمكنوا من الاستيلاء على باب «أدرنة»، ورفعت الأعلام العثمانية على أبراجها، وعندها أيقن «قسطنطين» بعدم جدوى الدفاع عن المدينة، خلع ملابسه الملكية حتى لا يعرفه أحد، ونزل من على حصانه، وظل يقاتل حتى قتل في ساحة المعركة، وفاءً بقسمه أن يدافع عن المدينة حتى آخر

نفس في صدره؛ وهذا هو الثبات، وكان لانتشار خبر موته فعل السحر في نفوس الفريقين، فالمسلمون زادت حماستهم، والنصارى انهارت قواهم، وفروا من أرض المعركة، وسقطت المدينة في منتصف النهار، ووقف السلطان «محمد الثاني» الذي صار بعد ذلك اسمه «محمد الفاتح» وسط المدينة، وقال لجنوده: الحمد لله؛ ليرحم اللَّه الشهداء، ويمنح المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبي الفخر والشكر، ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً لله تعالى، وأمر جنوده بالرفق والإحسان إلى الناس، ونهاهم عن القتل، وضرب المسلمون أروع الأمثله في العفو والتسامح، حتى دخل الكثير من أهل المدينة في الإسلام، بعد أن أيقنوا بحتمية القتل العام لهم، وصار اسم المدينة بعدها «إسلام بول» أي مدينة الإسلام، وأصبحت عاصمة الدولة العثمانية حتى سقوط الخلافة.

• أصداء الفتح:

كان لهذا الفتح العظيم المبارك دوي هائل على مستوى العالم بأسره، المسلم وغير المسلم، ففي بلاد المسلمين عمت الفرحة والسرور والبهجة كل البلاد، وازدانت القاهرة ومكة والمدينة ودمشق وتونس وسائر البلدان بالزينات والأعلام والأنوار، وأقيمت الاحتفالات الرائعة فرحًا بتحقيق وعد النبي ﷺ، بسقوط تلك المدينة التي ظلت مئات السنين مركز التأليب والتآمر على الدولة الإسلامية من لدن «هرقل» حتى «قسطنطين» الأخير، أما في أوروبا ـ حيث غير المسلمين ـ فإن الحزن والألم والخزي قد عم سكان أوروبا، رغم اختلاف الكنائس ˀأرثوذكسية/ كاثوليكةˀ، وكان أشدهم تأثرًا هو البابا «نيقولا الخامس»، الذي مات غمًا وهمًا على ما أصاب النصرانية على يد المسلمين، وحاول خليفته البابا «بيوس الثاني» الإعداد لحملة صليبية كبيرة،

تضم كل ملوك أوروبا لقتال المسلمين، وبذل مجهودات خارقة من أجل ذلك، ولكنه فشل فشلاً ذريعًا، الجدير بالذكر أن فتح «القسطنطينية» كان من أهم أحداث التاريخ العالمي في أواخر العصور الوسطى، ومقدمة لطبيعة جديدة في العلاقة بين الإسلام والغرب، وبداية حرب من نوع جديد قوامها الخداع والتآمر والكيد والطعن في الثوابت والعقائد، ومقدمة لغزو من نوع جديد، وهو الغزو الثقافي والفكري والنفسي للمسلمين، بعدما تأكد أعداء الإسلام أن المسلمين لا يقهرون في ميادين القتال المفتوحة، ولابد من أسلحة أخرى.

تاريخ الدولة العلية النجوم الزاهرة الدولة المفترى عليها مواقف حاسمة تاريخ الدولة العثمانية	شذرات الذهب التاريخ الإسلامي السلطان محمد الفاتح تاريخ الطبري الموسوعة الميسرة في التاريخ	عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية الفتوح الإسلامية

معركة لوشة . الوهج الأخير

الزمان / ٢٧ جمادى الاولى - ٨٨٧هـ.

المكان / لوشة - «غرناطة» - جنوب الأندلس.

الموضوع / المسلمون ينتصرون على أسبانيا الانتصار الآخير.

الأحداث

• مقدمة:

عندما أعلنت دولة الكفر والطغيان أمريكا وأذيالها الحرب على العراق اندلعت مظاهرات شعبية عارمة في شتى بقاع الأرض تندد بهذا العدوان السافر على بلد لا حول له ولا قوة، وقامت مسيرات الغضب العالمي ترفع أصواتها إلى عنان السماء مستنكرة ما يجري ويحدث على أرض الخلافة السابقة، ولكن مع ذلك استمرت الدولة المجرمة في عدوانها، وراهنت على أن هذه المظاهرات والمسيرات لن تعدوا كونها نفخات غضب في الهواء، ولن تلبث أن تخمد، وقد كان ذلك؛ لأن العامة أو الشعوب لم يعد لها نفس التأثير الذي كان يحرك القيادات، ويدفعها تلبية رغبات العامة أو الشعوب، وهذه معركة واحدة من صفحات الأثر الإيجابي للعامة، وتحركهم لصالح خدمة قضية الإسلام، ونصرة المسلمين.

• الأندلس على شفا المنحدر:

لما أصيبت الدولة الإسلامية في الأندلس بالنكبات المتتالية وتحولت دفة القوة في الصراع بين الإسلام والنصرانية في الأندلس لصالح النصرانية

وسقطت آخر الدول القوية التي حافظت على كيان المسلمين وهي دولة «الموحدين»، واستأسد الصليبيون على المسلمين، وسقطت المدن الكبرى وحواضر «الأندلس» واحدة تلو الأخرى: «طليطلة»، ثم «إشبيلية»، ثم «قرطبة»، ثم «سرقسطة»، ثم «بلنسية»، وهكذا، حتى لم يبق للمسلمين بالأندلس سوى مملكة «غرناطة» في الجنوب؛ حيث قامت بها الدولة «بني الاحمر» ابتداءاً من سنة ٦٣٠هـ، وانحاز إليها كثير من المسلمين في الأندلس؛ مما ساعد على ترسيخ أقدام هذه الدولة، على الرغم من إحاطة الأعداء بها من كل مكان خاصة أن الذين انحازوا إليها من المسلمين كانوا موتورين حانقين على الصليبين، وكانوا أهل فلاحة وصناعة وتجارة؛ فازدهرت هذه الدولة وعلا شأنها، حتى خافها الصليبيون وعقدوا مع سلاطينها معاهدات صلح، خاصة أن كلمة الصليبين كانت متفرقة.

استمر وضع «غرناطة» مستقراً فترة من الزمن، حتى بدأ يدب بها عوامل الضعف والانحلال، بعدما سرت بين أهلها روح الترف المفسد والدعة والسكون، وغلب على أخلاقهم الفساد والانحلال، ومال الناس للأشر والبطر، وارتكنوا إلى معاهدات مع الصليبين، وأمنوا مكرهم وكيدهم، وحدث صراع على السلطة بين أمراء بني الأحمر، واستقل أحدهم بولاية «مالقة» القوية، واستقل أخوه بباقي مملكة «غرناطة» وكان حاكم «غرناطة» في تلك الفترة هو «أبو الحسن علي بن سعد النصري» ولما وصل الناس بـ«غرناطة» الى حالة الانحدار الأخلاقي السالف ذكرها ضربهم اللَّه عز وجل في ٢٢ محرم سنة ٨٨٢هـ بسيل عظيم دمر «حمراء غرناطة» ومات فيه كثير من الناس، وتهدمت الدور والجوامع وتحطمت كثير من المباني والأسوار بالمدينة العريقة.

(وهكذا يعامل اللَّه عز وجل أمة الإسلام عندما تطغى وتتغير وتنسى أمر ربها مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن

كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فإن الأمة إذا انحرفت وضلت يعطيها اللَّه عز وجل إشارات وعلامات أنها تسير في الطريق الخطأ هذه الإشارات لا يفهمها إلا من كان له قلب وعقل، وهذا عكس ما يعامل اللَّه عز وجل به أمة الكفر، التي إذا زادت في غيها وكفرها فإنه عز وجل يمدها في طغيانها، ويفتح عليها أبواب كل شئ قوة وجبروتًا وسلطانًا، وسلاحًا وعتادًا، وأموالا ونعيمًا، حتى إذا أخذها أخذها أخذ عزيز مقتدر، واقرأوا في ذلك قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

كان هذا السيل الكبير إنذاراً كبيراً من اللَّه عز وجل لأهل غرناطة وأميرهم «أبي الحسن»؛ فبدأ يهتم بأمر الجهاد مرة أخرى، وكان سلاطين غرناطة يدفعون الأموال للملك «قشتالة» الصليبي ليسكت عنهم وعن المملكة؛ فلما أرسل «فرنياز» ملك «قشتالة» لقبض الجزية قال «أبو الحسن» للسفير القشتالي: «قل لمليكك إن دار سك العملة في غرناطة لم تعد تضرب إلا سيوفًا»، فرد الصليبيون على ذلك باحتلال حصن «جلنقة» فأعلن «أبو الحسن الجهاد على الصليبين، واستولى على بلدة «الصخرة»؛ وهي قاعدة حصينة للأسبان وفرح المسلمون بهذا النصر، واستبشروا به خيراً، واعتبروه فاتحة خير وجهاد من جديد، ولكن.

سرعان ما خاب ظن الناس؛ فإن الطبع يغلب التطبع، ومن كان الفساد في قلبه مغروسًا لا بد أن يشده يومًا، فبعد هذا النصر ركن الأمير «أبو الحسن» إلى الدعة وأطلق العنان لشهواته ونزواته، وبذر حوله بذور السخط والغضب، وأساء إلى الناس وأرهقهم بالضرائب، وكان وراء ذلك المرأة وصدق المصطفى ﷺ عندما قال: «ما تركت فتنة أخطر على رجال أمتي من النساء»، حيث اصطفى

«أبوالحسن» على زوجته وابنة عمه الأميرة «عائشة الحرة» وأم ولديه «محمد» و«يوسف» حظية رومية بارعة الحسن والدهاء أيضًا: اسمها «ثريا»؛ فهام بها حبًا وأهمل زوجته «عائشة» حتى تزوج هذه الحظية في النهاية، وأنجبت له ولدين، وحدث صراع بين الحرة وأولادها والحظية وأولادها، وخاصة أن أبا الحسن قد مال للحظية بشدة، وكان ولده الكبير «محمد» هو ولي العهد من بعده وأقنعته الرومية «ثريا» أن يخلع هذا الولد من ولاية العهد، ويعين ولدها مكانه وامتد الخلاف إلى قواد المدينة وكبارها: ففريق يؤيد الحرة، وفريق يؤيد الحظية، وأصبح شاغل غرناطة الأول «عائشة» و«ثريا».

(وهكذا تضيع وتزول الأمم، فلا عجب إن ضاعت إذًا الأندلس عندما يكون العدو محيطًا بالمسلمين من كل جانب، وهم منشغلون بالصراع بين النساء، تمامًا كما يحدث الآن عندما تدك الدولة الصهيونية منازل الفلسطينيين، وتحرق الطائرات الأمريكية القرى والمدن العراقية، ومن قبلها الأفغانية والمسلمون مشغولون بمباريات الكرة وأحدث الأفلام والأغاني وهكذا، ونعلم أيضًا مدى خطورة أمثال هؤلاء النسوة الأجنبيات داخل بيوت المسلمين؛ وكيف يتسللن كالأفاعي الناعمة لبث الفرقة والصراع داخل المسلمين، وهذا يذكرنا بالحية الرقطاء اليهودية «روكسلان» التي أوقعت السلطان «سليمان القانوني» العثماني في حبائلها، حتى هام بها حبًا وتزوجها؛ فكانت تلك اليهودية وبالاً ونكبة على الدولة العثمانية والمسلمين أجمعين؛ حيث استغلت مكانتها عند «سليمان» حتى وافق على إعطاء يهود الأندلس الحق في الاستيطان بالدولة العثمانية، وهم الذين شكلوا بعد ذلك ما عرف بيهود «الدونمة»، الذين كان لهم الدور الأبرز في إسقاط الدولة العثمانية).

• أسبانيا الصليبية المتحدة:

في الوقت الذي كان يسير الوجود الإسلامي بالأندلس نحو حافة الهاوية في ظل التفرق والانحلال الخلقي كانت أسبانيا الصليبية تسير في طريق الاتحاد

والتجمع من أجل إنهاء الوجود الإسلامي بالأندلس، حيث كانت أسبانيا النصرانية منقسمة على نفسها إلى ثلاث ممالك كبيرة: هي مملكة «أراجون» في الشرق وملكها هو «فرناندو»، ومملكة «قشتالة» في الوسط وهي أكبر الممالك والملكة عليها هي «إيزابيلا الكاثوليكية» وهي امرأة شديدة التعصب والحقد على المسلمين، وفي الغرب مملكة «لوين» ويقودها «ألفونسو الخامس»؛ وهو أيضًا ملك على البرتغال، وكان بين هذه الممالك الثلاثة صراع طويل الأمد استفاد المسلمون منه لفترات طويلة خاصة عند بداية ظهور مملكة «غرناطة» سنة ٦٣٠هـ.

كانت «إيزابيلا» محط أنظار كثير من الأمراء والنبلاء من أجل الزواج منها، ولكنها رفضت الجميع واختارت ابن عمها الأمير «فرناندو» ملك «أرجوان» من أجل توحيد الصف الصليبي، وقد اشترطت على «فرناندو» عدة شروط من أجل إتمام الزواج على رأسها أن يتابع «فرناندو» حربه ضد المسلمين بلا هوادة حتى يزيل لهم أي أثر في «الأندلس»؛ ذلك لأن هذه المرأة كانت تضطرم بروح صليبية عميقة وواقعة تحت تأثير الأحبار والرهبان؛ وكان لتلك المرأة المتعصبة الدور الأكبر في قيام محاكم التفتيش لمسلمي «الأندلس» بعد سقوطها.

عارض الملك «الفونسو الخامس» هذا الزواج لاعتبارات سياسية وشن حربًا قوية ضد «فرناندو» و «إيزابيلا» انتصر في بدايتها، ولكنه سرعان ما انهزم واستقر «فرناندو» و«إيزابيلا» على عرش إسبانيا المتحدة إيذانًا ببدء الحرب الأخيرة ضد آخر معاقل الإسلام بـ«الأندلس».

• ثورة العوام:

في تلك الفترة العصيبة من حياة «الأندلس» كان السلطان «أبو الحسن» سادرًا في غيه وشهواته يعب منها عبًا مما جعله يترك أمر الجهاد ويسقط رواتب الجند حتى اضطروا لبيع سلاحهم ليأكلوا وأهلهم والسلطان «أبو الحسن» يظن

بغفلته أن الصليبين لا يهاجمون بسبب القتال الدائر بينهم وأيضًا بسبب المعاهدات السابقة بين «قشتالة» و«غرناطة».

(انظر إلى سذاجة وطيبة المسلمين المهلكة وحسن ظنهم بعدوهم الحاقد الذي لا يكل ولا يمل عن حربهم بل هومهر نساءهم أن يُحارب الإسلام والمسلمين).

كانت هناك شخصية في سياق الأحداث لها درو كبير في إنغماس السلطان «أبي الحسن» في الشهوات والملذات وهي شخصية الوزير «أبي القاسم بن رضوان» وهو من أسرة إسبانية نصرانية، وقع جده في أسر المسلمين وتربىٰ هذا الوزير في كنف المسلمين، ولكنه كان بمثابة العميل المزدوج فهو يسهل للسلطان فساده ومجونه وفي نفس الوقت يظهر للناس الصلاح والتقوىٰ وله علاقات مشبوهة مع الصليبين مع العلم أنه لما سقطت «غرناطة» إرتدت معظم أسرة هذا الوزير المجرم للنصرانية وأصبحوا قادة ورهبان في إسبانيا الصليبية.

أفاق السلطان الغافل والوزير المشبوه علىٰ نقض الصلح وهجوم الصليبيين علىٰ حصن «الحامة» وقتل ما به من المسلمين وسبوا النساء والذرية وجعلوا هذا الحصن نقطة إنطلاق علىٰ باقي «غرناطة»، ولما وصلت تلك الأخبار لمسلمي «غرناطة» ثاروا ثورة عارمة مشحونة بكمد وغيظ سنوات طويلة والشعور بالمهانة وذهبوا إلىٰ قصر «الحمراء» مقر إقامة السلطان وطلبوا منه الخروج لنصرة المسلمين في «الحامة» ولكن السلطان والوزير يحاولان تثبيط العزم وتهدئة الجماهير الثائرة بدعوىٰ أخذ العدة اللازمة للخروج، ولكن الجماهير الغاضبة تهتف بصوت واحد: «لا صبر لنا علىٰ هذه المصيبة العظمىٰ ولا خير في العيش بعد هذه النكبة إما أن نفك إخواننا أو نموت دونهم»، وعندها وتحت ضغط جماهير المسلمين إضطر السلطان للخروج فخرجت جموع كثيرة من المسلمين المتطوعين لنجدة مسلمي «الحامة».

• خيانة مقصودة:

تتحرك الجيوش المسلمة بأقصىٰ سرعة تدفعهم رغبة عارمة لنصرة المسلمين وتؤزهم صرخات وآهات نساء المسلمين السبايا عند عباد الصليب ووصلوا إلىٰ «الحامة» واشتبكوا مباشرة مع الحامية الصليبية بالحصن وضغطوا عليهم بشدة وعنف بغية فتح الحصن قبل وصول الإمدادات للصليبين الذين أرسلوا باستغاثات لباقي صلبيي «الأندلس»، وأحدث المسلمون بالأسوار عدة فتحات حتىٰ كادوا أن يفتحوه، وهنا تحركت أفاعي الخيانة والغدر حيث قال الوزير للمسلمين: «انتظروا حتىٰ الصباح ولا تقاتلوا في الليل»، فرجع الجيش عن الحصن، فمكث الصليبيون طوال الليل يصلحون شأنهم وأسوارهم فلما غدا المسلمون للقتال وجدوا أن الحصن قد أصبح منيعًا لا يرام، ولكن ذلك لم يمنعهم عن مواصلة القتال، وهنا تدخل الوزير الخائن مرة أخرىٰ ولجأ إلىٰ حيلة خبيثة دنيئة حتىٰ يثبط عزم المسلمين حيث زور رسائل قدمت علىٰ المسلمين مفادها أن ملك الصليبيين قد أعد جيشًا جرارًا للهجوم علىٰ «الحامة» لإنجاد النصارىٰ المحاصرين هناك، فأدت هذه الرسالة المزورة لإنهيار محاولات المسلمين لفتح «الحامة» ويقررون العودة لـ«غرناطة» علىٰ أمل بالعودة مرة أخرىٰ. «**هذا يوضح مدى خطورة الخيانة والخائنين على هذه الأمة التي خسرت كثيراً بسبب هؤلاء الخائنين وللعلم سجل الخيانة أكبر مما يتخيل المسلمون وصناعة العملاء من أهم الصناعات التي يعتمد عليها أعداء الإسلام في محاربة هذه الأمة فأين دفاعات المسلمين المضادة لتلك الصناعة الشريرة**».

• معركة لوشة:

أدرك المسلمون الصادقون سوء فعال السلطان الفاسق والوزير الخائن وكثر الكلام بحقهما خاصة بعد افتضاح أمرهما وزاد ظلمهما، ووصلت أخبار التذمر الشعبي للصليبيين، فقرر «فرناندو» استغلال الفرصة وقاد جيشًا كبيرًا

ليستولي على منطقة «الوشة»، وهي مفتاح «غرناطة» من ناحية الغرب، وعندما يعلم المسلمون الخبر يثورون تلك المرة كالأسود الكاسرة، فخرجت أعداد كبيرة من المسلمين المتطوعين الذين جاءوا من كل أنحاء «غرناطة» دونما تنسيق أو ترتيب بينهم إنما دفعهم نصرة الإسلام ونجدة المسلمين وذلك كله دون أن يرجعوا الى سلطان ولا وزير فالجميع يشعر بجسامة الخطر المحدق بالإسلام نفسه قبل المسلمين.

وقبل أن تصل الجيوش الصليبية إلى منطقة «لوشة» إصطدمت قوات المسلمين المتطوعين معهم بكل قوة وعزم على رد هؤلاء الصليبيين، ومكث جيش المتطوعين طوال الليل يقاتلون الصليبيين حتى قتلوا منهم الكثير، وفي نفس الوقت أراد السلطان «أبو الحسن» أن يحافظ على منصبه ومكانته فأرسل الجيش النظامي لمساندة المتطوعين في القتال، فلما طلع الصبح وجد الصليبيون أنفسهم قبالة جيشين فطعنهم المسلمون وغنموا ما كان في معسكرهم من الأموال والغنائم في انتصار هائل؛ وقد حدثت كرامات كبيرة أثناء القتال تعطي إشارة على صحة الطريق وذلك أن فرسان المسلمين كانوا يطاردون فرسان الصليبيين فكان المسلمون أثناء المطاردة يجدون الصليبيين قتلى على جانبي الطريق دون أن يقترب منهم أحد من المسلمين. «لا تستغرب ذلك فإن الملائكة تحارب مع المسلمين وهم مدد رباني يرسلهم اللَّه عز وجل إلى من يشاء من عباده عندما يكونون أهلاً لهذا المدد والتأييد في أي عصر كان وعلى أي جند كانوا عربًا أو عجمًا بيضًا أو سودًا طالما هم من جند اللَّه عز وجل».

كان هذا الانتصار الهائل بمثابة الوهج الأخير للسراج قبل أن ينطفئ وينفذ ما فيه من زيت إضاءة، حيث حقت على هذه الأمة أمر ربها جل وعلا وركبت سنن من كانوا قبلها وأذن اللَّه في زوالها، ودليل ذلك أن في نفس يوم الانتصار يحدث أمرًا يذهب من حلاوة النصر عندما يفر الأمير «محمد» ولي

العهد من معتقل أبيه السلطان «أبي الحسن» وأعلن نفسه سلطانًا لـ«غرناطة» مما فرّق الصف لكراهية أهل المسلمين لـ«أبي الحسن» رغم أن الأمير «محمد» هذا سيكون نكبة على «الأندلس» كلها فعلى يديه سينطفئ السراج وتسقط «غرناطة».

تاريخ ابن خلدون	دولة الإسلام في الأندلس	موسوعة التاريخ الإسلامي
نبذة العصر	نفح الطيب	
الإحاطة في أخبار غرناطة	التاريخ الإسلامي	

معركة وادي موهاكس . سقوط حامية الصليب

الزمان / ٢١ ذي القعدة ـ ٩٣٢هـ.

المكان / وادي موهاكس ـ المجر.

الموضوع / العثمانيون بقيادة «سليمان القانوني» يقضون على مملكة حامية الصليب.

الأحداث

• مقدمة:

منذ أن بزغ نجم الدولة العثمانية على الساحة الأوروبية خاصة في منطقة «البلقان»، تزعمت مملكة «المجر» والتي كانت تعتبر وقتها أقوى الممالك النصرانية قيادة التحالف الأوربي الصليبي ودخلت في عدة معارك طاحنة ضد الدولة العثمانية، بل إن ملوك «المجر» أنفسهم كانوا يشتركون في القتال بأنفسهم ومن أشهر المعارك التي خاضتها «المجر» ضد المسلمين العثمانيين معركة «نيكوبلس» سنة ٧٩٨ هـ في عهد السلطان «بايزيد الصاعقة»، حيث قاد «سيجموند» ملك «المجر» تحالفًا صليبيًا مكونًا من «ألمانيا» و«فرنسا» و«انجلترا» و«اسكتلندا» و«سويسرا» و«لوكسمبرج . . » وانتصر المسلمون، ومعركة «فارنا» سنة ٨٤٨هـ في عهد السلطان «مراد الثاني»، حيث قاد «لاديسلاسي» ملك «المجر» تحالفًا صليبيًا جديدًا يفوق سابقه، وانتصر المسلمون وقتل «مراد الثاني» «لاديسلاسي» بيده في مبارزة رهيبة بين

الرجلين، وهكذا ظلت مملكة «المجر» طوال قيامها مملكة للشر والتآمر ضد الدولة العثمانية ورأس حربة في الصراع بين الإسلام والنصرانية في القارة الأوروبية عمومًا ومنطقة «البلقان» خصوصًا.

• الأوضاع داخل الدولة العثمانية:

في تلك الفترة من فترات وأطوار الدولة العثمانية بلغت فيها القوة والاتساع العثماني مداه الكبير، وذلك بعد قيام السلطان «سليم الأول» بتوحيد العالم الإسلامي بعد أن ضم «الشام» و«مصر» لأملاك الدولة العثمانية، وأزال الدولة المملوكية ودانت له البلاد «الحجازية» و«اليمن» بالطاعة وأخذ «العراق» من الدولة الصفوية الخبيثة، وثبت «سليم» أركان دولته بقوة وعظمة وورث ذلك كله ابنه «سليمان» الملقب بـ«القانوني» وكان شابًا في السادسة والعشرين من عمره، ويعتبر عصر «سليمان» هو العصر الذهبي للدولة العثمانية حيث بلغت فيه أوج قوتها واتساعها وأصبحت ولايات الدول العثمانية منتشرة في قارات العالم الثلاثة - آسيا / أفريقيا / أوروبا - وهي المعروفة وقتها.

استطاع «سليمان القانوني» أن يقضي على كل الفتن والثورات الداخلية التي نشأت بعد وفاة أبيه «سليم» مثل ثورة «جان برولي الغزالي» والي «الشام» وثورة «أحمد شاه» والي «مصر» وثورات الشيعة المتكررة على يد رجال مثل «بابا ذو النون» و«قلندر جلبي» في منطقتي «قونية» و«مرعش»، واشتهر «سليمان» بالتأني في جميع شئونه ولا يتعجل في الأعمال التي يريد تنفيذها بل كان يفكر بعمق ثم يقرر وينفذ ما قرره وكان لـ«سليمان القانوني» الدور الكبير في إخضاع بلاد «ليبيا» و«تونس» و«الجزائر» وأجزاء من «المغرب» للحكم العثماني بعد أن أزال منها الدول الضعيفة الخاضعة للصليبين وخضد شوكة «إسبانيا» و«البرتغال» بعدما كانتا على وشك النيل من بلاد الإسلام كلها بشمال أفريقيا.

• الأوضاع داخل أوروبا:

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تعيش عصرها الذهبي ولا تغيب الشمس عن أقاليمها، كانت الأوضاع على الصعيد الأوروبي شديدة الاضطراب، وبالغة التردي، وذلك على كافة الأصعدة جعلت أوروبا منشغلة بنفسها عن غيرها، وكانت هناك حالة من الفوضى الشديدة على الصعيدين السياسي والديني.

فلقد كان هناك صراع سياسي كبير بين الإمبراطور «شارلكان» الجالس على عرش الإمبراطورية المقدسة! والملك «فرانسوا الأول» ملك «فرنسا» الذي ينافسه على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة، مع العلم أن أملاك هذه الإمبراطورية من «إسبانيا» و«البرتغال» و«هولندا» و«ألمانيا» وإمارات «جنوة» و«فلورنسا» وجزر «صقلية» و«قبرص» و«رودس» و«مالطة» وكل الأراضي المنخفضة من قارة أوروبا، وهذا يعني أن أملاك «شارلكان» تحيط بـ«فرانسوا» من كل مكان، وللعلم أيضًا كان «شارلكان» أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين عامة والعثمانيين خاصة، بل إن عداوة «شارلكان» فاقت سابقيه ولاحقيه.

أما على الصعيد الديني كان هناك صراع شديد وتكفير متبادل بين أتباع المذهب «الكاثوليكي» بقيادة البابا «ليو العاشر» وأتباع المذهب «البروتستانتي» بقيادة الراهب الألماني اليهودي الأصل «مارتن لوثر». «تلك سنة ربانية قاضية ماضية إلى قيام الساعة وحتى ينزل «عيسى» عليه السلام فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويصلي مع المسلمين ولا تقبل بعدها جزية، تلك السنة الربانية نجدها في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[المائدة: ١٤]، فهم دائمًا في عداوة وشحناء وتكفير ـ الكاثوليك يكفرون البروتوستانت والأرثوذكس والعكس، ومهما حاولوا الظهور بمظهر المتحد فهم متفرقون مختلفون والذي يجمعهم دائمًا ويوحدوا رايتهم هو عداوتهم الكبيرة

للإسلام والمسلمين، بل إن هذه العداوة للإسلام تجمع كل الكافرين والمجرمين من أهل الأرض سواءً من أهل الكتاب أو غيرهم من عباد البقر والأوثان والشياطين».

• سياسة التقارب:

قلنا من قبل أن أملاك «شارلكان» كانت تحيط بـ«فرنسا» من كل مكان، و«فرانسوا» ملك «فرنسا» لا يستطيع مواجهة «شارلكان» لا سياسيًا ولا حربيًا ولا أيضًا اقتصاديًا، وهو يرى أن طموحات «شارلكان» نحو «فرنسا» كبيرة، ففكر «فرانسوا» في الدخول في حلف مع الدولة العثمانية ليتقوى بها ضد أطماع «شارلكان»، وقد بدأت فكرة الدخول في حلف مع العثمانيين بعد معركة «بافيا»، والتي أسر فيها ملك فرنسا «فرانسوا الأول» من جانب جيوش «النمسا»، وهي معروفة تاريخيًا باسم: «مملكة أو عائلة الهابسبرج» وذلك سنة ٩٣٠ هـ، فأسرعت والدة «فرانسوا الأول» والوصية على العرش وأوفدت مبعوثًا خاصًا من عندها اسمه «جون فرانجيباني» ومعه خطاب منها وخطاب من الملك الأسير يطلبان فيهما من السلطان «سليمان القانوني» مهاجمة قوات الهابسبرج لفك أسر «فرانسوا».

وعلى الرغم من أن «فرانسوا» قد أطلق سراحه بموجب معاهدة تم عقدها في «مدريد» بين «فرنسا» و«النمسا» سنة ١٣٩ هـ إلا أن «فرانسوا» صمم أن يمضي قدمًا في سياسته التقاربية مع الدولة العثمانية، فأرسل سكرتيره «جان دي لافوريه» إلى السلطان «سليمان» لوضع الخطوط الرئيسية للمعاهدة التي عرفت بمعاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية.

كان من نتائج سياسة التقارب تلك وما تمخضت عنه من معاهدات أن زاد التعاون بين الأسطولين العثماني والفرنسي، وشن الأسطول العثماني هجمات قوية على شواطئ مملكة «نابولي» التي كانت تابعة لـ«شارلكان»، ثم تمعت وحدات الاسطول العثماني والفرنسي وهاجمت «نسير» التابعة لدولة

«سافوي» حليف «شارلكان»، واستفادت «فرنسا» من هذا التقارب مع الدولة العثمانية عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا، وارتفع قدرها وسط الدول الأوروبية جدًا بفضل حماية العثمانيين لقوافل «فرنسا» التجارية.

• معركة وادي موهاكس:

كما قلنا من قبل إن «فرانسوا الأول» أثناء وقوعه في أسر قوات الهابسبرج أرسل برسالة يستعطف فيها السلطان «سليمان القانوني» ويطلب منه الهجوم على قوات الهابسبرج لتخفيف الضغط عليه من جانب «شارلكان»، ووجد «سليمان القانوني» أن في ذلك فرصة سانحة لاستغلال هذا الصراع الأوروبي من عدة جوانب منها:

(١) تخفيف الضغط على مسلمي «الأندلس»، حيث كان «شارلكان» أعدى أعداء الإسلام، وقد أوقد نار محاكم التفتيش في «الأندلس»، وارتكب في حق مسلمي «الأندلس» مما يعجز الوصف عن تصويره.

(٢) فتح أراضي جديدة في منطقة «البلقان»، ونشر دين الإسلام في أوروبا.

(٣) شق الصف الصليبي الأوروبي الذي تحالف عدة مرات على المسلمين والدولة العثمانية.

(٤) تثبيت وضع المسلمين الأروبيين حديثي العهد بالإسلام في «بلغاريا» و«البوسنة» و«ألبانيا».

(٥) تأديب مملكة «المجر» الغادرة والتي هي أصلاً محور كلامنا وطرف الصراع في تلك المعركة، فقد أفل نجم هذه المملكة العريقة في حرب الإسلام بعد الهزائم المتتالية التي نالتها على يد العثمانيين، وأجبرت في النهاية على دفع الجزية للدولة العثمانية كنوع من أنواع الخضوع والتبعية للسلطان الإسلامي واستمر الوضع هكذا فترة من الزمن حتى تولى مُلك «المجر» رجل

شديد الحقد، عظيم الكفر، اسمه «فيلاديسلاف الثاني»، حيث اعتزم فك أي تعهدات كانت قد أعطيت من قبل أسلافه لسلاطين الدولة العثمانية، ولما جاءه سفير السلطان «سليمان» لقبض الجزية المعتادة أعلن رفضه لدفعها، وقام بعمل شنيع في عرف العلاقات الدولية، حيث قام بقتل السفير العثماني مما يعد إعلانًا للحرب، ودخل «فيلاديسلاف» في حلف مع «شارلكان» ليأمن بطش السلطان «سليمان» مما جرى منه: قتل للسفير ومنع للجزية.

• الخطة المحكمة:

قرر «سليمان» أن يقود الجيوش بنفسه ليدعم الحالة المعنوية للجند، وإظهارًا لعزمه الأكيد على تأديب مملكة «المجر» وإنهاءها تمامًا من الوجود العسكري، جزاءً وفاقًا لتلك المملكة المجرمة التي طالما حاربت الإسلام وألبت عليه وجمعت الصليبيين بأوروبا لحرب الإسلام وقادت التحالف الصليبي عدة مرات.

خرج «سليمان» يقود مائة ألف مقاتل وثمانمائة سفينة وثلاثمائة مدفع، وجعل مدينة «بلجراد» نقطة الانطلاق للجيوش العثمانية وقام بعبور نهر «الدانوب» الفاصل بين مملكة الصرب ومملكة «المجر» ودخل وادي «موهاكس» بالأراضي المجرية في ٢٠ ذي القعدة ٩٣٢ هـ.

استعد ملك «المجر» الغادر «فيلاديسلاف الثاني» هو وجنوده للدفاع عن بلادهم، واصطدم الجيشان في ٢١ ذي القعدة سنة ٩٣٢هـ، وهجم المجريون بكل قوتهم مدفوعين بالحقد القديم والهزائم التاريخية وعداوة الدين والدفاع عن أرضهم، وتقهقر الجيش العثماني وفق خطة موضوعة سلفًا لاستدراج المجريين، وظل العثمانيون يتقهقرون حتى وصلوا إلى النقطة المتفق عليها سلفًا وهي نقطة مدى نيران المدافع العثمانية التي كانت تأخذ مواقعها خلف

الصفـوف، وبدأت هذه المدافع تضرب نيـرانها دفعة واحـدة وفي آن واحد، ثلاثمائة مدفع يصوبون حمم نيرانهم على الجيش المجري الذي دُمِّر تدميـراً كـاملاً، ومات معظم الجيش تحت نيران المدافع وعلى رأسهم ملكهم الهالك «فلاديسلاف الثاني».

وبعد هذا الانتصار الهائل لم يبق لـ«المجر» من يدافع عنها، وواصل «سليمان» سيره حتى دخل مدينة «بودابست» عاصمة المجر في ٣ ذي الحجة سنة ٩٣٢ هـ، وأصبحت «المجر» ولاية عثمانية وعيَّن «سليمان» عليها واليًا من طرفه، وانقضت بذلك مملكة الشر وحامية الصليب الأوروبي لقرابة عقدين من الزمن، ودفعت ثمن عداوتها وحربها للإسلام والمسلمين، وهذا هو مصير كل عدو ومحارب للإسلام قديمًا وحديثًا لأنها سنة ماضية ونهاية حتمية كما قال اللَّه عز وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

تاريخ الدولة العلية	العثمانية	الدولة العثمانية في العصر
شذرات الذهب	أطلس تاريخ الإسلام	الحديث
الدولة العثمانية المفترى عليها	موسوعة التاريخ الإسلامي	
عوامل نهوض وسقوط الدولة	التاريخ الإسلامي	

معركة وادي المخازن. الملوك الثلاثة

الزمان / الإثنين ٣٠ جمادى الآخرة ـ ٩٨٦هـ.

المكان / وادي المخازن ـ المغرب الأقصى.

الموضوع / انتصارات المسلمين بقيادة «عبد الملك السعدي» على الصليبيين بقيادة سبستيان ملك البرتغال.

الأحداث

• مقدمة:

أحداث التاريخ الإسلامي بها الكثير من المشاهد المتطابقة المتكررة بنفس الخطوات والهيئة، مع اختلاف في الأسماء والشخصيات، ومن هذه المشاهد والدائمة الحدوث والتكرار، والتي لا يكاد يخلو منها عصر من العصور تقريبًا هو مشهد الخيانة والعمالة لأعداء الأمة، حيث يتوجه الخائن لدينه وأمته إلى أعداء الإسلام ليعرض عليهم خدماته القذرة ضد أمته ودينه ووطنه من أجل دنيا يصيبها، أو كرسي يتربع عليه أو منصب يأخذه، وهكذا وعندما يجد أعداء الإسلام الفرصة السانحة التي لا تفوت، والعرض المغري الذي لا يرفض يجمعون كيدهم، ويوقدون نارهم، ويأتون صفًا تحت مسميات كاذبة وشعارات زائفة كل حسب العصر الذي فيه الفرصة مثل إعادة الحق، ونشر العدل، وإقامة حكومات ديموقراطية، ومكافحة الإرهاب، ثم تكون النتيجة الحتمية، والتي أثبتها التاريخ في مواطن كثيرة؛ وهي أن النصر للدين وأهله والخزي

والهزيمة للكفر والخيانة، ثم يبقى عار الخيانة يلطخ ثوب صاحبها إلى يوم القيامة ومكانه الطبيعي هو مزبلة التاريخ، حيث يرجم تاريخه كقبر أبي وغال.

وهذه الحادثة رسالة صريحة وواضحة لكل خائن تراوده نفسه يومًا أن يبيع دينه وأمته، ويعتز بالكفر من أجل دنيا فانية، ومتاع زائل.

• بلاد المغرب عبر التاريخ:

يتميز تاريخ المغرب الإسلامي بعدد من الظواهر التي تميزه عن سائر بلاد الإسلام: منها طول الفترة التي استغرقها الفتح الإسلامي؛ حيث استغرق سبعين سنة كاملة حتى تم الفتح التام العام للمغرب كلها، حروب عنيفة وطاحنة بين المسلمين العرب والبربر الوثنيين، والتي انتهت بدخول البربر في دين اللَّه أفواجًا، بعدما احتكوا بالمسلمين، وتعرفوا على فضائل الإسلام وأخلاقه، ومن هذه الظواهر أيضًا أن أهل المغرب دخلوا جميعًا في دين اللَّه أفواجًا؛ فلم تبق هناك أقليات غير مسلمة بالبلاد، والأكثر من ذلك أن هذا التاريخ قد انتهى إلى وحدة دينية مذهبية بلا نظير في أي مكان في العالم الإسلامي؛ فأهل المغرب جميعهم من أقصاه إلى أدناه على مذهب أهل السنة والجماعة، لا يوجد بينهم رافضي واحد.

عندما دخل المسلمون الفاتحون لبلاد المغرب قاموا بتقسيم البلاد إداريًا وجغرافيًا إلى أربعة أقسام كبرى وهي: إفريقية «وهي تونس» / المغرب الأوسط / السوس / المغرب الأقصى؛ وهذه الأقسام الأربعة تمثل الآن أربعة دول وهي: تونس / الجزائر / المغرب / موريتانيا؛ ويبدأ تاريخ الفتح الإسلامي للمغرب العربي من سنة ٣٨هـ، وهو العام الذي فتح فيه المسلمون بلاد إفريقية «تونس» بعد معركة طاحنة مع الروم والبربر عند مدينة «سبيطلة» وبعدها، انساح المسلمون الفاتحون في بلاد المغرب العربي وبرزت أسماء

لامعة في سماء البطولة والفتح الإسلامي مثل «عقبة بن نافع»، و«المهاجر أبو دينار» و«زهير بن قيس» و«حسَّان بن النعمان» و«موسىٰ بن نصير» الذي يعد الفاتح الأكبر لبلاد المغرب ثم الأندلس.

* وعلىٰ مدىٰ عشرة قرون منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب تداولت السلطة بها عدة دول: بعضها قوي، والأخر ضعيف، وبعضها مجاهد، والبعض الأخر تابع، ومن أمثال تلك الدول دولة الأغالبة «١٨٤ ـ ٢٩٧ هـ»، ودولة الأدراسة «١٧٢ ـ ٣٤٣هـ» ودولة الرستميين «١٦٤ـ ٢٩٦ هـ» وهي دولة كانت تحكم أجزاء متفرقة من البلاد وليست كلها، ثم الدولة الفاطمية الشريرة «٢٩٧ـ٣٦٢هـ» ثم الدولة المرابطية العظيمة «٤٤٨ـ٥٤١ هـ» ثم الدولة الموحدية الكبيرة «٥٤١ ـ٦٦٨هـ» والدول الثلاثة الأخير حكمت بلاد المغرب كلها؛ ثم ظهرت عدة دول متفرقة مثل دولة بني حفص، ودولة بني الواد، ودولة بني وطاس، وكلها دول صغيرة خرجت من عباءة دولة الموحدين، واستقلت بحكم أجزاء متفرقة من بلاد المغرب، ومن هذه الدول كانت أيضًا دولة الأشراف السعديين التي استقلت بحكم المغرب الأقصىٰ منذ سنة ٩٤٨هـ، وهي التي مازالت تحكم بلاد المغرب الأقصىٰ حتىٰ وقتنا الحاضر.

• العثمانيون وتوحيد بلاد المغرب:

رغم أن ظهور نجم الدولة العثمانية يعود لسنة ٧٠٠هـ إلا أن هذه الدولة العظيمة لم تتجه ببصرها إلىٰ ناحية المغرب الإسلامي إلا في عهد السلطان «سليمان القانوني» وذلك سنة ٩٢٥هـ وذلك لانشغال الدولة في الجهاد ناحية الشمال بأوروبا، وناحية الشرق ضد روسيا وإيران والتتار، وكانت البداية إسقاط الدولة المملوكية بمصر، ومنها انطلق العثمانيون إلىٰ بلاد المغرب في رحلة شاقة من أجل توحيد بلاد المغرب، والقضاء علىٰ الدول الضعيفة التابعة

للصليبيين الأسبان والبرتغاليين، حتى إن حكام تلك الدول كانوا أشبه بولاة وعمال عند ملوك الصليبيين، وبالفعل استطاع العثمانيون بفضل اللَّه وحده، ثم بجهود رجال عظام من عينة «خير الدين بربروسا» وأخيه «عروج» و«صالح الريس» و«قلج علي» و«حسن الطواشي» وغيرهم، أن يفتحوا بلاد المغرب من ليبيا إلى تونس، ثم الجزائر، وقضوا على الدول الخاضعة للصليبيين، وأزالوا كل المراكز والنقاط الاستعمارية التي أنشأها الأسبان والبرتغال على السواحل الإسلامية ببلاد المغرب الإسلامي، ولكن بقيت بلاد المغرب الأقصى تحت حكم الدولة السعدية، التي وقفت أمام الفتح الإسلامي العثماني بدعاوى باطلة مثل: العصبية، والقبلية، والوطنية إلى غير ذلك، ولكن السبب الحقيقي هو الحرص على السلطة وكرسي الحكم.

كان السبب الفعلي وراء رفض الدولة السعدية الانضمام لسلطة العثمانيين هو سلطان الدولة السعدية في تلك الفترة واسمه «الغالب بالله»، وكان أهوج أحمق سفاكًا للدماء: قتل ثلاثة من إخوته لرفضهم البيعة لولده «محمد المتوكل» من بعده، مما جعل بقية إخوته يفرون منه خوفًا من القتل، ثم أضاف لجناياته السابقة جناية أشد منها شناعة ونذالة، وهي الغدر بمسلمي الأندلس الثائرين على اضطهاد الصليبيين الإسبان لهم سنة ٩٧٦هـ؛ ذلك لأنه وَعَدَهُم بالعون والمساعدة، ثم أسلمهم لعدوهم وخذلهم، بل قام بأدهى من ذلك عندما أخبر الصليبيين الإسبان بتلك الثورة وتفاصيلها، وميعاد قيامها، مما أدى لإحباط تلك الثورة، وبقاء المسلمين تحت نير الصليبيين، وإنما قام هذا الخائن بتقديم كل هذه القرابين من دم وأرواح وعرض المسلمين من أجل ضمان مساعدة الدول الأوروبية الصليبية له في تحديه للدولة العثمانية.

• على درب الخيانة:

ظل سلطان السعديين «الغالب بالله» على خيانته للمسلمين، وعمالته لصليبي أوروبا عامة وأسبانيا والبرتغال خاصة، وصمد أمام محاولات الدولة العثمانية لتوحيد بلاد المغرب الإسلامي كلها، حتى هلك غير مأسوف عليه سنة ٩٨١هـ، وقد ارتاحت منه البلاد والعباد، ولكن خلفه ولده «أبو عبد الله محمد المتوكل على اللّه»، وكان صنو أبيه وعلى نفس منهجه وسار خلفه على درب الخيانة، فعمل على التقرب والتزلق لأعداء الإسلام من صليبيي أوروبا، ليضمن مساعدتهم له ضد الدولة العثمانية، فعقد اتفاقية تجارية مفتوحة مع الإنجليز، ووقع معاهدة دفاع مشترك مع الإسبان والبرتغاليين؛

(ونحن نرى لوقتنا الحاضر أن أولى خطوات التمهيد للعدوان على بلاد الإسلام هو توقيع أمثال هذه المعاهدات والاتفاقيات التي تتيح بموجبها الفرصة لأعداء الإسلام بالتدخل في شئون المسلمين، وفرض شروط الذلة والصغار عليهم، كما يحدث الآن من سعي دولة الكفر والعدوان أمريكا من إجبار الدول الإسلامية العربية من التوقيع على اتفاقية اقتصادية حرة مع أمريكا بموجبها يتم ربط كل مقدرات واقتصاديات تلك الدول بالاقتصاد الأمريكي والبقية معروفة).

كانت بلاد المغرب الأقصى ذات موقع استراتيجي هام جداً، فهي منتهى الحدود الغربية للعالم الإسلامي، وثغر هام أمام أعداء الإسلام في الشمال، لذلك اهتم العثمانيون بفتحها وضمها لأملاكهم لتأمين حدود الدولة الإسلامية، وتخفيف الضغط الصليبي الرهيب على مسلمي الأندلس، فعمل العثمانيون على إزاحة الخائن ابن الخائن «محمد المتوكل» المتحالف مع أعداء الإسلام، وذلك عن طريق تشجيع عمه الأمير «عبد الملك السعدي» الذي سبق وأن فر من بطش أخيه «الغالب بالله»، وقد جاءت الفرصة مناسبة لذلك عندما انشغل ملك إسبانيا الصليبي

«فيليب الثاني» و هو أكبر حليف للخائن «محمد المتوكل» بأحداث ثورة الأراضي المنخفضة بأوروبا الغربية وخروجه للقتال مع بابا روما ضد ملك فرنسا، فأعد العثمانيون جيشًا قوامه خمسة آلاف مقاتل بأحدث الأسلحة وقاده الأمير «عبد الملك»، واستطاع الانتصار على ابن أخيه «محمد المتوكل» الذي فر هاربًا من المغرب، والتجأ إلى ملك البرتغال المشهور «سبيستيان».

كان الأمير «عبد الملك السعدي» ذا همة وإرادة حديدية وملكات قيادية بارزة؛ فعمل على إصلاح بلاد المغرب، فنظم التجارة وجدد الأسطول، وأسس الجيش على أحدث النظم، وفرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوروبيين احترموه وأجلوه، وقال عنه معاصروه: كان «عبد الملك» فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمينية والروسية، وكان شاعراً مجيداً للشعر، باختصار فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنسبة إلى نبيل؛ فأحرى بملك، والفضل ما شهدت به الأعداء.

• الخائن والحاقد:

بعدما رأى الخائن المخلوع «محمد المتوكل» ما حل به من هزيمة، وفقدان ملكه، وضياع مملكته وطرد من البلاد فهام على وجهه، ثم استقر في النهاية على رأي شيطاني، وهو الاستعانة بألد أعداء الإسلام وقتها وهو ملك البرتغال «سبستيان»، وعقد معه معاهدة خبيثة يلتزم فيها «سبستيان» بمساعدة المخلوع «محمد المتوكل» على استعادة سلطانه المفقود، وطرد عمه «عبد الملك» من بلاد المغرب في حين يلتزم فيها «محمد المتوكل» بالتنازل عن جميع سواحل المغرب للصليبيين البرتغاليين، وقطعًا وجد «سبستيان» في ذلك الفرصة التي لا تعوض؛ فوافق فوراً على هذه المعاهدة الشيطانية، وانتقل المخلوع «محمد المتوكل» للإقامة بطنجة انتظاراً للإمدادات الصليبية القادمة من البرتغال.

وكان الأمير «سبستيان» البرتغالي يضطرم بشخصية حاقدة وعقلية استعمارية في آن واحد؛ فلقد وافق على هذه الصفقة الشريرة لسببين هامين وهما:

١ـ أراد «سبستيان» أن يمحو العار الذي لحق بالبرتغاليين على يد المغاربة الذين وجهوا لهم ضربات موجعة جعلتهم ينسحبون من مدن «أسفي / أزمور/ أصيلا» وغيرها، وذلك في زمان أبيه «يوضا الثالث» سنة ٩٦٠هـ.

٢ـ أراد «سبستيان بن يوحنا» أن يخوض حربًا مقدسة ضد المسلمين ـالكفارـ! حتى يعلو شأنه بين ملوك أوروبا، خاصة بعد أن زاد غروره بما حققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي.

• الخدعة الفاشلة:

وصلت أخبار مخطط الخيانة لـ«عبد الملك السعدي» وحلفائه العثمانيين، فاستعدوا لقتال المعتدين وأرسل السلطان العثماني «سليم الثاني» فيلقًا عسكريًا كاملاً لمساعدة «عبد الملك» في الدفاع عن بيضة الإسلام، ودوت صيحة الجهاد المقدس في جنبات المغرب الأقصى، أن اقصدوا وادي المخارن للجهاد في سبيل الله، وتقاطر المسلمون من أنحاء المغرب للاشتراك في الدفاع عن حوزة الإسلام.

وهنا حاول الخائن المخلوع «محمد المتوكل» أن يخترق هذا التلاحم الإيماني؛ فكتب إلى أهل المغرب كتابًا يحاول فيه خديعتهم، وكان مما قال فيه: إني ما استنصرت بأهل العدوة ـ ولم يسميهم صليبيين للخداع ـ حتى عدمت النصرة من المسلمين؛ وقد قال العلماء إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقًا ما أمكنه؛ ثم ختم كتابه بتهديدهم قائلاً: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله»؛ فكيف كان رد أهل المغرب عليه؟

قام «عبد الملك السعدي» بإحالة رسالة الخائن المخلوع إلى علماء المغرب حتى يردوا عليها، فقاموا بالرد عليها رداً باهراً مؤيداً بالأدلة والبراهين التي دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه، وخيانته للإسلام والمسلمين، وهكذا يكون دور العلماء الربانيين في مواجهة شبهات المبطلين، وأكاذيب المروجين لأعداء الإسلام، وما أحوج أمتنا لمثل هذا الدور في أيامنا هذه التي كثرت فيها شبهات أعداء الإسلام.

• معركة الملوك الثلاثة:

أقبل «سبستيان» البرتغالي بجيش صليبي جرار يقدر بمائة وخمسة وعشرين ألفًا؛ منهم عشرون ألفًا من الإسبان، وثلاثة آلاف من ألمانيا وسبعة آلاف إيطالي، والباقي من البرتغاليين والأرمن ومعهم أربعون مدفعًا، وفي المقابل كان جيش المسلمين يقدر بأربعين ألفًا، ومعهم أربعة وثلاثون مدفعًا، ومعنوياتهم عالية جداً يقودهم «عبد الملك السعدي»، ومعه أخوه «أحمد» الملقب بـ«الذهبي»، وقد قَسَّمَ «عبد الملك» الجيش؛ فجعل المدفعية في المقدمة، ثم صفوف الرماة المشاة، وعلى الجانبين الرماة الفرسان، ثم جعل قوة احتياطية كبيرة من الفرسان للتدخل في الوقت المناسب.

نزل الصليبيون عند منطقة القصر الكبير، وخاف أهلها من سطوة الأعداء عليهم، واستبطئوا وصول جيوش المسلمين، وعزموا على الفرار خارج المدينة والتحصن بالجبال، ولكن قام أحد العُبَّاد المجاهدين وهو الشيخ «أبو المحاسن يوسف الفاسي» بتثبيت الناس حتى لا يهربوا، وخطب فيهم وحثهم على الثبات والجهاد في سبيل الله عز وجل، حتى قويت عزائمهم، وأصروا على البقاء والدفاع عن مدينتهم.

(وهذا يوضح أهمية وجود أمثال هذه العناصر المثبتة من العلماء والعُبَّاد الذين

يقودون الناس أوقات الأزمات والشدائد).

كان الأمير «سبستيان» رجلاً مغروراً متعصبًا لدينه ولرأيه، سريع الغضب، شديد الحقد، وتلك صفات جعلته لا يستمع لآراء قادة جيوشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال مدن «تطوان» و«العرايش» و«القصر»، وأصر على البقاء في معسكره بمنطقة «القصر الكبير» انتظاراً لقدوم جيوش المسلمين، وكان مما زاد في إصراره على البقاء انتظاراً لوصول المسلمين الرسالة الذكية التي استفز بها الأمير «عبد الملك السعدي» الأمير «سبستيان» عندما قال له فيها: إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، ولكن لا يليق أن تهجم على السكان العزل، وتخرب المدن الخالية من المقاتلين، فإن ثبت مكانك حتى آتيك بالجنود والسلاح فأنت نصراني شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب.

وفي صباح يوم الإثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ، وقف الجيشان في يوم مشهود من أيام الإسلام عامة والمغرب خاصة، ووقف السلطان «عبد الملك السعدي» خطيبًا في الناس مذكراً بوعد الله عز وجل للصادقين والمجاهدين بالنصر، وذكرهم بوجوب الثبات والانتظام، وذكرهم بحقيقة هامة جداً عندما قال: إن انتصرت الصليبية اليوم فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة، وقرأ آيات الجهاد، واشتاقت النفوس للشهادة، وفي المقابل لم يأل القسس والرهبان في إثارة حماس جنودهم مذكرين أن البابا قد أحلهم من أوزارهم وخطاياهم، وطهَّر أرواحهم من الدنس، وأن كل من سيموت في هذه الحرب سيدخل الجنة بلا شك!

انطلقت عشرات الطلقات النارية من مدافع الفريقين إيذانًا ببدء المعركة، وكان السلطان «عبد الملك» قد قام بخطة محكمة استدرج بها «سبستيان» لموقع القتال، وعزله عن أسطوله الرابض بالبحر المتوسط بعدما قام بهدم القنطرة الموجودة على نهر وادي المخازن، وهذا الأمر أفقده ميزة الانسحاب المنتظم عند الهزيمة.

احتدم القتال في أرض المعركة، والبطل الكبير قائد المسلمين «عبد الملك السعدي» يخترق الصفوف كالسهم وهو يقاتل قتال الأسود، وهو رأس حربة المسلمين في القتال يمهد لهم السبيل والطريق لاختراق صفوف الصليبيين، هذا كله رغم مرضه الشديد الذي كان يعاني منه منذ أن خرج من مراكش للجهاد، وهذا الإقدام والمباشرة للقتال بنفسه جعل علته تزداد عليه بشدة، حتى حملوه مدنفًا إلى خيمته وهو في النزع الأخير، وقد أصر هذا البطل الشجاع أن يعطينا درسًا في الحزم والشجاعة، حتى وهو يجود بروحه عندما فاضت روحه وهو واضع إصبعه على فمه إشارة لمن معه عند وفاته بألا يخبروا أحدًا من الجنود بوفاته؛ حتى لا تنهار معنوياتهم أمام عدوهم، وتولى القيادة مكانه أخوه الأمير «أحمد المنصور».

* قام البطل الجديد «أحمد المنصور» بقيادة الجيش، وقلبه مشحون بالغيظ والعزم على النصر، فصدم مؤخرة الجيش البرتغالي بمنتهى العنف، وأشعلوا النار في خيام معسكر الصليبيين، وانقضت كتيبة المجاهدين المتطوعين على فرق الرماة الصليبية، ففتكت بها فتكًا ذريعًا، واضطرب الجيش الصليبي بشدة، وبدأوا في الفرار من أرض المعركة إلى قنطرة نهر وادي المخازن لركوب الأسطول والفرار، ولكنهم فوجئوا بتهدمها؛ فوقفوا مصعوقين مذهولين ماذا يفعلون، فإذا بكتائب فرسان المسلمين من خلفهم؛ فقفز معظم الجيش الصليبي في النهر هربًا من سيوف المسلمين؛ فغرق معظمهم في مياه النهر الهادرة التي أصبحت قبرًا لهم، وكان على رأس من ابتلعتهم مياه النهر رمز الخيانة والغدر المخلوع «محمد المتوكل»، الذي لا تكفيه مياه كل الأنهار والمحيطات لتطهره من دنس خيانته، وخطيئته في حق دينه وأمته، أما الأمير «سبستيان» فقد نال جزاءه وقتل وألوف حوله للدفاع عنه، واستمرت هذه

المعركة أربع ساعات وثلث، وانتهت بفوز ساحق وباهر للإسلام وأهله، وقد مات في هذه المعركة ثلاثة ملوك؛ بطل مجاهد نحتسبه شهيداً وهو «عبد الملك السعدي»، وخائن مخلوع وهو «محمد المتوكل»، وصليبي حاقد وهو «سبستيان» ملك البرتغال.

أدت هذه المعركة الخالدة لتأمين حدود دولة الإسلام من ناحية الغرب، وسقط نجم نصارىٰ البرتغال في عالم البحار، واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، يقول المؤرخ البرتغالي «لويس ماريه» واضعًا نتائج المعركة: «وهو العصر النحس البالغ النحوسة ـ هذا الوصف لا يجوز شرعًا ـ الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانتهت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت نخوتهم وقوتهم، وخلفها الفشل الذريع، وانقطع الرجاء، وإضمحل الغنىٰ والربح، وهو ذلك العصر الذي هلك فيه «سبستيان» في القصر الكبير في بلاد المغرب.

تاريخ الدولة العثمانية	العثمانية
موسوعة التاريخ الإسلامي	أطلس تاريخ الإسلام
وادي المخازن	التاريخ الإسلامي
عوامل نهوض وسقوط الدولة	

المصادر

١. تاريخ الرسل والملوك — أبو جعفر محمد بن جرير الطبري — ط. دار المعارف

٢. الكامل في التاريخ — أبو الحسن علي بن الأثير — دار الكتب العلمية ط ١٩٩٣

٣. البداية والنهاية في التاريخ — عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير — دار الحديث ط ١٩٩٢

٤. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم — أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي — دار الكتب العلمية

٥. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر — عبد الرحمن بن محمد بن خلدون — مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

٦. مقدمة ابن خلدون — مطبعة مصطفى محمد — القاهرة

٧. تاريخ خليفة بن خياط — تحقيق د/ أكرم العمري — دار القلم

٨. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي — دار الكتب المصرية

٩. فتوح البلدان — أبو الحسن يحيى البغدادي — دار الكتب العلمية

١٠. تاريخ الخلفاء — عبد الرحمن السيوطي — دار المعرفة

١١. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا — تقي الدين أحمد بن علي المقريزي — المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

١٢. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب — أبو عبدالله محمد بن عذاري المراكشي — د ار الثقافة

١٣. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — شهاب الدين أحمد بن محمد المقري — بيروت

١٤. الحلة السيراء — تحقيق د/ حسين مؤنس — القاهرة ١٩٦٣

«المؤلف: أبو عبدالله القضائي»

١٥. **الإحاطة بأخبار غرناطة** لسان الدين بن الخطيب.

١٦. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان دار صادر بيروت.

١٧. **صفة الصفوة** ابن الجوزي دار الحديث

١٨. **سير أعلام النبلاء** الإمام شمس الدين الذهبي ط دار الرسالة

١٩. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** أبو الفلاح عبد الحي بن علي بن العماد دار المسيرة

٢٠. **بدائع الزهور في وقائع الدهور** ابن إياس الحنفي ط الذخائر ٣٩

٢١. **سيرة صلاح الدين** القاضي بهاء الدين بن شداد ط الذخائر ٨٢

٢٢. **الطبقات الكبرى** ابن سعد دار التحرير للطبع والنشر

٢٣. **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي

٢٤. **البرق الشامي** للعماد الأصفهاني دار الجيل

٢٥. **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر** مؤلف مجهول دار التراث

٢٦. **تاريخ دمشق** ابن عساكر

٢٧. **فتوح الشام** للواقدي

٢٨. **تاريخ بغداد** أبو بكر بن علي الخطيب البغدادي دار الكتاب العربي.

٢٩. **المعجب في أخبار المغرب** محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي

المراجع

١.القادسية وفتوح العراق	محمد أحمد باشميل	دار التراث
٢.دولة الإسلام في الأندلس	محمد عبدالله عنان	مكتبة الأسرة
٣.الدولة الأموية، ٢،١،	محمد الخضري	دار المعرفة
٤.الدولة العباسية	محمد الخضري	دار القلم
٥.الطريق إلى بيت المقدس، ٢،١،	د/ جمال عبد الهادي	دار الوفاء
٦.الدولة العثمانية	د/ علي الصلابي	مكتبة الصحابة
٧.عصر الدولتين الأموية والعباسية	د/ علي الصلابي	مكتبة الصحابة
٨.الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة	ندوة الشباب	
٩.مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام	محمد عبدالله عنان	مكتبة الأسرة
١٠.الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي	فريق من الباحثين	مكتبة علاء الدين
١١.أطلس تاريخ الإسلام	د/ حسين مؤنس	دار الزهراء
١٢.سيرة الخلفاء الراشدين	محمد محمد زيتون وآخرون	دار الوفاء
١٣.التاريخ الإسلامي، ٢٢ جزءا،	أ/ محمود شاكر	دار الكتب الإسلامي
١٤.موقف البيزنطيين والفاطميين من ظهور السلاجقة	د/ عبدالرحمن عبدالغني حوليات كلية الآداب جامعة الكويت	
١٥.دراسة لسقوط ثلاثين دولة	د/ عبدالحليم عويس	دار الوفاء
١٦.ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	أبو الحسن الندوي	دار الحديث
١٧.أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ	د/ إبراهيم علي شعوط	دار الشروق
١٨.تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي	د/ حسن إبراهيم حسن	مكتبة النهضة المصرية

١٩.تاريخ الدولة العلية	محمد فريد وجدي	دار النفائس
٢٠.الدولة العثمانية المفترى عليها	د/ عبد العزيز الشناوي	دار الوفاء
٢١.محمد الفاتح	د/ سالم الرشيدي	دار الإرشاد
٢٢.تاريخ الدولة العثمانية	د/ علي حسون	دار الوفاء
٢٣.أيعيد التاريخ نفسه	محمد العبده	المنتدى الإسلامي
٢٤.الغزو الفكري	شريف الزبيق وآخرون	دار الوفاء
٢٥.الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث	د/ إسماعيل أحمد	مكتبة العبيكان
٢٦.وادي المخازن	شوقي أبو خليل	دار الفكر
٢٧.الرحيق المختوم	المباركفوري	دار الكتب العلمية

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
١ ـ معركة ذي القصة ـ قتال مانعي الزكاة	١١
٢ـ معركة عقرباء ـ حديقة الموت	٢٠
٣ـ معركة ذات السلاسل ـ القتال حتى الموت	٢٨
٤ ـ معركة أليس ـ نهر الدم	٣٦
٥ ـ معركة عين التمر ـ أسرع هزيمة في التاريخ	٤٢
٦ ـ معركة أجنادين ـ أمير الدهاء	٥٠
٧ ـ معركة اليرموك [أعظم معارك الإسلام]	٥٨
٨ ـ معركة النمارق ـ ثورة الأسد	٧١
٩ ـ معركة البويب الطاحنة ـ انتقام الأسد الجريح	٧٧
١٠ ـ فتح مدينة دمشق ـ إسلام الشام	٨٧
١١ ـ معركة القادسية العظمى	٩٢
١٢ ـ فتح المدائن ـ الوعد الحق	١١٤
١٣ ـ معركة جلولاء ـ أرض الموت	١٢٢
١٤ ـ معركة نهاوند ـ فتح الفتوح	١٢٩

١٥ـ معركة وادي لكة ـ فتح الأندلس ١٣٨
١٦ـ معركة باب الشزري ـ أنشودة رولان ١٤٥
١٧ـ فتح المدينة المقدسة ١٥٣
١٨ـ فتح عمورية ـ معركة العزة الإسلامية ١٦١
١٩ـ معركة سومنات ـ فتح الهند الأعظم ١٦٩
٢٠ـ معركة ملاز كرد ـ سقوط الدولة البيزنطية ١٧٩
٢١ـ موقعة الزلاقة ـ أعظم معارك الأندلس ١٨٩
٢٢ـ تحرير إمارة الرها ـ كسر الصليب ٢٠٣
٢٣ـ معركة دمشق العظيمة ـ حصن الإسلام ٢١٥
٢٤ـ معركة حطين ـ بشارة الفتح الأعظم ٢٢١
٢٥ـ تحرير بيت المقدس ـ استعادة الكرامة ٢٣٧
٢٦ـ معركة الأرك ـ الأندلسية ٢٤٧
٢٧ـ معركة دمياط ـ حرب الثلاث سنوات ٢٥٧
٢٨ـ معركة فارسكور ـ الحملة الأخيرة ٢٦٧
٢٩ـ معركة عين جالوت ـ كسر التتار ٢٧٧
٣٠ـ معركة حمص الكبرى ـ عودة الوعي ٢٨٧
٣١ـ معركة كوسوفا ـ ذاكرة الصليب ٢٩٥
٣٢ـ معركة نيكوبلس ـ التحالف المقدس ٣٠٣
٣٣ـ موقعة فارنا ـ حزب الشيطان ٣٠٩

٣٤ ـ فتح القسطنطينية ـ الوعد الحق ٣١٧
٣٥ ـ معركة لوشة ـ الوهج الاخير ٣٣٣
٣٦ ـ معركة وادي موهاكس ـ سقوط حامية الصليب . . ٣٤٢
٣٧ ـ معركة وادي المخازن ـ الملوك الثلاثة ٣٤٩
المصادر ٣٦١
المراجع ٣٦٣
الفهرست ٣٦٥

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (مُنْتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

لتحميل انواع الكتب راجع: (مُنْتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

براي دانلود كتابهای مختلف مراجعه: (منتدى اقرا الثقافي)

www. Iqra.ahlamontada.com

منتدى إقراء الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

للكتب (كوردى ,عربي ,فارسي)

تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

هذا الكتـاب

بارقة أمل، ورسالة ثقة، وبعث جديد لأبناء هذه الأمة الذين تفتحت عيونهم على هزائم، وانتصارات، وواقع أليم مخضب بدماء المسلمين في شتى بقاع الأرض.

رسالة تعيد إليهم الذاكرة ،وتذكرهم بأمجاد هذه الأمة، حيث يرون أخلاء المسجد وأنضاء العبادة، وحفظة القرآن من سلف هذه الأمة ،ومن سار على دربهم من بعدهم لا يقنعون باستقلال بلادهم، ولا تحرير شعوبهم من الظلمات والشركيات ،ولكنهم يسيحون في أرجاء المعمورة، فاتحين ومعلمين يحررون الأمم بنور الإسلام، ، وهداية السماء، ويهدون البشرية الحائرة إلى سعادة الدنيا والآخرة، لا يخافون في الله لومة لائم، لا تردهم ضخامة جيوش ولا قوة عتاد ولا سلاح، ولا تحالف أعداء، ويخوضون معارك هي بمقاييس البشر خاسرة لا محالة فينتصرون ويفتحون البلاد ويفتح لهم المولى قلوب العباد، ليبعثوا لنا في النهاية برسالة واضحة نيرة في كيفية الانتصار.

المؤلف

دار الصفوة
للنشر والتوزيع
٤٢ سعد جزيرة بدران/ أول شبرا ت وفاكس ٥٧٧٤٩٢١
E.mail- darelsafwah@yahoo.com